خاطرات

جمال الدين الأفغاني الحسيني

تأليف

محمد المخزومي

دار الفكر الحديث . لبنان

خاطرات

جمال الدين الأفغاني الحسيني

تأليف

محمد باشا المخزومي

دار الفكر الحديث . لبنان

الطّبعة الثّانية

١٩٦٥ م – ١٣٨٥ هـ

مطابع دار الفكر بدمشق

« في هـدأة الليل ، وفي سبات الأمة الإسلامية العميق ، انبعث من بلاد الأفغان صوت ينـادي بفجر جديد ، صوت ينادي : حي على الفلاح فكان رجعه في كل مكان ، إنه صوت (جمال الدين الأفغاني) موقظ هذه الأمة إلى نهضة جديدة ويوم جديد » .

مالك بن نبي

شروط النهضة ص ٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مرة أخرى ، بعد حوالي سبعين عاماً من وفاة جمال الدين الأفغاني ، تجد « خاطراته » طريقها إلى أيدي قراء العربيـة في العالم الإسلامي ، فإذا بنا نرى المشكلات التي تناولتها هي نفسها المشكلات التي لا يزال العالم الإسلامي يعيشها اليوم، كأنه لم يتقدم خطوة في فهم عوامل تخلفه وانحطاطه .

وإنه لمؤسف حقاً أن يظل كثير من الشباب،ممن يعدون طلائع يقظة في العالم الإسلامي، لما تبلغ أسماعهم بعدُ ، صيحات الوعي التي انطلقت منذ فجر النهضة في أواخر القرن الماضي ، كأن يداً مغرضة تعمل في الخفاء ، لمنع أية ضجة قد تزعج « النائمين » فتنبههم من رقادهم .

نقول هذا لأن الأفغاني ليس بالرجل الذي يكون موضعه في تاريخ المسلمين،هو مايكتب عنه في كتب التاريخ المدرسية ، أو بعض كتب النصوص الأدبيـة ، أو تنشر له صورة متجهمة في بعض الصحف ، ثم لا تكون معرفة الجيل به ، إلا هذا فقط .

يقول مالك بن نبي(١) :

« ... لقد كان جمال الدين ـ إلى جانب أنه رجل [فطرة] ـ رجلاً ذا ثقافة فريـدة اعتبرت خاتمة عهد « رجل الثقافة والعلم » في العالم الاسلامي الحديث ، ولعل هذه الثقافة هي التي دفعت الشبيبة المثقفة على إثره في اسطنبول وفي القاهرة وفي طهران ، وهي الشبيبة التي سيكون من بينها قادة حركة الإصلاح .

لقد حاول المستشرق « جب » أن يشكك في مواهب هذا الرجل العقلية ، ولكن الذي لا شك فيه أنه أول من جرؤ منذ قرن على التحدث عن « الوظيفة الاجتماعيـة للأنبياء » في علم ساقط هو « علم ما بعد الموحدين » .

---

(١) في كتاب « وجهة العالم الإسلامي » ص ٥٠

واقد شاءت الأقدار أن تجعل من هذا الرجل في التاريخ الشاهد الصادق ، والحكم الصارم على مجتمع انتهى أمره في هدوء إلى الانحلال ، بينما أخذ الاستعمار يسيطر على أرضه . ويبدو أن الباعث الحقيقي الذي غرس في ضمير هذا الرجل إرادة إصلاح مجتمعة إنما هو ثورة « السيباي » التي أخمدت بالدماء ؛ لقد شهد جمال الدين في هذه المأساة مشهد الإفلاس الروحي والمادي في العالم الإسلامي ، وهو إفلاس استتبعه فشل تلك الثورة ، وأكدته في صورة ما حركة « عليكرة » التي ظهرت بالهند عقب تلك الأحداث الدامية، فكانت بمثابة خيانة للاسلام والمسلمين في نظر جمال الدين ، وبذلك أعلن على الفور الحرب ضد النظم البالية ، وضد الأفكار الميتة .

وكان هدفه الأول : أن يقوض دعائم نظم الحكم الموجودة آنذاك، كما يعيد بناء التنظيم السياسي في العالم الإسلامي على أساس « الاخوة الاسلامية » التي تمزقت في صفين ، وبددتها النظم الاستعمارية نهائياً ... »

« ... وأية كانت وجهة الأمر فإن دور جمال الدين لم يكن دور مفكر يتعمق المشكلات لينضج حلولها فإن مزاجه الحاد لم يكن ليسمح له بذلك لقد كان قبل كل شيء مجاهداً ، ولم تكن ثقافته النادرة سوى وسيلة جدليـة مهما هبطت أحياناً إلى مستوى الجماهير وأصبحت وسيلة نشاط ثوري .

لقد كان لهذا النشاط أهمية نفسية وأدبية أكثر من أن تكون له أهمية سياسية في العصر الذي كان يعيش فيه حين كان العالم الاسلامي غارقاً في خمود شامل وكان من فائدة هـذا النشاط أنه فجر المأساة الاسلامية في الضمير المسلم ذاته ولكن يبدو أن استيقاظ هذا الضمير بما احتوى من مأساة لم يكن جزءاً من خطة منهجية وضعها جمال الدين ...

بيد أنه إذا لم يكن جمال الدين قائداً أو فيلسوفاً للحركة الاصلاحية الحديثة فلقد كان رائدها حين حمل ما حمل من القلق ونقله معه أينما حل وهو القلق الذي ندين له بتلك الجهود المتواضعة في سبيل النهضة الراهنة ، وكان رائدها أيضاً حين جهد في سبيل إعادة التنظيم السياسي للعالم الاسلامي ، وإن كان قد قصد بذلك التنظيم : تنظيم جموع الشعب وإصلاح القوانين ، دون أن يقصد إلى إصلاح الانسان الذي صاغه عصر ما بعد الموحدين .

لقد أدرك جمال الدين بصادق فطنته ما أصاب مجتمعه من عفونة وفساد فاعتقد أنه بدلا من أن ينصرف إلى دراسة العوامل الداخلية التي أدت إلى هذا الوضع يستطيع أن يقضي عليه بالقضاء على ما يحيط به من نظم وقوانين ... »

ويقول محمد إقبال[1] :

« ... لعل أول مسلم أحس بإلحاح روح جديدة فيه شاه ولي الله الدهلوي، ولكن الرجل الذي أدرك تمام الادراك أهمية هذا العبء وفداحته وكان دقيق البصر بالمعنى العميق لتاريخ الفكر والحياة في الاسلام جامعـــاً إلى ذلك أفقاً واسعاً نشأ عن خبرته الواسعة بالرجال والاحوال، خبرة تجعل منه همزة الوصل بين الماضي والمستقبل، هو جمال الدين الأفغاني .ولو أن نشاطه الموزع الذي لم يعرف الكلال اقتصر بتمامه على الاسلام بوصفه نظاماً لعقيدة الانسان وخلقه ومسلكه في الحياة لو أنه اقتصر على ذلك لكان العالم الاسلامي أقوى أساساً من الناحية العقلية مما هو عليه اليوم ... »

والتنبيه الأخير [في هذه المقدمة التي كتبناها بأقلام أصدق شاهدي عدل في مثل هذا الموضوع الهام لجمعنا بذلك نقد الخبير وتقدير المخلص وهما ركنا الشهادة القائمة] ، هو أن لا يقف القارىء لهذا السفر العظيم موقف إنسان « ما بعد عهد الموحدين » من الأشياء والأفكار ، كما يقول مالك :

« ... أحكامنا بكل أسف لا تكشف في الغالب إلا عن تحديد عاطفي لموقفنا فنحن لا نحكم وإنما نأسى : نحن نكره ونحب ولا شيء غير هذا ... »[2]

فعسى ألاّ يكون موقف الشاب المسلم من هذا الكتاب صادراً من التزكية المقدسة التي يتسقطها من الشيخ، ولا من التنفير الذي يحمله ورثة أبي الهدى الصيادي .

دمشق ١ / ١ / ١٣٨٥
٢ / ٥ / ١٩٦٥

الناشر

---

(١) في كتاب « تجديد التفكير الديني في الإسلام » ص ١١١ .

(٢) وجهة العالم الإسلامي لمالك بن نبي ص ١٠٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بعث في كل أمة نذيراً ، وأرسل خاتم النبيين محمداً سراجاً منيراً ، وأنزل عليه « وَمَنْ يُؤْتَ الحِكمةَ فقد أوتِيَ خيراً كثيراً » والصلاة والسلام على سائر الانبياء والمرسلين هداة الخلق إلى الحق وعلى آلهم وصحبهم أجمعين .

تمهيد

إن هذا الكتاب (خاطرات جمال الدين الافغاني) قد كتبت مواضيعه في دور السلطان عبد الحميد ، ما بين سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م ، إلى سنة ١٣١٤ هـ - ١٨٩٧ م ، على كمال الاحتراز ، بل الخوف من شدة المراقبة ، ووفرة الجواسيس ، وكثرة الافتراء في ذلك الزمن على الأبرياء خصوصاً على السيد جمال الدين ، وعلى من كان يكثر الاجتماع عليه ، أو يدخل بيته .

فالمطالع له الآن ربما لا يرى فيه كبير أهمية ، ولكن إذا أرجع النظر إلى ما قبل أكثر من ثلث عصر ، وإلى أن مواضيعه تحررت في الأستانة ، وأن تلك الأفكار ، والاقوال لم تحور ، ولم يطرأ عليها أدنى تغيير ، يعلم خطر أمرها . كذلك لا بد للمطالع أن يرى مواضيع الكتاب غير متسلسلة والسبب في ذلك أنها لم تكن في موضوع أو مطلب واحد ، بل هي أحاديث بعضها بني على الحوادث ، وبعضها أتى على سبيل السؤال والاستفهام ، والبعض الآخر على سبيل الجدل مع آخر ، ومنها ما هو عفواً وبغير مقدمة . فأثبتنا الجميع على علاتها وكيفية صدورها .

على أثر إعلان الدستور العثماني توهم كثير من أصدقائي الذين يعلمون بوجود (خاطرات جمال الدين) أن الزمان قد حان ، وآن أوان نشر الكتاب بعد ذلك الطي والخفاء .

وأتتني عدة رسائل من إخواني في مصر ، وممن لا معرفة بيني وبينهم من أنحاء الهند يستحثونني على سرعة طبع الكتاب ، فما كدت أن أباشر الطبع إلا ورأيت في مقال جمال الدين تحت عنوان « الأحزاب في الشرق » ماينطبق على حال رجال جمعية الاتحاد والترقي من أثرة ، وأنانية ، وكذب الأماني التي منوا الأمة بها وذهبت هباء منثوراً .

فرأى لفيف من الأصحاب خطراً على الكتاب أن يعدم ، وعلى المنتظر أن يحرم ، فرأينا التأجيل للوقت الأنسب أولى ، والسلامة أدعى .

مرت سنون ونحن على طبع الكتاب بين إقدام وإحجام حتى كانت سنة (١٣٢٩ هـ — ١٩١٢ م) إذ أعادت الأصدقاء الكرة في مقدمتهم بعض أرباب الصحف الأفاضل يطلبون نشر الكتاب .

فنشطنا لتلبية الطلب ونشرنا فهرست الكتاب مطبوعاً ؛ وما فرغنا من إذاعته إلا وجو السياسة أخذ يتعكر صفاؤه ، وتخاوف بعض كبار موظفي الاتحاديين أخذت تبدو من مواضيع كتاب يعلمون حقيقة أنه لم يقصد به تقريع أشخاص أو تقبيح أعمال هيئات ، أو ثلب حكومة ما . ثم أعقب ذلك شبوب الحرب الكونية ، فاحتلال الحلفاء البلاد ، ثم تقطيعها إلى دويلات .. الخ . فاضطررنا أيضاً بحكم تلك العوامل أن نرجىء النشر ولكن ليس إلى يوم النشر .

والسبب الذي حمل على تدوينها هو أن المرحوم السيد جمال الدين بعد مقدمه الأخير للاستانة أو استقدامه اليها من عاصمة الانكليز أوائل عام ١٣١٠ هـ . ومكثه فيها إلى أن توفاه الله لم يكن له من الآثار مطبوعاً أو غير مطبوع[1] يجمع ما كان يجول في نفسه من تلك المخدرات من معاني الحكمة التي نزلت عليها آية الحجاب في تلك الديار وما لاقاه ، مع شدة عارضته ، وقوة عزمه ، وعدم مبالاته في القهر ، ومناهضته المتغلبة من الحكام ، وتحمل الجور منهم

---

(١) نعم ترك رسالة في « نفي مذهب الدهريين » كتبها في الهند وقد أدرجناها برمتها في آخر هذا الكتاب .

في سبيل نهضة الشرق ، وما كان يرمي اليه من سامي الغرض في طلب الحرية الحقيقية وإعطاء العدل حقه ، بالتوزيع بين طبقات النوع الانساني .

فكنت من يوم وفد على القسطنطينية ألزمَ له من الظل في عزلته ، سهّل ذلك علي ميله رحمة الله عليه ، وقرب الدار والجوار (في محلة نيشا نطاش) فكاشفته بلزوم تدوين ما عمله، وما تمكنه سرائره من الحكمة ، ونافذ النظر وثاقب الرأي لنفع النوع .

فكانت تلك الرغبة مني في بداية الأمر لا يبالي بها كثيراً ، ولا يتلقاها لقاءً حسناً ، ولكن في الأخير رأى في طلبي حقاً ، ولمح منه للشرق وأهله نفعاً ، فقبل أن يؤخذ عنه وأجاز بقوله : سل ما تريد يا شيخ بني مخزوم واكتب ما تسمع واحفظ ماتراه ، وقبل كل شيء ألفت نظرك لأمر ربما أنت ملاقيه فخذ له من الحذر عدة ، ومن التحمل درعاً ، إذا سلمتَ في كتابة خاطراتي من خطر الطاغية[1] وطواغيته — يعني جواسيس السلطان عبد الحميد — فستصادف من أهل الجمود عنتاً وتخرصاً ، وقلباً للحقائق فلا تبالِ بهم ، فما خلا الكون منهم يوماً ليخلو زمنك ، ولا نجا منهم مخلص لتنجو أنت ؛ ولسوف تعثر بأناس ديدنهم التنقيد لا حباً بتمحيص الحقيقة واستجلائها وإنما دأبهم وما يرمون اليه أن يقال : قام فقال ، وانتقد واعترض ، فمثل هؤلاء ربما يخدمون الحق ، وينشرون الفضيلة من حيث لا يريدون ولا يشعرون فأعرض عنهم وقل لهم سلاماً . انتهى قوله بالحرف .

(١) وهو لقب ملك الروم .

مقدمة المؤلف

قبل الدخول في ترجمة حياة جمال الدين المدونة في متفرق المطبوعات أقول ما اختبرته بالذات : انه رحمة الله عليه كان غير مغرور بنفسه كثير الاستخفاف بكل من كان يخاطبه : بدولتكم ، أو سماحتكم ، او كان يطريه بالفلسفة ، والتبريز بالحكمة ، والتفرد بالخطابة واحتقار الموت وغير ذلك مما هو متصف به حقيقة من المزايا والصفات العالية ، وكان يقول : يهمني أن أصل من كل هذه الصفات للطمأنينة القلبية فقط أنني استطعت في حياتي أن قلت الحق ولم أكتمه لارغبة ولا رهبة بل جاهرت به ، وأني بلغت من الشجاعة مرتبة فعلتُ معها بعض ما أقول .

وقد ذكرت له يوماً أن بعض أصدقائي [1] من محبيه على البعد يرغبون في الحصول على ترجمة حاله ليزينوا — على اصطلاح أرباب الصحف — أعمدة جرائدهم بها .

فابتسم السيد وقال :

إن العيان لايحتاج الى ترجمان . قل لهم ماقاله فلان عني ، وكان داء الحسد من المعاصرين قد تفشى ، خصوصاً بعد إقبال جلالة السلطان عبد الحميد عليه ، واحتفائه به ، فأحبوا أن يضعوا من قدر جمال الدين فقالوا عنه انه « سرسري » يعني متشرد ، تائه في الارض . وهذا مايعنيه بالقول عنه .

فقلت لاينبغي للاستاذ الحكيم ان يضن على أهل عصره بما ينفعهم ولايضره . قال :

---

(١) وهو المأسوف عليه صديقنا جرجي زيدان صاحب مجلة الهلال وكان طلبه هذا على خلاف ما اعتادته مجلته اذ كانت لاتنشر الا تراجم مشاهير الرجال بعد وفاتهم — وهكذا جرى وقد بعثت له بترجمة جمال الدين بعد وفاته كما سيأتي ذلك اذ لم يتيسر لي إرسالها وهو حي أما الهلال فلم ينشر الترجمة كما بعثتها بل نشر قسما وأغفل قسما وقد أتينا على السيرة بتمامها.

وأي نفع لمن يذكر أنني ولدت سنة ١٢٥٤ هـ ، وعمرت أكثر من نصف عصر ، واضطررت لترك بلادي « الافغان » مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض ، وأكرهت على مبارحة الهند ، وأجبرت على الابتعاد عن مصر ، أو إن شئت قل نفيت منها ، ومن الأستانة ، ومن أكثر عواصم الارض . كل هذه الاحوال — خاطرات (١) — لاتسرني وليس فيها أدنى فائدة للقوم .

اما القول بأنها لاتسرني ، لابمعنى أني نفيت من البلاد ، او سجنت كلا لأني أعتقد ان السجن بطلب الحق من الظالمين العتاة «رياضة» ، والنفي في ذلك السبيل « سياحة » ، والقتل « شهادة » وهي أسمى المراتب .

فانا عن نفسي غير راض ذلك لان الحول قد قعد بي فلم يوصلني الى أسمى مرتبة وهي مرتبة الشهداء ، وحطني في مصاف المنفيين من أرض إلى أرض والمسجونين فيها ، فما أبعدني في كل هذا عن أولي الهمم ، ومن قام بالاعمال الخطيرة « او المطلب الجلل » اهـ

---

(١) كنت سميت هذا الكتاب بعد ان أخذت بتحريره (جمال الدين الافغاني في البلاط السلطاني) : فلما سمع مني هذا وانه عنوان للكتاب نفر قائلا : ان هذا العنوان ليس لهذا المقال بطبيق . قل «خاطرت» ولا ترد. فأجبت اني افعل . ولكن نبهني الى كلمة «خاطرات» احد الاصدقاء — وهو من المنهمكين في قواميس اللغة — اذ قال لايصح ان تجعل عنوان ذلك الاثر المفيد مما تنتقده أهل اللغة لان خاطرات لم ترد بالمعنى الذي تريده من جمع وكتابة آراء وأفكار جمال الدين ، والاقرب للصواب ان تقول (خواطر) ولا أن تقول (خطرات) لانها تفيد الوساوس . فلما كاشفت جمال الدين بذلك تبسم وقال : رحم الله الفيروز آبادي حيث قال (خذوا لغتكم من أعجمي) . ورحم الله الفرزدق ، وجرير ، والحطيئة حيث قالوا : للمتهوسين بالمتعامل المشهور ، القائم مقام ضوابط وقواعد اللغة وآلاتها ، من صرف ونحو اليوم — (علينا ان نقول وعليكم أن تتقولوا) . قال : ويعجبني أحدهم إذ مضى بانشاد قصيدته على مسمع من معارضه ومهاجيه ، فاورد ذكر الجمل مكان الناقة فقال معارضه : استنوق الجمل . ثم ذهب مهرولاً . ذلك شأن أساطين اللغة في إبان شبابهـا ، وزهوها ، ونضارة بلاغتها . فقل (خاطرات) ولاتبال بمن فسد لسانهم ولايصلحون الا إلى الاجوف ، والمهموز . ولا يحسنون جملة تنفر حبة القلب او تطرب السمع ، انتهى — فعملنا بقوله رحمه الله وعنونا الكتاب كما ترى « بخاطرات » .

وقد عرف جمال الدين بكثرة أخذه بالقياسي ونفوره من التقيد بالسماعي وسيأتي في غير هذا الموضع قوله يوماً : « سياسة بفروتية في مملكة رعونية » ولما قيل له في ذلك قال : كيف صح قولهم ملكوت وجبروت هكذا يصح عندي « بفروت » والسلام .

مع أن جمال الدين رحمة الله عليه لم يترك عملاً من الاعمال الخطيرة لخير النوع الانساني عموماً ، والشرقيين خصوصاً ، الا واقتحمه ، بيسالة كادت ان تخرجه عن الهيئة المتوسطة ، وتتجاوز به فضيلة الشجاعة الى نقيصة التهور ، وكان على علاته حكيماً خطيباً ، قوي الذاكرة ، وكان في ذاكرته سريع الحفظ ، سريع الذكر ، بطيء النسيان . وانه ليذكر خطاباً ألقاه ارتجالاً ، أو مقالاً أملاه أو كتبه من سنين بالحرف الواحد ، وكأنما يتلوه من كتاب ، شديد البعد عن التعصب ، نفوراً منه. وان ذكر المسلمين في أكثر مقاله ، ذلك لانهم العنصر الغالب بأكثريته في الشرق ، والملة المسلوبة ممالكها ومقاطعاتها . ولهذا أكثر من إيقاظهم ، وتنبيههم وتقريعهم ، والا فهو أكثر الفلاسفة توسعاً بمعنى المساواة ، وميلاً للعمل بها فعلاً بين نوع الانسان ، خصوصاً في الحقوق العمومية التي لايصح لها معنىً الا بالحرية المعقولة . يهمه الشرق والشرقيون على السواء ، وبدون استثناء ، مهاباً أكثر مما هو محبوب لاول نظرة ، شجاعاً ، جريئاً ، كريماً لحد الاسراف ، متواضعاً مع الوسط ومن دونهم لدرجة الذل ، متكبراً على الملوك والعظماء لحد التجبر ، حادالذهن ، قوي الحجة ، نافذالنظر ، يجذب مخاطبه اليه ، ويرضخه لبرهانه ، ولو لم يكن ساطعاً ، له أسلوب خاص في المقدمات تأتي نتائجها بطبعها ، عظيم النفس ، كبير الهمة ، محب لخير البشر ، يحمل كل من خاطبه على العظائم ، ويذلل لديه المصاعب ، صحيح العقيدة ، مؤمناً بالالوهية ، شديد التمسك بحكمة الدين ، نفوراً من التقليد في المذهب ، «مجتهداً» وله في اجتهاده بعض الغرابة لمخالفته المألوف ، من جهة التفسير يقدم حيث يحجم الناس ، ويتكلم حيث يسكتون رغبة او رهبة ، متسرعاً ببادرات ذهنه ، وأكثر آرائه ، يتعذر غالباً إقناعه جدلاً ، لاسلوبه الخاص في إبطال الحجة عليه أو التخلص منها ، غير مكابر بالاجمال ، وكثيراً ماأعطى خصمه الحق ، بعد ان يفحمه ، وينبهه ويدله على ما أغفله من الحجج أثناء الجدل ، ولكن كان لايخلو من الحدة لمزاجه العصبي .

سيرة جمال الدين

هو السيد محمد جمال الدين ابن السيد صفتر ، من بيت عظيم في بلاد الافغان ، ينمى نسبه الى السيد علي الترمذي المحدث المشهور ، ويرتقي الى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد ، تقيم في خطة (كنر) من أعمال كابل ، تبعد عنها مسيرة ثلاثة ايام ، ولهذه العشيرة منزلة علية في قلوب الافغانيين ، يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف وكانت لها سيادة على جزء من الاراضي الافغانية ، تستقل في الحكم فيه ، وانما سلب الامارة من أيديها ، دوست محمد خان ، وأمر بنقل السيد جمال الدين وبعض أعمامه الى مدينة كابل .

أما ترجمة حياته ، فأصدق من أحاط بها ، عن طول خبرة وحسن صحبة ، هو الاستاذ المحقق المرحوم الشيخ محمد عبده . وسنذكر ما قاله ونضيف اليه ماعلمناه وأغفله هو وغيره من المترجمين ، إما رعاية للزمن ، او لحكم السياسة . فما قاله :

يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل مارأيناه من تخالف الناس في أمره وتباعد مابينهم في معرفة حاله ، وتباين صوره في مخيلات اللاقفين لخبره ، حتى كأنه حقيقة كلية تجلت في كل ذهن بما يلائمه ، او قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله . والرجل في صفاء جوهره ، وذكاء مخبره لم يصبه وهم الواهمين ولم يمسه حزر الخراصين .

ولد السيد جمال الدين في قرية (أسعد آباد) من قرى كنر سنة ١٢٥٤ هـ ١٨٣٩ م . وانتقل بانتقال أبيه الى مدينة كابل ، وفي السنة الثامنة من عمره أجلس للتعليم وعني والده بتربيته ، فأيد العناية به ، قوة في فطرته ، وإشراق في قريحته ، وذكاء في مداركه فأخذ من بدايات العلوم ولم يقف دون نهاياتها .

تلقى علوماً جمة برع في جميعها ، فمنها : العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان ، وكتابة ، وتاريخ عام وخاص ؛ ومنها علوم الشريعة من تفسير ، وحديث ،

وفقه ، وأصول فقه ، وكلام ، وتصوف ؛ ومنها علوم عقلية ، من منطق وحكمة عملية سياسية ، ومنزلية ، وتهذيبية ، وحكمة نظرية طبيعية وإلهية ، ومنها علوم رياضية ، من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك ؛ ومنها نظريات الطب والتشريح .

أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد وعلى مافي الكتب الاسلامية المشهورة ، واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من عمره .

ثم عرض له سفر إلى البلاد الهندية فأقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الأوربية الجديدة . وأتى بعد ذلك إلى الأقطار الحجازية لاداء فريضة الحج ، وطالت مدة سفره اليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر حتى وافى مكة المكرمة في سنة ١٢٧٣هـ فوقف على كثير من عادات الامم التي مرّ بها في سياحته ، واكتنه أخلاقهم وأصاب من ذلك فوائد غزيرة ، ثم رجع بعد أداء الفريضة إلى بلاده ودخل في سلك رجال الحكومة على عهد الأمير دوست محمد خان المتقدم ذكره .

ولما زحف هذا الأمير إلى (هراة) ليفتحها ويملكها على سلطان أحمد شاه صهره وابن عمه ، سار السيد جمال الدين معه في جيشه ، ولازمه مدة الحصار ، إلى أن توفي الامير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمناً طويلا . وتقلد الامارة ولي عهده شير علي خان سنة (١٢٨٠ هـ ١٨٦٤ م) وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان أن يقبض على إخوته ، خصوصاً من هو أكبر سناً منهم ويعتقلهم ، فان لم يفعل سموا بالناس إلى الفتنة ، وألبوهم للفساد طلباً للاستبداد بالامارة . وكان في جيش هراة من إخوة الأمير ثلاثة : محمد أعظم ، ومحمد أسلم ، ومحمد أمين ، فانتصر السيد جمال الدين لمحمد أعظم فلما أحسوا بتدبير الأمير ومشورة الوزير أسرعوا إلى الفرار ، وتفرقوا إلى الولايات كل منهم ذهب إلى ولايته التي كان يليها من قبل أبيه ليعتصم بمنعته فيها ، وطاشت بهم الفتن ، واشتعلت نيران الحروب الداخلية وبعد مجادلات عنيفة ، عظم أمر محمد أعظم وابن أخيه الأمير عبد الرحمن وتغلب على عاصمة المملكة ، وأنقذا محمد أفضل والد عبد الرحمن من سجن (قزنة) وسمياه على أفغانستان ، ثم أدركه الموت بعد سنة ، وقام على الامارة بعده شقيقه محمد أعظم خان ، وارتفعت منزلة السيد جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الأول ، وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرأيه في

المظالم وما دونها — على خلاف ما تعوده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكوماتهم — وكادت تخلص حكومة الأفغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الامير ، بالاغلب من ذوي قرابته ، ذلك ما حمله على تفويض مهمات من الاعمال إلى أبنائه الأحداث وهم خلو من التجربة ، عراة من الحنكة ، فساق الطيش أحدهم ، وكان حاكماً في (قندهار) على منازلة عمه شير علي في هراة ، ولم يكن له من الملك سواها ، فظن الفتى أنه يظفر ، فينال عند أبيه حظوة فيرفعه على سائر إخوته ، فلما تلاقى مع جيش عمه ، دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه في مائتي جندي ، واخترق بها صفوف أعدائه ، فأوقع الرعب في قلوبهم وكادوا ينهزمون ، لولا ماالتفت يعقوب خان قائد شير علي فوجد ذلك الغر المتهور منقطعاً عن جيشه ، فكر عليه وأخذه أسيراً ، فتشتت جند قندهار ، وقوي جند شير علي ، فحمل على قندهار واستولى عليها ، وعادت الحرب إلى شبابها وعضد الانكليز شير علي ، وبذلوا له قناطير من الذهب ففرقها في الرؤساء والعاملين لمحمد أعظم ، فبيعت أمانات ونقضت عهود ، وجددت خيانات ، وبعد حروب هائلة تغلب شير علي ، وانهزم محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن ، فذهب عبد الرحمن إلى بخارى ، وذهب محمد أعظم إلى بلاد إيران ، ومات بعد أشهر في مدينة (نيسابور) وبقي السيد جمال الدين في كابل لم يمسسه الامير بسوء ، احتراماً لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه ، حمية لآل البيت النبوي ، إلا أنه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به ، والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله ، ولهذا رأى السيد جمال الدين خيراً له أن يفارق بلاد الافغان فاستأذن للحج ، فأذن له على شرط أن لايمر ببلاد إيران كيلا لا يلتقي فيها بمحمد أعظم ، وكان لم يمت ، فارتحل على طريق الهند سنة (١٢٨٥ هـ ١٨٦٩ م) بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر .

تركه بلاد الأفغان ومجيئه إلى الهند :

وكان شديد الرغبة في الاقامة في الهند بغير ظهور ، فراسل أحد أصحابه من تجار الافغان هناك أن يكون ضيفه على أبسط حالات الضيف والمضيف . ولكن شدة تيقظ رجال

الانكليز ، لكل حادثة تحدث خصوصاً في الافغان إذ ذاك ، حالت دون رغبة جمال الدين في أن يأتي إلى الهند على مايرومه من شكل البساطة ، ومخالطة طبقات الهنود ، لذلك كان اندهاش جمال الدين عظيما ، إذ رأى أن الحكومة الهندية تستقبله على الحدود استقبالاً فخماً رسمياً ، وليس عليه أدنى صفة تستلزم ذلك المظهر الرسمي ، خصوصاً وانه لم يرَ بين ذلك الجمهور أحداً من معارفه ، ولا من استضافه وهو ذلك التاجر البسيط الأفغاني ، فقابل تلك الحفاوة بقوله : « مأرب ، لاحفاوة من كريم » .

ولم يسع جمال الدين في ذلك الموقف الا أن يشكر رجال الحكومة الهندية على احتفائهم به، وطلب أن يذهب إلى بيت صديقه التاجر ، فأجابوه : « أن الحكومة قد أعدت له نزلاً لا يمكن أن يتخلف عنه لسواه » فرضخ إلى ذلك اللطف إذ علم أن العنف لايجدي نفعاً مع الضعف .

وأول سؤال ألقي على جمال الدين من الحكومة : ما هو الزمن الذي يريد أن يقيم فيه في الهند ؟ قال لا أكثر من شهرين ، فقبلت ذلك الحكومة ، ووضعت من موظفيها أشخاصاً يسألون كل زائر عن غرض زيارته وما يريد أن يقوله .

فجاء في اليوم الأول عشرات تمكن المراقبون من أن يسمعوا ما قالوه وما أجاب به جمال الدين ، وفي اليوم الثاني أصبحت العشرات مئات ، وفي الثالث والرابع وفدوا جماهير ، وما أتم الاسبوع حتى ارتجت أقطار الهند ، وهرعت أكابر علمائها وراجاتها ، وغصت الساحات بالوفود ، وبينهم من ليس باستطاعة الحكومة الهندية أن تمنعه من الاجتماع مع جمال الدين، ولا يمكنها بذات الوقت أن ترصد مئات من المراقبين يحضرون ويسمعون مايدور بين الزائر والمزور .

مقالته لعلماء الهند وعظمائها قبل مبارحتها :

ولما ضاقت الحكومة الهندية بذلك ذرعاً ، جاء عظيم من مأموريها إلى جمال الدين ، وعنده أكابر من الراجات والعلماء ، فخاطب جمال الدين قائلا :

إن الحكومة الهندية كانت تساهلت معكم للاقامة نحو الشهرين ولكنها ارتأت أن تتقدم اليكم اليوم بأن حالة البلاد لا تساعد على بقائكم أكثر مما مكثتم .

فأراد الحاضرون أن يحتجوا على هذا الإنذار ، وعلت وجوههم أسارير الغضب ، فأومأ جمال الدين بيده اليهم ، طالباً سكوتهم وحال بينهم وبين رجل الحكومة قائلا :

إنني ما أتيت إلى الهند لأخيف حكومة بريطانيا العظمى ، ولا أنا على استمداد اليوم لأحدث شغباً عليها ، ولا لأنتقد شيئاً من أعمالها ؛ ولكن تخوفها من زائر أعزل مثلي ، ومصادرتها لزائرين هم أضعف مني يسجل على حكومة بريطانيا وهن عزيمتها ، وضعف شوكتها ، وقلة عدلها ، وعدم أمنها من حكمها ، وأنها في حقيقة حكمها لهذه الاقطار الشاسعة الواسعة أضعف بكثير من شعوبها .

ثم التفت إلى زائريه وقال : يا أهل الهند ! وعزة الحق ، وسر العدل ، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات من الملايين « ذباباً » مع حاميتكم البريطانيين ، ومن استخدمتهم من أبنائكم لحملتهم سلاحها لقتل استقلالكم ، واستنفاد ثروتكم — وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الالوف — لو كنتم أنتم مئات الملايين كما قلت ذباباً!! لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ويجعل في آذان كبيرهم المستر (غلادستون) وقراً .

ولو كنتم أنتم مئات الملايين من الهنود ، وقد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفة (سلحفاة) وخضتم البحر ، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجررتموها إلى القعر وعدتم إلى هندكم أحراراً .

فما أتم جمال الدين كلامه حتى أذرف الحاضرون الدموع . فقال إذ ذاك بصوت عال : اعلموا أن البكاء للنساء ، والسلطان محمود الغزنوي ما أتى إلى الهند باكياً بل شاكياً للسلاح ، ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل الاستقلال بثغر باسم .

ونهض مسرعاً مع رجل الحكومة ، لكي يذهب معه حيث شاء فقال له : مهلا الآن فموعد السفر غداً .

قال جمال الدين : إلى أين تريدون أن أذهب ؟ قال : إلى حيث تشاء بعد أن تبارح الهند.

مجيئه لمصر ومبارحتها إلى الاستانة لاول مرة :

وفي الصباح سيرته من هناك في أحد مراكبها ، على نفقتها إلى السويس ، فجاء إلى مصر وأقام بها نحو أربعين يوماً ، تردد فيها على الجامع الأزهر ، وخالطه كثيرٌ من طلبة العلم السوريين ، ومالوا اليه كل الميل كما مال اليهم، وسألوه أن يقرأ لهم شرح الإظهار ، فقرأ لهم بعضاً منه في بيته ، ثم تحول عن الحجاز عزمه وتعجل بالسفر إلى الاستانة .

وصل الاستانة وبعد أيام من وصوله أمكنته ملاقاة الصدر الاعظم عالي باشا ، فنزل منه منزل الكرامة ، وعرف له الصدر فضله وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله، وهو مع ذلك بزيه الافغاني — قباءً ، وكساءً ، وعمامة عجراء — وحومت عليه لفضله قلوب الامراء والوزراء وعلا ذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه ، ودينه وأدبه وهو غريب عن أزيائهم ، ولغتهم ، وعاداتهم .

وبعد ستة أشهر سمي عضواً في مجلس المعارف ، فأدى حق الاستقامة في آرائه، وأشار إلى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب اليها رفقاؤه ومنها ما أحفظ عليه قلب شيخ الاسلام لتلك الاوقات « حلمي فهمي أفندي » لأنها كانت تمس شيئاً من رزقه ، فأرصد له العنت حتى كان رمضان سنة (١٢٨٧ هـ - ١٨٧١ م) فرغب اليه مدير دار الفنون « تحسين أفندي » أن يلقي فيها خطاباً ، للحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه في اللغة التركية ، فألح عليه ، فأنشأ خطاباً طويلا كتبه قبل إلقائه ، وعرضه على وزير المعارف صفوت باشا ، وعلى مشير الضابطة « شرواني زاده » وعلى « منيف باشا » - وكان من أركان الدولة وعضواً في مجلس المعارف - فاستحسنه كل منهم وأطنب في مدحته .

فلما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب ، تسارع الناس إلىدار الفنون واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة ، وأعيان أهل العلم ، وأرباب الجرائد وحضر في الجمع معظم الوزراء .

فصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة ، وألقى ما كان أعده ببلاغة سحرت عقول السامعين فأرسل حسن فهمي أفندي « شيخ الاسلام » أشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة تمكنه من التمثيل به وما كان يجدها لو طلب حقاً ، ولكن كان الخطاب

في تشبيه المعيشة الانسانية ببدن حي ، وان كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن ، تأتي من المنفعة في المعيشة مايؤديه العضو في البدن .

فشبه الملك مثلاً بالمخ الذي هو مركز التدبير والارادة ، والحدادة بالعضد ، والزراعة بالكبد ، والملاحة بالرجلين ومضى في سائر الصناعات والاعضاء حتى أتى على جميعها ببيان ضافٍ وافٍ .

ثم قال: هذا ما يتألف منه جسم السعادة الإنسانية ، ولا حياة لجسم إلا بروح ، وروح هذا الجسم ، « إما النبوة » وإما « الحكمة » ، ولكن يفرق بينهما ، بان النبوة منحة إلهية لاتنالها يد الكاسب بل يختص الله بها من يشاء من عباده والله أعلم حيث يجعل رسالاته ، أما الحكمة فمما يكتسب بالفكر ، والنظر بالمعلومات ؛ وبأن النبي معصوم من الخطأ ، والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه ، وبأن أحكام النبوات آتية على مافي علم الله ، لايأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها فالأخذ بها من فروض الايمان ، أماآراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها ، إلا من باب ما هو الاولى والافضل على شرط أن لايخالف الشرع الالهي .

ما جرى له في الاستانة مع شيخ الإسلام وإخراجه منها :

هذا ماذكره متعلقاً بالنبوة ، وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الاسلامية ، إلاّ أن حسن فهمي أفندي ، أقام من الحق باطلاً ، ليصيب غرضه من الانتقام ، فأشاع أن السيد جمال الدين زعم أن النبوة « صنعة » واحتج لتثبيت الاشاعة بانه ذكر النبوة في خطاب يتعلق بالصناعة ـ وهكذا تكون حجج طلاب العنت ـ ثم أوعز إلى الوعاظ في المساجد أن يذكروا ذلك محفوفاً بالتفنيد والتنديد .

فاهتم السيد جمال الدين للمدافعة عن نفسه وإثبات براءته مما رمي به . ورأى أن ذلك لايكون الا بمحاكمة شيخ الاسلام ـ وكيف يكون ذلك ؟ ! ـ واشتد في طلب المحاكمة ، وأخذت منه الحدة مبلغها ، وأكثرت الجرائد من القول في المسألة ، فمنها نصراء للسيد جمال الدين ، ومنها أعوان لشيخ الاسلام . فأشار بعض أصحاب السيد عليه ، أن يلزم السكون ،

ويخضي على الكريهة ، وأن طول الزمن ، يتكفل باضمحلال الاشاعات وضعف أثرها ، فلم يقبل ، وألح في طلب المخاصمة ، فعظم الأمر لدرجة خشي معها الصدر الاعظم على حياته وحياة جمال الدين معاً فأصدر أمره اليه « مكرهاً » بالجلاء عن الاستانة بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ، ثم يعود إن شاء ، معترفاً عالي باشا له بفضله ، آسفاً على انحطاط أهل الجمود عن فهم الحقائق ، عالماً أن حركة حسن فهمي أفندي في مقاومة جمال الدين إن هي الا مقاومة لعالي باشا الذي نظر لجمال الدين نظرة كان يرجو معها أن يحله محل شيخ الاسلام لو سمح استعداد المحيط، وقابلية القوم اذ ذاك. ولكن دهاء حسن فهمي أفندي أحبط مسعى عالي باشا ، فأهاج رأي « السفطاء » طلبة العلم واستهوى العوام من أهل الجمود ، حتى أكره الصدر الاعظم على إصدار أمر جلاء جمال الدين عن الاستانة كما سبق .

أما السيد ففي آخر يوم اضطر فيه أن يبارح الاستانة منفياً ، أتاه عدة أفراد من العلماء المتنورين يعلنون له أسفهم ، وعدم رضاهم عن خطة شيخ الاسلام ، حتى إن أحدهم وهو من كبار المدرسين اشتط في خطابه ، وتجاوز في الطعن على حسن فهمي أفندي وأعوانه إلى ماسي كرامة الدين. فوقف عند ذلك جمال الدين غضباناً وقال :

ليس من خطأ أراه أكبر من مس كرامة دين لمجرد عمل يأتيـــه فرد من تابعي ذلك الدين . وأعتقد أن الهيئة البشرية لايمكنها أن تستغني عن سلطتين : زمنية ، وروحية . كلتا السلطتين ترمي إلى غاية واحدة في الجوهر ، والاصل . نعم يمكن أن يطرأ على إحداهما خلل ليس في أصل الوضع ، فهذا الخلل يجب العمل على إصلاحه ، والوقوف بوجه من أخـل ، وإرغامه على الرجوع إلى الاصل ثم قال :

السلطة الزمنية بمليكها او سلطانها انما استمدت قوتها من الأمة لأجل قمع أهل الشر ، وصيانة حقوق العامة والخاصة ، وتوفير الراحة للمجموع بالسهر على الامن ، وتوزيع العدالة المطلقة ، الى آخر ما في الوازع ، والسلطان من المنافع العامة .

أما إذا أودعت هذه السلطة بيد رجل غر ، جاهل ، عات اكتنفه قوم من فاسدي الاخلاق ، مجهولي الاعراق ، يلعبون بالسلط كيف يشاؤون ثم يحتجون على الشعب بقولهم :

« مشيئة الملك قانون المملكة !! »

هذا القول على تلك الحالة مما يجب على الامة وقوفها تجاهـه ، وان تقاومه بكل ما لديها من قوة .

لان الحق في هذا ، أن إرادة الشعب الغير المكره ، والغير المسلوب حريته ، قولاً وعملاً ، هي قانون ذلك الشعب المتبع ، والقانون الذي يجب على كل حاكم أن يكون خادماً له، أميناً على تنفيذه .

وكل شعب تلعب به الأهواء ، ويتفرق شيعاً وطوائف ، وتستحكم من أفراده محبـة الذات ، ، والأنانية ، فيتجرون باسم الامة تجـاه الفرد المسلط ، ويستنزفون ثروة المجموع لإرضاء له لينالوا بلغة من عيش .

فمثل هذا الشعب يكون كالانعام السائمة ، أو أضل سبيلا ، ومثل هذا الشعب يصدق عليه قاعدة جور أوجدهـا المستبدون وهي القول السابق : « مشيئة الملك قانون المملكة » ثم قال :

كذلك القول في السلطة الروحية ـ وأعني بها ما لكل دين من النفوذ المنوي ، على من يدينون به ـ وهي في بعض مواقفها ، أنفذ من قوة السلاطين ، ويقظة الشرطة ، وعـدل الحاكم على منصة قضائه ، وأفعل مما ينفذه في بعض الاحيان من القصاص على بينات قد تكون أخطأت مجرماً ، وأصابت بريئاً .

إذا تمكن الدين بحقيقته من نفس ، وخلت عن مراقبة السلطان الزمني ، فهناك يفعل سلطان الروح ويردعه عن سرقة مال لو سرقه لما شهد عليه أحد ، وعن قتل نفس لو قتلها لما تمكن الحاكم الزمني ان يقتص منه .

هذه بعض منافع الروح الدينية ، ولا ترى في الاديان الثلاثة ما يخالف نفع المجموع البشري ، بل بالعكس تحضه على ان يعمل الخير المطلق مع أخيه وقريبه ، وتحظر عليه عمل الشر مع أي كان .

أما وإذا انحرفت وتحرفت هذه السلطة المنوية عن مواضعها ، واختل جوهر وضعها الاصلي ، وجب عندئذ الوقوف تجاهها ، والعمل بكل قوة لارجاعها لأصلها .

ثم قال : اذا سار الدين في غايته الشريفة ، حمدته السلطة الزمنية بلا شك . واذا سارت السلطة الزمنية في الغاية المقصودة منها وهي « العدل المطلق » فالسلطة الروحية حمدتها وشكرتها بلا ريب . ولا تتنافر هاتان السلطتان إلا اذا خرجتا عن المحور اللازم لها والموضوعة لاجله .

هذه آخر كلمات قالها جمال الدين وفارق على أثرها الاستانة لحمله بعض من كان معه على التحول إلى مصر ، فجاء اليها في أول محرم سنة ١٢٨٨ هـ ٢٢ مارس ١٨٧١ م .

قدومه ثانية الى مصر :

مال السيد جمال الدين إلى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ، ولم تكن له عزيمة على الاقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا ، فاستمالته مساعيه إلى المقام، وأجرت عليه الحكومة راتباً مقداره الف قرش مصري كل شهر ، نزلاً أكرمته به لا في مقابلة عمل . واهتدى اليه بعد الاقامة كثير من طلبة العلم ، واستوروا زنده فأورى ، واستفاضوا بحره فأفاض دراً ، وحملوه على التدريس فقرأ من الكتب العلمية في فنون الكلام الأعلى ، والحكمة النظرية ، طبيعية وعقلية ، وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصرف ، وعلم أصول الفقه الاسلامي . وكانت مدرسته بيته ، من أول ما ابتدأ إلى آخر مااختتم . ولم يذهب إلى الأزهر مدرساً ولا يوماً واحداً . نعم كان يذهب اليه زائراً وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة .

عظم أمر الرجل في نفوس طلاب العلوم ، واستجزلوا فوائد الأخذ عنه ، وأعجبوا بدينه وأدبه ، وانطلقت الالسن بالثناء عليه ، وانتشر صيته في الديار المصرية ، ثم وجه عنايته لحل عُقل الأوهام عن قوائم العقول ، فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر ، وحمل تلامذته على العمل في الكتابة ، وإنشاء الفصول الادبية والحكمية والدينية ، فاشتغلوا على

على نظره وبرعوا ، وتقدم فن الكتـــابة في مصر بسعيه ، وكان القادرون على الاجادة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل .

فنبغ في القطر المصري من تلامذته ، كتبة لا يشق غبـارهم ، ولا يوطأ مضـمارهم ، وأغلبهم أحداث في السن شيوخ في الصناعة . وما منهم الا من أخذ عنه ، أو عن أحـــد تلامذته أو قلد المتصلين به ، ومنكر ذلك مكابر ، والحق مدابر .

هذا ما حسده عليه أقوام واتخذوا سبيلا للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية أخذاً بقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها ، على أن القائلين بهذا القول لم يطلقوه ، بل قيدوه بضعفاء العقول ، فصار النظر خشية على عقائدهم من الزيغ . أما الثابتون في إيمانهم فلهم النظر في علوم الاولين والآخرين ، من موافقين لمذهبهم أو مخالفين ، فلا يزيدهم ذلك الا بصيرة في دينهم ، وقوة في يقينهم ، ولنـا في أئمة المـلة الاسلامية الف حجة تقـــوم على ما نقول .

ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأي هذا الرجـل ، وأذاعوا ذلك بين العامة ، ثم أيده أخلاط من الناس ، من مذاهب مختلفـة ، كانوا يطرقون مجلسه ، فيسمعون ما لا يفهمون ، ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون . غير ان هذا كله لم يؤثر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله .

ولم يزل شأنه في ارتفاع ، والقلوب عليه في اجتماع ، إلى ان تولى خديوية مصر المرحوم (توفيق باشا) وكان السيد من المؤيدين لمقاصـده ، الناشرين لمحامده ، والساعين لتأليف القلوب عليه .

ولما كان جمال الدين ميالاً بفطرته إلى السياسة ، عالماً في دقائقها فقد نظر الحكيم المدقق ، ورأى ما آلت اليه من تدخل الاجنبي وتفاقم أمره يوماً فيوم ، فعلم أن لا بد من تغير أحوالها . وكان قد انتظم في سلك الجمعية الماسونية ، وتبني في المحفل الاسكتلندي .

جمال الدين في الجمعية الماسونية

ما انخراط جمـال الدين في الماسونية ، وما أحدثه وجوده فيها ، إذ كان عاملًا في بـدء

أمره ، وقبل أن يصير من الرؤساء ؛ فنختصره على قدر ما تسمح به الطريقة الماسونية . وان كان جمال الدين لا يرى في التكتم فضيلة ، بل يرى فيه معرة ، ونقصاً في الهمم .

أول انتقاد انتقده جمال الدين في المحفل ، رده على قول أحد الاخوان القائل « ان الماسونية لا دخل لها في السياسة ، وانا لنخشى على محفلنا هذا من بأس الحكومة وبطشها » فنهض جمال الدين وقال :

كنت أنتظر أن أسمع وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل من بين أسطوانتي المحافل الماسونية . إذا لم تدخل الماسونية في سياسة الكون ، وفيها كل بناء حر ، وإذا آلات البناء التي بيدها ، لم تستعمل لهدم القديم ، ولتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة ، وتدك صروح الظلم ، والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة .

ثم قال في بحث إجمالي عن الماسونية في ذلك المحفل - أي الاسكتلندي - ما يأتي :

لا تتم الصورة في الذهن إلا بعد التعريف والوصف ، فالانسان حيوان ناطق ، ولكي يتم له التعريف المطلوب ، المانع له من اشتراك بعض العجماوات الناطقة ، عرفوه بصفات أخرى ، فقالوا : مميز ، ضحاك بالطبع ،.. الخ فتسنى من التعريفات والصفات ما جعل له صورة مخصوصة في الذهن يعرف بها انه « إنسان » . اما نحن معشر الماسون ، فيؤلمني أني للآن ما عرفت لنفسي بصفتي ماسونياً ، ولا لمطلق الماسونية تعريفاً يجعل لها صورة في الذهن ، أو وصفاً ينطبق على من ينخرط في تلك العشيرة .

أول ما شوقني للعمل في بناية الاحرار ، عنوان كبير خطير : حرية ، مساواة ، إخاء ، غرض « منفعة الانسان ، سعي وراء دك صروح الظلم ، تشييد معالم العدل المطلق . فحصل لي من كل هذا وصف للماسونية ، وهو همة للعمل ، وعزة نفس وشمم ، واحتقار الحياة في سبيل مقاومة من ظلم .

ثم قال : هذا ما رضيته من الوصف للماسونية ، وارتضيته لها ، ولكن مع الأسف أرى أن جراثيم الأثرة ، والأنانية ، وحب الرياسة ، والعمل من جماعات بمقتضى أهوائهم ، وخضوعاً

لشرق عن بعد سحيق ، يعتوره تهديد ووعيد وغير ذلك من الامور التي ما تأسست الماسونية الحرة الا لملاشاتها ، واعتبرت من يصدع ويعمل بها من جبابرة الملوك ، والحكام انهم من « الخوارج » ، وما يجرون من الاحكام الكيفية « خارجة » وأن أولئك الخوارج فيما يتخبطون فيه من تلك الاعمال هم في الظلمات ، وبأشد الحاجة إلى النور .

ثم ذكر أشياء تتعلق في المحفل الاسكتلندي ، جاءت حسب أهواء معارضي جمال الدين فلا حاجة إلى ذكرها هنا . ومما قاله مخاطباً ومودعاً من ترك في المحفل الاسكتلندي : اعتقدوا أيها الاخوان ، أن جمال الدين ينكر على نفسه حب الرياسة ، ويقول : إن الماسونية أشرف وأرفع من أن تعمل على إيجاد سلطة لرئيس تخدم له بها غاية شخصية ، أو منفعة ، مادية كانت أم أدبية .

دعوني أكون عاملا ماسونياً نزيهاً ، متجنباً الرذائل ، إذا لم يكن حرصاً على شرف شخصيتي ، فخوفاً من أن تعاب الماسونية بي فيتخذني الاغيار سهماً للطعن بها وهي براء منه . وما ذنب الماسونية ، إلا أنها قبلتني بين أفرادها دون اختبار صحيح ، وأبقت علي من غير تبصر .

ومن كلمات جمال الدين في ذلك المحفل ، أن أحد الاخوان قال في خطاب ألقاه عبارة على طريق المباهاة « إن الماسونية تفاخر بقدم عهدها ، وثباتها أعصراً على شكلها وتقاليدها » فرد عليه جمال الدين قائلاً :

« لا أرى أبعد عن الحق من هذا القول ، فالماسونية على شكلها هذا وتقاليدها ، ليست فقط قديمة العهد بل هي لم تزل في المهد . ولسوف إذا أصرت ، وأصر أبناؤها على الوقوف عند حد رموز أكثرنا لا يفقه مغزاها ، ولا المراد من وضعها ، انها ستختنق في المهد ولا تدرج منه » ماسونيتكم أيها الاخوان اليوم لا تتجاوز « كيس أعمال ، وقبول أخ » يتلى عليه من أساطير الاولين ما يمل ويخل في عقيدة الداخل ، ويسقط مكانة الماسونية من عينيه .

أنتم اليوم بين رئيس ومرؤوس ، تابع ومتبوع ، شرق يأمر ومستشرق يرضخ ؛ مالك

بجمع ، وجزية للشرق تؤدى ؛ وليس من عمل يدل على أدنى أثر من الحيـاة الماسونية في الشرق .

ومما استغربه الاخوان الماسون من أقوال جمال الدين ، أنه طُلب في المحفل إسعافٌ لأحد الاخوان فقال : هل الأخ مريض ؟ قالوا لا . قال هل هو صحيح البنية ؟ قالوا نعـم ولكنه فقير معوز . قال صحة البدن وذل السؤال ، لا يصـح ان يجتمعا بانسان . الماسونية تسعف أخاها إذا سقط في العلل ، أو اعترى بعض أعضائه شلل ، وتقدمه على من سـواه من الاخوان في البشرية ، فتربي أبناءه إذا مات فقيراً ، وتحسن العناية في تربيتهم . وفيا عدا ذلك يجب أن ترى أن في الاحسان إساءة ، لمن يجب أن يكون في الحقيقة إنساناً .

هذا بعض ما كان ينتقده ، ويقوله جمال الدين في المحفل الاسكتلندي وقد ضاق بآرائه وأفكاره ذرعاً .

وعلم جمال الدين أنه لايمكنه العمل مع أولئك الاخوان وهم على ذلك الخمول ،والتخوف أو الجبن ، فأنشأ محفلا وطنياً ، تابعاً للشرق الفرنساوي ، وفي برهة وجيزة بلغ عدد أعضائه العاملين أكثر من ثلاثمئة من نخبة المفكرين ، والناهضين من المصريين من مريـدي جمال الدين من العلماء والوجهاء ، وتكرس محترماً له ، وأول عمل عمله ، أن صير من الاخوان العاملين في المحفل شعباً؛شعبة أناط بها إنذار ناظر « الجهادية » كي ينظر بعين العدل والإنصاف إلى الضباط الوطنيـين الذين تمادى زمان مكثهم في السودان أكثر مما تستوجبه القوانين المسنونة للضباط ـ وكان القانون العسكري إذ ذاك أن تتناوب الخدمة صنوف الضبـاط وطنيين وشراكسة متمصرين ـ فكان أكثر الضباط المصريين الذين يقتضي استبدالهـم بعد سنتين مثلاً في السودان ، بآخرين من الضباط الشراكسة « نسباً » كانوا يقضون أربع سنوات فأكثر ولا يستبدلون ، وإن استبدلوا فانما يرسل مكانهم مصريين ممن لا عضد لهـم أو مجير من أمير أو وزير . وشعبة أخرى لانذار ناظر الحقانية . وأخرى للمالية . فنظارة الأشغال والانصاف مع مستخدميهم من الوطنيين ، إذ كان الموظف المصري في وظيفة ما إذا تناول خمس جنيهات راتباً شهرياً ، كان غيره من غير المصريين بمثل ذاك العمل والوظيفة ، يتناول خمسة عشر أو عشرين جنيهاً .

ذهبت كل شعبة للوجهة التي عينت لها وأدت النظار ما أمرت به من المحفل بلهجة ، وأسلوب ، استهجنها ، واستغربها السامعون . فحصل من جراء ذلك هزة في الأندية ، والدواوين ، انتهت تموجاتها إلى سراي عابدين والخديوي إذ ذاك المرحوم توفيق باشا ، فهاله الامر ، وكان قليل المبالاة بالماسونية ، حتى إنه استنكر تكليفه أن يكون أستاذاً أعظم للمحافل الماسونية المصرية الوطنية ، وتردد في قبول جمال الدين زائراً ، ولكن بعد تلك الحركة أسرع في استزارة جمال الدين ، فذهب بعد مماطلة أيام ، وتمثل لدى الحضرة الخديوية وبعد تلطيف وتجمل من الخديوي قال لجمال الدين ما معناه : «إنني أحب كل خير للمصريين ، ويسرني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح ، ولكن مع الاسف إن أكثر الشعب خاملٌ ، جاهل ، لايصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة » .

رأيه في المجلس النيابي :

قال جمال الدين مجاوباً : « ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية ، وإخلاص ، إن الشعب المصري كسائر الشعوب لايخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكن غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري وأفراده ينظرون به لسموكم وإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم في إشراك الامة في حكم البلاد على طريق الشورى ، فتأمرون باجراء انتخاب نواب عن الامة تسن القوانين ، وتنفذ باسمكم وبارادتكم ، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم » هذا أهم ما جرى في هذه المقابلة التي كان فيها سمو الخديوي غير راضٍ وأسر في نفسه البطش في جمال الدين ولكن لم يظهر له شيئاً من ذلك .

خرج جمال الدين من مجلس سمو الخديوي ومضى إلى تنفيذ خطته في المحفل الماسوني وأخذ يخطب خطباً تستفز الخامل وتوقظ الغافل وتصير الجبان شجاعاً ، والرعديد أسداً ضارياً ، وأشار على تلامذته ومريديه بنشر الفصول الناطقة بالحقوق المهضومة لأهل البلاد من

المصريين . وكان في مقدمة من كتب الادباء السوريون وفي مقدمتهم المأسوف عليه (أديب بك اسحق [1]) .

وعلى أثر ذلك بدأت الحركة الفكرية الوطنية في الظهور ، وأخذت الحكومة تحتاط لتلك الحركة ، وتجامل الوطنيين ، وتتقرب من الشعب بالمواعيد الحسنة ، وحسن النية ، من إنالتهم مجلساً نيابياً إذا هم حافظوا على السكينة ولم يفرطوا في المطالب الوطنية .

فطلب الاحرار من جمال الدين أن يضع خطة للمجلس النيابي المصري المتيد ، وبياناً واضحاً للشعب كي يسير بمقتضاه نحو انتخاب نوابه فقال :

أيها الاخوان : إن القوة النيابية لأي أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من نفس الأمة ، وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لها ، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة ، موقوفة على إرادة من أحدثها .

فعزة الملك ينغصها نهضة الشعب المملوك ، خصوصاً إذا هو صادم إرادة مالكه أو أميره؛ والتاريخ لم ينقل لنا أن ملكاً أو أميراً أو دخيلاً بقوته على شعب ، يرضى عن طيب خاطر أن يبقى مالكاً اسماً ، وأمته هي المالكة فعلاً ، وزمام أمورها على مطلق المعنى ؛ وأعظم أماني الشعوب المملوكة ، التملص من ربقة الاجنبي وتحكمه .

ثم قال : سترون عما قريب إذا تشكل المجلس النيابي المصري ، سيكون ولا شك بهيكله الظاهري مشابهاً للمجالس النيابية الاوروبية ، بمعنى أن أقل ماسيوجد فيه من الاحزاب ، حزب للشمال وحزب لليمين . ولسوف ترون إذا تشكل مجلسكم ، أن حزب الشمال لا أثر له في ذلك المجلس ، لأن أقل مبادئه ان يكون معارضاً للحكومة ، وحزب اليمين أن يكون من أعوانها .

قال : تستغربون قولي هذا اليوم ، لان ما نبحث فيه هو أمر تصوري لم يخرج لحيز العمل بعد ، ولكن متى رأيتم المجلس النيابي الموهوم تشكل ، ورأيتم كل عضو يفر من

---

(١) كان جمال الدين لآخر نسمة من حياته عند ذكر أديب بك اسحق يسترجع ويقول : كان طراز العرب وزهرة الادب ، فقضى نحبه في شرخ الشبوبية وعنفوان الفتوة وترك لنا قلوباً آسفة وشجوناً فالضة انا لله وانا اليه راجعون .

أن يكون في حزب الشمال (الناهض والمعارض للحكومة) فراره من الاسد إلى حزبه اليمين » إذ ذاك تقولون : صدق جمال الدين » .

نعم أكون صدقت ، ولكن ليس لي في هذه الفراسة ، وفي صدق التصور التصديقي أدنى فضيلة ، إذا رجعتم وعلمتم ، أن المقدمات الصحيحة هي التي تنتج النتائج الصادقة . فمقدمات مجلس نيابي ، قوته المحدثة له ، خارجة عن محيط الامة ؛ والمحدث له ، قوة خارجة عن الأمة ومجلسها ، يعارضها منافع متضادة ، وهدفان مختلفان ؛ فمثل هذا المجلس لاقيمة له ، وكما أنه لا يعيش طويلا كذلك لا يغني عن الأمة فتيلاً .

ثم قال ضاحكاً ضحكة متألم : سترون أن الذي سيكون نائباً عن شعب لا أعدد مصائبه ، ولا أنواع رزاياه ، لفقدان حريته بكل معناها ، هو الذي كان آلة صماء ، بيد تلك القوة التي عملت على وصول وطنه ومواطنيه ، إلى ما وصلوا اليه .

تعرفونه اذا شئتم ان تتفكروا قليلاً . وإن شئتم وصفه فأنا أقول لكم :

نائبكم سيكون على مقتضى مامر من مهيئات مصركم في زمانكم هو : ذلك الوجيه الذي امتص مال الفلاح بكل مساعيه ، ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم أسقط منه همة ، ذلك الرجل الذي لا يعرف لايراد الحجة ، تجاه الحاكم الظالم معنىً ولو كانت من الحجج الساطعة ، ذلك الرجل الذي يرى في إرادة القوة الجائرة ، كل خير وحكمة ! ويرى في كل دفاع عن وطنه ، ومناقشةٍ للحساب ، قلة أدب ، وسوء تدبير !! وعدم حنكة ، وتهوراً ! وبالتالي يرى ، ان كل صفات العزة النفسية ، والمقومات الاهلية القومية ، مآلها الويل والثبور .

وكل مايدعو الى الذل ، واحتقار القومية ، وسحق ماتنمو به حرية الأمة ، هو من مجالي حكمته المصرية !! .

هذا مع الاسف الذي أراه سيتكون منه مجلسكم النيابي الموهوم ـ اذا صحت الاحلام ـ والذي سيخالف قاعدة كلية ، لقواعد فلسفة ، أقرت على ان الوجود خير من العدم ، فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده .

إخراجه من مصر وذهابه الى الهند :

ثم أخذت الافكار تتنبه من الوطنيين من تلك الاقوال والخطب ، والفصول التي بينها جمال الدين ومريدوه ، وفي كلها مايدل على نفرة جمال الدين من سياسة بريطانيا العظمى، وانتقاده لها وقد ترجمت وأرسلت الى جرائد انكلترا ، واهتموا بها كثيراً حتى تولى المستر غلادستون نفسه أمر الجدال في موضوعها . فلما بلغ محفل جمال الدين الى هذه الدرجة من الاهمية والتأثير ، داخل الخوف المستر (فافياني) قنصل انكلترا العام اذ ذاك ، وجمع بواسطة مابثه من الرقباء في المحفل والجواسيس ، ماأخاف به الحكومة ، وأرهب الخديوي ، وكان في نفسه أشياء تحذره من وجود جمال الدين في مصر كما سبق في محادثته له .

فأصدر أمره باخراج السيد من القطر المصري مع تابعه عارف أفندي أبي تراب ، ففارق مصر سنة ١٢٩٦ هـ ١٨٧٩ م قاصداً البلاد الهندية ، ولما وصل الى السويس أتاه بعض مريديه، وقنصل ايران ، وبعض التجار ، وكل منهم يحمل مقداراً من المال ، عرضوه على السيد جمال الدين وألحوا عليه ان يقبله قرضاً . فأجابهم : « أنتم الى هذا المال أحوج ، والليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب » . ثم أبحر الى البلاد الهندية وأقام بحيدر آباد الدكن ، وفيها كتب رسالته في إبطال ونفي مذهب الدهريين — وستأتي الرسالة برمتها في آخر هذا الكتاب .

جمال الدين في اوروبا ـ العروة الوثقى

ولما كانت الفتنة الاخيرة بمصر « الحوادث العرابية » دعي من حيدر آباد الى « كلكتا » وألزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى أمر مصر ، وخمدت الحرب الانكليزية . ثم أبيح له الذهاب الى أي بلد شاء ، فاختار الذهاب الى أوروبا ، وأول مدينة صعد اليها مدينة لندرا ، أقام بها أياماً قلائل ، ثم انتقل الى باريز ، وأقام بها مايزيد على ثلاث سنوات ، طلب فوافاه في أثنائها ، صديقه الاستاذ العلامة الشيخ محمد عبده ، وكانت في مصر جمعية وطنية تألفت من خيار القوم ، اسمها «جمعية العروة الوثقى» فكلفته ان ينشىء جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة الاسلامية تحت لواء الخلافة العظمى ، وكلف صديقه الاستاذ المشار اليه ، ان يقوم على تحريرها ففعل ، ونشر من الجريدة ثمانية عشر عدداً وقد أخذت من قلوب الشرقيين

عموماً والمسلمين خصوصاً مالم يأخذه قبلها وعظ واعظ ، ولاتنبيه منبه ، ذلك لخلوص النية في تحريرها ، وصحة المقصد من مدير سياستها في تحبيرها، ثم قامت الموانع دون الاستمرار في إصدارها ، حيث أقفلت أبواب الهند عنها ، واشتدت الحكومة الانكليزية ، في إعنات وأذية من تصل اليهم حتى في مصر فانهـا أصدرت أمراً وزارياً « نوباريا » وهو مسطور في العروة الوثقى ونصه :

« انعقد مجلس النظار المصري في القاهرة ، واهتم في البحث في شأن « العروة الوثقى » ثم أصدر قراره الى نظارة الداخلية المصرية قاضياً عليها بان تشتد في منع هـذه الجريدة عن دخول الاقطار المصرية وتراقب جولانها في تلك الديار ، فصدر أمر الداخلية الى إدارة عموم البوسطة ، يلزمها بالدقة في ذلك ، وبلغنا ان الجريدة الرسمية بعد نشرها صورةالاوامر أعلنت ، أن كل من توجد عنده « العروة الوثقى » يغرم مبلغـاً من خمسة جنيهـات مصرية الى خمسة وعشرين جنيهاً ، « وهي غرامة جسيمة ربما دعا اليها ، عسر المالية المصرية ، ببركة تصرف الانكليز في مصر » .

« اما نحن فلا نظن أحداً من النظار المصريين له رأي اختياري في هذا القرار ، بل لا نتوهم في المستوي والجالس على كرسي الخديوية ميلاً الى مثل هذا الحكم ، ولايختلج في صدرنا ان مصرياً من اي‌مشرب كان سواءفيه المسلم وغير المسلم ، بل ولاشرقياً ؛ ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه مسحة من العدل « هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم ، ولها سعي بل كل السعي لخيبة آمال أعدائهم ، ولا ترى من مشربها مدح زيد ولاالقدح في عمرو فان المقصد أعلى وأرفع من هذا ، وإنما عملها ، سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتترقى قلوب الشرقيين عموماً على الصفاء والوداد .

« تلتمس من ابناء الامم الشرقية ، أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضواري التي فغرت أفواهها لالتهامهم . ومن رأيها ان الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الامن من طروق الناهب .

« هذا منهاج العروة الوثقي ، علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها ، فكيف يخطر

بال عاقل ، ان شرقياً ، مسلماً كان او غير مسلم ، يميل لحجبها عن دياره . ولكننا نعلم أن حركات الآمرين في القطر المصري هذه الايام قهرية ، لايخالطها شيء من الاختيار . والمدير لرحى القهر عليهم « هم عمال الانكليز » .

« ولا نريد أن نقول للانكليز انهم ظلموا في هذا الحكم ،فان الجريدة لم يوجد فيها مايزيد على ماتنشره الجرائد الوطنية ، والاجنبية من كشف مساتيرهم ، وبيان الرزايا التي أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم . لانهم الانكليز وهم الذين إذا أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين في الهند وإقبال الناس عليه بالاعتبار ، أسرعوا بجلبه الى ديوان الشرطة « الضبطية » وعند وصوله اليها ، يفتح له الضابط مصحف قرآن ، أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ، ثم يشير الى آية من آيات الجهاد، أو حديث مما يدعو إليه ، ويسأله : هل أنت معتقد بهذه الآية او الحديث ؟ فاذا قال نعم قال له : فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا . فاذا أجابه باني درويش ملازم العزلة عن الناس ، وليس اعتقادي بهذا الا لأنه كتاب ديني . ضرب له الضابط أجل أربعة أيام أو اقل، يبين فيها رأيه في الآية او الحديث، فان مضى الاجل ولم يحرف العالم دينه ويبدل عقيدته ، ولم يبادر بارسال تحريفه وتبديله ، وخروجه عن دينه ، الى مطبعة من المطابع ليطبع وينشر ، بعث به الحكومة الى جزيرة « اندومان » نفياً مؤبداً .

« ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها غاصة ، بأمثال هؤلاء المظلومين . فدولة الانكليز التي تحاسب رعاياها المسلمين ، على خطرات قلوبهم ، وما يمكن ان يهجس في حديث نفوسهم ، لا ريب انها تعد وجود لفظ « الاسلام » في جريدة كافياً لمنعها عن الدخول الى بلاد لها فيها قدم ثابت ، او تسعى في تثبيته ، بل تحسب ، أن من ألد أعدائها شخصاً علق عليه هذا الاسم من اي جنس كان .

«فلا غرابة في صدور مثل هذا الجور منها غير اننا نعلن لها، ان همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم ، وليس يعجزنا إدخال العروة الوثقى في كل بقعة تحوطها السلطة الانكليزية الظالمة وذلك بعزائم اولي العزم ، والإباء والنهضة .»

ثم ظهرت حادثة المهدي السوداني محمد أحمد وأخذ أمره في الاستفحال واتسع منه لانكلترا مجال المداخلة في شؤون مصر ، بحجة قمع ثورة المهدي السوداني .

فكتب جمال الدين في العروة مقالات يحذر بها الانكليز ، ويلفت نظر كبير وزرائهم إذ ذاك (المستر غلادستون) إلى مصير الجنرال غوردون ، واستحالة نجاح مقصد الانكليز بتلك الوسيلة وأمثالها ، وأثبت ذلك بحجج قاطعة وبراهين ساطعة . وسيأتي ذكر ذلك تحت عنوان « عبرة وذكرى » .

وقد ثابر جمال الدين على الكتابة في مسألة السودان معدداً خطيئات بريطانيا ، ووزرائها مفنداً لاقوال اللورد (غرانفيل) وحجج المستر غلادستون ومبيناً سيء المصير ، من انتهاج تلك السياسة في مصر والسودان ، كاشفاً مساتير السياسة ، مما أقام أكابر رجال السياسة في العالم وأقعدهم ، واضطربت لها أندية لندرا خاصة .

فاضطر اللورد (ساليسبوري) و (شرشل) ان يستدعيا جمال الدين ليسألاه رأيه في المهدي وظهوره اذ ذاك ، فشخص الى لندن واجتمع بهما وهناك أفاض بتوضيح الغوامض وأطلعها على مواقع الخطأ في سياسة انكلترا خصوصاً نحو دول الاسلام في الشرق وماتتبعه في مصر — كل ذلك بحجج قاطعة ، ولهجة شديدة ملؤها الاخلاص .

وبعد أخذ ورد ، اختصر اللورد ساليسبوري الحديث ، ورام تقريب البعيد ، فقال لجمال الدين .

« ان بريطانيا تعلم مقدرتك ، ونحن نقدر رأيك قدره ونحب ان نسير مع حكومات الاسلام ، بمودة وولاء ، على قدر ما تسمح لنا به الظروف والاحوال ، لذلك تصورنا ان نرسلك الى السودان بصفة سلطان عليه ، فتستأصل جذور فتنة المهدي وتمهد السبيل لاصلاحات بريطانيا فيه الخ »

فقال جمال الدين : تكليف غريب ، وسفه في السياسة مابعده ، اسمح لي ياحضرة اللورد أن أسألك « هل تملكون السودان ، حتى تريدون ان تبعثوا اليه بسلطان ؟ »

« مصر للمصريين ، والسودان جزء متمم لها ، وصاحب الحق ، الخليفة الاعظم جلالة السلطان حيٌّ يرزق ، ولديه من الجيش المادي والمعنوي ، ما يتذلل معها كل صعب وفتنة في الكون الاسلاميّ وأجزاء ممالكه ! »

« ان الاصلاح ومانتويه بريطانيا من عمله وطرق إدخاله وما تبحث له من الوسائل ، فعلى سبيل الاستطراد ، والتطفل ، ألفت نظرها ، ونظر كبير رجالها اللورد إلى (ايرلندا) وما تعانيه من ضروب البلاء فيا تنشده لنفسها من طلب الاستقلال ، ليتسنى لها معه الاصلاح الحقيقي لبلادهم « فلماذا لاتجيبون سؤلهم ، وتصلحون أمرهم ، وهم أقرب اليكم من حبل الوريد ، وبينكم وبينهم من الجامعات ماهو معدوم لكم في مصر ، والسودان ، وغيرهما من ممالك الشرق الخ » .

فبهت عند ذلك اللورد ساليسبوري ، بهتة رجل فوجيء بصدمة لم تكن في حسبانه ، ولم يحر جواباً ، إذ كان ينتظر من جمال الدين سجود الشكر لسلطان أتاه بدون تعب ، ومنصب انتصب له بلا نصب ، فقال للسيد كلمات معناها : سننظر في الامر ، وودعه بقوله: مصحوب بالسلامة .

خرج جمال الدين من تلك الملاقاة ، وأكبر رجال وزارة انكلترا ـ ساليسبوري ـ على غاية النفرة من سياسته ، أما الجرائد الانكليزية فاكثرها اهتم لنظرية جمال الدين ومباحثه، خصوصاً من كان موالياً ، لقضية الارلنديين ، من الانكليز الاحرار وبالاجمال ماخرج من لندرا إلا وأنديتها السياسية في شيء من الهرج .

ثم عاد إلى فرنسا وكانت العقبات التي أقامتها الحكومة الانكليزية ضد العروة الوثقى ، قد بلغت مبلغها من الشدة فسدت في وجهها الابواب ، واشتدت في عقاب من يذكرها ، وبالاجمال فقد ظفرت بريطانيا العظمى بعد أن صرفت كل همها ، وهمها في تعطيلها ، أن احتجبت « العروة الوثقى » عن الظهور ، ولكنها حفظت في الصدور ؛ وما غرسته في الاذهان ، أخذ ينمو على مهل ، في معظم بلاد الشرق وتبدو ثماره على التدريج .

كانت مدة إقامة جمال الدين في باريز، ثلاث سنوات ونيّف ،منها ما قضاه في نشر العروة الوثقى ، ومنها ما نشر فيها تلك المقالات الرائعة في أمهات جرائدها باحثة عن سياسة روسيا ، وانكلترا ، والدولة العلية ومصر .

ومن أبحاثه تلك الابحاث الفلسفية وأهمها، ماجرى له من المباحث مع الفيلسوف الفرنساوي

(رينان) « في العلم والاسلام وحقيقة القرآن والعمران » وستأتي براهين تلك المباحث في أقوال جمال الدين الآتية — أما رينان فقد شهد له بصحة العلم وقوة الحجة ، ورجع عن كثير من آرائه في أن الاسلام والقرآن ، مانعان للحضارة والعمران ، وأن ما يرى في المسلمين من الانحطاط ، والتقهقر ، إن هو الا من سوء فهم أهل الجمود من رؤساء أهل الدين لحكمته.

كانت مدة إقامة جمال الدين في فرنسا محفوفة بالتجلة والاعظام ، من أكثر علمائها ، وفلاسفتها ، وقد أحلوه ، من مقام العلم والحكمة مكاناً علياً .

استقدام جمال الدين إلى طهران وغلظته في مخاطبة الملوك والعظماء :

بعد أن علم جمال الدين أن لامقام له في باريز مع كثرة الحفاوة والاحتفاء ، عزم على السياحة في البلاد العربية من نجد ، فالحجاز ، فالعراق ، وبينما هو على هذه الاهبة ، استقدمه ناصر الدين شاه الفرس على لسان البرق فسار قاصداً طهران تاركاً سياحته .
وفي أصفهان التقى بالامير ظل السلطان ، فأجلّ جمال الدين ، وأعظم قدره ، وكان هذا الامير ، على جانب عظيم من الذكاء والدهاء ، فرأى في السيد خير مرشد ، للشاه ولمملكة الفرس ، حتى إذا وصل إلى طهران ، استقبله الشاه ، بصدر رحب واحتفاء كبير مع ثناء وإطراء على فضله ونبله ، وفوض اليه في الحال نظارة الحربية رسمياً مع صفة مستشار خاص للشاه ، إذ كان لا يقطع أمراً في المملكة ، إلا برأي جمال الدين ، فقام بأعباء الإرشاد ، والنظارة خير قيام ، وفي نفس الوقت كانت لهجته شديدة وصريحة بلزوم تغيير كل قديم بال ، من إدارة الحكومة الفارسية ، وبضرورة الأخذ بإنهاض الأمة ، ومشاركتها في حكم ذاتها .

فالتفت أمراء الفرس وعلماؤها حول جمال الدين ، وأقسموا له أنهم يصدعون بما يأمر به ، فأشار بعدم التسرع ، ولزوم الاخذ بسنن التدريج ، غير أن الشاه لما رأى ما ناله جمال الدين ، من علو المنزلة ، ونفوذ الكلمة في مملكته ، وما سخره من قلوب الأمراء والعلماء ، أو جس خيفة ، وداخله ريب عظيم واضطرب متخوفاً على سلطانه ، فتنكّر لجمال الدين ، وتغير سير الشاه معه ، فأدرك السيد ما في نفسه فاستأذنه في السفر لتبديل الهواء ، فأذن له ، فسار إلى روسيا ، وزار عواصمها ، من موسكو ، فبطرسبرج ، فلاقاه أهلها بالتجلة والاكرام لما سبق إلى

مسامعهم ، من شهرته ، واجتمع في بطر سبرج باعاظم رجالها ، من العلماء والسياسيين ، وهم يعلمون منزلة جمال الدين ، إذ كان وزيراً أولاً لحكومة الافغان في عهد الامير محمد أعظم خان، ونشر في جرائدها مقالات ضافية في سياسة الأفغان ، والفرس ، والدولة العلية ، والروسية والانكليزية ، كان لها دَويّ شديد في جو ، السياسة . أما نفرة السيد من سياسة الانكليز، وتنقيده لها بالبراهين القاطعة فقد أوسع له في المملكة الروسية مجالاً ، فأولوه غاية الإجلال والتكريم والإصغاء لاحاديثه ، والانتصار لسياسته ، حتى أن القيصر دعاه لقصره وتحادث معه طويلاً ، وكان كثير الحفاوة به ، معظماً له مصغياً لما يقوله .

بعد تلك الاحاديث الطويلة ، سأل القيصر جمال الدين ، عن سبب اختلافه مع الشاه فذكر له رأيه في الحكومة الشورية ، وضرورة اتباعها ، وأن الشاه ينفر من ذلك ، ولا يحب أن يقرّ به .

قال القيصر : « اني أرى الحق في جانب الشاه إذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يحكم به فلاحو مملكته » .

فاجاب جمال الدين بجرأة وفصاحة : أعتقد يا جلالة القيصر أن عرش الملك ، إذا كانت الملايين من الرعية ، أصدقاء له ، خيراً من أن تكون أعداء يترقبون الفرص ، ويكنون في الصدور سموم الحقد ونيران الانتقام . فعلَت عند ذلك ، وجهَ القيصر علامةُ غضب ، فقطب حاجبيه ، ولم يطل الحديث بعد ذلك مع جمال الدين ، بل قام من مجلسه ، وودع جمال الدين بغير الشكل الذي استقبله به ، إذ كان وداعاً بارداً ، ثم أوعز القيصر إلى أكبر رجال بلاطه ، ان يسرعوا متلطفين باخراجه من روسيا .

ترك جمال الدين روسيا ، وأخذ يجول في أوروبا ، وأقام في لندرا أياماً تلقته رجال السياسة فيها كما تلقوه في غيرها من العواصم ، بالاكرام والاجلال ، ودعوه إلى مجتمعاتهم السياسية وأنديتهم العلمية ، ليروه ويسمعوا حديثه ، وكان أكبر همه وأكثر كلامه ، في بيان سوء تصرف الشاه في المملكة ، واستبداده ، وما آلت اليه حالها في عهده ، يريد في كل

ذلك تمهيد السبيل ، لأحرار إيران ، وعدم معارضة الانكليز لهم إذا هم نهضوا لقلب حكومة الاستبداد بحكومة دستورية .

صادف وجود جمال الدين متجولاً في أوروبا فتح معرض باريز سنة ١٨٨٩ م فشخص اليها ، والتقى بالشاه في (منيخ) عاصمة (باواريا) عائداً من باريز ، فاستزاره واعتذر له عما فرط ، وعتب عليه بعدم عودته إلى طهران ، وأخيراً دعاه إلى مرافقته ، فأجاب جمال الدين الدعوة وسار مع الشاه إلى بلاد فارس ، فلم يصل إلى طهران ، حتى عاد الناس ، وفي مقدمتهم الأمراء والعلماء إلى الاجتماع به ، والانتفاع بعلمه ، والشاه لا يرتاب من أمره وأول ما كلفه به ، أن يسن ما يراه موافقاً لروح العصر من القوانين — ربما كان ذلك من الشـــاه بتأثير سياحته في أوروبا — فعمل جمال الدين ، بهمته المعهودة فسن القانون الاساسي لمملكة فارس ، لتكون حكومة ملكية شوروية ، فما أتم قواعد الدستور الكلية ، ومواده وأطلع عليه الشاه ناصر الدين ، الا وأعظم الامر ، إذ رأى أن حكمه سيكون مقيداً ، وأن أهل فارس سيكونون أوسع سلطة من الشاه ، بمجلسهم النيابي فقال لجمال الدين :

« أيصح أن أكون ياحضرة السيد ، وأنا ملـــك ملوك الفرس (شهنشاه) كأحد أفراد الفلاحين ؟

فقال جمال الدين :

« اعلم ياحضرة الشاه ، أن تاجك ، وعظمة سلطانك ، وقوائم عرشك سيكونون بالحكم الدستوري أعظم ، وأنفذ ، وأثبت مما هم الآن .

« والفلاح ، والعامل ، والصانع في المملكة يا حضرة الشاه أنفع من عظمتك ، ومن أمرائك به واسمح لاخلاصي أن أؤديه ، صريحاً قبل فوات وقته .

« لاشك ياعظمة الشاه أنك رأيت ،وقرأت عن أمة استطاعت ان تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك ، ولكن هل رأيت ملكاً ، عاش بدون أمة ورعية ؟ »

هذا الحديث الصريح من جمال الدين للشاه ناصر الدين جاء مصدقاً لما وشى به الصـدر

الاعظم ، وخوف الشاه منـه ، بقوله « ان ما يسنه جمال الدين من القوانين لا يفيد البـلاد شيئاً ، ولـكنه ينزع سلطان الشاه منه، ويعطيه إلى السوقة والفلاحين، وغير ذلك من الوشايات».

فنفر الشاه نفوراً بيناً من جمال الدين ، وأعرض عنه ، فأحس بهـذا التغير والنفور ، فاستأذن بالذهاب إلى بلدة شاه عبد العظيم على بعد عشرين كيلو متراً من طهران ، فأذن له ، فسار اليها وتبعه جم غفير من العظماء والعلماء والوجهاء ، الذين كان يخطب فيهم ويستحثهم على إصلاح حكومتهم، وما منهم إلا وقد انفعل بخطب جمال الدين الحماسية ، وقبلت نفوسهم نزعة الاستقلال ، وسرت تلك الروح في البـلاد طولاً وعرضاً ، وذاع فيها عزم جمـال الدين على إصلاح إيران، فخاف ناصر الدين شاه عاقبة ذلك ، فأنفذ إلى بلدة شاه عبد العظيم ، خمسمئة فارس ، قبضوا على جمال الدين وكان مريضاً فحملوه من فراشه على برذون ، وساقوه بصورة فظيعة وعليه دور من الحمى ، درجة حرارتها أربعين ، ولم يسمحوا له باستراحة دقائق ، حتى أوصلوه إلى حدود المملكة العثمانية في ولاية البصرة .

فما شاع خبر نفي جمال الدين على تلك الصورة في إيران حتى قامت قيامة محبيه ومريديه، وثاروا في وجه حكومة الشاه حتى كادت الدماء تجري أنهـاراً ، والثورة تثور ، ولـكنها خمدت تحت الرماد ، لشدة ما خامر الشاه من الخوف على حياته ، واتخـذه من الحيطة . كل ذلك لم يغن عن الشاه فتيلاً ، لانه بعد مدة قتل بيد رجل من الفرس قال عند طعنه للشاه : يالثارات جمال الدين .

مجيئه الأخير للأستانة وما جرى له فيها

أما جمال الدين ، فمكث في البصرة ، حتى عادت إليه صحته ، فشخص منهـا إلى لندرا ، وبينما هو مع كبار رجال الانكليز ، في حجاج ولجاج ، في أحوال مملـكة الفرس ، وسوء تصرف الشاه ناصر الدين ، وإنذار الانكليز ، بسوء عقبى إمدادهم الشاه وإعانته على عسفـه في المملكة الفارسية ، ورد عليه كتاب من المابين الهمايوني ، بواسطة السفير الكبير رستم باشا في لندرا إذ ذاك ، أن يقدم إلى الاستانة ، فاعتذر بانه في شاغل وقتي لإصـــلاح بلاده. ولم ينجح رستم باشا بكل مابذله مع جمال الدين ، ليذهب إلى الاستانة ، وبعد أيام ورد كتابان،

الواحد إلى السفير رستم باشا ، والآخر لجمال الدين وفيها من الثناء والتحريض ، ما جعل جمال الدين أن يترك الرفض ويجيب الدعوة .

أما الكتاب إلى رستم باشا ، فكان فيه من الشدة والالحاح من جلالة السلطان عبدالحميد ، هذه العبارة « لا يقبل جلالته لكم عذراً إذا ما أقنعتم جمال الدين بالمجيء إلى الاستانة ، ليقابله ثم يعود إذا شاء ، منتظرين إشعاركم تلغرافياً » .

فترك لندرا وقدم الاستانة سنة ١٣١٠ ﻫ وأواخر عام ١٨٩٢ م .

وصل جمال الدين إلى الأستانة ، وكان في انتظاره ، الياور السلطاني ، الذي كان أوفد من المابين لاستقباله ، فسأله أين الصناديق يا حضرة السيد ؟ فقال ليس معي غير صناديق الثياب وصناديق الكتب . قال الياور حسناً دلني إذا أمرت على مكانهم ، فأشار السيد قائلاً ، صناديق الكتب هنا ـ وأومأ بيده إلى صدره ـ وصناديق الثياب هذه ـ وأشار إلى جبته ـ .

وقد قال لنا أكثر من مرة « كنت أول عهدي بالنفي أستصحب جبة ثانية وسراويل . ولكن لما توالى النفي صرت أستثقل الجبة الثانية فأترك التي علي إلى أن تخلق ، فأستبدلها بغيرها » .

ما خاطب به السلطان عبدالحميد بشأن الشاه ناصر الدين

ذهب جمال الدين تواً إلى المابين وحظي بمقابلة جلالة السلطان عبدالحميد فاستقبله أحسن استقبال ، وأكثر من الاحتفاء والاحتفال به ، وأدناه منه وأجلسه بقربه ، وكان قد أمر بإعداد وتهيئة قصر له في محلة نيشانطاش وسيره إليه بعربة خاصة .

أما جمال الدين فكان كما سبق ذكره على غاية من الغيظ من ناصر الدين شاه ، ناقماً عليه وعلى حكومته الاستبدادية . يشغل كل مجلس حل فيه بالطعن الشديد ، وأقبح التنديد ، فتقدم سفير إيران برسالة خاصة إلى السلطان عبدالحميد ، ليردع جمال الدين عن ذلك الطعن ، وفي ذات يوم وجمال الدين في حضرة السلطان رغب إليه بلزوم كف لسانه عن الشاه ، وأن يتناسى ما مضى ، بعبارة غاية في اللطف وكمال الدعة . وكان في يد جمال الدين سبحة فجمعها لكفه وقال بصوت جهوري :

« امتثالاً لإشارة أمير المؤمنين ، فإني من الآن قد عفوت عن الشاه ناصر الدين »

فأعظم الحاضرون هذا القول ، في هذه اللهجة ، ولكن جمال الدين لم يبال بإعظامهم ، ولا بما تقولوه ، لاعتقاده أنه يحق له أن يعفو ، وأنه قد عفا عن الشاه .

خرج جمال الدين على عادته ، من حضرة السلطان إلى حجرة رئيس القرناء ، فقال له بلطف : يا حضرة السيد ، إن إجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل ، واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة ، وأنت تلعب في السبحة في حضرته .

فقال جمال الدين : « سبحان الله ، إن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة على هواه ، وليس من يعترضه منهم ، أفلا يكون لجمال الدين حق أن يلعب في سبحته كيف يشاء » . أما رئيس القرناء فترك حجرته مهرولاً خائفاً يترقب من هذا الكلام بهذه اللهجة ، أن يوشى به إلى السلطان .

رأيه في السلطان عبدالحميد

أما الإكرام لجمال الدين والاحتفاء به ، والإقبال عليه ، من قبل جلالة السلطان عبدالحميد فكان عظيماً ، وقد أكثر من الاجتماع به إثر وصوله ساعات في كل يوم وليلة ، فلخص تلك الاجتماعات ، وما دار فيها من الأحاديث بقوله : « إن السلطان عبدالحميد ، لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاءً ، ودهاءً ، وسياسة ، خصوصاً في تسخير جليسه . ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب ويخرج المناوىء له من حضرته راضياً عنه ، وعن سيرته وسيره ، مقتنعاً بحجته ، سواء في ذلك الملك والأمير والوزير والسفير . ولكن يا للأسف أن عيب الكبير كبير ، والجبن من أكبر عيوب الملوك » .

ثم قال : « رأيت من السلطان ارتياحاً لقبول كلّ ما ذكرته له من محاسن الحكم الدستوري ، وإن الاسلام أول من عمل به في سلطانه ، أي الحكم الشوروي وذلك عملاً بحكم النص . (وأمرهم شورى ...) » .

قال : « ورأيته يعلم دقائق الامور السياسية ، ومرامي الدول الغربية وهو مُعد لكل هوة تطرأ على الملك ، مخرجاً وسلماً .

« وأعظم ما أدهشني ، ما أعده من خفي الوسائل وأمضى العوامل ، كي لا تتفق أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية ، ويريها عياناً محسوساً أن تجزئة السلطنة العثمانية ، لا يمكن إلا بخراب يعم الممالك الاوروبية بأسرها » .

وهكذا كانت يقظته لدول البلقان الصغيرة التي أحدثتها أوروبا ، أحبولة لتضعضع بها السلطنة العثمانية ، وتتذرع بها للتدخل في الشؤون ، ولتقتطع من أجزاء المملكة جزءاً بعد آخر ، وكلما حاولت أوروبا أن تجمع كلمة البلقان ، للخروج على الدولة بحرب ، كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوه ، وتفريق ما جمعوه من كلمة وكيْد .

فالبلغار مع شدة شكيمتهم ، ودهاء أميرهم البرنس فرديناند ، رضخ طائعاً لأمر عبدالحميد ، ولبس الشعار العثماني (الطربوش) وافتخر برتبة المشيرية ، وانتظم مع مشيري الدولة في حفلة صلاة الجمعة « السلاملك » .

أما أمير جبل الأسود نقولا ، فكان أمره مع السلطان عبدالحميد كولد لا يرى الفرج إلا من أبيه .

كان كلما شكا قلة ذات اليد ، وطلب كفالة على استقراض زهيد ، يرسله له دون عوض ولا سند .

أكثر جهاز ابنته التي زفها على ولي عهد إيطاليا ، كان من جيب السلطان عبدالحميد ، وهكذا بقية دول البلقان مع ذلك السلطان المظيم الشان .

ضاقت أوروبا ذرعاً بسياسة السلطان عبدالحميد وحيطته ، ويئست من أكثر دول البلقان ، فحولت كيدها بدس الدسائس ، وصرفت همتها بالاستغواء إلى أخف الدويلات حلوماً وأكثرهم غروراً وطيشاً ، وهي دولة « اليونان » فقد بدأت تتحرش بالدولة العثمانية ، لتتدهور بالحرب مع السلطان عبدالحميد (١) .

---

(١) بعد أن نظر جمال الدين بعين البصيرة ، ووقف على جريان السياسية وما هنالك من الدسائس ، جزم بوقوع الحرب اليونانية العثمانية، وقد حصل ذلك ، وجمال الدين على فراش المرض ، وحصلت النتيجة=

قال جمال الدين :

أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره ، وإعداده المدة اللازمة لإبطال مكايد أوروبا ، وحسن نواياه ، واستعداده للنهوض بالدولة ـ الذي فيه نهضة المسلمين عموماً ـ فقد دفعني إلى مد يدي له ، فبايعته بالخلافة والملك ، عالماً علم اليقين ، أن الممالك الاسلامية في الشرق لا تسلم من شراك أوروبا ، ولا من السعي وراء إضعافها وتجزئتها ، وفي الأخير ازدرادها ، واحدة بعد أخرى ، إلا بيقظة واتنباه عمومي ، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم .

طلبه الرجوع عن بيعته

بقي السلطان مستمراً على إقباله وإكرامه لجمال الدين ، والدسائس والمفاسد لا تؤثر شيئاً ، حتى خف جمال الدين يوماً وطلب من السلطان لأحد الأخوان المصريين الموجودين

=التي كان ينتظرها من تلك الحرب وأن أوروبا وما تعمله من المكايد مع السلطان عبدالحميد والدولة العثمانية ستكون نتيجته رد الكيد في النحر ، هذا ما كان من اليونان وما أمدتها به أوروبا من المدد وما أسعفوها به من المال والعدد ، فقد ذهب سدى ، إذ لم يمض على الحرب إلا شهران أو أكثر حتى اكتسحت جنود السلطان عبدالحميد سهول ووهاد وجبال ومعاقل « تساليا » « ولاريسا » وفرت طيور اووز اليونان من عقبان الجيش العثماني ، فاستجار اليونان بالقيصر إذ ذاك ، أن ينقذ آثينا بتوقيف الحرب فاستحقوا خطاب الشاعر لهم :

فما الحرب بالأمر الذي تحسبونه هويناً إذا استهوت عقولكم الخمر

ولقد أجاد السيد توفيق البكري ، إذ هنأ السلطان عبدالحميد بظفره هذا حيث قال : ــ وهي أول قصيدة جاءت للأستانة تهنئة بالنصر ــ .

أما ويمين الله حلفة مقسم لقد قمت بالاسلام عن كل مسلم
ولو لاك بعد الله أمست دياره بأيدي الأعادي مثل نهب مقسم
لقد سر هذا النصر قبراً بطيبة وبيتاً ثوى بين الحطيم وزمزم

ومنها :

أمال « بلاريسا » عروش عداته وأشرق من فرسالة الأرض بالدم
بسود جني كالأكام دوافع بحمر كأشباه الصواعق رجم

في الأستانه ـ ممن كان يتردد على السيد ـ رتبـة وزيادة راتب ، فوعده السلطان بإمضـاء ذلك فأتى جمال الدين وبشر الرجل بحصول مطلبه .

مضت أيام ولم تصدر الإرادة السنية بما طلبه ، فكتب للسلطان يذكره ويستنجزه وعده. ولكن عبثاً انتظر ، فاحتدم جمال الدين غيظاً وأكبر الأمر ، وطلب خطاً أن يؤذن له بالمثول ـ وهذه أول مرة طلب بها الإذن للمقابلة ، إذ كان السلطان هو الذي يدعو جمال الدين إليه ـ .

فما وصل الطلب بالاستئذان حتى أسرع الحاجب (القرنا) يدعو السيد للحضور ، فسار وهو يكاد يتميز من الغيظ ، وخشينا سوء العاقبة ، من تهور جمال الدين مع السلطان لمطلب تافه .

دخل على السلطان فاستقبله حسب عادته ، بوجه طلق بشوش ، وجمال الدين بوجـه عبوس قمطرير .

فاستجوبه السلطان قائلاً : « خيراً ان شاء الله ! ماذا حدث مع حضرة السيد ؟ » .

قال : « لا شيء إنما أتيت لأستميح جلالتك أن تقيلني من بيعتي لك لأني رجعت عنها » .

فانتفض السلطان واهتزّ لهذا النبأ وقال : « يا سيد ! هل افتكرت بما تقول ؟ » .

قال: «نعم بايعتك بالخلافة والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد، بيد جلالتك الحل والعقد ، وبإمكانك أن لا تعد ، وإذا وعدت وجب عليك الوفاء ، وقد رجوتك بالأمر الفلاني ووعدت بأنك تمضيه ولم تفعل » .

عند ذلك سكن غيظ السلطان ، وبهت برهةً مطرقاً يهز برأسه ، يميناً وشمالاً ، ثم قال : سبحان الله يا حضرة السيد ، إن أمراً طفيفاً مثل هذا ، يحملك أن تهجم على نقض بيعتي لأجله ! أما كان يحسن بفضلك ، أن تلتمس لي عذراً بكثرة مشاغل السلطنة وتذكرني قبل نقض البيعة سامحك الله وأحسن جزاءك » .

ثم أصدر إرادته حالاً بما طلب جمال الدين وآنسه كثيراً وباسطه .

قال جمال الدين : الحق يقال أنني شعرت بتسرعي ، وعرفت خطئي كما أنني عرفت للرجل كبير فضله وسعة صدره .

وعند خروجه تقدم الحاجب من جمال الدين ، وناوله كيساً من المخمل الأحمر ، فيه دنانير ، فتردد جمال الدين وقال : « يا حضرة البيك ، إن نعم السلطان من قصرٍ وفرش ، وخدم وحشم ، ومركبة لم تترك مجالاً لمثل هذا المال » .

قال القرين « يا حضرة السيد ، عطاء السلطان لا يرده إنسان » .

فأتانا جمال الدين وبيده الكيس وقص علينا ما جرى وقال : « عد هذه الدنانير يا شيخ بني مخزوم » فاذا هي خمسمئة ذهب عثماني ، قال ماذا نصنع بها ؟ قلت : جبتان ، والباقي ترصده للسيغار .

قال : لما ذكرت راتباً شهرياً ، ولا ينبغي أن نهتم بالأمر كثيراً ، سوف يظهر الأكفاء لهذه الدنانير فتوزع عليهم . وفي الحقيقة لم يمض شهر حتى وزع المال على أهل الفضل والأدب المعوزين .

هكذا دام إقبال السلطان عبدالحميد على جمال الدين ، وهو لا يدخر نصحاً وتنويهاً بالخائنين ، والسلطان يعلم من خيانتهم أكثر منه . طالما شكا له أعمالهم ، حتى قال يوماً : يا جلالة السلطان ، مللت من تماطينا الشكاية ، ومن غيرك صاحب الأمر ؟ خذ بحزم جدك محمود ، وأقصِ الخائنين من خاصتك ، الذين يمدون عن بلاطك ، حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال في الولايات وهم صنائعهم وجباة جيوبهم الخاصة ، خفف الحجاب عنك، واظهر للملأ ظهوراً ، يقطع من الخائنين الظهور ، واعتقد أن نعم الحارس الاجل (فإذا جاءَ أجلُهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ...)

قال : عند ذلك تنفس السلطان الصعداء وقال : « ذكرتني في عهد جدي محمود . وما أبعد الفرق بين محيطي ومحيطه ، بين حالة أوروبا في زمانه ، وحالتها اليوم ، بين رعيته والرعية اليوم .

كان الفساد في عصره ، منحصراً في فئة العساكر (الانكشارية) (يكي چري) فطهرها بالسيف واستبدلها بخير منها ، وكان المجموع صالحاً ، بعكس ما أنا فيه يا جمال الدين . ما استبدلت وزيراً بآخر إلا ورأيت من مساوىء الخلف ، ما أسفت معه على السلف

(كلما دخلت أمة لعنت أختها) ولا مناص من الصبر ، وسأعمل إن شاء الله على التدريج (وكان أمر الله مفعولا) .

« كلفتك يا حضرة السيد ، أن تقبل مشيخة الاسلام فتصلحها فأبيت واعتذرت ، إذ طلبت أن تعمل عملاً أساسياً ، فتغير معه الشكل الحاضر ، وهذا مما لا يسمح به الزمن مع غوائله . فعذرتك بعدم القبول ، فاعذرني إذا لم أقدم على التغيير بسرعة ، لا تتناسب مع الزمان والمكان .

ولا بد من كارثة تحدث فتشغل أوروبا عنا ، ونغتنم بها فرصة نصلح فيها أمرنا ، ونلم شعثنا إن شاء الله » .

في الحقيقة ان جمال الدين ، لم يقبل ما كلفه جلالة السلطان به من الوظائف والرتب والنياشين ، معتذراً بقوله :

إن وظيفة العالم ليست بمنصب ذا راتب بل بصحيح الارشاد والتعليم ورتبته ما يحسن من العلوم ، مع حسن العمل بالعلم .

أما ما دار من الأحاديث المهمة بين جلالة السلطان وجمال الدين فستأتي في فصول هذا الكتاب .

مرضه الأخير ووفاته رحمه الله

مكث جمال الدين في الاستانة ، زهاء أربعة أعوام ، لم تمر منها دقيقة ، إلا وأفاد فيها وأرشد ، ووعظ ، وحذر ، وأنذر ، وأدى الأمانة حقها ، حتى داهمه داء السرطان في فكه الأسفل ، وعُملت له ثلاث عمليات جراحية ، بيد أشهر الأطباء ولم تنجح ، فمات رحمه الله في ٧ شوال سنة ١٣١٤ هـ و ٩ مارس ١٨٩٧ م .

كان لفقد جمال الدين في الاستانة رنة حزن وأسف في قلب كل فاضل ، وقد مشى في جنازته العلماء والوزراء والأكابر والأفاضل ودفن في مقبرة في محلة ماشقه .

وقد رثاه شقيقي المرحوم مصطفى المخزومي بهذه الأبيات ارتجالاً :

جمال الدين أردتـــه المنون	فعم الخطب فالدنيا أنـــين
إمـام بالعلوم ولا خلاف	وفي شرع الأمين هو الأمين
هو العلم الذي عمرت بذكرى	فضـائله المحافل والحصون
حفيد محمـد وكفاه فخراً	وهل بعد الكتاب يُراد دين
على خير الخلائق من إلـــه	تحيـات يطيب بهـا الحزين
وآل البيت ما نظمت مراثٍ	وما حرقت مآقيها العيون
تحيط ضريح من أحيا المعالي	ومن في جنة المولى مكين

صفات جمال الدين — ومذهبه — وآماله — ومنزلته من العلم

أما صفاته الشخصية : فهو يمثل لناظره عربياً محضاً ، من أهالي الحرمين ، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سكنة الحجاز ، ربعة في طوله ، وسط في بنيته ، قمحي في لونه ، عصبي دموي في مزاجه ، عظيم الرأس في اعتدال ، عريض الجبهة في تناسب ، واسع العينين ،عظيم الأحداق، ضخم الوجنات ، رحب الصدر جليل في النظر ، هش بش عند اللقاء قد وفاه الله من كمال خلقه ما ينطبق على كمـال خلقه ، نافذ اللحظ جذاب النظر مع قصر فيه ، فإذا قرأ أدنى الكتاب من عينيه ، ولكنه لم يستعمل النظارات ، خفيف العارضين ، مسترسل الشعر يتسرول جبة سوداء تنطبق على الكاحلين ، وعمامة صغيرة بيضاء .

وأما مذهبه فحنيفي : حنفي المذهب ، وهو وإن لم يكن في عقيدتـه مقلداً كما سبق القول لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية . شديد الحرص والمثابرة على أداء الفرائض في مذهبه ، محافظاً على أصوله وفروعه. أما حميتـه الدينية فهي مما لا يساويه فيها أحد ، يـكاد يلتهب غيرة على حـكمة الدين ووقاية القائمين بهـا بحق والأخذ بناصرهم .

أما آماله ومقاصده : فيصح القول بأنها انحصرت في مطلب رئيسي وإليه وجّه كليته ، وصرف أفكاره ، وأخذ على نفسه السعي مدة حياته ، ولا نغالي إذا قلنا أن كل ما أصابه

من البلاء إنما أصابه في سبيله وهو : إنهاض دولة إسلامية من ضعفها، وتنبيهاللقيام على شؤونها، حتى تلحق الأمة بالأمم الراقية ، والدولة بالدول القوية ، وحل العقول من قيود الأوهام ، وتوحيد وجهة الشرقيين فيعود لهم مجدهم . وله حملات هائلة على سياسة بريطانيا العظمى في الأقطار الشرقية ، وفي هذا المطلب والمسعى من قصد وآمال ، قد انقطع جمال الدين عن المألوف في العالم ، فلم يتخذ زوجة ، ولا التمس كسباً .

نعم إنه لم يتوفق إلى كل ما أراده ، ولكنه بث في نفوس الاصدقاء والمريدين روحاً حية ، وبذوراً طيبة ، انتفع منها الشرق في عاجل ثمراتها ، ولسوف ينتفع بالآجل من الغرس إن شاء الله .

مناقبه : — كانت مجالسه لاتخلو من الفوائد العلمية اياً كانت ، بعيدة من اللغو ، منزهة عن اللهو ، كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم ، ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ، ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم إذا ظن في زيارته تزلفاً . وكان ذا عارضة وبلاغة لايتكلم إلا اللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية ، وإذا آنس من سامعه التباساً بسط مراده بعبارة أوضح ، فاذا كان السامع عامياً تنازل إلى مخاطبته باللغة العامة ، خطيباً مصقعاً لم يقم في الشرق أخطب منه ، قليل المزاح ، رزيناً ، كتوماً لمن استكتمه . كان قانتاً ، قليل الطعام لايتناوله إلا مرة في النهار ، ويعتاض عما يفوته من ذلك بالشاي فيشرب منه مراراً في اليوم، ويدخن نوعاً من السيكار الافرنجي الجيد. ولشدة ولعه في التدخين وعنايته في انتقاء نوع السيغار لم يكن يركن إلى أحد من خدمه في ابتياعه ،فيبتاعه هو بنفسه (قال طبيبه الخاص : إن شدة ولع جمال الدين بالسيغار الافرنجي وكثرة شربه للشاي وتناوله الطعام مالحاً ، كان من مسببات السرطان ، ولا أدري مبلغ هذا القول من الصحة) .

أخلاقه : — أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته ، حرّ الضمير ، صادق اللهجة عفيف النفس ، رقيق الجانب ، وديع مع حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع ، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه ، فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب ، فبينا هو حليم أواب ، إذا هو أسد وثاب ، كريم يبذل ما بيده ، قوي الاعتماد على الله لايبالي ما تأتي به

صروف الدهر ، عظيم الامانة ، سهل لمن لاينه ، صعب على من خاشنه ، طموح إلى مقصده السياسي الذي سبق ذكره ، إذا لاحت له بارقة منه ، تعجل السير بالوصول اليه ، وكثيراً ما كان التعجل علة الحرمان ، قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن الغرور بزخارفها ، ولوع بعظائم الامور معرض عن صغارها ، ثابت الجأش ، شجاع ، مقدام لايهاب الموت كأنه لا يعرفه ، قد يساق إلى القتل فيسير اليه سير الشجاع إلى الظفر .

الا أنه حديد المزاج و كثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة ، ولكنه في آخر سني حياته صار في رسوخ الاطواد .

فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ ، لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزاً أمنع ، من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر ، وبالجملة فضله كمله ، والكمال لله وحده .

علومه : اما منزلته من العلم وغزارة المعارف ، فليس يحدها بليغ ، إلا نوع من الاشارة اليها . لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وإبرازها في صورها اللائقة بها ، كأن كل معنى قد خلق له . وله قوة على حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفك عقدها ، كل موضوع يلقى اليه ويدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتي على أطرافه ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه . إذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ؛ ثم له في باب التصور والخيال قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم الصنع والابداع ، له لسن في الجدل ، وحذق في صناعة الحجة ، لايلحقه فيها أحد إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه ، وكفاك شاهداً على ذلك أنه ما خاصم أحداً إلا خصمه ، ولا جادله عالم إلا ألزمه ، وقد اعترف له الأوروبيون بذلك ، بعد ما أقر له الشرقيون . وبالجملة فاني لو قلت أن ما آتاه الله من قوة الذهن ، وسعة العقل ، ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الانبياء ، لكنت غير مبالغ (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

أما قوة ذاكرته ، فلا أدل عليها . من تعلمه اللغة الفرنساوية ، في أقل من ثلاثة أشهر ، حفظ في خلالها شيئاً كثيراً من مفرداتها ، وصار قادراً على الترجمة منها ، وإفادة مراده بها ، بلا أستاذ ، إلا من علمه حروف هجائها بيومين .

واسع الاطلاع في العلوم العقلية ، والنقليـة ، وخصوصاً الفلسفة القديمة فلسفة تاريـخ الاسلام ، والتمدن الاسلامي ، وسائر أحوال الاسلام والمسلـــين ، كان يعرف اللغات الأفغانية ، والفارسية ، والعربية ،والتركية ، والفرنساوية جيداً ، مع إلمام باللغتين الانكليزية والروسية ، كثير المطالعة ، لم يفته كتاب كتب في آداب الامم وفلسفة أخلاقهم إلا طالعه .

نعم لم يتوفق إلى كل ما أراد ، وقضى ولم يدون إلا رسالة في إبطال مذهب الدهريين ، سنأتي على ذكرها كما ذكرنا ، ولكنه بث في النفوس روحاً حيةً ،انتفع الشرق وأهـله ببعضها وسوف ينتفع بأجمعها .

وقبل أن نختم سيرة جمال الدين ، نأتي على ماذكره أدباء العصر ممن عاصره ،وفيمقدمتهم فقيد الأدب أديب بك إسحق ، ونقلته مجلة الهلال مع تصرف حيث قال :

قد تمر القرون وتتوالى الأجيال، والناس على ماساقتهم اليه الحاجة ، من شؤون معائشهم لا يفقهون غثها من سمينها ، ولا يدركون مبدأها ولا مصيرها ، حتى تتمخض الطبيعة ، فتلد من أبنائها أفراداً يميطون عن أسرارها اللثام ، فيرى الناس من ورائه شرائع ونواميس كانوا عنها غافلين ، أولئك هم أقطاب العلم وأنوار العالم ، ومنهم الفلاسفـة الطبيعيون ، الذين مزقوا أستار الجهل ، وكشفوا غوامض الطبيعة ، فمهدوا سبل الاختراع والاكتشاف ؛ ومنـهم الفلاسفة العقليون ، الذين استطلعوا أسرار الحكمة المستترة وراء تلك النواميـس ، وبينوا ما أودعه الخالق في خليقته ، من المواهـب العقلية ، والمكتسبات الأدبية ، ولكـن الطبيعة لاتجود بواحد من أولئك الأفراد ، إلا كل بضعة أعصر ، فيسير الناس على خطواته أجيالاً حتى إذا كادوا يرجعون إلى غيهم ، جادت عليهم بآخر ، ينفث فيهم روحاً حيةً ، فيهبـون من رقادهم ، ويعودون إلى رشدهم ، ربما يأتيهم ثالث .

هـكذا كان شأن العالم من بدء عمرانه ، ومن أولئك الفلاسفة ، سو قراط وأفـلاطون وغيرهما من فلاسفة الفرس والعرب من علماء المعقول والمنقول ممن لانزال نستضيء بنبراسهم.

ولكن لله في خلقه حكمة لا تدركها العقول ،فقد ينبغ في بعض الأجيال أفراد، توفرت فيهم قوى الفلاسفة ، ومواهب رجال الأعمال ، فتحيط بهم آفات تحول دون نمو مايغرسون، فيكمن في الأرض مدفوناً إلى الوقت المرهون .

ولما كان الانسان لا يقدر العمل الا بنسبة ما يترتب عليه من الفائدة كان نصيب كثيرين من عظماء الأرض ، جهل الناس حق قدرهم ، كما هو الشأن بفيلسوف الشرق وخطيبه ، السيد جمال الدين الأفغاني ، إذ نشأ قطباً من أقطاب الفلسفة ، وعاش ركناً من أركان السياسة ، ولكنه لم يتم عملاً ، ولا ألف كتاباً غير تلك الرسالة . على أن ذلك لا يحط من مقامه وقد رأينا أعظم الفلاسفة (سقراط)، مات ولم يدون شيئاً من كلامه ، ولكن تلامذته حفظوا فلسفته ودوّنوها ، فتوارثتها الاجيال خلفاً عن سلف ، فعسى أن لا نحرم ،من مريدي الاستاذ جمال الدين ، وتلامذته ، من يفعل مثل ذلك . اهـ .

بقي علينا ، أن نؤدي الانصاف حقه بالاتيان على كل مناقب السيد جمال الدين ، فنرى له وصفاً ، لو سكتنا عنه ، سئلنا عن إغفاله ، وهو أنه كان في أكثر الأمصار ، والعواصم يتوسع في إتيان بعض المباحات كالجلوس في المتنزهات العامة والاماكن المعدة لراحة المسافرين، وتفرج المحزونين ، لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار . وكان السيد حيثما حل من تلك المجالس والاماكن ، يتحول ذلك الموضع إلى حلقة علم ، ومذاكرة أدب ، وحلقة درس ، يستفيد كل من يسرع إليها من طلاب الفوائد العلمية ،والمقدرين لمنزلة السيد .

هذا الوصف الوحيد الذي ربما عده عليه بعض حاسديه ، نقصاً للكمال وأحبوا انتقاص قدره ، من هذا الباب ، وقد جهلوا أن الله يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه .

وأي غضاضة على المؤمن في أن يفرج بعض همه بما أباح الله له .

هذا مجمل ما قيل ، وما علمناه من سيرة وأحوال السيد جمال الدين الافغاني ، أتينا به ، دفعاً لما افتراه عليه ، الجاهلون لحقيقته ،المتخرصون تارة بمروقه من الدين ، وأخرى بضعف اليقين . وهذا يكفي على معتقدنا لذوي اللب أن تقوم منه لهم حجة على صفاء جوهر جمال الدين ، ولا تترك للشانئين أدنى مجال يجولون به على فضله وما الفضل إلا من عند الله والله ذو الفضل العظيم اهـ .

آراء جمال الدين

رأيه في الاسرار والاعلان : يرى المتأمل في أخلاق وصفات جمال الدين ، شيئاً من التناقض فيراه مثلاً كريماً لحد الاسراف ، وفي بعض الأحيان بخيلاً لدرجة التقتير ؛ متواضعاً مع الوسط ومن دونهم من الخلق لدرجة الذل ، متكبراً على العظماء لحد التجبر كما ذكر ؛ كتوماً لمن استكتمه قياماً بالأمانة ، جهرياً بآرائه وأفكاره الخاصة ، حتى تحيرنا في أمر تأويلها ؛ لان من لوازم الحكيم والحكمة ، الكتمان على مذهب الجمهور فلما كوشف في هذا الشأن قال :

لا أرى في هذا الكون من القول أو الفعل ما يكون كتمانه لازماً ، إلا ما كان في علانيته شيناً ، ومعرة . ولا يكون الكمال النسبي في البشر إلا متى كثر إعلانهم . فدولة تكتم عن أمتها كل أمورها ، لاخير فيها ، ولا هي بالدولة الأمينة من أمانتها ، وحسن تصرفها ورجل يرى كل شيء يقال له ، أو يحب أن يقوله ، سراً مكتوماً ، لايرجى الا نفاقه ، وما هو بالرجل الرجل ، ولا يشبه رجل ، ومن أحب فليعلن ؛ والمحبة هنا على مطلق المعنى، لكل شيء حق ، ومستحسن بالفطرة من أقوال وصفات وذات .

فمن أحب الصدق من القول لايكتم به ، ولا يخشى بأساً من إعلانه ، وبالعكس إذا أحب الكذب والكاذب ، فخليق به ان لا يعلن ذلك ومن أحب فاعل الخير ، لا يرى حرجاً في إعلان حبه له الخ .. أما القبيح من كل شيء والخوض فيه ، فلا يسعه الا التستر والكتمان ثم قال :

وأحسن ما سمعت في وصف المروءة قولهم : ان لاتعمل في السر ما تستحي منه في العلانية .

وبعد هذا ، فمن شاء فليكتم ومن شاء فليعلن .

قلنا إذاً أيها الأستاذ الحكيم : من الأشياء ما ليس بالقبيح ولكنه يجب كتمانه بدليل قوله « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » . ثم مسألة الحروب ، وتدبير أمورها وضرورة كتمان الرأي فيها ، أمر ظاهر لزومه .

قال : أما الحاجة من حيث هي حاجة فهي « ذل » والذل قبيح من حيث هو وأقل الناس حوائج أكثرهم جهراً ، وأكثرهم حوائج أكثرهم كتماناً . دونكم وقوف اسكندر الكبير على « ديوجينوس » وهو في « برميله » وحصر مطلبه ، أن لا يحول بينه وبين شمسه .

أما القول في الحروب فهي عندي ، من أقبح ما عمله ويعمله الإنسان في الأرض ، وهي وحدها أحق الأعمال بالكتمان لفظاعتها ، وأجدرها أن لا تظهر لعالم الفعل .

غرض جمال الدين الأفغاني في حياته :

قال : وأول نظرة نظرتها في الكون وفشلت بها ، أنني وضعت الكرة الأرضية بين يدي ، وقستها ببعض الاجرام ، فرأيت منها ما يكبر الأرض ، بمئات الملايين من المرات ، ثم تمعنت فيما حوته من الحيوان الناطق (الإنسان) فوجدته لا يتجاوز الألف وخمسمئة مليون تقريباً ، وهو مقدار زهيد بالنسبة لسطح الأرض .

ثم افترضت ذلك الجرم الذي يكبر عن الأرض بمئتي مليون مرة ، وأن الرجل هناك يعيش ألف سنة ، وأن ذلك الرجل صاحب أراضٍ واسعة فيه ، فتخيل لي أنه يملك من الأراضي ما مساحتها مساحة الكرة الأرضية ، وأن أولاد وأحفاد أحفاده ، من الممكن أن يبلغ عددهم ، إذا ازدوج بمئات من النساء مع طول العمر ، عدد أهل الأرض هذه ، أو ما يزيد . فإذا صح مع هذا الخيال ، أن تكون الأرض برمتها ملكاً لرجل ، في قرية من جرم المريخ مثلاً ، ونسله عدد أهل الأرض ، هل يكون بين أهل تلك القرية الذين هم أبناء رجل واحد ، مثل ما هم عليه أهل هذه الكرة من الاختلافات ؟!!

أجابني الخيال : كلا ! بل يكون كل أهل القرية آمنين مطمئنين ، لا تحاسد بينهم ولا هم يحزنون ، يغرسون ويزرعون ، ويجنون فيأكلون ، لا يعرفون للحرب معنى ، إذ لا ملك

عليهم وليس بينهم أولي مطامع . ملك شاسع واسع ، وخيرات مما يشتهون يعبدون مع أبيهم صاحب القرية إلـهاً واحداً ، خالق الكل ومبدع الكائنات .

قال : ثم رجعت لأهل جرم الأرض ، وبحثت في أهم ما فيه يختلفون فوجدته (الدين) فأخذت الأديان الثلاثة ، وبحثت فيها بحثاً دقيقاً مجرداً عن كل تقليد ، منصرفاً عن كل تقيد ، مطلقاً للعقل سراحه . فوجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان ، أن الأديان الثلاثة ، الموسوية والعيسوية ، والمحمدية ، على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية . وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق ، استكملته الثانية .

وإذا تقادم العهد على الخلق ، وتمادوا في الطغيان ، أو أساءت الكهان فهم الناموس ، أو أنقصوا من جوهره، أقام رسولا بأرفاد وتأييد، فأكمل لهم ما أنقصوه، وأتم بذاته ما أهملوه.

وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير ، أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها ، وأن بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطى نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة .

قال : وأخذت أضع لنظريتي هذه خططاً ، وأخط أسطراً ، وأحبر رسائل للدعوة ، كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكثب ، ولا تعمقت في أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد ، وتفرقهم فرقاً ، وشيعاً وطوائف .

ولكن لما علمت أن دون اتحاد أهل الأديان ، تلك الهوات العميقة ، وأولئك المرازبة الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة « حانوت » وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة، ورأس مال تلك التجارات ، ما أحدثوه من الاختلافات الدينيـة والطائفية والمذهبية ، على حد قول الشاعر :

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره	وقد فتحت لك الحانوت في الدين
صيّرت دينك شاهيناً تصيد به	وليس تفلح أصحاب الشواهين

علمت أن أي رجل يجسر على مقاومة التفرقة ، ونبذ الاختلاف ، وإثارة أفكار الخلق، بلزوم الائتلاف ، رجوعاً إلى أصول الدين الحقة ، فذلك الرجل هو هو يكون عندهم قاطع

أرزاق المتجرين في الدين ، وهو هو في غرفهم ، الكافر الجاحد المارق ، المخردق المهرتق، المفرق ... الخ

ولما انتهى بي العلم إلى ذلك الحد ، انقلبت أفراحي بالخيال أتراحاً ، ورجعت عن نظريتي ، والفشل ملء إهابي وجبتي .

ثم جمعت ما تفرق من الفكر ، ولممت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتني الأفغان ، وهي أرض مس جسمي ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلي ، فايران بحكم الجوار ، والروابط وإليها كنت صرفت بعض همتي ، فجزيرة العرب ، من حجاز مهبط الوحي ومشرق أنوار الحضارة ، ومن يمن وتبابعتها ، وأقيال حمير فيها ، ونجد ، وعراق ، وبغداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها والأندلس وحمراؤها ، وهكذا كل صقع ودولة من دول الاسلام في الشرق وما آل اليه أمرهم فيه اليوم .

فالشرق ! الشرق ! وقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه ، وتحري دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض في سبيل توحيد الكلمة فيه ، داء انقسام أهليه وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا ، ولا تقوم على هذا لقوم قائمة .

نعم عُرف جمال الدين بغرضه ، وسعيه الحثيث ، لجمع شتات أهل الشرق ، وإيقاظ الهمم من أهله ، والاشراف بهم على الخطر الغربي ، المحدق بكيانهم ، والآخذ بخناقهم ، ليعملوا على جمع كلمتهم ، ويأخذ كل ملك ، أو أمير في الشرق على ترقية شعبه وتحسين ملكه ، وتحصينه بالحكم الشوري الدستوري ، وتمكينه بما يربط الاقرب فالأقرب ، ويقويه بالتحالف والاتحاد حتى يرجع الكل ، إلى الانضواء تحت راية الخلافة العظمى .

هذا مختصر مرتآه ، وكان لا يقنط من الوصول اليه ، بدليل سعيه المتواصل ، وتحمله أنواع المكاره ، والمصائب ، والنوائب ، في سبيل ذلك المطلب .

نعم كان يراه بعيداً ، ولكن ما كان ليراه مستحيلاً ، بل رأيناه يستبشر بكل ضغط ، وعسف ، وجور ، يحصل على الممالك الشرقية من الدول الغربية ، ويقول :

« بالضغط والتضييق تلتحم الاجزاء المبعثرة ،والأزمة تلد الهمة» ، وسيأتي تفصيل ذلك في بحثه عن الانكليز ومصر .

رأيه في الاحزاب السياسية في الشرق :

قال :

الاحزاب السياسية في الشرق نعم الدواء ، ولكنها مع الأسف لا تلبث حتى تنقلب إلى بئس الداء .

نحسن نحن الشرقيون تأليف الأحزاب السياسية ، لطلب الحرية والاستقلال ، وكل العالم لنا أصدقاء ، ونضطر لتركها والكل لنا أعداء .

والسبب العامل في ذلك عدم التكافؤ في القوى بين الأمة وأحزابها السياسية .

يقوم الحزب السياسي بعنصر ضعيف ، أو بأفراد قلائل ، بينهم اللسن والمحنك،ويعلنون تفانيهم بخدمة الأمة لتحريرها من ربقة الاستعباد والاستبداد ، ويسرون خدمة أنفسهم . فتتألف على أهل الحزب القلوب وتجتمع حولهم الكلمة ، بسوق الضرورة وداعي الحاجة ، ويستحسن عملهم الغريب ، ويهوسهم الدخيل ، شأن الحوادث المستجدة ، في انقلاب الأمم من طور إلى طور .

فالأمة تتخيل من وراء وعود الحزب ، سعادة ورفاهاً وحرية ً واستقلالاً ومساواة ً على أوسع شكل قد لايمكن حصوله في البعيد الآجل ،فضلاً عن القريب العاجل .فيؤازرون الحزب بكل معاني الطاعة والانقياد والنصرة والتضحية .. الخ فاذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة ، واستحكم له الامر ، ظهرت هنالك في رؤساء الاحزاب ، الأثرة والأنانية ، ومد حب الذات عنقه ، فتتقلص من القلوب تلك الطاعة وتنكش النفوس عن ذلك الانقياد ، وتحصل بالنتيجة النفرة العامة ، فنضطر عندئذ لترك الحزب، وينفرط بالطبيعة عقده ،والكل له أعداء .

وضرب لنا عدة أمثلة ، منها ما حصل في الأفغان وغيرها وما حصل في حوادث عرابي وحزبه في مصر ... ثم قال : لا ينبغي أن يؤخذ من قولي هذا أن لا فائدة من الأحزاب

على مطلق الرأي والمنى ، فان الشرق بعد أن أخنى عليه الدهر بكلكله ، ومرت عليه زلازل العسف والجور ، وأشكال الاستبداد ، حتى تأصل في نفوس أبنائـه بذور الذل والاستكانة لكل قوي اكتسح بلاده ؛ إن هذا الشرق وهذا الشرق لا يلبث طويلاً حتى يهب يوماً من رقاده ، ويمزق ما تقنع وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل ، فيأخذ في إعداد عدة الأمم الطالبة لاستقلالها ، المستنكرة لاستعبادها .

على هذا الأساس الاجتماعي التدريجي ، لا مانع يمنع الشرقي من الانخراط في الحزب بعد الحزب ، ويقبل من المواعيد ما يصدق وما لا يصدق ، حتى يظهر في الشرق ما ظهر في الغرب من أفراد يرون الموت في حياة وطنهم مغنماً ، والحياة في موت وطنهم مغرماً .

حينئذ يكون الشرق قد تسنى له وجود الحزب الذي هو نعم الدواء من داء استعباده ، فيجمع شتات أبنائه الذين كانوا أذلة ، ويصيرهم بنعمة الاخاء والاتحاد والتعاون أعزة ، بلادهم لهم وهم لبلادهم نعم الأمناء ، يعملون متضامنين على صالح مجموعهم ، ونصرة مظلومهم ، يأخذون ما لهم من حق ، ويؤدون ما عليهم من واجب وهم لا يحزنون .

رده على من زعم أن حكمته بلسانه أكثر مما هي من قلبه .

خالف جمال الدين أهل عصره ، بكثير من الصفات ، ولو جاراهم وحاكاهم في كل ماهم فيه من المزايا ، لما كان له تلك الميزة ، ولا نوه بذكره وحسب من أكبر حكماء هذا العصر .

كان — كما ذكرنا — جهرياً ، متسرعاً ببادرات ذهنه وآرائه ، يجهر بها ولو كان بها كل خطر وضرر .

فزعم الكثيرون من مريديه أن حكمته بلسانه ، أكثر مما هي من قلبه وكاشفه بعضهم بقوله : لا أحد ينكر أن الاستاذ لم يقم نظيره في عصرنا حكيماً اجتماعياً ، جاب البلاد ، وتحمل جفاء العباد ، لمطلبه الشريف ، وغرضه الأسمى ، ولكن نراه يقول من الحكمة ما لا تنفع قائلها ، وتضر في الغالب من قيلت له ، فيحمل سامعه على التشاؤم ، ويقتحمها مغرراً بنفسه من غير جدوى ، ذلك مما دلنا على أن حكمته بلسانه أكثر مما هي من قلبه .

فلم يرق لجمال الدين هذا القول ، وظهرت على وجهه علامات الغيظ وعدم الرضى فقال :

لا ينفع في الشرق لسان ولا قلب ، طالما خلق المالك والمملوك ، الامير والصعلوك ، العالم والجاهل ، سواء في العالم الصوري .

يرون في الحقيقة مرارة ، وفي الوهم حلاوة ، وفي الذل الهناء ، وفي طلب العلى والعز الشقاء والعناء .

كل مسلم مريض ودواؤه في القرآن وما على طالب الحكمة إلا أن يتدبر معانيه ، ويعمل بأحكامه .

فهل المسلمون اليوم عاملون بما جاءهم به محمد ﷺ أو مقتدون به كما اقتدى به الاصحاب أو التابعون .

أم تقولون إن محمداً لم يكن حكيماً حكمته من قلبه ، تلك الحجة الواهية لمرضاء القلوب ، وساقطي الهمم ، ومتكأ أهل الذل .

ياقوم ان محمداً جاء نبياًمرسلا ، وقبل النبوة كان أميناً صادقاً ، لم يقنع بأسود بيته ،مثل عمه حمزة ، وابن عمه علي بن ابي طالب ، وأبطال قريش والانصار ؛ أن يخوضوا وحدهم غمرات الموت في الحروب لمن تحداهم وناهضهم من كفار قريش ، بل هو ،بذاته الكريمة ، وقد أفرغ عليه الدروع ، وتقلد الصارم البتار ، واقتحم الوغى ، فتكسرت ثناياه وتخضب وجهه بالدم ، انتصاراً للحق ومقاومة للباطل ، علمكم بنفسه وأرشدكم بقوله وفعله .

أين المسلمون اليوم ، من شيء من هذا الاقدام وتلك الهمم .

وا أسفاه !! بئس الخلف نحن ، ونعم السلف من قد سلف . ترتعد فرائصكم إذا سمعتم ذكر ما أنتم فيه من غريب الذل ، خوفاً من أن تدعوا لنزع نيره عنكم ، فترجعون إلى بارد القول ، وسفيه الرأي ، فتطلبون حكمة من قلب لا حكمة من لسان ، قل من كان على هذه الشاكلة من إنسان .

فندم من تحرش بالسيد وعلم أن قوله الحق .

رأيه في مصر والمصريين وصورة الحكم الذي يجب أن تحكم فيه مصر خصوصاً والشرق عموماً :

كان جمال الدين محباً لمصر وللمصريين ، شديد الارتباط بهم ، كثير البحث في القضية المصرية ، وما آل الأمر من سقوطها بين براثن بريطانيا ، ويذكر خطيئات للدولة العثمانية كان بالإمكان إذ ذاك تجنبها . ويعد عدم إرسال الدولة جيشاً لتسكين فتنة عرابي من أكبر الهفوات ومن أعظم الأدلة على سفه السياسة والتفريط .

وكان يقول :

« كأن القوة الفرعونية أخذت على الدهر عهداً أن لاتبرح وادي النيل ، فكلما قضى فرعون تقمص بآخر ، وكلما انقرضت عائلة فرعونية ادعت إرثها عائلة ، وجاءت ولو من وراء البحار والتصقت بالنسب الفرعوني ولو بأقل مشابهة ، من خلق الغطرسة والتأله على الناس . وكثيراً ما كان يردد « فاستخفّ قومَه فأطاعوه » ... ويقول :

عجيب هو نصيب المنتصر لمصر وللمصريين ، إذا مكث بين ظهرانيهم ، فموسى خرج منها خائفاً يترقب ، متهماً موشى به من مظلوم نصره على ظالمه . وفرعون معبود فيها ، ويوسف الصديق زُجّ في السجن متهماً وهو لم يأتِ الفاحشة .

نعم ، في النتيجة حصحص الحق وزهق الباطل . ولسوف تخلص مصر لأهلها إذا هم عملوا بالحزم ، وهيئوا ما يلزم من العزم ، وما يتطلبه حكم الذات من القوى . ولسوف يفعلون ذلك بعوامل الضغط ، والمسك بالخناق ؛ وإذا ما فعلوا واجتمعت الكلمة ، وتوحدت الأهواء نحو الغاية ، حصل البأس . وإذا لم يضعوا هذا البأس بينهم بسوق التحاسد ، أو بفعل الدسائس ، قل تم الأمر وفاز القوم ، ودخلوا في دور الحياة الصحيحة .

لاتحيى مصر ، ولا يحيى الشرق بدوله وإماراته ، إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلاً

قوياً عادلاً ،[1] يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان . لان بالقوة المطلقة الاستبداد ولا عدل إلا مع القوة المقيدة .

وحكم مصر بأهلها ، إنما أعني به ، الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح.ثم قال:

إذا صح أن من الأشياء ماليس يوهب ، فأهم هذه الأشياء (الحرية)و (الاستقلال). لأن الحرية الحقيقية، لايهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر ؛ والاستقلال كذلك .

بل هاتان النعمتان ، إنما حصلت وتحصل عليها الأمم ، أخذاً بقوة واقتدار ؛ يجبل التراب منها بدماء أبناء الأمة الأمناء ، أولي النفوس الأبية ، والهمم العالية .

أما تغيير شكل الحكم المطلق ، بالشكل النيابي الشوري ، فهو أيسر مطلباً ، وأقرب منالاً ، إذ يكفي فيه أحياناً ، إرشاد الملك ونصحه من عقلاء مقربيه ، فيفعله ويشرك معه أمته ورعيته ؛ ويرى بعد التجربة راحة ، وتضامناً على سلامة ملكه ، وعزة بالتفاف طبقات الرعية حول عرشه ، بقلوب خالصة مخلصة ، وحب صميمي . فيكون للملك الدستوري عظمة الملك ، وعلى نواب الأمة أعباء نوائب المملكة ، ودرء المفاسد عنها ، والذود عن سلامتها ، بالأموال والأرواح .

ولكم رأينا من عقلاء الملوك من حكم عقله فأرشده إلى استبدال مطلق الملك ، بالملك الشوري ، فاستراح وأراح .

وهذا هو الشكل من الحكم الذي يصلح لمصر ، ولدول ، وإمارات الاسلام في الشرق .

وبتوضيح وإفصاح :

لا يسلم على الغالب ، الشكل الدستوري الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان ، ويعظم عليه الأمر ، كلما صادمه مجلس الأمة بإرادته ، أو غلبه على هواه .

لذلك قلت : إذا أتاح الله رجلاً قوياً عادلاً لمصر وللشرق ، يحكمه بأهله . ذلك الرجل

---

(١) قلنا إن المتداول بين الناس عن لسانك : « يحتاج الشرق الى مستبد عادل » قال هذا من قبيل جمع الاضداد وكيف يجتمع العدل والاستبداد ، وخير صفات الحاكم « القوة والعدل » ولا خير بالضعيف العادل كما أنه لاخير في القوي الظالم .

إما أن يكون موجوداً ، أو تأتي به الأمة ، فتملكه على شرط الأمانة ، والخضوع لقانونها الأساسي ، وتتوجه على هذا القسم ، وتحلفه أنه يبقى التاج على رأسه ، ما بقي هو محافظاً ، أميناً على صون الدستور ، وأنه إذا حنث بقسمه وخان دستور الأمة ، إما أن يبقى رأسه بلا تاج ، أو تاجه بلا رأس .

هذا ما يحسن بالأمة فعله إذا هي خشيت من أمرائها وملوكها عدم الإخلاص لقانونها الأساسي ، أو عدم قابليتهم لقبول الشكل الدستوري قلباً وقالباً . وإلا فالأمير الصالح القريب ، أولى من البعيد الغريب .

أما الحكم الجمهوري فلا يصلح للشرق اليوم ولا لأهله - وسيأتي بيان ذلك - .

رأيه في الوطن وفلسفته فيه بالنسبة إلى النوع الانساني واعتقاده أن التفرد بالسلطة وسوق الامم على هوى الفرد سيزول من العالم :

من رأي جمال الدين أن العالم الانساني ، من خصائص هيئته الاجتماعية ، أن لا يتيسر للاقليم متى تمصر وتحضر ، أن يحكم برجل من أهله بغير قهر . وله على ذلك أدلة ومقدمات نأتي على مجملها :

لما سألناه : لِمَ قال الأستاذ إذا أتيح للشرق من يحكمه بأهله ؟ ولمْ يقلْ : إذا أتيحَ الشرق أو لمصر رجل منه ، يحكمه بأهله على غير طريقة التفرد بالحكم المطلق ؟ - قال :

خليق بالانسان - كما أنه نوع واحد - أن لا يكون له غير هذه الكرة الأرضية الصغيرة وطناً ، بمعنى أن وحدة النوع ، تقتضي وحدة المكان . فالإنسان طالما لا يمكنه أن يعيش في الماء ، فموطنه إذاً « اليابسة » ، ونتيجة هذه المقدمة أن لا يختص ببقعة منها دون الأخرى ، لولا أن الحكمة قضت ، أن تكون الحواس البشرية ، المعروفة خمساً ، وأن يكون للأقليم خواص خمس ، بها تميزت الشعوب ، والقبائل التي خلقها الله من نفس واحدة ، وتقسم المعمور إلى ما يسمونه ممالك وأوطاناً .

أما الخواص ، فأربع منها تستمد من طبيعة الأقليم ، والخامسة تطرأ فتؤثر ، وهي : « الدين » ويليها « اللسان » و « الأخلاق » و « العوائد » و « الاقليم » وتأثيره على المجموع .

وتحت هذه المؤثرات تحصل للأقوام ميزة، وتتأصل فيهم محبة البقاء على مألوفهم ، والقعود عنه ، واعتبار من خالفه انه ليس منهم، بل هو غيرهم بمعنى الغيرية المطلقة .

فمتى تم لقوم من سكان الأرض ، أو لأهل إقليم أو مصر ، تلك الجوامع أو الخواص الخمس المميزة ، وحصلت المساواة بها بين العموم منهم ، وتأثروا بمؤثراتها ، أصبحت دعوى الكفاءة بينهم ميسورة ، وأمر التميز أو تعين الأفضلية غير ميسور . فإذا أضفنا إلى ذلك : الغرور ، ورضاء كل إنسان عن نفسه ، وتعاميه عن نقص ذاته ـ وبالإجمال ـ التأله الموجود في البشر كما قال ابن خلدون ، علمنا مقدار ما يعانيه الفرد من قوم قد ساوت بينه وبينهم الطبيعة ، أن يظفر بالميزة عليهم، ويرضخهم للاعتراف بها بدون توسط القهر والغلب، أو بدون التذرع بالدعوة الدينية للوصول إلى ذلك الغرض .

فإذا امتنع القهر ، فلا بد من الوفود على القوم ـ فرداً كان أو جماعة ـ بشيء غير ما تعودوا عليه من خواصهم الاقليمية، على شرط أن يكون خيراً مما ألفوه ، ليكون الأخذ به أسرع وللبقاء أدعى .

ثم قال لزيادة الايضاح :

انظروا إلى العالم الغربي ترونه على تقسيماته الحاضرة، واستقلال عناصره بميزاتهم القومية، لما تساووا على الوجه النسبي بالفضيلة ، وأهمها العلم بالواجبات ، سواء كانت لهم ومعرفة وجوه المطالبة بها ، أو عليهم والمسارعة لأدائها ، انتفى من بين ظهرانيهم أمر التفرد بالسلطة، وسوق الأمة على هوى السلطان .

وسينتفي ما بقي في العالم البشري من هذا النوع من الحكم المطلق على سنن التدريج ، ومقتضيات الفطرة .

أصبح الاوربيون اليوم ، والكل في وقت واحد ، حاكماً لنفسه ، محكوماً منها بعامل الحكم الشوري،وصارت كل أمة من تلك الامم في مأمن من أن ترضخها القوى أو المميزات في مجاوريها ، فتستهويها للانقياد لها ، بالاعتقاد أنها من طبقة فوق طبقتها ، لا بفعل الغلب ، ولا بالتشبه والتقليد الأعمى ، لأن الفرق من حيث الفضائل ، وأسباب الرقي نزر يسير ، والعمل بما يستحسنه البعض من الآخر غير عسير .

ومختصر القول أن الحكم للعقل والعلم . ومتى صادفت هاتان القوتان ، حمقاً وجهلاً ، تغلبتا عليهما .

وهكذا القول في حكم الفرد المطلق ، فانه يكون ويدوم ما دامت الأمة تتخبط في دياجي الجهل . ومتى فشى العلم في الأمة فأول ما تناهض ذلك الشكل من الحكم ، وتعمل على التخلص منه (سنة الله في الذين خلوا من قبلُ ولن تجد لسنة الله تبديلاً) .

قوله في تأثير فضائل الوفود والفاتحين وضربه المثل في العرب في فتوحاتهم وانتشار لسانهم .

قال :

لبيان تأثير الوفود على قوم بأحسن مما ألفوه ، وأنه أفضل الوسائل بعد القهر للحكم فيهم ، ولترك الأثر بينهم ، فيكفي لذلك النظر في ظهور الاسلام وفتوحاته حرباً كان أم صلحاً ، وانتشاره في أقل من عصر في أعظم المعمور من الأرض ، فقد عم جزيرة العرب، فالشام ، فمصر ، فالعراقين ، فالهند فأقصى الشرق ، حتى فروق الاستانة ، وها هو قبر خالد أبي أيوب الأنصاري وجامع القمرية المشهور « بجامع العرب » في محلة غلطه من أكبر الشواهد .

نعم إن زحف العرب ووفودهم على البلاد إنما كان لتعميم الدعوة الدينية أولاً ، والا فأداء الجزية للدخول مع القوم في حقيقة المساواة ، وللقيام في حفظ كيان المجموع .

وكان من يقبل الاسلام ، لا إكراه عليه في قبول العادات وتعلم اللسان . كذلك من أدى الجزية ، فلا إكراه عليه في دينه وباقي مميزاته ، بل يبقى على مألوفه ومؤثرات إقليمه وخواصه ، ولا خطر على قلب فاتح إسلامي أن يعمم آداب قومه ولسانهم أو أن يتخذ لذلك أقل الوسائل .

ومع ذلك نرى أن كل من دان بالاسلام ، أو رضي بدفع الجزية قد سارع عن طيب خاطر ، وارتياح عظيم للتعرب .

والسبب في ذلك ، أن وفود العرب حملت معها أخلاقاً فاضلة ظهرت أفضليتها بأجلى

المظاهر مثل الأنفة من الكذب ، والوفاء بالعهد ، ومطلق العدل ، وكمال الحرية ، والمساواة الحقيقية بين الملك والسوقة ، وإغاثة الملهوف والكرم ، والشجاعة وباقي الفضائل من الهيئات المتوسطة بين الخلال الناقصة. وأمر طبيعي ما لهذه الفضائل والصفات من السلطة الادبية على من لم يتخلق بها . لان الانسان انما ينفعل بروحه وشعوره ، والانتخاب الطبيعي فطري في الحيوان ، وأشده ظهوراً ووضوحاً في الانسان . لذلك انعطفت قلوب الأمم ،على استحسان الوافدين من العرب لبلادهم ، سواء فيه البلاد التي فتحت عنوة ، ووضعت فيها الحرب أوزارها أو صلحاً .

وأول مقدمات العادة ، الاستحسان ، ثم المزاولة حتى ترسخ ملكة . والاعجاب بآداب قوم ، باعث على حب التقرب منهم ، وأعظم وسائل التقرب ، التفاهم ، فيتبارزون في تعلم اللسان .

هكذا تم للعرب ورسخ لهم في معظم ما فتحوه من الامصار والبلدان والممالك ، آثار أدبية فضلاً عن الآثار العمرانية ، من لسان وعادة ، وأخلاق ما أمكن استئصالها ، بل بقيت رغم أنوف من دال من بعدهم من الدول ومن هيئات الحكومات المختلفة .

فمصر بينما هي هرقلية رومانية ، ومقوقسها عامل له فيها ، أصبحت في قليل من الزمن إسلامية في الاغلبية ، عربية بالصورة المطلقة ، في كافة مميزات العرب .

وهكذا القول في سوريا والعراق ، وغيرهما بدون أن يبذل في سبيل ذلك التغيير أدنى مسعى ، أو يستعمل له أقل الوسائل كما ذكرنا .

نعم ، إن أكبر حامل ،وأفعل عامل ، على تعرب أولئك الأقوام هو الفضائل الاخلاقية والصفات العالية ، التي كانت تأتي بها العرب مع بأسهم وشجاعة أبطالهم .

تفسيره لما أشكل على المؤرخ والشاعر التركي المرحوم ضيا باشا ، من عدم ترك الاتراك أثراً بعد أن توغلوا فيأوروبا ، ولم يكن لهم ما كان للعرب فتوحاتهم ،وحجج جمال الدين على ذلك .

قال : جاءني يوماً أديب كبير من أدباء الأتراك وبيده كتيب صغير فيه مفكرات ضيا باشا بخطه ، فقرأت ما ترجمته بالحرف :

(توغلنا في الفتوحات حتى توسطنا كبد أوروبا ، ودخلنا « ڤينا » واضطررنا للتخلي عنها وليس لنا ثمة أدنى أثر أدبي أو مادي . وهكذا بالاستدلال ، سيكون حالنا في بقية تركية أوروبا مثل بلغاريا ، والفلاخ والبغدان ، والصرب ،والجبل الأسود ، وغيره من البلدان .

إنه ليحزن المؤرخ كلما تكرر قول الشاعر العربي :

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

أما العرب ففي كل ما فتحوه من البلاد ، حرباً كان أم سلماً قد تركوا من الآثار الأدبية والمادية ، مالا يقوى على ملاشاته الادهار ؛ فالمسلم ، أو المسيحي واليهودي ، في مصر ، والشام ، والعراق ، يحافظ كل منهم قبل كل شيء ، على نسبته العربية ، فيقول « عربي » ثم يذكر جامعته الدينية .

وآثارهم المادية في الأندلس ، لاتقلّ عن آثارهم المدنية في باقي الامصار فهي تنطق بأفصح بيان على مر الدهور أنها حكت من تلك الامة .

والاغرب أن التركي ، والجركسي ، والارناؤطي وغيرهم من العناصر يستعرب متى وجد أوسكن في بلاد العرب بأقرب الاوقات ويمتزج في المجموع حتى تخال أنه « عربي قح » .

وأما في حكمنا فلم نستطع أن نسترك أدنى فئة ممن حكمناهم من الامم بكمال العدل الاسلامي ، والسماح التركي ، ولين الجانب) اهـ .

قال جمال الدين :

لو كان ضيا باشا حياً لازلت له ريبه من حالة قومه الاتراك . قلنا وكيف ذلك ؟ قال :

إن المرحوم ضيا باشا أشكل عليه الامر ، لما اعتقد أن الاتراك قد شابهوا العرب تماماً، بمعنى أنهم دخلوا في دين الإسلام،وجروا على سننهم بالفتوحات، من حيث العدل ولين الجانب .

ولكن فاته ، أن لكل دين لساناً ، ولسان دين الاسلام (العربي) .

ولكل لسان آداب ،ومن هذه الآداب ، تحصل ملكة الاخلاق وعلى حفظها تكون العصبية. فالاتراك أهملوا أمراً عظيماً ، وحكمة نافعة قالها السلطان سليم ، وهي قبول اللسان

لسان الدولة ، وتعميمه بين من دان بالاسلام من الأعاجم ليفقهوا أحكامه ، ويمشوا على سنن الارتقاء ، بعلومه وآدابه ، ومكارم أخلاقه ، ومحاسن عوائد أهله .

فالعرب مانجحوا بفتوحاتهم ، بشكل الدين الظاهري فقط ، بل بفهم أحكامه ، والعمل بآدابه ، وذلك ماتم ولا يتم إلا باللسان وهو أهم الأركان .

قامت السلاطين العظام من آل عثمان ، بفتوحات جليلة ، وعملت خيرات ومبرات جزيلة، وقربوا اليهم من كان في عصرهم من فحول العلماء من المسلمين ، وقد تفردوا إذ ذاك بمعرفة اللسان العربي ، وبعض علومه ، وعرف أولئك الفحول قدر اللسان العربي ، وغالوا في التقدير حتى أنهم كانوا على ماقيل لا يعطون وظيفة علميـــة إلا لمن يحفظ القاموس العربي الفيروزآبادي ، وهذا لو صح ، غلو غير معقول ، وليس هو من الفائدة في شيء .

بقيت الأتراك في فتوحاتهم على تلك الصورة وفي مجموعهم بداوة صرفة ، لم يتخذوا غير القوة المادية آلة ، ولم ينقلوا سواها للبلاد. نعم انهم تدينوا بالاسلام على أبسط حالاته وأشكاله بكمال التعبد ، ولكن على بعدٍ سحيق من فهم معاني القرآن ، وآداب اللسان .

والعرب لو كانوا مثلهم ، لما استطاعوا أن يكونوا أحسن أثراً منهم ، ولما كان لهم حضارة ولا مدنية ، ولبقوا بداوة محضة ، همهم فتح البلاد للاستغلال ، وجمع الأموال للرفاه والترف ، أو للبذخ والسرف . الأمر الذي قضى على الدول التي خلت قبل الاسلام وبعده ، والتي ما كان ليقضى عليها بسواه .

فالانهماس في السفه والترف ، والبذخ والسرف من العوامل الاساسية في حالـــتي الاضمحلال والانقراض ، وأقل نتائجه صرف الهمم عن معالي الامور ، وعدم الاكتراث بما يحتاجه الملك من التعهد بأسباب دوام العمران .

وأشد ما فيه من المخاطر ، احتقار مطالب الجمهور التي كلما تمادى الملك المحجب وعونته المترفين المسرفين في إهمالها والضغط على طالبيها ، تحتشد الاحقاد في الصدور وتستحكم منهم النفرة ، ولا يلبث كل ذلك طويلاً حتى يظهر في حين لا يرقبه الملك المستبد ولا أعوانه الذين غصبوا حق الامة وهضموا حقوقهم العامة بصفتهم « خاصة » .

فالأتراك قد اتفقوا شكلا مع العرب ، والنتيجة من حيث هي نتيجة مؤلمة فواحدة للقومين وللأمتين .

آما فضل العرب بترك الآثار العمرانية والأدبية ، فليس له كبير أهميـة بالنظر إلى نتائج الأمور ومصيرها كما سيأتي بيانه .

استنتاجه أن ترك الأثر مع التفريط في صون الملك وعدم حفظه أدعى للتأثر وليس فيه شيء من الفخر .

قال : إن عدم ترك الأتراك أثراً بعد أن توغلوا في فتحهم لأوروبا ، ودخولهم « اثينا» وتخليهم عن تلك الأمصار بدون آثار أدبية أو عمرانية لا يعد حطة ، كما أن بقـاء آثار العرب في الاندلس لايحسب لهم شرفاً ، بعد أن استؤصل ظلهم وزال ملكهم وانقرضـت دولتهم ، بل في معتقدي أنه من أقدس واجبات من استطاع أن يأتي بتلك الآثار ، وتجشم لابرازها وإبداعها تلك المهالك والاخطار والاموال ، أن يعد لحفظها في حوزته وتحـت سلطانه ما استطاع من قوة ، لا أن تبقى أثراً بعد عين .

والأثر في مثل هذه الحال أدعى للحزن لانه أفصح من كل بلاغة على التفريط ،وأنطق على السفه وعدم الكفاءة من كل حجة وبرهان . بل أرى أن عدم ترك الأثر على هذاالنمط أولى من تركه ، لعدم التأثر - وإن خالف هذا القياس بعض الاوروبيين - .

فالافرنسيس مثلاً ، ألف مهرة كتبتهم شناعات الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠ ،وصوروا ضعفهم تجاه الالمان ، وعدم تدبرهم للأمور ، وهفوات قوادهم وأسباب خذلانهم ، وما أتاه عدوهم من الجرائم والتمثيل ، بصورة أفظع من أن يصورها العدو الالماني ، فهم يذكرون ذلك ليثأروا ولكن على اهتمام متواصل ، لترقي الأمة ، وإعداد مايستطيعون من قوة .

وأما العرب والترك فني كل فتوحاتهم ، سواء فيه من ترك آثاراً أو لم يترك ، فقـد تركوا من بعدهم خلفاً من الابناء يذكرون مجد الفتح ويفتخرون بأعمال آبائهم وأجدادهم. وعن إعداد القوة هم غافلون وعن واجباتهم لاهون وإن ذكّرتهم لايذكرون ، وإن أيقظتهم لا يفيقون ، بل هم في غفلتهم راقدون ، وعلى القدر كل شيء يحيلون .

ولو عملوا بالقانون الإلهي ، وبقوله : « وأن ليس للانسان الا ما سعى » لكان أوفر خيراً للامة ، و (السعي) أدل السبُل على النجاح ، وأحسن ماتربى عليه الناشئة .

قوله في تأثير آداب اللسان .

قال :

أما انتشار اللسان العربي فيا عدا بلادهم ، فليس للفاتحين أدنى دخل فيه ، ولا اتخذوا له أسباباً ووسائل ، بل إن ماوجد في اللسان العربي من الآداب الباهرة ، والحكم والأمثال والمواعظ ، ذلك هو الذي أحله من الانتشار هذا المحل .

حتى أن العرب قبل الاسلام ، وهم في تلك الحالة الجاهلية ، والبداوة المحضة ، وبعدهم عن كل حضارة ، كانوا يحلون بآداب لسانهم من أعظم الملوك مثل كسرى أنو شروان ، محلاً رفيعاً ، ويأخذون الجوائز ، ويثرون بتجارتهم مع الأعاجم ، بآداب لسانهم ، ومايجري على ألسنتهم من الحكمة التي تأخذ بمجامع القلوب .

هكذا كان الذكاء العربي الفطري المتوقد ، يناسبه سلاسة اللسان وأدبه . فكان إذا ظهر بين العرب حكيم طبيب مثل الحرث بن كلدة مثلاً استطاع بآداب اللسان وفرط الذكاء ، أن يقارع ويضارع أكبر حكيم من الفرس مع حضارته ومدنيته . وكذلك الشاعر في قبيلته إذا نبغ ولو كان وضيع النسب أجلَّته القبيلة ، واعتبرته حامي ذمارها بأدبه وشعره ، وأغنته بالمال والماشية .

وأما في الحضارة الاسلامية وفي دولها ، فكثير ممن برع بالادب فأوصله إلى مرتبة الوزارة فالامارة ، وأما من أثرى بأخذ جوائز الخلفاء والملوك من الأدباء فلا يعدون كثرةً .

هذا بعض ما لآداب اللسان من التأثير المادي ، وأما التأثير المعنوي فيكفي أنه من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات ، وتنزل من الامة منزلة أكبر المفاخر . فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها محكومة ، وترقبت الفرص ونهضت بعد دهر فردّت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها إليها ، والعامل في ذلك إنما هو اللسان ،

قبل كل ماسواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ، ونسوا مجدهم ، وظلوا في الاستعباد ما شاء الله .

فياعوف عن جمال الدين من مزية الاقناع في حالتي السلب والايجاب والسبب في ذلك.

كان جمال الدين من أكابر علماء الكلام ، وإماماً في المنطق يحب الجدل والحجاج وقد أحاط بضروب السفسطة ، ليسلم في جدله من شراكها ، قوي الحجة كما ذكرنا ، أوتي قوة الاقناع لدرجة يخال الانسان أنه قادر على الاقناع في حالتي السلب والايجاب .

والسبب في ذلك ، هو أن جمال الدين ، مع حكمته وسرعة خاطره وتوقد ذكائه ، وسعة اختباره للأخلاق البشرية ، وكثرة مخالطته الامم في مختلف الاقاليم ، وحصول الملكة له في وجوه المباحث التي كان يطرقها . فقد أحاط على وجه إجمالي بأخلاق العرب والترك والفرس والاوروبيين ، وعلم أشياء كثيرة عن مرامي القوم وحالاتهم الروحية، وأعظم ما كان يحرص عليه في تتباعاته أن يراقب حسنات كل قوم — ولو لم يكن يحبهم — ويحفظها في ذاكرته ، كما يحفظ سيئاتهم وخطيئاتهم . وهكذا شأنه مع الأفراد حتى مع خادمه ، فكان يرقب حركاته وأعماله في كل يوم ، فاذا أخذ يذكر حسناته اعتقد السامع أنه الرجل الكامل ، ثم إذا أتى على ذكر سيئاته جعله أسفل وألأم خلق الله .

وقد كثر ورود أمثال ذلك في محاضرات جمال الدين، ومحادثته وإقناعه مخاطبه في حالتي الاستحسان والاستهجان للشخص الواحد والشيء الواحد، حتى توهم البعض أنها من المواهب الخاصة لجمال الدين .

ولما ذكر له ذلك قال :

ليس في الأمر شيء من المواهب ، إذ لكل خط طرفان ، ولكل إنسان وجه وقفاء وفيه صفات قبيحة ومزايا طيبة . والحكم على الاشخاص والاشياء إنما يختلف باختلاف الزمان والمكان والموقف ، ورغبة القائل .

أمر النبي ﷺ أن يربط أبو سفيان في خطم الجبل لتمرّ عليه جيوش الله ، فاستحق هذا الاذلال في ذلك الموقف، ثم في موضعه من قريش وأنه من كبارهم قال بحقه (إن كل

الصيد في جوف الفرا) ثم لما برز أبو دجانة لقتال كفار قريش ، وأخذ يتبختر قال ﷺ : (مشية يكرهها الله إلا في مثل هذا الموضع) .

وهكذا قال : (نعم الأُدمُ الخَل) تطييباً لقلب ذلك الصحابي الفقير الذي لا يملك سوى الخل ، فقدمه طعاماً في دعوة رسول الله . وقال (بئس الأُدمُ الخَل) إذ قدمه ذلك الصحابي الموسر .

فكان اختلاف الحكم على الشيء الواحد ، لاختلاف الوضع والواضع . وهكذا يكون الحكم على ما يماثل ما ذكرنا من الأشخاص والأشياء .

ومن صفات جمال الدين أنه كان لا يبالي في المدح ولا يسترسل في الذم والقدح وله أسلوب كاد أن يكون خاصاً به .

مثال ذلك أنه ذكر في مجلسه رجل من أرباب الصحف المشهورة في مصر ، فأوسعه الحاضرون استحساناً واستهجاناً حتى انتهى الأمر لقول جمال الدين ليكون الفصل ، فما زاد على أن قال : (هو مثل الهر) ثم سكت فرضي بهذا القول المستحسن والمستهجن ، والمادح والقادح . ثم ما مضى وقت طويل حتى أفضى الحديث أيضاً إلى ذكر ذلك الرجل فأثنى جمال الدين على عصاميته ، وإقدامه ، وتمنى لو يكون بين المصريين والشرقيين عدة أفراد مثله .

فما وسع من كان حاضراً في مجلس تمثيله في الهر إلا أن قال : يا أستاذ في الأمس هجوت الرجل واليوم أخذت في مدحه .

فقال بماذا هجوته ؟ — فذكر عبارة الهر .

قال : نعم قلت ذلك وليس في هذا التشبيه شيء من الهجو ، بل يجب أن نكرم الهرة والهر ، فالرجل يطوف كالهر ليلتقط الحوادث من منابعها ، فيكاشف بها الأمة ، وضم ما اتصف به وما يفعله .

ولقد جرى لجمال الدين بحث وجدل مع كبير من العلماء في قول (ليس في الامكان أبدع مما كان) فأخذ السيد الوجه السلبي وقال : نعم في الامكان أبدع مما كان ، ها نحن

اليوم نعجز بالعين المجردة عن رؤية الأشباح والأجرام البعيدة ، ونستعين بالمجاهر والنظارات ، فلو كانت عدسات أعيننا أقوى ، والانعكاسات النورانية أشد ، لكان ذلك أبدع مما نحن فيه من ضعف البصر وعدم رؤية البعيد .

فوقف الشيخ وظهر عليه العجز ، ولم يستطع لبرهان جمال الدين رداً .

فلما انفضّ المجلس قال السيد لجلسائه : أخذ الشيخ بالسفسطة وغلب بها ، وكان الغلب له لو قال أن النظارات إنما فائدتها لرؤية البعيد فقط ، وأما إذا استخدمت للقريب فلا يمكن أن يُقرأ سطر ولا أن يُرى قريب .

وعلى هذا يكون الحق في جانب القول في الخلق (ليس في الامكان أبدع مما كان) .

في تأثير كلامه في مخاطبه وكيف كان يحمل الخامل على العظائم والجبان على الجسارة :

أتى رجل من أعاظم أدباء الاتراك وموظفي سفارات الدولة العثمانية إلى منزل جمال الدين وشكى له حاله ، وعدم صرف رواتبه وكثرة التضييق عليه ومؤاخذته بآثاره الأدبية إلى غير ذلك .

فقال له مشجعاً على عادته مع أمثاله :

اعلم أن الدخول من باب الذل لا يثمر غير الذل ، ومعشر الشرقيين في الفقر خوف الفقر ، وفي الموت خوف الموت .

فاقرع باب السلطان بمطرقة الاستغناء ، وتردى برداء الهمة ، وارفع صوتك ، واجعل لقدمك موطئاً في بساط الناصبين من خاصة جلالته ، تنل ما ترغب على شرط المواظبة على ذلك ، لأن المواظبة والإلحاح أولى الأمور بالنجاح .

فخرج الرجل من مجلس جمال الدين ، وكله حماسة وانفعال بحديثه ، شأن كل من حادثه السيد ، ونفخ فيه من أمثال تلك الروح . وبالفعل فقد ذهب الرجل للمابين الهمايوني ، وكتب ما لا يكتب بلهجة غاية في الشدة ، لا يصدق من عرف حقيقة أخلاقه أنها تصدر منه . فعرف جلالة السلطان من نهج الكتابة ، ومن الجواسيس التي كانت تأتيه بأسماء كل من زار جمال

الدين وتكلم معه ، أن تلك الكتابة ليست من كيس الكاتب ، بل هي من نفقات جمال الدين؛ فدعاه للحضور فذهب ، وطال مثوله لديه ، وذكر له مرضاً وعلى سبيل الشكاية من بعض الذين يحبهم ، ويعدهم للمناصب العالية ، كيف يتذمرون ويشتكون ولا يصبرون ، وذكر اسم صاحبنا مثالاً .

ففهم جمال الدين أن السلطان إنما يريد أن يقول أنك أنت الذي دفعته لمثل ما كتب ، وفي الاخير قال : إن الرجل يزورك على ما أظن ، أجاب السيد : نعم في بعض الاحيان . قال : إذا رأيته أفهمه أنني زدت في راتبه، وأمرت بصرف ما تراكم له، وأنصحه بلزوم الصبر.

فلما خرج من حضرة السلطان لحجرة رئيس القرناء ، وجد ذلك الرجل هناك ، فبشره بالالتفات السلطاني وقال : اسمع مني هذا المثل : أتى رجل لعند آخر فشكى له قلة ذات اليد وحب الاثراء ، وحط رحال أمله عنده ، كي ينيله أو يرشده إلى السبيل . فقال له الرجل : إن في المكان الفلاني كنزاً ، فخذ قوساً وارم سهماً ، وحيثما وقع السهم فاحفر تجد الكنز . فذهب الرجل وأوصى على قوس قوية ، غاية في الصلابة ، وسهم كذلك ، وشد الوتر لدرجة كاد أن ينقطع معها ، ورمى السهم فذهب بالطبع بعيداً ، وفات المرمى إذ حفر ولم يجد شيئاً ، فأتى باللائمة على من هداه واتهمه أنه غرر به . فقال : وأنت يا صاحبي لقد شددت الوتر أكثر مما يلزم ولو أرسلت سهماً بسيطاً بشدة معتدلة ، لوقع على ما طلبت .

أما الرجل الأديب فقد أجاب بلطف واختصار : ياحضرة السيد لا أريد من الكنوز أكثر مما وقع سهمي فوقه .

رأيه في الزواج ، وفي المرأة والرجل والمساواة بينهما :

عاش جمال الدين عزباً لم يقترن في حياته بامرأة .

وكان كلما شكى له أحد كثرة العيال وقلة ذات اليد ، يعينه على قدر استطاعته ، ويقول له قل : (وأثقلت ظهري بالذي خف من ظهري) .

ففي يوم أرسل السلطان من أعلم جمال الدين أنه سيرسل له جارية حسناء من قصر «يلديز» ليتأهل بها ، فامتنع السيد من ذلك وأبى رافضاً ذلك التكليف بقول غريب – سيأتي بيانه – .

فقيل له إنك اذاً تحب تأييد مذهب أبي العلاء حيث يقول :

هـذا جنـاه أبي عليّ   وما جنيت على أحـــد

قال : كلا ، ولا أعتقد أن مثل هذا القول يصح أن يعزى إلى حكيم مثل أبي العلاء ، لأنه ينافي الحكمة ، ولا أن يتخذ حجة أو قدوة . إذ كيف يصح لعاقل أن يعتبر التأهل والازدواج جناية معنوية في بعض نتائجها ، كيف يصح لولد صار حكيماً مثل المعري ، ولولا علة وجوده وهو ازدواج أبيه لما برز من العدم ، أن يلصق الجناية بأبيه خلافاً لكل عقل ونقل .

ومن ينكر أن بقاء النوع ، واستكمال حكمة العمران ، ما كان ولن يكون إلا بالتناسل والتزاوج .

أما حكمة الزواج وشرطه فقد جاء في القرآن على أوضح وجه وأصرح بيان ، إذ قيدمن خاف أن لا يعدل ،بالامرأة الواحدة؛ وترك للمستدل ،ولمن يخشى أن لايعدل حتى مع الواحدة ، عدم الزواج ، وهذا مايستنتجه العقل مادام يحمله العاقل ، ويقول به الحق والعدل .

أما أنا فمعرفتي بما تتطلبه الحكمة الزوجية من معاني العدل ، وعجزي عن القيـام بأمره ، دفعني أن أتقي عدم العدل ببقائي عزباً من أن أتأهل وأكون ظالماً .

فقال له طبيب موسوي كان من خاصته : فهل تفادياً من الخوف من عـدم العدل يجوز أن يخالف الانسان طبيعته ؟ فتبسم السيد وقال له : ان الطبيعة أحكمنك فهي تدبر نفسها ومن ترك شيئاً عاش بدونه .

عند ذلك قلنا لجمال الدين : تقبل من جلالة السلطان عطاءه من المال فلِمَ لم تقبل عطاءه من الجواري الحسان ؟ قال :

أما المال الذي يعطينيه فإني أجد له على اجتهادي أكفاء يقومون بأداء الواجب نحوه . وأما الزواج بالجارية الحسناء فما أنا بالكفؤ لها ، ولست بوليها لأتحرى لها كفواً .

ثم قـال للواسطة في هذا الشأن :

إذا أصر جلالة السلطان ، أو أحب أن يكرهني على هذا الامر . فلا أظن إلا أنه يحب

أن براني في عداد الخصيان فيرتاح إذ ذاك من هـــذا الفضول في الاحسان ، فأخبروه أني سأقطع آلة التناسل إذا هو أصر .

ولما لم يأخذ الوسيط ـ وهو من كبار الاغوات ـ من جمال الدين غـير هذا الجواب ، ذهب مستغرباً مدهوشاً من شكل هذا الرد وصورة الرفض .

وعلى ما نظن أن جمال الدين لم يخطىء في رده ورفضـه قبول الزواج الذي إنما كان من السلطان عبد الحميد لمأرب لاحفاوة ، اذ كان جل قصده تقييد جمال الدين بنائلة العائلة ليس إلا .

وبعد أن سكنت الضوضاء التي أحدثها تكليف السلطان عبد الحميـد لجمال الدين أن يزوجه ، ورفضه على تلك الصورة التي ذكرناها ، قيل للسيد : لو فرضنا أنك قبلت تكليف السلطان ، واقترنت بامرأة ، فما هي الخطة التي كنت ترسمها لقرينتك ، وما رأيـــك في مساواة المرأة بالرجل ؟

قال : إنه ليسرني إذ صار فرضكم بأمر زواجي « نفلاً » ، أو في حقيقته « لغواً » وتخلصت من الخطة والخطط والخطوط .

أما أمر مساواة المرأة بالرجل ، والحجاب وهتكه ، وحقوق المرأة .. الخ فقـد قرع آذاني مراراً ، وقرأت في هذا الموضوع مقالات ورسائل ولكن لا أكتمكم أنني لم أعثر في كل ذلك على مقال صريح ، أو تحديد لمطلب المساواة ، أو على بيان الغاية من هتك الحجاب ، أو الفائدة التي تترتب عليه ، أو تأتي من ورائه . وعندي لا مانع من السفور إذا لم يتخـذ مطية للفجور .

ولا أظن أن ضجيج بعض الناشئة في الشرق ، والمتفرنجين منهم ، يقصـدون بطلبهم مساواة المرأة مع الرجل « في التكوين » ، ذلك لانه ممتنع بل مستحيل . فاذا صح هـــذا الامتناع من هذه الوجهة فلا مناص من أن تبقى المرأة كما هي مرأة تكويناً والرجل رجلا .

وأما إذا قصدوا المساواة من حيث المواهب الفطرية فهذا أثر الاكتساب فيه ضعيف ، فالشاعر والشاعرة إذا كان في فطرتها حسن التصور ، وسعة الخيال مع صفاء في السليقة ، برعا في الشعر

وإن لم يكونا كذلك وانصرفا إلى أوزان الخليل تعلماً واكتساباً من فاعلات ، وفاعل وفعول ، فلا يخرجا إلا" وازناً ووازنة .

أما ما بقي من العلوم التي تحصل للانسان بالتعلم على نسب مختلفة بحسب القابلية الفطرية من طب وهندسة وفلاحة وصناعة الخ، ففي انهماك المرأة ودخولها معترك هذه الصناعات نظر. فالمجتمع الانساني إنما قام على دعامتين ، أو يقوم بالمجتمع عاملان : المرأة والرجل .

فلنأخذ الرجل ونبحث في تكوينه ، وخلقه وتركيبه ، فنرى في أعضائه ووجوده ماليس في الامرأة ، ولا حاجة للتفصيل والرجوع إلى علم التشريح ، وكذلك في المرأة وتكوينها ما ليس في الرجل .

وفي كلا التكوينين من نقص وزوائد لا يعد بالنظر إلى الفطرة لا نقصاً ولا كمالا . لان الطبيعة أحكمت صنعها في ذلك ، وأجادت في تكوينها (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

يرشدنا ذلك التباين في تكوين العاملين إلى وجوب اختلاف عملها بما لديهما من معدات وآلات التكوين ، ليتم من ورائها عمل صحيح بالنتيجة ، وبناء مستجمع لوازمه .

قال : ثم إذا أخذنا ما يحترفه الإنسان من الصنائع ، وما يتوخاه من ورائها ، فلا نراه يخرج في كل ما يتحمله من مضض التعلم ، ومزاولة العمل عن كسب القوت له ولعياله — ولا يقال عائلة الا" إذا تشكلت من رجل ، وزوجة ، وأولاد .

وبديهي أن أبسط أنواع القوت وهو الخبز ، يحتاج ليصير خبزاً عشرات العمال ، منهم من يعالج الأرض بالحراثة لتصلح لبذر القمح ، وأبقار وسائس ومساس ، ويلزم له الحداد، والحداد يلزمه أعوان ، ومطحنة ومطاحن و ... الخ حتى يصير دقيقاً ، فتعجنه المرأة وتخبزه في التنور أو يخبزه الفر"ان ، فإذا شاركت الامرأة الرجل في الصناعات — وهي لا تكون الا خارج البيت — فمن يدير مملكة البيت ؟ ومن يربي الطفل ؟ ومن يخط في لوحه الصقيل ، رسوم الشجاعة والفضيلة والإقدام ، غير المرأة ؟ ومن يربي أقيال الملوك في أخلاقهم ، غير تلك الملكة وهي المرأة ؟ اللهم إذا أرادت أن تبقى ملكة ، لا أن تبقى ملكة وملكاً في آن واحد .

ليس من يحط من قدر المرأة ، ويمتهن خلقها ، ويدهورها لحركات الإبتذال إلا ذلك الطائش المغرور ، الذي يغريها على ترك مملكتها « بيتها » ، وأن تزاحم الرجل في شقائه بجلب العيش الذي لو فرضنا أنها أفادت بعض الفائدة المادية فيه ، وعاونت به ، لاشك أن الخسارة تكون من وراء تركها المنزل وتدبيره ، والطفل وتربيته ، أعظم بكثير من تلك المنفعة التي لاتبقي على الأخلاق ، ولا تفسد إلا الانسال والأعراق .

أما رفع الحجاب فما رأيت لمن قال بلزومه ، وخطب فيه أو كتب ، أنه ذكر أقل نفع له ، أو فائدة تأتي من ذاته أو من ورائه ، والذي أراه أن الحجاب ستار إذا رفع طفرة وفجأة؛ إنما تظهر على الغالب من تحته شناعات الخلاعة والتبرج،واستهوان الفجور،وعدم المبالاة بالرقابة العامة . ولو اقتصر النساء على الاكتفاء بالسفور ولم يتخذ كما قلنا مطية للفجور لما كان في الأمر ما يحتاج لأخذ ورد . ولكن إذا رأين للسفور متممات لاتتم الا في خارج البيت فهناك الطامة وفواجع الطفرة واختلال التوازن في أعمال الشريكين .

ثم قال : رحم الله أبا الطيب المتنبي فإنه لو وجد في زماننا ورأي ماتراه من المتبرجات ، من شرقيات مقلدات للغربيات ، وغربيات بائحات ، وشرقيات وراءهن سائحات ، وبتسفلهن عاملات ، وبشططهن وإسرافهن آمرات فاعلات ، ومن الأخلاق الطاهرة ـ أخلاق البداوة السالمة الصحيحة ـ عاريات مارقات ،أظنه إنما كان يرى في أخلاق نسوة (نسل الانكلوسكسون) بمجمل أخلاق البداوة ومحاسنها ، وصفاء عيش من يعمل بها ، ولرأى في أكثر نسوة من سواهم ، تلك الحضارة السافلة .

ولا أدري ماذا كان يسمح له الخيال الشعري أن يزيد على قوله :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية	وفي البداوة حسن غير مجلوب
أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها	مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة	أوراكهن صقيلات العراقيب

قيل لجمال الدين : إن الذين يطلبون مساواة المرأة بالرجل ، ودخولها في معترك الحياة من كل وجهة ، إنما يحملهم عليه مايقرؤونه في سيرة نساء المسلمين في الصدر الأول ، وأن

السيدة عائشة ركبت الجمل ، وشجعت في الحرب ، وبرزت وخطبت . كذلك نساء الصحابة كن يرافقن الجيش ، ويخضن المعامع ، ويخدمن الجرحى .

قال : غريب ما يقولون وما يدعون ، إن ركوب السيدة عائشة الجمل ، ومرافقة نساء الأصحاب الجيش ، كل ذلك حالات استثنائية لايصح أن تتخذ قاعدةً ، تجري عليها النساء في كل حين .

أما ركوب السيدة عائشة الجمل ، فقد تنبأ عنه المصطفى ﷺ وذكر ذلك المركب الخشن ، وأنها ستنبحها كلاب حوشب ...الحديث : وليس فيه أدنى فخر لتتشبه به بقية النساء.

بقي علينا ذهاب نساء الأصحاب لساحات الحروب، وخدمتهن الجيش وهو أمر مستحسن، للتي لم يكن لها زوج مقعد ، أو والد ووالدة وأطفال لأن الجهاد وهو فرض ، فقد استثني منه المعيل ، واشترط فيه إجازة الوالدين ، وأن خدمتها ، أولى من الذهاب للجهاد إذا هما لم يأذنا ، كما ورد في الحديث ، وسيرة الائمة .

هذا شأن الرجل فما بالك بالامرأة .

نعم إذا لمْ يكنْ للمرأة مانع من الموانع ، أو كان زوجها أو ابنها أو أقاربها التّحق في الجيش ، وذهبت للخدمة ، بنية صالحة وذيل طاهر ، عدّ لها ذلك فضيلة وحسنة .

وبالاختصار — كما سبق القول — إن تلك حالات استثنائية ، لايصح أن يؤخذ منها ، مساغاً أو جوازاً للمرأة أن تبارح بيتها لتتشبه بالرجل في خوض المهالك والمكاره ، وفطرة الله قد أغنتها عنها ، وكفتها شرّها . وما أسقمه رأياً ، وأبعده عن الصواب ، أن تبرز المرأة لتقتل أو تقتل والشاعر قد قسم لها قسمها فقال :

كُتبَ القتل والقتالُ علينا   وعلى الغانيات جرُّ الذيول

كان السيد جمال الدين ، هشاً بشاً طلقاً ، يتدفق كالسيل في كل ما كان يلقيه من محاضرات ، ويخوض فيه من المواضيع المختلفة ، إلاّ في موضوع « مساواة المرأة بالرجل » ، فقد رأيناه نكداً كارهاً للخوض فيه ، عصبياً ونفوراً منه . ولكن لما علم أن لفيف مريديه مصممون على استطلاع رأيه ، وأن تجنبه لهذا البحث لايرجعهم عن متابعة الاستطلاع ، عند ذلك تربع وقال : ما عندكم في هذا الموضوع من الغوامض ، التي تحبون استجلاءها ؟

قيل : قال الأستاذ « للهيئة الاجتماعية دعامتان ، أو يقوم بالمجتمع عاملان المرأة والرجل » . والمفهوم الظاهر أن العاملين هما بمنزلة الشريكين في الحياة فاذا ارتقى أحدهما وجب أن يرتقي الآخر ، أوعلى الأقل أن لا يقف الواحد في سبيل الثاني . فالرجل تدرّج في أدوار ، وارتقى من طور الى طور حتى وصل الى ماوصل اليه من مدنية وحضارة وعلوم وفنون ، والمرأة وقفت جامدة خاملة، يعمل في تمادي جمودها وخمولها وعدم نهوضها الرجل ويقيدها الرجل ، ويقتل مواهبها الرجل تارةً بدعوى الدين، وأخرى في عدم كفاءتها من حيث التكوين . مع أن دعوى التكوين والمواهب من قوة جسم وصحة عقل ، ما كانت على نسبة واحدة ، في الرجال كافةً ليصح أن يحكم على تجرُّد النساء منها ، فكم رجل يُعد بألف ، وكم ألوف تمرّ بلا عداد .

وما جاز وجوده في الرجال من هذا القبيل ، لايستحيل وجوده في النساء بل هو من الممكنات خصوصاً وقد أتى على المرأة حين من الدهر كانت فيه مع الرجل في مستوى واحد وأما التكوين في أمره الرئيسي ، من رأس ودماغ ، وإرادة وتمييز ليس فيه تباين او تغاير أو تعدد بمعنى ان الرجل ليس له رأسان ، وللمرأة رأس ونصف ، أو نصف رأس ، أو في الاول أربعة آذان وفي الثاني أقل من ذلك . والذي نراه من التفاوت ، إن هو إلاّ من حيث التربية وشكلها، وإطلاق السراح للرجل وتقييد المرأة في عدم البراح من الخدر ،وحصر مواهبهافي ذلك المضيق . ثم انقطع الكلام وساد السكوت، فقال جمال الدين:

هل لكم مانقولون غير هذا ؟. قلنا لا ، غير إلفات نظر الاستاذ الى حالة المرأة في الغرب خصوصاًفي الأمة« السكسونية » التي يعجب السيد بتربيتها. ويمتدح أدب المرأة فيها وحشمتها.

قال: دخلتم في هذا الموضوع على السفسطةمن باب واسع والتوى عليكم القصد، بل عكستم القضية ، ربما من حيث لاتريدون ، ذلك لا نكم تطلبون للمرأة أمراً من المساواة بالرجل ، ولاتفقهون لفائدتها معنى ، ولا للمقصود حصراً ونتيجةً ، واليكم البيان :

قلتم إن الرجل تدرج وتطور وارتقى حتى وصل الى ما وصل إليه اليوم،وإن الرجل والمرأة كانا في زمن من الازمان في مستوى واحد، وانه ليس في تكوينهما مايمتاز به الواحدعن الآخر. فان سلمنا لكم في هذا وجب أن ننظر الى عوامل ارتقاء الرجل ، والمؤثر فيه . فان قلتم إنه

الرجل قام بنفسه بدون مساعدة آخر ، ولا تأثير للتربية عليه ، سألتكم ما الذي منع المرأة أن تجري مع الرجل حيثما جرى ، وتأخذ من التدرج، والتطور، والارتقاء، ما أخذ به الرجل ، وكلاهما في مستوى واحد ، وتكوين واحد ؟ — والقوة التي تزعمونها في الرجل ، وأنه قيد المرأة بها ، لم توجد فيه دفعة واحدة ، بل أتت بالطبع على سبيل التدريج وسننه . ثم رأيت غير كم من المطالبين بحقوق المرأة المهضومة على وهمهم ، والآخذين بناصرها ، لتتساوى مع الرجل، يهيمون في مجاهيل التاريخ، ويبحثون عن المرأة في زمن الرومان، ومن قبلهم، أو بعدهم ، ويعيدون ذكرى عصر « شيوع المرأة » ، وان الولد ما كان ليعرف أباه بل كان يرجع إلى أمه في نسبه قهراً ، وضرورةً ، بالنسبة الى ذلك الشيوع القبيح .

أقول « قبيحاً » ولعل المتحمسين للمرأة يرون ذلك الشيوع « حسناً » ويرومونه ويسمون من طرق خفية للعودة اليه ، ولكنهم لا يستطيعون به جهراً ، أو يخجلهم الحق الذي لا يجدون له ستراً ، ولا لنوره إطفاءً .

نعم يذكرون عصر الشيوع ، وكأني بهم يريدون ان يستنتجوا منه أن المرأة كان لها منه مقام ، ولكنه « غير كريم » ، إذ كان الولد يرجع بنسبه لأمه ، والمسيطر عليه وعليها خاله (بئس ما يستنتجون ، وساء ما يقولون) .

أرشدنا العقل ، أن الانسان في تطوره ، انما كان يترك ما يضره ، ويقبل ما ينفعه ، ويأخذ بالانسب ، والأصلح صناعة وأخلاقا ، واجتماعاً . انتقل الانسان من العصر « الظرري » ـ العصر الصواني ـ الى العصر الحديدي ، لمنفعة رآها فيه . فهل يعقل اليوم ان يترك الانسان الحديد ، ويرجع القهقرى الى الصوان يتخذ منه سلاحاً ، وآلات على ضعف أثره ، ومحدودية نفعه ؟ كلا .

وعلى هذا يصح القياس والقول ، بعدم نفع الرجوع الى حالات تلك الأعصر ، التي ما تركها الانسان إلا لأنه رأى خيراً منها ، ومن ذلك شيوع النساء ، وعدم طهارة الزواج ، ولوث الزنا ، والسفاح ، وما يجره من ويلات العلل والأمراض الجسدية والروحية . يخطىء ويضل الصراط السوي ، من قال أو يقول : ان الرجل قام ، أو يقوم بنفسه ، لا في عصر

الهمجية ، ولا في عصر الحضارة والمدنية ، بل ان الذي ساعده ، في كل أدوار الحياة ، ويساعده ، ويخط في لوحه الصقيل ، منذ طفوليته ، خطوط الفضيلة ، أو الرذيلة ، إن هي الا « المرأة » .

فالرجل في آثاره ، وجرائم غذائه ، وبالخطوط الأولى التي ترسم فيه ، هو صنع الأم « المرأة » مدين للأم « المرأة » تلميذ الأم « المرأة » صالحا تشأ أم طالحا .

فاذا علمنا أن المرأة ذلك التأثير ، وان عليها القيام بذلك الواجب ، وتحمل أثقال ذلك العبء الذي لا يمكن ان يقوم به غيرها كيف يصح أن يسلب منها ذلك الحق ، أو أن تدعى لتركه أو ان تساق الى ما لا يعنيها ويضر بالهيئة الاجتماعية ، ويقلبها رأساً على عقب .

إني لا أرى في الذين يقولون بمساواة المرأة مع الرجل وإشغالها بما خلق له ، هو ، ولم تتكلف به الأم « المرأة » ، إلا انهم يحاولون نقض حكمة الوجود ، الذي إنما صار وجوداً وكونا وهيئة ، بوجود العاملين « المرأة والرجل » .

يريدون ان يرجعوا ، ويدغموا الاثنين بواحد ، وبصريح القول ، ينتهون بنتيجة ما يطلبون ، الى ان لا يكون في الكون إلا رجل ، أو امرأة ، هذا إذا حصلت المساواة بين الاثنين ، وتجاريا في العمل . يعني أن يصير كل منها طبيباً ، صيدليا ، مهندسا ، فلاحاً ، خياطاً ، نجاراً ، حاكما ، مبعوثا ، قائداً ، الخ .

ومتى وصل المجتمع الانساني الى هذا الحد ، فمن أين نأتي بالأم « المرأة » مربية الرجال ، ومرضعة الفضيلة لهم ، وهي في ذلك الشغل الشاغل الذي يستغرق كل وقت الرجال ، ولم يجدوا في أقل صنعة يحترفونها متسعا لهم ، أكثر من جلب القوت ، وسوقه للبيت لتعالجه المرأة فتغذي به رجلها ، وطفلها .

أما عمل المرأة ، وواجباتها في بيتها ، ونحو زوجها وأولادها ، فأهم بكثير من صناعات الرجل مهما دقت ، وعظمت ، وجل نفعها . وان أكبر فاضلة من النساء إذا هي قامت ببعض واجبات المنزل وتدبيره ، وحسن تربية الطفل ، تكون قد رجحت على أكبر الرجال علماً وعملاً .

لأنه كما سبق القول « ليس غير المرأة من يهيء للمجتمع رجالا » وهذه المرتبة السامية للمرأة لم يكن ليهيئها الرجل للمرأة ، لانها أسمى منه بل هيئتها لها الطبيعة ، وحرمت الرجال من أن تنالها .

تلك المرتبة هي أسمى من كل ما تتوهمها المرأة في الرجل من المهن والصنائع ، ولا تنحط المرأة إلا اذا هي تساوت مع الرجل بها .

ومختصر القول « إن قوة المرأة في ضعفها ، وفضل الرجل في قوته وأن يكون تجاه المرأة ضعيفا ، وفي مذهبي ان تبادل النوعين بالمزيتين خروج عن حكمة الفطرة ، ومغالبة للطبيعة » .

مقابلة جمال الدين لسمو الخديوي عباس حلمي واختلاق الجواسيس مسألة الدولة العباسية .

وفد الى الاستانة سمو الخديوي عباس حلمي الثاني ، وشهرة جمال الدين في مصر بالغة مبلغاً عظيما ، وزادها خطابه على إخواننا المصريين الذين جاءوا معه وقد دعاهم جلالة السلطان لحديقة يلديز فوقف جمال الدين خطيباً واستهل خطابه بقوله :

أحسنتم صنعاً إذ أتيتم لزيارة خليفتكم جامع شتات الممالك الاسلامية ، منقذ تراث الشرقيين من اغتيال المغتالين ، وشره الطامعين الخ .

وكله حث على الارتباط بمقام الخلافة ، وتحريض على النهضة ، وتمريض بالمخاطر الحائمة حول الممالك الاسلامية ، ببلاغته المعروفة ، وتلك الطلاقة الخاصة به ،

فرغب الخديوي في مقابلة جمال الدين وطلبها ، ولما كان هذا الأمر يحتاج الى إذن من السلطان ، وصدور إرادة سنية فيه ، استؤذن فأبى ، بل ألح بالواسطة على جمال الدين أن لا يفعل ، وتخوف كثيراً من هذه المقابلة وأراد أن لا تتم .

أما جمال الدين فقال لواسطة الخديوي في حجرة رئيس القرناء جهراً ، وعلى مسمع من الملأ الموجود : كضيف فاني أسير المضيف جلالة السلطان في منزله ، ولكن لي مسرح كل يوم في (الكاغدخانه) ، وهو محل نزهة مشهور ، وكان يتابه السيد في أكثر الأيام ، ويكرر الرحمة على أبي الطيب المتنبي وينشد بيتاً له :

وما في طبـــه أني جواد أضر بجسمه طول الجمام

وبينا جمال الدين يوماً في ذلك المحل ، على ربوة منفرداً ، إذ قدم الخديوي عباس ،وسار نحو السيد راجلاً فرداً ، تاركاً عربته ومهمنداره بعيد . ولما تقابلا افتتح الخديوي الكلام بالتحية قائلاً « السلام عليكم » وبعد المبادلة بها قال السيد : من أخاطب ؟ فأجابه : « محبكم عباس حلمي » .

وذكر ما له من المحبة والحرمة عند سموه ، إذ أنه ولا شك من أكبر حكماء الشرق في العصر ، ويفتخر الشرقيون بمثله ، وهكذا عبارات ثناء ، وتودد ، وتلطيف لجمال الدين. واختتم الحديث بان سموه يحب أن يراه زائراً مصر في أيامه ، مكرراً ذكـــر ما له في القلوب من المحبة العظيمة .

ولم يدر بينهما شيء لاضمناً ، ولا صراحة مما يكون له أدنى تماس مع السياسة .

ولكنها فرصة للجواسيس ، ربما يبخل الدهر أن يـأتي بمثلها ... سمو الخديوي عباس حلمي ، وجمال الدين الافغاني ، منفردان على ربوة يتحادثان !! .

فانهالت محررات الجواسيس « الزورنالات » على السلطان ، وأهمها وهو الذي أقامه وأقعده : أن جمال الدين قد تعاهد وتحالف مع الخديوي على أن يؤسس لهدولة عباسية !! وأنه قد طلب تأميناً من الخديوي بعد أن يتمم له الأمر ، أن لاتكون عاقبته ، كما كانت عاقبة أبي مسلم الخراساني مع العباسيين ، وأن سوريا الجغرافية لمن حكم مصر بمنزلة اللازم والملزوم ، وهي مفتاح العراق ... وهكذا اختلاقات وتخرصات وترهات ، كانت خير ذريعة لتناول الأموال من سراي يلدز ، وباب رزق جديد لمن عيشهم موقوف على الافتراء ، والوشاية بالابرياء ، إذ كان بالتهويل على السلطان ، ولو برجل سائح بسيط، يجسمون أمره ويصورون من وجوده مضرات ومصائب ، تأتي للدولة منه، وتتناول في نتيجتها شخص السلطان وعرشه، فيأخذ لذلك من الحيطة ، ويبذل في سبيله من الأموال ، ما يحير العقول ! .

وأخذت تتوالى الوفود من المابين على منزل جمال الدين بنغمات مختلفة ، منها لوم بشكل توبيخ مع عتب ، ومنها إسناد خيانة بما عمله ، ومنها أن تحالفه هذا مع الخديوي ، بعد نقضاً لبيعته للسلطان ... الخ .

والغرابة أن كل ما كان يقال في هذا الشأن ، يذكر بصورة ثبوت صحة الخبر عند السلطان ، وأنه لاريب في حصوله ، وأنها وقعت الواقعة ليس لوقعتها دافعة ، وجمال الدين في كل تلك الأوقات ، كان رابط الجأش ، أكثر مما رأيناه في سائر الأحوال ، يضحك ولا يجاوب حتى يؤدي الرسول بلاغه ، ولا يزيد على القول له : هل لك ما تقول غير هذا فان قال لا ، ترجم له بالتركية ما قاله هارون الرشيد « هنيئاً لمن ما عرفناه ، لان من عرفناه وقربناه أطرنا نومه ، وأطلنا يومه » ويقول له : أطار نومكم وأطال يومكم ، ويزودهم بعبارة « إنني سأتحادث إن شاء الله مع السلطان بأمر هذه المختلقات » .

وبينما خلق المابين و كبار المقربين والجواسيس في هرج ومرج، وأخبار غضب السلطان على جمال الدين ، تلوكها الالسنة ، بأشكال غريبة ، وصور عجيبة ، صدرت الارادة بحضور جمال الدين للقصر السلطاني ، فللمثول .

والسلطان عبد الحميد كما أنه كان من أقدر ملوك زمانه سياسة، على ما مر بيانه، وأحدهم ذهناً ، وأوفرهم ذكاءً ، ودهاءً ، فهو ألينهم عريكة ، وأكثرهم تواضعاً ، وأقدرهم على خلب لب المخاطب ، باللطف والمجاملة وكظم الغيظ . فهو ولا شك لو صرف كل مواهبه لخير المملكة ، وطرح الجبن جانباً ، لفاق سائر ملوك عصره ، ولأوصل الملك لأعلى ذرى المجد .

فلما اجتمع به أقبل جلالته عليه بأكثر من العادة ، وهش له وبش ، وأدناه وحادثه طويلاً بأمور كثيرة ، لاتخرج عن كونها تؤول لذاته ، إذ كل مهم في الملك لا يكون بالنتيجة عائداً لحفظ حياته وتقديس إرادته ، فليس هو من الأهمية في شيء .

حتى إذا انتهى الحديث من كل ما أراده السلطان ظاهراً ، وأوهم أنه سيبارح المكان قال: هيه ! اجتمعت مع حضرة الخديوي في الكاغدخانه ؟

أجاب نعم تلاقينا هناك . قال : قد ألح الخديوي كثيراً بطلب هذه المقابلة ، وما فهمت لهذا الإلحاح سبباً ، أو معنى ، فاي علاقة بينكما ؟ وقد أزعجوني بكثرة الزورنالات، وأكثرها من الصادقين المجربين عندي الذين يتحرون لي صحيح الأخبار وصادقها ، لذلك تأسفت جداً حتى كدت لا أصدق إنك تأتي بمثل هذه الأعمال .

قال جمال الدين : وأي الاعمال أنكرها مولانا السلطان علي ؟

فتناول السلطان مَن بين يَديه ، ومن جيبه عدة ظروف بمظروفاتها وقال : هذه كلها على اتفاق بأنكما قد انفردتما لوحدكما ، وتحادثتما بالمسطور فيها ، ودفع إلى جمال الدين تلك الظروف .

قال : فتناولتها تأدباً ولم أقرأها استخفافاً ، لعلمي بما حوته وتضمنته من الأراجيف ، فكرر السلطان عليه بقوله « تفضل بمطالعتها وبعده نتحادث » .

قال له : لاحاجة لمطالعتها ، فالأمر ينجلي ، وينتهي إذا اقتنعتم وصدقتم ، بأنني كنت مع الخديوي في ذلك المحل بمعزل عن الخلق ، وعلى انفراد ليس معنا ثالث .

قال : نعم .

قال جمال الدين : هل كان مع الخديوي غير مهمنداره ؟ أجاب : لا .

قال : هل سمع أحد منهم مادار بيني وبين الخديوي ، وكتب لجلالتكم ؟ أم الكاتبون غير من كانوا موجودين ؟ !

فعند ذلك ، أطرق السلطان برهة ثم بحث عن مظروف ، فوجده وقرأه وقال : إن حسني باشا (وهو مهمندار الخديوي) يذكر فقط أنكما انفردتما بعيداً عنه ولم يفهم مادار بينكما .

قال جمال الدين عند ذلك : فهل برهان أسطع ، وحجة أقوى من هذا على بطلان هذه الأرجوفة ، ودحض هذه الفرية ، مع أني أقسم لك بعزة الحق أنه لم يدر بيني وبين عباس حلمي خديوى مصر شيء من هذا أصلاً .

عندئذٍ قال جلالته : صدقتَ وآمنتُ ، وما هذه إلاّ اختلاقات ، وفساد ، ودسائس (فلان[1]) قهره الله وقبحه ، وأطال بسوء الدعاء عليه .

أجاب جمال الدين : كل هذا حسن في بابه ، ولكن لماذا انزعج السلطان وأزعج لهذه الأكاذيب .

(١) كان السلطان عبد الحميد يرتاح إلى القاء التفرقة بين مقربيه ووزرائه . ويعمل على ايغار صدور بعضهم على بعض كي لايتفقوا ، فيناله من السوء ما نال عمه المرحوم السلطان عبد العزيز ، ولو انتفع ملك من الحذر لكان السلطان عبد الحميد أولى الملوك بالانتفاع من ذلك ولكن « ما منع حذر من قدر »

وما كان أغنى جلالتكم عن الحالين ، وقد علمتم مصادرها ومواردها .

قال : ما كنت بالمصدق لولا هذه الكتابة ، فانها جعلت في نفسي أشياء ، ودفعتني للاهتمام وإن كان الآن قد سري عني بعض ما وجدت لاعتقادي صحة ما قلت .

وناولني رقعة فيها بيتان من الشعر ، في معنى أرجوفة الدولة العباسية ، وهما :

شاد الخلافة في بني العباس عباس لكن نمته السفاح
ولأنت خير مملك ستشيدها بالبشر يا عباس ياصفاح

فقال جمال الدين ،لاحول ولا قوة إلا بالله « تخرصوا »وتقولوا ، واستنبطوا من الانفراد أنواعاً من البهتان تحتمل الصدق والكذب ، وشيئاً ربما أن يقال ، وهو من الممكنات .

ولكن أمر النظم ، فانني ما نظمت في حياتي شعراً عربياً قط ، لا عن ترفع ، ولكن لعدم وجود السليقة الشعرية بي ، وعدم مقدرتي عليه .

قال : فآمن جلالته أيضاً أن الحديث مفترى ، وأنه على كمال الأمنية منه ، وأن الخديوي من أعظم المخلصين له ، وأنهما بعيدان عن كل تلك المختلقات .

قال السيد : ما وسعني انغيظ لم أكظمه ، من اهتمام السلطان بمثل هذا البهتان ، وهذه الاختلاقات والأراجيف المضرة في حيثية الخلافة ، وعظيم خطرها ، ورفعة شأنها ، مع معرفتي دناءة مختلقيها ، ومرتبيها، وهو يدعو عليهم بشر الدعاء كالعجوز الدرديس البتراء .

ليسمح لي جلالة السلطان أن أذكر مثلاً حضرني الآن . قال ، قل :

فقال : إن أحد الأمراء استزار رجلاً في قصره فلما جاء الرجل وجد على باب القصر كلباً هائلاً عقوراً ، يجرأُ على الأسود وربما افترسها ، فهرّ عليه ونبح وتحفز للوثوب فخاف الزائر وأحجم عن الدخول ، وفي أثناء ذلك أشرف الأمير من نافذة القصر ، وأهّل بالزائر وسهل ، واستعجله بالصعود اليه .

قال أيها الأمير كيف الوصول اليك ؟ وهذا الكلب العقور المدهش باسط ذراعيه ، فاغرٌ فاه ، انهره ، أو مر من يمنعه عني .

قال الأمير : أنا من هذا الكلب أخوف منك ؛ وهكذا أظن حالنا يا صاحب الشوكة .

قلنا لجمال الدين ماذا أجاب جلالته على هذا المثل ؟

قال : تبسم عن غير رضى ، وكان وقت الانصراف قد حان ، فنهض وودع على أن أعود اليه في الغد من كل بد .

دعابة السيد عبد الله نديم في بحث الدولة العباسية وتعريضه فيمن اختلقها في ذلك الحين :

في أثناء هذا القصص ، كان المرحوم السيد عبد الله نديم حاضراً في الخلوة ، التي كان جمال الدين يسميها « الجلوة » ، فقال : ليتك عندما صرح السلطان بأن هذا الفساد صنع فلان ذكرت له دسائسه واستكتابه الاغرار ، وتغنيه بهذين البيتين :

هي الخلافة أرجوها وترجوني	فقد تربع فيهـا من هو دوني
ياغوث يا جد قد آن الاوان لنا	فأين وعدكم في خان شيخوني

فغضب عند ذلك جمال الدين ، وانتهر القائل وقال : أعوذ بالله أن أكون من المنافقين ، أو أن أفعل ما أنكره على الغير ، أو أن أكون همّازاً مشّاءً بنميم . ماهذا الهذيان في هذا الزمان ؟ وفي أي مقام جليل خطير هم يتلاعبون ؟ . خلافة عظمى ، وإمامة كبرى !

لقد هزلت حتى بدا من هزالها	كلاها وحتى سامها كل مفلس

الخلافة ! كفالة الله في خلقه فأين أحلام أولئك العجزة من مقام الإمامة والخلافة ، وما تتطلبه من الشروط ، والصفات أين ؟ ؟ !

الخديوي بظروفه ، وماأحاق وأحاط بعصره ، هو عندي أعجز من السلطان عن تصريف أمور الخلافة ، والقيام بأعبائها على مايلزمها من مزايا وشروط أهمها الاستقلال .

نعم لو تخلصت مصر من براثن بريطانيا وتسنى لعباس ، مع ذكائه وتطلعه ، أن يكون له همة محمد علي الكبير ، ومضاء إبراهيم ، وسخاء إسماعيل لوقع من الخلافة على مايرجوه . ولكن أين الولاية الخاصة لأمير المؤمنين اليوم في ممالك الاسلام ؟ وأين المؤمنون ، الملتفون حول خليفة الرسول المصطفى ﷺ ؟ وأين الحرية المطلقة في تصريفها على وجه الشريعة ، أو السير

على سيرة الراشدين؟ وأين القوة التي يدفع بها إذلال أو استعمار أو استعباد المسلمين في بلادهم وممالكهم وديارهم ؟ وأين ؟! وأين؟! فلا حول ولا. قال: أما الرجل ويعني به «السيدابو الهدى الصيادي» فهو خير عربي صحب السلطان ، وقد درأ شراً، واستدرّ مااستطاع من الخير لقومه. وفي الرجل هزة هاشمية ، وخلق كريم ، وهمم وشمم ، لا ينبغي أن يناله طعن الطاعنين ، ولا أدل على فضل الرجل من قياسه مع غيره من العرب الذين انسلوا الى السلطان ودخلوا في خدمته ، وبضدها تتميز الاشياء ، رحم الله الجميع .

رأيه في الانكليز وفي الحجر الذي يطبقه الغربيون على أهل الشرق.

قال: أبتدىء بوصف الانكليزي على أقصر الطرق ، فهو قليل الذكاء، عظيم الثبات، كثير الطمع والجشع ، عنود صبور متكبر .

والعربي أو الشرقي كثير الذكاء ، عديم الثبات ، قنوع جزوع ، قليل الصبر متواضع .

يثبت الانكليزي حتى على الخطأ إذا تسرع وقاله أو باشره.والشرقي لايثبت على الصواب، ولا على طلب حقه . فيفوز الاول في خير النتائج ، بفضيلة (الثبات) . ويخسر الثاني كل حق برذيلة (التلون وعدم الصبر) . ولذلك فأكثر ما ورد في القرآن ذكر الصبر ولزومه مثل قوله تعالى « اصبروا ، وصابروا ... » «والذين صبروا ..» « ولو أنهم صبروا .. » « وبشر الصابرين . . » الخ . .

كل هذا يدل صراحة على أن الامة العربية خصوصاً ، والمسلمين عموماً أحوج الى الصبر والثبات من كل ما في الاخلاق المؤدية للسعادة البشرية . فتراهم يستهويهم الوعد الكاذب عن علم ، ويرضون به، إذا كان الموعد قريباً . ولا يصبرون على الوعد الصادق اذا كان أمده بعيداً. فيخسرون في الحالين، ولا يستثمرون غير الفشل.أما المصريون والشرقيون عموماً، سواء كان لقاء الانكليز أو غيرهم من دول الغرب فمثلهم مثل رجل مثري ترك من الأموال ، والإملاك ما هو معلوم بعضه ومجهول أكثره وخلف ورثة على غاية السرف والتبذير ومثل تلك الحالة من مورث ووارث نرى الشريعة قضت بوضع الحجر على الوارث السفيه المبذر ، واعتبرته قاصراً غير مختار ، ولا حر للتصرف بملك ومتروكات مورثه .

نعم وقع الشرقيون بما ترك لهم من الميراث تحت حكم المبذرين والمسرفين والسفهاء ، وقضى على الشرق وأهله (تداول الايام) ، أن يكون الحاكم وواضع الحجر عليهم، هو الغرب .

إن الفرق ظاهر بين وضع الحجر على الوارث المسرف من الحاكم الشرعي ، وبين حكم الغرب بوضع حجره على الشرق وأهله . لأن الحجر الشرعي يمكن رفعه بإثبات صلاح سيرة الوارث وتبين حقه بارجاع حرية تصرفه بمال مورثه. أما حجر الغرب فهو مما لا تؤثر فيه بينات على الرشد ، ولا تعمل فيه عوامل قولية ، وحجج منطقية، ليرفع حجره .

والسبب أن الغرب في الحقيقة ليس من مصلحته إصلاح سير ولا إصلاح سيرة المسرف المبذر ، لترجع إليه حقوقه. بل من أقصى أمانيه أن يتمادى الشرقي في غيّه ، وإسرافه لكي يطول عهد الحجر ، ومع تمادي الزمن ، أن يتم بعد الاستعمار ، التملك والاستعباد . فما لبث الشرقيون في السفه والسرف ، ونتيجتها عدم الكفاءة لتولي حكم أنفسهم ، يلبث حكم تلك الوصاية .

ما من دولة غربية، تطرق باب مملكة شرقية إلا وتكون حجتها إما حفظ حقوق السلطان، أو إخماد فتنة قامت على الأمير ، أو إنفاذ نصوص الفرامين ، أوغير ذلك من البهتان والختل والخداع وواهي الحجج. فإذا لم تكف تلك الأضاليل للبقاء تذرعت إما بحجة حماية المسيحيين، أو حماية الأقليات، أوحقوق الاجانب وامتيازاتهم، أو حرية الشعب، أوتعليمه أصول الاستقلال، أو إعطاء الشعب حقه تدريجاً من الحكم الذاتي ، أوإغناء الشعب الفقير بالاشراف على موارد ثروته فالشعب الشرقي الخامل يرى في هذه المواعيد الخلاّبة ، ما قاله الشاعر :

مازال يغدق آلاءً ويشفعها ... بما يفوق أماني النفس بالعظم

فيرتاح إلى تلك المواعيد ، ويرضخ إلى حجر الغربي ، ويقدم في كل يوم نوعاً من الطاعة ، وشكلاً من الإكرام ، ورضوخاً لأوامر فيها أنواع الضرائب ، يتسابقون متهافتين على التعبد له ، ولا تهافت الفراش على لهيب النار .

يفعلون ما يأمر به الغربي ، ويؤدون كل ما يطلب في بادىء الأمر على مضض يكتمونه، ويغالطون أنفسهم ، أنها حالات وقتية ، أو سحابة صيف عن قريب تقشع . ويرجون معللين

أنفسهم ، أن الغربيين سيفون لهم بوعدهم ، وينالون تلك الأماني ، إذ يتركونهم بعد إسداء نعمة التعليم لهم شعباً حراً ، مستقلاً بإدارة شؤونه ، مختاراً بوضع ضرائبه ، عالمـاً بإيراده ومصرفه ، منتقياً من أبنائه حكاماً ، من أنزههم نفساً ، وأحسنهم سيرة وسيراً ، وأصدعهم بالحق قولاً وفعلاً .

هذا ما يتعلل به الشرقي . وأما ما يفعله الغربي فهو :

برنامج يحمله من بلاده في محفظته ، ثم ينقله إلى ذاكرته وحافظته ، مسطور فيه :

شعب خامل جاهل متعصب ، أراض خصبة ، معادن كثيرة ، مشاريع كبيرة ، هواء معتدل ، نحن أولى بالتمتع بكل هذا .

وللوصول إلى الاستيلاء الممتع ، يضع خطة وهي :

أولاً : إقصاء كل وطني حر يمكنه الجهر بمطالب وطنية .

ثانياً : تقريب الأسقط همة ، والأبعد عن المناقشة ، والمطالبة بالحق .

ثالثاً : الدخول على البلاد بتفريقها طوائف وشيعاً ، فتؤثرُ طائفة على الأخرى ولو بأمور طفيفة تافهة ؛ حتى تستحكم النفرة من بعضهم فيضعون بأسهم بينهم .

وهكذا من باب الوظائف ليس فقط يجعلون الطائفة الواحدة تنازع أختها من الطوائف بل يجعلون أبناء بيت واحد ينازع بعضهم بعضاً .

كل هذه حالات تزيد الوصي جرأة وتمادياً في الحكم الكيفي ، وغل أيدي الشعب ورجاله المخلصين ، عن النهوض بالوطن ، والتخلص من ربقة الاستعباد ، وفك أغلال الحجر .

وهذه المطالب ، من فك حجر ،واستقلال لاتتم إلا بالأخذ بأفعل العوامل ، مثل ترقية الهيئة بالعلم الصحيح ، والوقوف على مواضع الضعف ومعرفة الواجبات لهم وعليهم ، و كيفية الوصول للمطلوب ، والدخول من الأبواب لأخذ حق الضعيف من القوي .

وأهم من جميع ماذكر ، اتفاق الكلمة ،وجمع الأهواء المختلفة .

قلنا يا أستاذ :

مثال الحجر ، والفلسفة فيه ، ووجه الشبه والمشبه به ، وما حواه من الحكمة ، كلها

أقوال جليلة وآراء خطيرة حسنة الرواء . ولكن وصف الدواء بتلك الصيغ التي يصفها طلبة المدارس ، لا نظنها توصل للمكان المقصود ولا تفي بالغرض المطلوب ومعظم الشرقيين في ظلمات الجهل ، وأنهم قد غلبوا على أمرهم ـ على نتيجة اجتهادكم ـ وكثر بين ظهرانيهم القوّال وندر الفعّال ، وعزّ العثور على قول يمكن العمل به .

وإلاّ لو قلنا أن الملايين من الخلق لو تعلموا وتهذبوا وتفقهوا ، وعلموا الواجبات،وكانوا على اتحاد حقيقي ، لغلبوا الالوف ، هذا أمر بالبداهة معروف .

وإنما السر كل السر ، والإرشاد ، بالإفصاح عن سُبـل الوصول إلى الغاية عملياً ، وإمكان تطبيق النظريات فعلاً .

قال : تطلبون الدواء ، والداء دفين في جسم الشـرق وأبنائه ، مستحكم منهم ، يعز ويتعذر على الحكيم النطاسي ، أن يصف الدواء الناجع أو الشافي والواقي ، لاعتقاده أن المريض لا يتناوله بل ربما يعمل بعكس ما يشير به الطبيب اليوم ، ولو علم ذلك المريض أن في الامتناع من الدواء الموت الزؤام ، وهذه حالة الشرقيين في مختلف الأقاليم .

لدى أهل الشرق دواء سريع التأثير في الشفاء ، ولكنه عظيم الخطر ، مفزع للجبناء منهم ، وقد وصفه حكماء الشعر من العرب بقولهم :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم   بين طعن القنا وخفق البنود

وقولهم :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبـه الدم

هذا النوع من الدواء توارثه الغربيون ، وعملوا بكل معانيه ، فتسنى لهم به من العظمة والاستطالة ، والحكم بالشرقيين ما نراه محسوساً مشهوراً ، وبين أيدينا ومن خلفنا .

أما الشرقيون وقد وجدوا في هذا الدواء الشافي والواقي ، مرارة ومشقة وقتية وعناء، فاطّرحوه ونبذوه جانباً ، ورضوا من مجد باذخ وملك مسيطر (بعير ، ووتد !) قد لا يملكونها اليوم تمام الملك . فحق عليهم قول الشاعر :

ولا يقيم على ذل يراد بـه   إلا الأذلان عير الحيّ والوتد

قال : إن هذه الأنواع من المعالجات في الشرق إذا كنت أرى منالها اليوم بعيداً ، ذلك لسقوط الهمم ، وخور العزائم ، وتفرق الكلمة ، والاستسلام للخمول ، وبعدالنفوس في معظم الشرقيين عن مرامي العزة النفسية ، وحرمانهم من لذة ما تنبسط به الروح عندنوال المنعة القومية ، والحرية الحقيقية ، ومافي عزة الحاكم الفرد من الحول والطول، بقوة مجموعه ـ ولو كان صعلوكاً ـ على الجمهور المحكوم ، ذلك الجمهور الشرقي اليوم المستكين للمهانة ، والخاضع للقوة الموهومة التي يتخيلها هولاً هائلاً ، أو غولاً آكلاً .

ثم قال : الناس في الموت خوف الموت في الذل خوف الذل .

أما وأنتم تطلبون دواء يسهل على الشرقيين تجرعه ، فأقول :

بلى ؟ نحتاج إلى عمل جديد ، نربي به جيلاً جديداً ، بعلم صحيح ، وفهم جديد لحقيقة معنى السلطان الأول ، على الأجساد والأرواح وهو « الدين » وجمع ما تشتت من الكلمة من أهل الأديان ، وتوطيد العزم على قبول الموت في سبيل حياة الوطن .

يقوم بذلك جمعيات يتولى أمرها أُناس يأخذون على أنفسهم الأبية عهداً ، أن لا يقرعوا باباً لسلطان ، ولا يضعضعهم الحدثان ، ولا يثني عزمهم الوعيد ، ولا يغرهم الوعد بالمنصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب ، بل قوم يرون في المتاعب والمكاره بنجاة الوطن من الاستعباد ، غاية المغنم ، وفي عكسه المغرم .

قلنا : نعم ما وصف الأستاذ إذا قيض الله ، ويسر للأمة أفراداً يقومون بتلك الغايات الشريفة ، ويكون في نفوسهم ذلك الإباء ، فلا يقرعون معه باباً لسلطان — ولو استقرعهم — ولا يهرعون لمنصب . وإن هم فعلوا فلا يغفلون عن الوفاء بالعهد ، ولا ينقضون الميثاق . ولكن أين هم ؟؟ .

أجاب يقولون «الحاجة أم الاختراع» ويقولون : « اشتدي أزمة تنفرجي » .

فالأزمة تلد الهمة ، ولا رجاء من المستضعف إلا إذا يئس ، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق ، ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك . وعلى ما أرى قد أوشك فجر الشرق أن ينبثق ، فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج ، سنة الله في خلقه :

ومها ادلهمّ الخطب لا بد ينجلي وأظلمت الدنيا فلا بد من فجر

نعم ! لا بدّ لذلك النسيم الذي حمل معه أجزاء فردية الحياة والنشاط والنهضة ومرّ على أعرق الامم في الجهل ، ولما استنشقته هبّت من رقادها ، ودوّخت ممالـــك الأرض ، واستفتحتها . وملأتها عدلاً ، ذلك النسيم الذي جمل في العراق هاروناً ومأموناً ، وفي الشام والأندلس وسائر المشرق دولاً ودهاقين ودهاة ، ومن فحول العلماء جهابذة وأساطين .

أكرر وأقول « نعم » لا بد لذلك النسيم بعدأن سرى عن تلك الممالك ، والبقاع فهبطت في مهاوي الذل ، وأصبح نشاطها خمولاً ، وعلمها جهلاً ، وملكها أثراً بعد عين ، لا بد وأن يعيد الكرة ويمر على الشرق مرة أخرى فتنشط له العقول ، وتقوى به العزائم ، وينفتـــح لاستعادة المجد المجال وتظهر من زوايا الخمول فحول الرجال إن شاء الله .

ثم استطرد وقال :

كما علمنا أن معدات المرض وجراثيمه في الشرق ـ التي قد أتت من مطامـع الغرب ، ودخلت إليه من باب خمول الشرقيين ـ تنحصر في أمور رئيسية سبق التنوية بذكر بعضها ، مثل إقصاء أصحاب العارضة ، والأحرار الحقيقيين .

كذلك يجب أن نعلم أن عواملاً غريبة مهلكة تبدو في أول مظهرها خفيفة الوطـأة ، سهلة المأخذ ، لاضرر من التسامح بها ، وهي :

« أسلوب عجيب لإضعاف لغة القوم ، والتدرج بقتل التعليم القومي ، وتنشيط القائلين من الشرقيين بأن ليس في لسانهم العربي ، أو الفارسي ، أو الاوردو الهندي أو الخ ... آداباً تؤثر ولا في تاريخهم مجداً يذكر . وأن المجد كل المجد لذلك الشرقي الخامل أن ينفر من سماع لغته ، وأن يتباهى بانه لايحسن التعبير بها . وان ما تعلمه من الرطانـة الاعجمية هي منتهى ما يمكن الوصول اليه من المدركات البشرية »!

قال : ولقد شاهدت وسمعت من مثل هـذه المضحكات المبكيات ، عدة أشخاص من زعانف الشرقيين ، وقد وقفوا على منابر الخطابة ، يتزلفون إلى طالـبي الرزق في بلادهم من الغربيين ، فأنكروا من قومهم ولسانهم كل فضيلة ، وتغنوا بجمل غربية ورطانة أعجمية ،

حشوها المدائح التي ربما تكون أوصلتهم إلى بلغة من عيش عند ذلك المكتسح لبلادهم ،ولسوف ينبذ من كان مثلهم مكاناً قصياً ، فلا الاجنبي يحميه ، ولا الوطن يحويه .

لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمي وتحيي آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم ، وتنسج على منوالهم .

وهذا كله يتوقف على تعليم وطني يكون بدايته « الوطن » ووسطه « الوطن » وغايته « الوطن » ! .

ويجب أن يكون الوطن في مفهوم الشرقيين كقاعدة حسابية : اثنان في اثنين ، يعملان أربعة . فلا تستطيع المذاهب ، أو الطوائف أن تدعيها خاصة ، ولا أن تحاول نقضها .

هـذا هو الوطن ، وهكذا يجب أن يكون التعليم الوطني .

رأيه في كيفية الوصول لرفع الحجر الذي وقع وسيقع على الشرق وأهله

قال : لا يفوتنكم أن نهوض الأمة المحجور عليها لفك حجرها ، بإثبات كفاءتها ، وترقية مجموعها بالعلم الصحيح ،والأخذ بأسباب المهيئات لحكم ذاتها ، ليس كما تظنونه بالأمر السهل، فهو سيصادف عقبات كؤود ، ينبغي التفكر بها ملياً ، وإعداد قوة عظيمة من الحكمة والدهاء والسعي الحثيث لتذليلها .

فالعالم ولو كان « أعزلاً » فهو بعلمه « كميٌّ مخشى » ، والجاهل وإن كان مخشاً فهو بجهله « أعزل » .

وهكذا القول في الأمة ، خصوصاً في زماننا هذا ، زمن الاستعمار . أو كما قلت ياشيخ بني مخزوم في رياضك المصرية ، « زمن تحرير الارقاء وإسارة الأحرار » .

أقول للشرقيين تأملوا كيف تحفظ الدول ثغور مستعمراتها من إدخال الأسلحة ، والأجزاء النارية اليها وكيف يشددون النكير ، وينزلون أصرم العقوبات على من فعل ذلك . والحكمة في هذا ظاهرة وهي تخوف المستعمرين من استعمال تلك القوى ضدهم . ولو أمنوا من

عدلهم فيمن يحكمون من الأهلين ، أو فيا استولوا عليه من الامصار لما تخوفوا كل هذا التخوف ، ولا أخذوا من التحوط كل هذا الاحتياط ، وسنّوا له أصرم القوانين .

والعلم لقوم أو لأمة ، قد سهل الحجر عليها محض جهلها ، ليس بأقل هولاً ، أو أخف دهشة وتأثيراً ، من إدخال السلاح لمستعمرات المستعمرين أو الأوصياء على ثروة الشرقيين وبلادهم ، لسرفهم وجهلهم .

فالغربيون ولا ريب يمانعون — بطرق خفية — ترقية الشرقيين لأنفسهم على طريقة وطنية خاصة بهم ، ويعرقلون مساعيهم ، بأشكال نصح غربية ، ولا يسهلون وسائل تهذيب أخلاق مجموعهم ، بل يعملون على العكس ؛ وبالاجمال لايمكنونهم من التوسل فيما يؤول لوصولهم للحكم الذاتي ، بأساليب غاية في المكر والمغالطة والسفسطة والاستعانة ببعض أهل البلاد على ذلك ، وهم الأسقط همة .

فحياة الشرقيين بالعلم الصحيح، موت لحكم الغرب فيهم ، وفك الحجر عنهم ، والعكس بالعكس.

إذاً فلا بد من تمام اليقظة ، والعمل بكمال الحكمة من الشرقيين للوصول إلى الغاية بدأب متواصل ، وهمم لاتفتر ، وعزائم لاتكل .

أما الرجال والكهول ، ومن شب منهم عن دور التعلم ، واستقام على عوج فيما تلقنه ، هؤلاء تقومونهم بالمحاضرات ، وفتح نوادٍ وطنية للاجتماع ، واختلاط أبناء الطوائف مع بعضهم ، وإراءة طرق العمل للنهوض بالوطن ، على طريق الخطب ، والمثال الحسن ، والتذكير والتحذير .

رأيه في تربية الطفل الذي سيكون رجل المستقبل

قال أما الأطفال والصبيان ، فأحسنوا الأول تربية المرأة ، وأما الثاني (وهم الصبيان) فأغلقوا في وجوههم مدارس الحكومة ، وافتحوا لهم أبواب المكاتب الأهلية .

لانه لو سلم برنامج دروس مدارس الحكومة من سموم تدس في الدسم الوطن ، لاتسلم من ضرر ما تشحنه فيها من علوم قد لا يحتاجها المتعلم في عمله ، وفنون لافائدة متحققة لمن تلقاها ، ولكنها بلا ريب تترك التلميذ عليل الجسم ، فيخرج عليل العقل ، أليفاً للنظر في الكتب ، خيالياً وهاماً ، نفوراً من العمل ، جامداً فياتعلم، بليداً في كل مايحاوله من العمل .

أما الوطنية ، أو « حب الوطن » ، فهو الداء الذي تخشاه المدارس الأميرية أو من كان تحت سلطة الأوصياء « الأجانب » منها ، فتحرم ذكر مايؤول للوطن كيلا تصاب الطلبة بالعدوى منه ، وتعم بالنتيجة البلوى عليهم .

أما الطفل ، فيجب أن تتعهده الأم رضيعاً ، فطفلاً بكمال الاعتناء الصحي ، ليكون صحيح الجسم صحيح العقل ، ثم ترضعه حب الوطن مع تدريجه بالعلوم اللازمة ، وعدم إطفاء نوره الفطري ، بتعليمه الكذب ، وتحبيب العمل إليه ، وتمرينه عليه مع رعاية سنه .

وبالاختصار تجعلون المدارس الأهلية الوطنية ، دور علم وعمل ، ولتكن تلك المدارس بعيدة من مزدحم الخلق ، وفاسد الهواء ، فسيحة الأرجاء ، متنسقة تقسيم البناء ، فكما يكون فيها غرف لتلقين العلوم ، هكذا يكون فيها أماكن لمزاولة العمل .

وكلما دخل دماغ التلميذ شيء من العلم ، أجبر أن يعمل بأعضاء جسده شيئاً من العمل ، فيعمل بالحدادة مثلاً ، والنجارة ، وبالبناء في المدرسة مع رفاقه ، ويعاني تربية الحيوانات فيها ، فيحتلب الأبقار ، ويصطنع الجبن ، ويستخلص السمن والزبدة وغير ذلك مما ينفعه جسدياً ، وإذا خرج من المدرسة أفاده مادياً .

ويكفي إذا خرج على ماذكرنا أنه يخرج رجل علم وعمل ، لارجل غطرسة وعجرفة وكسل ، كَلٌّ على أهله ، يكثر به وبأمثاله العدد ، ولا ينتفع بهم أحد .

أما الدين فعلى قسمين : قسم عبادات وقسم معاملات .

فالعبادات يؤديها الانسان لربه بمعزلٍ عن كل أحدٍ ، فلا يعارض غيره بها ، ولا غيره يعارضه ، إذ لكلٍّ وجهة هو مولاّها ، والله رب العالمين ، لارب اليهود فقط ولا النصارى فقط ، ولا المسلمين فقط (وهو الذي خلقكم من نفس واحدة) .

وأما المعاملات : فهي شرع بين العموم ، يعملون أبناء الطوائف على خير وطنهم متكاتفين متعاونين ، يشتغلون في المدرسة أخداناً ، ويخرجون منها إخواناً ، يحملون بين أفئدتهم شعور الولاء والإخلاص ، لايحل ما ارتبطوا به من روابط المحبة الوطنية قرب ولا بعد ، ولا ينسون عهد الصبا وذكراه ، بل يكونون في جسم الوطن كأعضاء الجسد الواحد إذا اشتكى منه

عضو تألم له المجموع من الجوارح ، كيفما ساروا وأينما حلوا ، فلا يرون إلا وحدة من سماء وأرض وماء وحب لوطن واحد ، لاتبلبل ألسنتهم مختلف اللغات ، ولا تشتت كلمتهم تباين النزعات ، ولا تفعل فيهم أهواء أولي الغايات من أرباب تلك المدارس والمعاهد ، أو إن شئت قل تلك المصايد ، وإن كان منها بعض النفع .

قوله في الصبر والثبات

قلنا : إن الأستاذ قال في مقدمة هـذا البحث ، أن الانكليزي يثبت حتى على الخطأ إذا تسرع به وقاله أو باشره ، وبفضيلة ثباته يظفر ، ويصل لغايته بنتيجة الثبات .

مع أن ثباته لو فرضناه ، أو كما فرضه الأستاذ كان على الخطأ ، فما معنى ظفره ، وفضيلته بالثبات على غير الصواب ؟ وهل في ربحه بالقوة المجردة غير الخسران ؟.

قال : إن الفضائل التي نجلها ومنها الصدق والكرم والشجاعة وباقي الهيئات المتوسطة ، لم تكن لتحصل للفرد أو للأفراد إلا بمزية الثبات عليها ، فلا يمتـاز الرجل بصفته « صادقاً » إذا لم يثابر على الصدق ويعرف به في سائر تقلبات الظروف والأحوال ، وإلا فصدقه مرة أو مرتين لا يؤهله للاتصاف بالمعنى المطلق لفضيلة «الصدق والصادق» ، وهكذا القول في الكرم والشجاعة وباقي الفضائل ، فلا يتسنى للمرء الاتصاف بها إلا بالثبات عليها .

فالثبات إذاً عقد الواسطة للهيئات المتوسطة من كل فضيلة أو رذيلة ، ولا يمكن الاتصاف بأحدهما إلا بالثبات ، وهذا زهير بن أبي سلمى يقول :

من يأت يوماً على علاته هرماً   يلقى السماحة منه والندى خلقا

قال : وقد سمعت حكاية يعزونها للجنيد وهي :

أن رجلاً كان ديدنه السرقة وقد قطعت يده في الأولى ، ثم قطعت الثـانية في السرقة الثانية ، فثابر على فعل السرقة برجله فقطعت ، فثابر فقطعت رجله الثانية ، فسرق بلسانه فقطع إلى أن استحق القتل فصلب ، فمر عليه الجنيد فقبـل جسده ، فقيل له : تقبل جسد لص مصلوب ؟ قال إنما أفعل ذلك لثباته !.

فسواء صحت هذه الحكاية أو الأسطورة أو لم تصح ، ففيها ما يدل على معقول « فضيلة الثبات » من حيث هي .

وما أعلاه قدراً ، وأجلّه فضلاً إذا كان الثبات على مايحسبه البشر فضيلة ، وكان في الحقيقة من الأنواع النافعة للانسانية التي يحصل بها تخفيف الآلام الكثيرة في هذه الحياة القصيرة ، بالمعاونة والمساواة والإخاء الطيني ، الذي سترجع اليه كل هذه الهيا كل البشرية عوداً كما بدأها خالقها « إنا خلقناه من طين لازب » ، « أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير » .

ثم قال : لو أخذنا ذلك اللص ـ الذي أفضى به الثبات على السرقة إلى القتل بعد قطع أهم أعضائه وأوصاله ـ طفلاً ، وتعاهدناه على ماسبق بيانه وهذبنا حيوانيته بالعلم الصحيح ، والوسط الصالح ، والمثال الحسن ، وفيه مافيه من ذلك الاستعداد الفطري للثبات ، فأي عظيم من رجال الفضيلة كان يضارعه أو يفوقه .

مثلاً لو تعلم الفنون الحربية مع فطرة ذلك الثبات ، أفما كان يكون عند أصحاب التيجان من أكبر قواد الكتائب ، وأفرس الفرسان ؟ ، نعم ، ولكان من أكبر المبجلين المحترمين ! لأنه لاينقص عند أهل النظر من يعرف فن الحرب قولاً إلا الثبات في موطنه . فالهزيمة والغلبة لاتتم إلا بفرار الجبان من فرد أو جيش ، أو بالثبات منها لبعض دقائق .

أما القول في الشرقي أنه لايصبر ، ولا يثبت اليوم تجاه أقل مقاومة ، ولا يتحمل أدنى صعوبة ، فهذا لايحتاج الى برهان ، إذ حالة الشرق وأهله وما نراه في ممالكهم من الرزايا والنوائب ، أعظم دليل قام بنفسه عليهم في معترك هذه الحياة ، والتنازع فيه على الفناء !.

إنكار جمال الدين مانراه من المدنية والعلم مع استمرار الحروب

قال جمال الدين أكثر من مرة « تنازع الفناء »

فقيل له : إنما يريد الأستاذ أن يقول : « تنازع البقاء »

قال : كلا ، بل تنازع الفناء .

لأن البقاء الذي لايعتريه فناء ، ليس فيه تنازع ولا نزاع .

وكل مانراه من حيوان أو نبات أو جماد،فهم يسيرون في كل ثانية نحو الفناء ، ولو بتبدل الشكل ، وفنائه بالتحول .

والتنازع الذي نراه قائماً بين الحيوان والنبات ، إنما هو على أشياء تفنى في النتيجة .

وطالما المنتزع ، والمنازع ، والمنزوع منه سواء في المصير إلى الفناء ، فكان الأصح أن يقال « تنازع الفناء » .

قلنا : وهل اصطلاح العالم المتمدن على هذا التعبير خطأ لهذه الدرجة حتى يستبدل،ويضع لفظة « البقاء » مكان « الفناء » ؟ .

قال : ماتعنون بالتمدن ، أو العالم المتمدن ؟ .

قلنا : الرقي النسبي بالمكتسبات العلمية ، والمادية .

فأمة الانكليز مثلاً ، والفرنسيس والالمان والاميركان ، ومن ماثلهم من الأمم ، هم مدنيون ، متمدنون بأفرادهم ومجموعهم .

قال : لايقدّر الفرد ، ولا تقدّر الأمة ، ولا تقدر الأشياء ، ولا تُقدر المكتسبات العلمية ، إلا بنسبة مايترتب على ذلك من الفائدة .

فلنأخذ من ذكرتم من الأمم المتمدنة ، ومكتسباتهم العلمية ، وما صنعوه وعملوه وكسبوه وربحوه ، وما ترتب على ذلك ، وما حصل من المنافع والفوائد للبشر من وراء تلك المكتسبات ، والمدنية والثروة ثم نعدد ما رأينا .

هل رأينا غير مدن كبيرة ، وأبنية شاهقة ، وقصور مزخرفة ، ومعامل ينسج ويصنع فيها القطن والحرير ، بأصباغ كيماوية مختلفة ألوانها ، ومعادن ومناجم واحتكار تجارات أتت لهم بثروات وكنوز !!؟

ثم هل غير التفنن باختراع المدافع المريعة والقذائف ، وباقي المخربات القاتلات للانسان تتبارت تلك الأمم الراقية المتمدنة اليوم ؟؟ .

ثم لو جمعنا كل مافي ذلك من المكتسبات العلمية ، وما في مدنية تلك الأمم من خير ، وضاعفناه أضعافاً مضاعفة ، ووضعناه في كفة ميزان ، ووضعنا في الاخرى الحروب وويلاتها،

لاشك ان كفة المكتسبات العلمية والمدنية والتمدن ، هي التي تنحط وتنور . وكفة الحروب وويلاتها ، هي التي تعلو وتفور .

فالرقي والعلم والتمدن على ذلك النحو وفي تلك النتيجة ، إن هو إلاّ جهل محض ، وهمجية صرفة ، وغاية التوحش !!!

قال : وعندي أن الانسان اليوم هو أحط درجة من إنسان الجاهلية حتى ومن الحيوان الناهق . لانه ربما يكون للانسان في دوره الأول ، في حروبه الوحشية وعوامل الجاهلية، معذرة في طلب الحاجيات للحياة ، بسهم وقوس وسيف وسمهري . وقلما تفعل تلك المعدات في قتل النفوس ، إذا قيست بمـــا لدينا اليوم من المدمرات ، والاسباب المهلكات ، وباقي المعدات .

نعم لدينا كل ذلك نُعده ونستعمله ليس للحاجيات بل لأدنى صور الكماليات .

أما كون الانسان أحط من الحيوان الناهق ـ لعدم استفادته من حقيقة العلم الحقيقي ـ فأعظم أدلته « الحروب !!! » .

خذ أدهش الحيوانات المفترسة ، وأسمّ الحشرات القتّالة ، فلاترى بين تلك الأنواع ماتشاهده من حين لآخر ، بين « الانسان ! » .

هل رأيت ، أو سمعت ان ثلاثمئة ألف أفعى ، وقفت تجاهها مثلها ، وتقلبت بينهم الأنياب واقتتلوا ، أو قتلوا بعضهم بعضاً ؟ أو العقارب ؟ .

أوهل وقفت الاسود صفوفاً ، وتناهشت لحوم بعضها بعضاً ، وسالت دماؤها ؟ أو الحمير فعلت مثل ذلك ؟ كلا ثم كلا .

إذاً فالإنسان في مدنيته الحاضرة ، وفي مكتسباته العلمية والأدبية والعملية ، وفي بذل ثمرات سعيه في سبيل الحروب ، أو استثمار ثروته منها ، وفي مرضاة موقدها ، أو رضائه عنها، ووقوفه فيها تلك المواقف التي لاتقفها الحيوانات ولا الحشرات فهو أحط منها وليس ثمةمدنية ولا علم ، بل جهل وتوحش .

ثم قال : قرأت في القرآن أمراً تغلغلت في فهمه روحي وتنبهت اليه بكليتي وهو : (وإذ قال ربُّك للملائكةِ إني جاعلٌ في الأرضِ خليفة ...)

فاندهشت الملائكة لهذا النبأ ، ولهذه المشيئة الربانية إذ علمت أن ذلك الخليفة ، سيكون الانسان، وأن ذلك الإنسان ـ الخليفة ـ سيصدر منه موبقات وسيئات ، أعظمها وأهمها أنه « يسفك الدماء » .

فقالت بملء الحرية، المتناسبة مع الملأ الأعلى وعالم الأنوار والارواح الذي لا يصح أن يكون هناك شيء من رياء ونفاق (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ...) .

ووقفت الملائكة عند هذا الحد من الطعن في الانسان ولم تذكر باقي السيئات من أعماله إذ رأتها لغواً بالنسبة لهذين الوصمين ، الفساد وسفك الدماء ؛ لذلك برزت بها حجةً ، واتخذتها برهاناً على إعظام جعل الانسان (خليفةً) وفيه ذلك الاستعداد للعمل بالرذيلتين .

وهنا أول ما يتبادر الذهن أن قول الملائكة هذا أتى اعتراضاً على المشيئة الربانية ، وفيه من عدم التأدب مع الله مافيه ، وهم أولى الخلائق بالتأدب ، ومعرفة عظمة الخالق ، وقد جاء في حقهم أنهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون » .

ومتى صح هذا كان الأقرب للصواب أن الملائكة أرادت أن تعلم ما أعده الله لصون الانسان ـ وقد جعله خليفة له في الأرض ـ عن الفساد وسفك الدماء .

يدلنا على ذلك قوله تعالى (إني أعلم ما لا تعلمون) .

وبأبسط المعاني أن الله تعالى أفهم الملائكة أنكم علمتم مافي خليفتي في الأرض وهو الانسان من الاستعداد لعمل الفساد ، وسفك الدماء وجهلتم ما أعددته لصونه ، وصرفه عن الاتيان بالنقيصتين المذكورتين ، ألا وهو « العلم »

فقال : (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض .. الآية)

فلا تثريب على من يقول أن الله أراد بهذا أن يقول للملائكة : أيتها الملائكة إني قد علمّت آدم « خليفتي في الأرض » علماً جهلتموه أنتم . وأن بذلك العلم يصان الإنسان ، ويكف عن الفساد ، وسفك الدماء ؛ فلا يحدث من خليفتي ما خشيتموه وأعظمتم أمره وذلك الصون للانسان حصره « بالعلم ؟ » .

وجاء في القرآن تعظيم قدر العلم الصحيح - لا ما نراه من القشور فنسميه علماً - بمثل قوله تعالى « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ومثل « لا يعقلها إلا العالمون »

فترى حكم المساواة في القرآن قد جاء عاماً بين الناس ، إلا في هاتين الآيتين ؛ إذ منع في الأولى ، المساواة بين العالم والجاهل ؛ وفي الثانية ، أن يكون غير العالم عاقلاً .

فما تقدم يفهم أن العلم الصحيح الذي يمكن الآدمي أن يصل إليه هو العلم الذي به ينتهي الانسان عن الفساد في الارض ، وسفك الدماء .

والعلم الذي لا يصون الانسان عن هذين النقصين ليس هو بالعلم الذي تعلمه آدم ليدحض حجة الملائكة على أنه سيفسد ، ويسفك الدماء ؛ بل هو يناقضه ويشهد على ذلك النقيض مانشاهده اليوم في أوروبا والعالم المتمدن ، مما جعل رقيهم النسبي في المكتسبات العلمية ، نقيضاً للبرهان .

ولا بد أن يصل العالم الانساني إلى درجة من حقيقة العلم يمتنع بها عن إراقة دماء بعضهم بعضاً ، وليس بين القاتل والمقتول لانزاع ،ولا خصام حتى ولا تعارف بالوجوه ، بغير صفوف القتال ، يساقون للمجازر لإرادة ملك مسرف مغرور ، أو تهويل أفراد يقبضون على زمام الاحكام ، ويسوقون الخلق كالأنعام ،يغتنمون فرصة الحرب ليكتنزوا من ورائها الذهب والفضة.

ثم قال إن الإنسان لتعروه الدهشة عندما يرى أفراد الأمة يسوق بعضهم بعضاً للثكنات، فصفوف القتال، وجلهم غير راضٍ عنها بل نافر منها إذ يعلم أن من ورائها يتم الأطفال ، وموت الشيوخ ، وهتك الاعراض .

يهولون عليهم ، ويستهوونهم باسم « الوطن » والوطن بقاع من الارض ، ولو أنصف الناس بعضهم بعضاً لوسعتهم ، وما فضل الارض إلا أنها تتحمل أثقال البشر ، يمرحون فوقها ويقتتلون عليها وهم لها في الأخير تاركون ، وإلى جوفها داخلون . فما أحرى بالانسان أن يعيش مع أخيه فوق أديمها ، وهو رفات العباد ، بصحيح الاخاء ، وشيء من الهناء ريثما يدرك الجميع الفناء .

ومما يزيد في الدهشة والحيرة،أن الحروب وويلاتها لا يحتاج في توقيفها وإبطالها إلا توقف

الأمة عن إجابة الداعي اليها ، وطلب الرجوع إلى العدل المطلق مع تحكيم الانصاف المحض . فاذا فعلت ذلك كل أمة ولو أهاجها ملكها ، أو هول عليها أميرها ، أو وزراؤها ، ورؤساؤها فبمن يقاتلون ؟ والأمة محجمة عن الحرب ، لاترضى بالقتال ، وتطلب تحكيم العقل والعدل، وهل يرى المسيطرون غير ترك الطمع مخرجاً من ذلك الموقف الحرج ؟ وهل يستطيعون غير ترك الضعفاء يأخذون حقهم بقوة الحق ، بلى لا ينقذهم غير ذلك .

نعم إن عدم إجابة الامم لداعي الحرب ، واتفاقها على تحكيم العقل والعدل فيما فيه يختلفون ، هو الذي يكفي البشر شر الحروب والقتال ، ويجعل الخلق في سلام دائم ، وهناء مقيم .

هناك يصح أن يقال : إن البشر ، أو بني آدم قد تعلموا ، وحصل لهم مكتسبات علمية ، أو على اصطلاحكم « تمدنوا ! » ليس بمعنى أنهم تركوا القفر ، وعمروا المدن وسكنوها ، كلا بل بصحيح العلم الذي إنما يكون له قدراً على نسبة مايترتب عليه من الفائدة .

ثم قال : وأعظم مايبعث على الامل في إبطال الحروب إذا ارتقى العالم الإنساني في حقيقة العلم ، وعم طبقاته ، أنك لو أخذت اليوم عموم عساكر بريطانيا ، وتخيلتهم حقيقة مثل « نيوتون » و « دروين » وغيرهما ، وفرنسا مثل « باستور » وأمثالهم من باقي الامم فهل يقفون صفوفاً للاقتتال ، لعدم احترام سفير ، لأن كرسيه وضع في المأدبة الملوكية في غير الموضع الذي يريده . وهل يريقون دماء مئات الألوف من تلك الانفس الزكية لذلك ، أو لأجل بقعة من الأرض يطمعون بضمها للمملكة ، أو ليستعمروها .

قال : لا أظن ! ولا تظنون ذلك ، ولاهم يفعلون .

قوله في دعوة الاسلام وكيفية انتشاره وأن الدين لاينبغي ولا يصح أن يخالف الحقائق العلمية ولزوم الرجوع إلى التأويل :

قيل لجمال الدين بعد أن انتهى من إفاضته في بحث الحروب ولزوم إبطالها على نحو ماسبق: إذاً مامعنى قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله ... الآية .)

وآية السيف التي نسخت ثلث القرآن تقريباً ؟

والأمر الصريح في الجهاد ؟

قال : هنا فرق عظيم بين مانراه من الحروب اليوم وبين الجهاد في سبيل الدعوة الدينية، والقصد منها إرجاع الخلق إلى الحق ، ذلك الجهاد الذي ماعمل به الاسلام فوراً ، واعتباطاً من غير تدريج .

جاء محمد ﷺ بالاسلام والقرآن بعد أن تقدمه موسى عليه السلام بالتوراة ، وعيسى عليه السلام بالانجيل .

فلم يمض على بني إسرائيل دهر طويل بعد موسى حتى تلاعب الكهنة والكتبة والفريسيون بأحكام التوراة ، وبكثير من أساسات الناموس الموسوي فجاء عيسى مصلحاً ما اختل ومداوياً ما اعتل ، ومتمماً لما أنقص من ذلك الناموس ، وأدلى بالانجيل ، وفيه وفي التوراة « الهدى » وما يلزم للخلق من الإرشاد !.

ولكن لم يمض كذلك حين من الدهر حتى ظهرت الاضطرابات الدينية والفرق ، من صابئة ويعقوبية وغيرها ، وأساء الكثير من الناس فهم أقوال المسيح الروحانية العالية ، والتصوفية المحضة .

وظهر في العرب ماهو أشد وطأة إذ استفحل بينهم أمر عبادة الاوثان وطمت الضلالة والغواية ، وعمت الأعمال البربرية عموم القبائل العربية حتى لم يستثن منها فريق ولا قبيل.

تلك الأعمال التي تقشعر منها الابدان ، كوأد (دفن) البنات أحياء وما أشبه وباقي الضلالات من العبادات ، وتعدد الآلهة من هبل أكبر ، وعزّى واللات ومناة ، وغيرذلك.

فجاء محمد ﷺ رسولاً مصدقاً لصحيح التوراة والانجيل ، داعياً إلى الله وتوحيده ، مرشداً للخير أميناً ، بشريعة سمحاء تكفلت لعموم الخلق بكل سعادة مادية ومعنوية ، مقبحاً للشرك بالإله والمشركين به ، مظهراً بطلان ما يعبدونه من دون الله ، بقرآن معجز وحجج بالغة ، مثل قوله : (قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ،

قل هل يستوي الاعمى والبصيرُ أم هل تستوي الظلماتُ والنورُ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار .. الآية »

ثم قال :

أما آية السيف فقد قلتم انها نسخت على وجه التقريب ، ثلث القرآن ، وهذا الثلث إنما كان كله لطف ويسر وأمر بالمعروف ، ودعوة إلى وحدانية الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومباهلة وتحد ، وجدال بالتي هي أحسن ، ينطوي تحت كل هذا مطلب واحد ، وهو توحيد الله وعبادته ، وترك عبادة الأوثان ، وقبول الهداية ، واستئصال الضلالة . حتى إذا ما ذهب كل ذلك اللين واللطف والدعوة بالحكمة والمواعظ الحسنة عبثاً ، في سبيل قبول الهداية ، وفيه نفعٌ شامل . وبرز المخالف مصراً على الضلالة ، مقاوماً ، وفي ذلك ضرر عام للمجموع ، عند ذلك وقف الإسلام في وجه المشركين من العرب ، وأنذرهم بانه لا يقبل منهم الا « الايمان » بالله وحده ، وتحطيم « الأوثان » .

وما أشدّ ما لاقاه محمد ﷺ ومن آمن به ، من كفّار قريش ، ومن عشيرته ، ومن عموم العرب ، ومن أنواع الاضطهاد ، والاستهزاء ، والعذاب ، مما يطول شرحه وما هو معلوم عند العموم .

أما أهل الكتاب (وهم الموسويون والعيسويون) فقد خيّرهم الإسلام أحد أمرين :

إما الاشتراك بأداء الجزية وفيه صلاح الأمر الدنيوي للكافة ، والمقصد الاعلى من هذا ، صون النفوس ، وعدم سفك الدماء ، بقليل من مال يؤخذ فيصرف في المنافع والمصالح ، وفي تعزيز قوة المجموع ، وكذلك يدخل به مع القوم إلى ساحة مساواة حقيقية — له مالهم وعليه ما عليهم — ولا إكراه عليه في دينه بل يكون مصاناً في شعائره ، وأصول عباداته وعاداته من كل أذى ؛ وإما أن يختار الاسلام فيشارك القوم في العاجل في دنياهم وسلطانهم ، وفي كل ما حوته أخراهم من نعيم مقيم ، وجنات تجري من تحتها الأنهار .

والغرض الأسمى في الحالتين — كما ترى — هو عدم سفك الدماء ووقاية ذلك البناء

الإلهي من الهدم جذافاً ، بل تجسم فيه طلب الهداية لعبادة إلـٰه واحد ، وتأسيس العدالة، وتوزيع الحق بمطلق المعنى .

لذلك ترى أن كل مصرٍ ، أو قطرٍ دان بالاسلام ، أو دخل في حوزته خيّم فوق ربوعه السلام ، ورتع أهله في بحبوحة من العـــدل المطلق وساد فيه الأمن والأمان ، وحصلت المساواة على أصح وجوهها ، ونمت الخيرات بينهم ، وفاضت البركات ـ باعتراف كل منصف غربي مثل اللورد (اسبنسر) و (كارليل) وغيرهما ـ ممن قالوا الحق ونطقوا بالصدق .

وهذا كله ، لا يشبه بصورة من الصور حروب أهل المدنية الغربية الحاضرة التي يشب ضرامها لتوسيع نطاق البلاد بالإلحـاق أو بالاستعـمار ، وبالنتيجة استعباد العبـاد تحت تلك الوسائل .

يتوهم الكثير ممن لا وقوف لهم على الحقائق ، أو من يكابر بالمحسوس ان انتشـار الدين الاسلامي فيما انتشر فيه من الأمصار ، والأقطار إنمـا تمّ بعامل القهر والسيـف وسطوة الجيوش . ولكن إذا نظرنا إلى الحقيقة بعين الإنصاف ، رأينا أن من ظهور الإسلام في مكة، إلى الهجرة للمدينة « يثرب » ، إلى أن عم الاسلام جزيرة العرب بأسرها ، لم يحصل بغـير غزوات معدودة ، وسريات محدودة ، بطش الإسلام بها في الكفـّار من قريش كوقعـة بدر ، وأُحد ، وحُنَين ، فذلت أشد القبائل العربية ، ودانت بالاسلام وعمّ الفتح باقي الجزيرة ، وتناول اليمن بدون قتال ، بل بالدعوة والارشاد فقط .

ثم إذا أخذنا ماتجمع للخليفة الأول أبي بكر ، وللخليفة الثاني عمر الفـاروق رضي الله عنها ، من الجيوش وما بثوه من المجاهدين ، وعلمنا أن مجموع الجيوش الاسلامية في العهدين لم يتجاوز الأربعين ألفاً ، وقسنا ما دخل من الممالك في حوزة المسلمين ، ومن دان بالاسلام ، من قطر الشام ، وفلسطين ، فحلب ، فالعراقين ، فمصر وممالك الفرس وغيرهم إلى جدران الصين ، تبين وتحقق لنا أن عمل الجهاد بالسيف لم يكن ليـذكر في جانب الدعوة بالحكمة ، والأخذ بالعدل المطلق ، والمثال الحسن ، والقدوة الصالحة ، وما فتح من البلدان والأمصار صلحاً ، أكثر بكثير مما فتح عنوةً وحرباً . وأما قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ

ومن رباط الخيل .. الخ الآية » ليس لسفك الدماء ، كما يظهر من صريح الآية بنهايتها حيث قال « ترهبون عدو الله وعدوكم . . الآية » فالأمر بإعداد تلك القوة لم يكن ليقصد منها إلا « الإرهاب » فقط ليتقى بها سفك الدماء ، وليخشاها طلاب الحروب ، ويمتنع قتل النفوس .

فتوفير العدد والمدد ، وإرصاد القوة على مطلق المعنى إذا كان القصد منه « الإرهاب » وليس سفك الدماء كما هو الظاهر والواقع ، فهي أفعل الوسائل لمنع الحروب .

« فولتيكي » قائد الالمان قال ما معناه (أبطالالحرب لإبطال الحرب) والقرآن جاءبذات المعنى قبله بألف وثلاثمئة عام بدليل مامرّ من حصر القوة بمطلق معناها للارهاب فقط .

فالقرآن وتعاليمه ، ودين الإسلام ومن دانَ به ، والسيرة المحمدية ومن عمل واقتدىبها من الأصحاب لو أمكن للناس أن يعملوا بها ، لتوفرت لديهم السعادة وأنواع الخير ، ولخف عنهم كثير من الويل والشر .

أقول هـذا — وعزة الحق ! — وأنا غير متحيز ، ولا متنصر للاسلام عن غير هدىً ، ولا يداخلني بمعتقدي هذا أدنى عامل من عوامل التعصب .

لذلك أقول ثم أقول : القرآن ؟ القرآن ! واني لآسف إذ دفن المسلمون بين دفتيه « الكنوز » وطفقوا في فيافي الجهل يفتشون على الفقر المدقع !

خالفوه في كل ما أمر ، وعملوا عكس ما قال ، حتى كأنما القرآن أمرهم بالاختلاف ، وحذرهم من الائتلاف ، وحثهم على انتقاضهم على أنفسهم ، وتشتت كلمتهم ، وان لا يعتصموا بحبل الله جميعاً ، بل يتفرقواليفشلوا وتذهب ريحهم !!!

أو كأنه قال : لاتتدبروا معـاني القرآن ، لتفهموا وتعملوا بمـا يؤول لخير دنيـاكم قبل أُخراكم .

وكيف لا أقول وا أسفاه ! وإذا نهض أحد لتفسير القرآن فلا أراه إلاّ يهيم بباء البسملة ويغوص ! ولا يخرج من مخرج حرف صاد الصراط حتى يهوي هو ومن يقرأ ذلك التفسير في هوة عدم الانتفاع بما اشتمل عليه القرآن من المنافع الدنيوية والأخروية — مع استكماله الأمرين على أتم وجوهها — .

عمّ الجهل ، وتفشى الجمود في كثير من المتردّين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بانه يخالف الحقائق العلمية الثابتة ، والقرآن بريء مما يقولون .

أثبتت العلم كروية الارض ، ودورانها ، وثبات الشمس دائرة على محورها ، فهذه الحقيقة مع مايشابهها من الحقائق العلمية لا بد أن تتوافق مع القرآن ، والقرآن يجب أن يُجلّ عن مخالفته للعلم الحقيقي ، خصوصاً في الكليات .

فاذا لم نرَ في القرآن مايوافق صريح العلم ، والكليات ، اكتفينا بما جاء فيه من الاشارة ، ورجعنا إلى التأويل ، إذ لا يمكن أن تأتي العلوم والمخترعات بالقرآن صريحة واضحة ، وهي في زمن التنزيل ، مجهولة من الخلق ، كامنة في الخفاء لم تخرج لحيز الوجود .

ولو جاء القرآن ، وصرح بالسكة الحديدية ، والبرق ، وما تفعله الكهربائية من الغرائب وغير ذلك ، لضلّت الناس ، وأعرضت عنه ، وحسبته كذباً .

لذلك نراه قد جاء بالاشارة إلى كل ما هو حادث اليوم ، وما هو ممكن أن يحدث في مستقبل الزمن ، مع مراعاة عقول الخلق ، وتقريب الأشياء للأذهان عن طريق نظرهم ، وقابلية فهمهم .

فيما اشتمل عليه القرآن من تدبير الممالك وأصول الحكومة الشورية ووظائف الملوك .. الخ والاشارات الى مقدمات العلوم والفنون الحديثة :

نعم ! إن تدبير الممالك وصونها من سلطان أو ملك يطغى بقوته ، بالحكمة وحسن الرأي ، وأصول الحكومة الشوروية ، والمشاورة ، ودعوة الأمة للتداول ، ووظائف الملوك ، ومساويهم ، وما يحدثونه إذا دخلوا بعساكرهم للمدن والقرى من المفاسد ، وإذلالهم أعزة القوم ، وصلاحية الملوك في إعلان الحرب بعد أخذ رأي الأمة ، وأصول مفاوضة الملوك مع دهاقين المملكة ، والأشكال النافعة من التجسس ، ومعرفة أحوال الممالك المجاورة وغيرها ، كل ذلك مسطور في القرآن ، في سورة النمل ، بأصرح عبارة ، وبآيات وجيزة .

وإليك البيان :

غضب سليمان عليه السلام على الهدهد إذ تفقده ولم يجده ، فلما حضر قال (جئتك من

سبأ بنبأ يقين - غير ملفق ، ولا مشوب بكذب كما تفعل أكثر الجواسيس مع الملوك والحكام-
إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم — دينهم ومعتقدهم — ،
وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) .

فلم يتسرع سليمان بقبول نبأ الهدهد هذا بل قال (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين).
ثم أعطاه كتاباً ليوصله ، وأوصاه أن يترقب عن بعد مايفعلون .

فلما جاء الكتاب الى ملكة سبأ جمعت فوراً مجلس الأمة و (قالت ياأيها الملأ أفتوني في
أمري ، ما كنتُ قاطعةً أمراً حتى تشهدونِ)

وبعد أن تداول مجلس الأمة -الوزراء اليوم مثلاً- واستخرجوا إحصاء من سجلاتهم بما
عندهم من المعدات الحربية ، أعلنو الملكة وأنبؤوها أنه في إمكانهم محاربة سليمان بما توفر لديهم
من القوة إذا هي وافقت على إعلان الحرب . (قالوا نحن أولي قوةٍ وأولي بأسٍ شديدٍ ،
والأمرُ إليك فانظري ماذا تأمرين) .

فقالت ما معناه : إن للحرب ويلات فلا ينبغي أن نتسرع بإعلانها بل نحاول درأها بما
أمكن من التدابير والوسائل السلمية والتودد واللين ، الى غير ذلك ، عسى أن نتخلص
ونخلص البلاد من رزايا دخول الملوك بعساكرهم وما يحدثه ذلك . (قالت إن الملوكَ إذا
دخلوا قريةً أفسدوها ، وجعلوا أعزةَ أهلها أذلةً ، وكذلك يفعلون . وإني مرسلةٌ إليهم
بهدية فناظرةٌ بمَ يرجعُ المرسلون). وكأنها أسرت في نفسها قائلةً : إذا قبلوا الهدية ،علمت
أن مطمع سليمان بالمال وليس الايمان بالله وتوحيده .

فردّ سليمان الهدية ، وتحفز لإخراج الملكة وقومها أذلة بالحرب وأراد أن يريها مالديه من
القوى ، وما تسخّر له من رياح يمتطيها وتجري بأمره -طيارات مثلاً- وسرعة نقل الأخبار
والأشياء بأسرع من البرق — التلغراف اللاسلكي مثلاً — .

وجدنا في ذلك القصص أن بتلك الواسطة التي توفرت لسليمان ، وبها نقل عرش بلقيس
من سبأ إلى القدس قبل أن يرتدّ إليه طرفه جاءت صريحة بالعمل مبهمة عن الآلة العاملة ، إذ
لم يكن بالإمكان للقرآن أن يصرح بشكلها أو باسمها لبعد ذلك عن الأذهان في ذلك الحين .

وكذلك لو جاءنا القرآن بنقل الأخبار بالفضاء وشرح لنا مافهمناه اليوم لما صدقنا ذلك لو لم نرَه (باللاسلكي) .

وهكذا العلم لايعجز عن إحداث مانظنه اليوم مستحيلاً ، وإبرازه مرئياً . فالبشر في الهيكل الترابي قد تحدد له مايستطيع عمله به ، وإنما في قوة روحه ، وبحبوحة عقله ، لا ندري إلى أين يصل ، وأي المستحيلات اليوم لايمكنه أن يجعلها ممكنة ، فنراها بسيطة بعد أن كنا نعظم تخيُّلها .

وفي قصة الهدهد إشارة دقيقة جداً وهي : عندما أراد سليمان استحضار عرش بلقيس استعرض ماعنده من وسائط النقل السريعة وأربابها ، واستبرزم ماعندهم من ذلك ، (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) . فرأى السيد سليمان عليه السلام ذلك بطيئاً فلم يرق له . فتقدم عند ذلك غيره و (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك) .

فعلمنا من تلك الاشارة ، أو الصراحة أن واسطة نقل الأشياء بسرعة لايتخيلها وهمنا اليوم ، كانت علماً مدوناً بكتاب ، وله أرباب وذوي رسوخ فيه ، وتمكنٍ وقدرةٍ عليه ،على غير طريقة الارواح التي يتم لهم بها خاصة التطور .

وها علماء عصرنا اليوم قد انتبهت الى عمل الروح ، واستخدامها بالتنويم المغناطيسي (اسبيرتيزم) و (هپنوتيزم) هذا العلم إذا لم يتوقف البحث فيه بل سار متقدماً بالتجارب والتمحيص لايبعد أن يأتينا من المدهشات والغرائب بما لم يكن بالحسبان ، بل ربما يحقق لنا ماسبق القرآن بالاشارة اليه كما ذكرنا .

أما كروية الارض وهي من الحقائق العلمية فقد أشار اليها القرآن بقوله (والأرضَ بعد ذلك دحاها) ، والدحي بلغة العرب : البيض ، أو الشكل البيضي ، وهو الكروي أو الأقرب اليه .

فهذه الإشارة تكفي لتتفق الحقيقة العلمية معالقرآن ، أو نرجع بالتأويل ليتفق القرآن مع الحقيقة العلمية لا أن يختلفا .

وأما ثبات الشمس ، وأنها تدور على محورهـا ، فقـد أشار إلى ذلك بقوله (والشمسُ تجري لمستقرٍّ لها ..) والجري والدوران بمعنى واحد ، وكذلك المحوروالمستقر ، فلا تثريب على من يستنتج أن الشمس تجري على محور لها ، هذا إذا كانت الحقيقة العلميـة ماذكرنا — من دوران الشمس على محورها — فالقرآن يكون قد أشار إليها وما خالفها .

ووصل علمـاء الفلك بالبحث إلى أن الارض والشمس كانتا جرماً واحـداً ثم انفصلت الارض كرة كما هي اليوم وكان السديم الى آخره .

فان تقرر هـذا كحقيقة علمية فإنا نرى في القرآن ما لا يخالفها ، بقوله « كانتا رتقاً ففتقناهما » .

وإذا نظرنا مثلاً في علم الثروة رأينا أن كثيراً من المتأخرين قد ادعوا وضع قواعـده الكلية ، ونُوّه بذكر أفرادهم لبراعتهم بفن الثروة ، ومن أعظم تلك القواعـد ، وجـوب جباية العشر وقت حصاده ، وما ينطوي تحت ذلك من أموال يؤخـــذ عنها « رسوم » عند وجودها ، وأن من فوائد ذلك سهولة أداء الزارع ماعليه من الحق في وقت الحصاد ... الخ .

فترى أن القرآن قد سبق أولئك العلماء في فن الثروة ، وجاء بتلك القاعدة بقوله (وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشاتٍ ، وغيرَ معروشاتٍ ، والنخلَ والزرعَ مختلفاً أكُله والزيتونَ والرمانَ متشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده .. »

وهكذا ترى في القرآن ، إما إشارات الى كليات العلوم وقواعدها وإما بصراحة ، وقد يطول الشرح في تتبعها كلها فاجتزأنا بهذا القليل عن الكثير ، وتركنا لطالب المزيد التتبع .

ومما أشغل العلماء كيفية فناء العالم ، والصورة التي يتم بها ، فتتبعثر الارض .

وغاية ما وصلوا إليه ، أن الفناء الأرضي ، وقيامتها ، إنما يتم باختلال النظـام الشمسي ، وبالزلزال .

وعلى هذا نرى القرآن قد أشار بل صرح بذلك بقوله (يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلةَ الساعـةِ شيءٌ عظيمٌ ..) . وبقوله : (إذا زُلزِلَت الأرض زِلزالهـا ، وأخرجت الأرضُ أثقالها .. »

أما الاشارة الى اختلال النظـام الشمسي فقد قال في بحث الساعة وعـلاماتها (وترى الارض بارزة ..) أي خارجة عن محورها غير راضخة للنظام الشمسي ، وإذا ماحصل ذلك فلا شك يختلف ما عرف من الجهـات اليوم فيصير الغرب شرقـاً والجنوب شمالاً ، وبذلك الخروج عن النظـام الشمسي وما يحدثه من الزلزال العظيم — لا شك تتبعثر أجزاء الارض لبعدها عن المركز ، وتنسف الجبال نسفاً ، وتتحول براكين هائلة ، وبالنتيجة تخرب الكرة الارضية ويعمها الفناء بما فيها من حيوان وتقوم القيامة والله أعلم .

فيما سبق إليه العرب من العلوم والفنون

قال جمال الدين : أخذ المنصفون اليوم من علماء الغرب بالاعتراف للعرب ببعض الفضل بما سبقوا إليه .

كالجبر : وهو من موضوعات العرب وواضعه « ابو السمح » .

والجـاذبية ، والمركز [1] لم يكن المكتشف لها « إسحق نيوتون » مع الاعتراف بفضل الرجل .

وكذلك التحليـل والتركيب [2] ، واكتشاف الفوسفور [3] واستحضاره واستحضار الاوكسجين من حجر المغنيسيا [4] ، ووصفهم لغاز الاوكسجين والدلالة عليه بخاصته أنه غاز

---

(١) اكتشفها ابو بكر بن بشرون من الجيل الثالث للهجرة ، وعرفها بقوله ، عند ذكر مركبات الكيمياء « قوة حاسة قابضة منعكسة الى المركز الارض » !!

(٢) وكذلك التحليل والتركيب من مكتشفات ابن بشرون تلميـذ أحمد بن مسلمة المجريطي الذي عاش في الجيل الثالث وذكر ذلك في رسالته لأبي السمح في الكيمياء الموجودة في مقـدمة ابن خلدون تحت تعبير « الحل والعقد »

(٣) اكتشفه ابن بشرون كذلك في الجيل الثالث للهجرة ، والمؤرخ الالماني « هفر » في كتابه تاريخ الكيمياء يقول صراحة انه وجد في المكتبة الملوكية رسالة ترجمت الى اللاتيني لبشير من علماء العرب الموجود قبل أعصر يعرف استحضار الفوسفور من الادرار ويسميه « الياقوت الجري الاصطناعي »

(٤) وهو من مكتشفات ابن بشرون وعرفه بخاصته فى الرسالة المار ذكرها لابي السمح وتعبيره عنهـا « بروح حساسة أي غاز »

حساس ، وكذلك الايدروجين وخاصيته وان الواحد منها لحاسته يطفىء الأجسام الملتهبة ، ويصعد مرتفعاً ، والثاني يلهبها وهو أحط من الاول .

وحامض الآزوت [1] ، وحامض الكبريت [2] ، والكبريتي وغيرها من عمادات مباحث الكيمياء ، كل ذلك من مكتشفات العرب .

وكان الأساتذة في علم الكيمياء للجيل الثالث للهجرة أحمد بن مسلمة المجريطي ، وتلميذه ابن بشرون ، وابي السمح وقد تقدمهم مثل جابر بن حيان الحرّاني ، ومن بعدهم زكريا ابو بكر الرازي وغيرهم .

أدلة جمال الدين على أن الكيمياء قد تتم بالصناعة ، وتفنيده لأدلة ابن خلدون :

قيل لجمال الدين : إن المجريطي ، وتلميذه ابن بشرون ، وأبي السمح ورد ذكرهم في مقدمة ابن خلدون في بحث الكيمياء ، فما رأي الاستاذ في هذه الصناعة ؟

قال : أما احمد بن مسلمة المجريطي ، وهو من انتهت اليه الرياسة في مختلف العلوم في الاندلس « في الجيل الثالث للهجرة وما بعده » فما كذب في قوله « إن الكيمياء ثمرة الحكمة، وأنها « تتم بالصناعة » أي يتم عمل المعادن الخسيسة، وترقيها للذهب ، أو الفضة (صناعة).

أقول هذا لا تقليداً للطغرائي ، ولا لاني عانيت هذا الأمر ، أو أشير على أحد أن يعانيه ، أو يُولع به . وليس ذلك لاستحالته كما يتوهمون بل لعدم توفر أسبابه العلمية والفنية، وعدم وجود الأستاذ فيه ، وشغف الخلق في معدن الذهب معلوم ، الأمر الذي يذهب معه كل عقل ودربة . فيحاول المولع لاقتطاف ثمرة الحكمة بمحض الجهل ، والتخبط بتجارب وأمور لاتثمر الا الخيبة .

---

(١) حامض الآزوت وهو من مكتشفات جابر بن حيان الكوفي ولم يستطع الغربيـــون إنكاره أو ادعاءم اكتشافه . وجابر عاش في الجيل الثاني للهجرة وفي العصر الثامن للميلاد يعني قبل ألف ومئة سنة تقريباً

(٢) اكتشفه ابو بكر محمد بن زكريا الرازي المولود في مدينـــة (الري) في بلاد العجم سنة ٢٤٦ وتوفي سنة ٣٢٩ وعرف استحضاره وذكره في كتابه (الحاوي) في فن الكيمياء باسم (روح الزاج) وانه بتقطير (زاج قبرس) التي هي (كبريتيت الحـديد) يستحصل حامض الكبريت الذي هو اهم الحوامض وألزمها وأعمها في الصنائع .

أما براهين ابن خلدون في إنكاره على المجريطي وابن بشرون قولهما بصحة الكيمياء ، وموافقته لأستاذه « التلفيفي » وحكمها باستحالة صحتها ـ الكيمياء ـ لم يكن بالاستناد منها إلى علم ، بل جل برهان ابن خلدون وأستاذه ، أن رسالة ابن بشرون في الكيمياء من قبيل الألغاز ، ومعانيها لا تكاد تبين !! مع أن الرسالة بكافة ألفاظها ومعانيها صناعية محضة، وفنية صرفة . وعلم الكيمياء له اصطلاحات خاصة ، يفهمها من يعاني ويدرس ذلك العلم .

ولما كانت الكيمياء ثمرة الحكمة والعلم ـ كما صرح به المجريطي ـ كان فهم ما يكتب في شأنها عويصاً يحتاج الى تحقيق في النظر ، وممارسة في العمل .

ولم يدّعِ ابن خلدون أو أستاذه التلفيفي أنهما عانيا هذا الفن ولاهما فنّـــدا ماورد في الرسالة عن طريق علمية ، أو أتيا بالحجج والبرهان . بل غاية ما قالاه كما سبق « أن الرسالة لما كانت من قبيل الألغاز أو لا تكاد تبين فهي إذاً لاتتم ـ يعني الكيمياء ـ الا بالسحر أو بأرفاد مما فوق الطبيعة) .

مع أن الرسالة كما قدمنا ،صناعية فنية صرفة ، تنطبق في معانيها على فن الكيمياء الحديث، المأخوذ بدون شك عن جهابذة العرب ، أولئك الأعلام الذين وصلوا من كل فن إلى الغـاية منه خصوصاً فيما نحن في صدده « الكيمياء » .

ولا بد أن يأتي زمن ، إن دام الحال على هذا المنوال ، من البحث والتنقيب والتجربة ، أن يتوصلوا إلى فهم حقائق هذا الفن الجليل واقتطاف ثمراته .

قلنا ان علم الكيمياء قد أخذه الأوروبيون عن العرب بشكل ناقص لغريب اصطلاحاتهم فيه ، والتزامهم التعمية بأكثر مباحثه ، لانه لم يكـن قصدهم منه ترقية الصناعة ، وايجـاد الاصباغ والاجزاء الكيماوية على نحو ما فعل الاوربيون بعلم الكيمياء ، بل كان غرضهـــم (العرب) عمل الذهب بالصناعة ، ومع كون أوروبا لم تعتن ولم تهتم الا بقشور ذلك العـلم وهي مقدمات لنتيجة ، فقد قامت تلك القشور لدى الغربيين مقام تحويل المعادن الخسيسـة إلى الذهب بدليل ما اتقنوا بها في شعبات الصنائع والتجارة .

ثم إن ابن بشرون ـ في رسالته لأبي السمح ـ قد دل بإشارة ، وبتعبير خاص على

المادة التي يمكن بها العمل – وهي مايسمونه باصطلاحهم (الحجر الفلسفي ، أو المكرم ، أو حجر الحكمة) – وأنصف كل الانصاف بقوله « إن معرفة المادة وحدهـا لاتفي بالغرض المقصود ، ولا تثمر إذا لم يتمكن طالب ذلك العلم من معرفة عمادات تلك الصنعة ، ومنهـا التحليل والتركيب » ، هذه الصراحة في اساس فن الكيمياء وجدت مسطّرة في رسالة ابن بشرون العربي قبل الجيل الثالث للهجرة وبعده ؛ وعلماء اوروبا يدعون بدون محاشـاة أو مبالاة ، أن المعلم لافوازيه ، هو أول من تنبة فأثبت التحليل والتركيب !

نعم إن ابن بشرون لم يذكر بلسانه العربي لفظه « تحليل » و« تركيب » بل قال «الحل» و « العقد » ، وهو الأصح فناً وفهماً .

ثم ذكر ابن بشرون بعد الحل والعقد ، عماداً آخر ، وهو « التقليب » وفسـره بقوله تقليب الشيء من جوهره إلى جوهر غيره ارتقاء – قال فالتراب يستحيل نباتاً ، والنبـات حيواناً ، وأن أرفع مواليد النبات أدنى طبقات الحيوان ... سلسلة تنتهي عند الانسان إذ هو آخر الاستحالات الثلاثة ونهايتها الخ » .

وقد ذكر في معرض التحليل والتركيب أو الحل والعقد قائلا : اننا لو أخذنا مـادة مركبة وحللناها ثم أعدنا تركيبها ، وهو مايسمى اليوم في علم الكيميـاء الحديث « اصول سانتاز » يستحيل أن ترجع تلك المادة إلى ما منه تركبت ، لتبادل أجزائها الفردية ، واتحادها مع بعضها على القانون الفني ، الذي كان بلا ريب معروفاً عند علماء العرب .

وقد صرح ابن بشرون أيضاً بإمكان حصول جسم مستقيم معتدل بالتفاعل الكيماوي طبعاً .

وهذا هو المفهوم اليوم عند من درس مقـدمات الكيمياء ، وعلم أن الأساس مثل « البوتاس » مثلًا ، إذا تعامل مع حامض الآزوت فعلى التدريج تذهب خاصة الأسـاس وخاصة الحامض ، ويحصل هناك جسم معتدل ليس هو بالأساس ولا بالحامض ويسمونـه « ازوتيت البوتاس » لايؤثر على الترنسول ، ولا على ما هوأشد منه إحساساً .

هذا نوع من أنواع مايسميه علماء العرب الاقدمون «التقليب » فمن لم يدرس ذلك الفن» ويعلم أصوله، يتوهم لاشك كاتوهم بعض المغاربة الطوافين في الأرض، الذين يموهون على السذج من

الخلق (بعلم الكيمياء) ويفهمونهم أن « التقليب » عبارة عن قص أوراق على شكل الدينار والدمدمة عليها ، وحرق البخور والعزائم ، فتنقلب الورقة ديناراً !!

فأين هذا من أقوال ومقاصد ابن بشرون ، وأستاذه المجريطي ، اللذان وصلا بلا ريب إلى الغاية ، والثمرة المطلوبة من هذا الفن .

ثم ذكر بعد التقليب ، عماداً آخر هو «التنشيف» . وهذا العماد غاية في الأهمية ، ويكفي أنه لايتم الأمر بدونه مع استكمال شروط العمادات الأخر .

وقد ثبت في الفن الحاضر أن التنشيف أو التجفيف ، على أنواع :

فمن المواد ما يسمونها صابونية لايمكن تنشيفها بالهواء ، ولا بالشمس ، ولا بالحرارة ، لانها لو وضعت على حرارة مهما كانت درجتها خفيفة ، أو معتدلة ، أو شديدة — وهي تحت تماس الهواء — فلا تجف ، لتواصل امتصاصها ما في الهواء من الماء .

فلذلك يراجعون في معالجتها أنواعاً كثيرة من أصول التجفيف ، أو التنشيف .

منها مايضعونه في ناقوس من زجاج ضمنه حوض فيه حامض الكبريت الصرف ، وفوق الحوض أو الإناء تلك المادة التي يراد تنشيفها ، فتوضع على لوح من زجاج تطلى أطرافه بمادة لزجة يوضع عليها الناقوس لمنع الهواء من الخارج وبتلك الطريقة يمتص حامض الكبريت ماء الهواء ورطوبته ، لشدة حرصه على الماء ، وبالتالي يمتص ما في المادة من ماء ورطوبة ، فيحصل تجفيفها .

والنوع الثاني للتجفيف : وهو وضع المادة تحت مخلية الهواء وتوالي استعمالها حتى تجف وتنشف .

والنوع الأخير وهو لم يذكر فيما طالعته من كتب الكيمياء الحديثة ، وإنما وجدته في كتب القوم — أي علماء العرب — وكان ذكرهم له من قبيل الاشارة إذ قالوا بعد البحث فيما للحرارة والبرودة من التأثير ، ذلك البحث الدقيق — بقولهم « مادة[1] حساسة »

(١) كذلك في رسالة ابي بكر بن بشرون لابي السمح في مقدمة ابن خلدون في (علم الكيمياء)

استحضارها يكون من برادة النحاس بعد إخراج سواده حتى يصير نحاسياً ، ومعاملته بحامض الكبريت (الزاج) الخ .

ولا نرى هذا الوصف ينطبق على غير الحامض الكبريتي الذي يعمل بواسطته الثلج اليوم لشده برودته بتبخره السريع .

ثم ذكر من العمادات « التنقية » لمنع المادة من الفساد وتطهيرها من دنسها ، وإخراج آفتها منها .

وهذا معروف بالفن الحاضر « بالتطهير » ومواد التطهير كثيرة — منها الكحول الصرف والاوكسجين « مولد الحموضة » وقد رجحوه على الكلور لحفظه المادة العضوية من غير تخريب ، ويفيد بالتبييض أكثر من فائدة الكبريت أيضاً .

ثم ذكر « التكليس » في عداد العمادات المهمة ، فمن التكليس ما يتم بالاحتراق تحت تضييق الهواء النسيمي ومنه مايحصل بتفاعل الحوامض الخ .

فمن هذا كله نعلم أن علم الكيمياء لايمكن الحصول عليه إلا بالتعلم الصحيح ، والنظر الدقيق ، والتجارب المتمادية عند فقد الأستاذ ، وبالاجمال فالكيمياء صنعة من أدق الصنائع ، وفن من أجل الفنون ، ولا ريب أنه ثمرة العلم والحكمة ـ كماقالوا حقاً ـ .

إن ابن مسلمة المجريطي ، وتلميذه أبا بكر بن بشرون قد صرحا بأن معرفة الحجر ، أو المادة التي يمكن العمل بها غير كاف وحده إذا لم تكن المعرفة تامة بتلك العمادات التي هي روح تلك الصناعة .

وابن خلدون لم يدّعِ ،ولم يقل إنه عثر على المادة ، وأتقن هذه العمادات « كما سبق القول» بحسب الأصول الفنية ، وأنه جربها على مايتطلبه العلم ولم « ينجح » ليصح إذ ذاك إنكاره ، ويكون قوله حجة على إبطالها ، وإخراجها من عداد الصناعات وأنها لاتتم الا بالسحر ، أو بأرفاد بعالم مما فوق الطبيعة أو بالنفوس الخيّرة أو الشريرة ، وما كانت حجته على هذا القول إلا أنه وجدا الرسالة من قبيل الالغاز كما ذكره وهكذا وافقه أستاذه التلفيفي وليس لهما من برهان غير أنهما وجدا معانيها« لا تكاد تبين » ! !

فيا ترى لو أخذ ابن خلدون أو أستاذه التلفيقي كتاب الكيمياء الحديث اليوم ورأى (ك ١ ا ٤) وان ذلك معناه حامض الكبريت أو (ذي٢ ك) انه كبريت الزيبق ، وهو لم يدرسه أو يعاني ذلك الفن ، أو يأخذه عن أهله بالتعلم ، لا شك كان ينكر ذلك ويقول أنه ليس بعلم ، بل أحاجي وألغاز وأضاليل بحروف مقطعة وأرقام ، أو كان يقول إنها من قبيل السحر لأنها لم تبن له واضحة ، ولا لأستاذه التلفيقي كما تظهر لبسائط الامور .

ثم إن ابن خلدون قد صدّق بحالومية أحمد بن مسلمة المجريطي وهي :

« طماغس بعد ان يسواد وغداس توفنا غادس » — وقال : إن تلك الكلمات والاسماء الاعجمية ، إذا تلاها الإنسان قبل النوم ، بعد رياضة وصدق توجه ، فإنه يرى بها ما يحب أن يراه مما تتوق نفسه لمعرفته .

وقال ابن خلدون أيضاً « انه رأى بها مرائي غريبة كانت نفسه تتشوق للوقوف عليها » — وبالنتيجة — قد قال بصحتها « وأن التجربة قد أثبتتها إلخ » مع أن تلك « الحالومية » لا تنطبق على علم بأصول ، ولا على فن يحصل بالمزاولة ، والممارسة ، أو ما يقوم عليها برهان عقلي .

من الغريب أن يصدق ابن خلدون مثل هذه الحالومية — وربما يكون تصديقه حقاً — وينكر علماً مثل الكيمياء الذي لم يعان أمره واصطلاحاته ، مع اعترافه بان الكيمياء صناعة غريبة المنحى ، بعيدة التناول عن جيل البداوة ، مفتقرة إلى صحة النظر ، والتدقيق في علوم من تقدم من اليونان القدماء ، والكلدانيين قبل جابر بن حيان الحرّاني .

ثم قال جمال الدين : هذا مارآه ابن خلدون ، وهذا ما ارتأيته في هذا المطلب .

ولا يصح أن يرتاب المنصف بأن ابن خلدون من مفاخر الأمة ، وأنه أغزر العلماء مادة ، وأدقهم نظراً ، وأصحهم قياساً ، وأنفاهم للخرافات عن الدين ، وأسرعهم أخذاً بالمعقول ، وأكثرهم رداً للباطل من القول ، وأبعدهم عن التقيد بالمألوف عن غير علم بالفائدة ، وبالاجمال ، فالعالم عالة على فضل ابن خلدون في حكمة التاريخ إذ هو الواضع لها ولا منازع .

إنكار جمال الدين على من يقول بسد باب الاجتهاد :

عرف جمال الدين باستنكافه ،ونفوره من التقليد من غير تمحيص ، فكان يأخذ بالأحسن من الأقوال ، ويرّد الضّعيف منها ، ويجتهد للاستنباط للأولى ، ويتناول الأقرب للصواب، وما يقبله العقل .

ذكروا يوماً في مجلس جمال الدين قولاً للقاضي عياض ، واتخذوه حجة واشتد تمسكهم بذلك القول حتى أنزلوه منزلة الوحي بأنه لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من أمامه — فقال جمال الدين : ياسبحان الله إن القاضي عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله ، وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ، فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه ، وأصح من قول القاضي عياض أو غيره من الائمة ؟

وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس ، هم أنفسهم لم يقفوا عند حدّ أقوال من تقدمهم ، قد أطلقوا لمقولهم سراحها فاستنبطوا وقالوا، وأدلوا دلوهم في الدلاء في ذلك البحر المحيط من العلم ، وأتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم ، وتتبدل الاحكام بتبدل الزمان .

فقيل : يفهم من قول الاستاذ أن القاضي عياض أو من تقدمه من الائمة إذا قالوا قولاً جاز لمن بعدهم أن يقول مايتراءى له سواءً أكان مخالفاً أو موافقاً ، ولا يخفى أن مثل هذا القول يحتاج إلى الاجتهاد ، وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود ، لتعذر شروطه .

فتنفس جمال الدين الصعداء وقال :

ما معنى باب الاجتهاد مسدود؟! وبأيّ نص سدّ باب الاجتهاد ؟! أو أيّ إمام قال لا ينبغي لاحد من المسلمين بعدي أن يجتهد ليتفقه بالدين؟! أو أن يهتدي بهدى القرآن وصحيح الحديث، أو أن يجدّ ويجتهد لتوسيع مفهومه منها ، والاستنتاج بالقياس على ماينطبق على العلوم العصرية، وحاجيات الزمان وأحكامه ؟!!! ولا ينافي جوهر النص .

إن الله بعث محمداً رسولاً بلسان قومه « العربي » ليفهمهم مايريد إفهامهم — وليفهموا منه ما يقوله لهم (وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه) وقال :

(إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) وفي مكان آخر (إنا جعلناه قرآناً عربيـــاً لعلكم تعقلون) .

فالقرآن ما أُنزل إلاّ ليفهم ، ولكي يعمل الانسان بعقله لتدبر معانيه وفهم أحكامه والمراد منهـا .

فمن كان عالماً باللسان العربي ، وعاقلاً غير مجنون ، وعارفاً بسيرة السلـف ، وما كان من طرق الإجماع ، وما كان من الأحكام مطبقاً على النص مباشرةً أو على وجـه القياس ، وصحيح الحديث ، جاز له النظر في أحكام القرآن ، وتمعنها والتدقيـــق فيها ، واستنباط الأحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس .

ثم قال : لا أرتاب بأنه لو فسح في أجل أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمـد بن حنبل ، وعاشوا إلى اليوم ، لداموا مجدين ، مجتهدين يستنبطون لكل قضية حكماً من القرآن والحديث ، وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ، ازدادوا فهماً وتدقيقاً .

نعم إن أولئك الفحول من الأئمة ورجال الأمة ، اجتهدوا وأحسنوا « جزاهم الله عن الأمة خيراً » ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، أو تمكنوا من تدوينها في كتبهم ، والحقيقة أنهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر وتحقيقهم واجتهادهم ، إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم ، والحديث الصحيح من السـنن والتوضيـح إلاّ كقطرة من بحر ، أو ثانية من دهر « والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عبـاده » وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

نفور جمال الدين من قول سني وشيعي ، وان لاموجب لهذه التفرقة التي أحدثتها مطامع الملوك لجهل الأمة :

قال : ظهر لآل البيت النبوي في أوقات وأزمنة مختلفة ، أحزاب وشيع ، فمنهم من ضل « كالمؤلهة » وهم من يقولون بألوهية علي بن أبي طالب ، ومنهم « المفضلة » و « الغـلاة » في محبة أهل البيت ، وقد دخل الاثنان تحت حكم من قال « يهلك فينا أهـل البيت اثنان : محب غالٍ ، وعدو قالٍ »

أما المفضلة من الشيعة وهم يقلدون في المذهب الإمام جعفر الصادق وهو من أكابر فقهاء أهل البيت ، فهذا الجمهور من المسلمين لمجرد تقليدهم للامام جعفر ، ومغالاتهم في حب الآل ، وتفضيلهم للامام عليّ ، لايجب أن نخرجهم من عداد المسلمين ، ونجسم أمر هذه الفروق في الفروع ، ونجعلها واسطة للتفرقة والنزاع ، فللخصام فللاقتتال ، تلك الامور التي سهل وجودَها جهلُ الأمة ، وسفه الملوك الطامعين في توسيع ممالكهم .

فالملوك من السنيين هوّلوا ، وأعظموا أمر الشيعة لاستهواء العوام بأوهام غريبة ، وعزويات عجيبة على شيعة أهل البيت ليتسنى لهم بذلك تحزيب الاحزاب وتجييش الجيوش ليقتل المسلمون بعضهم بعضاً، بحجة الشيعة والسنية ، وجميعهم يؤمنون بالقرآن وبرسالة محمد صلّى الله عليه وعلى آله .

أما مسألة تفضيل الامام عليّ ، والانتصار له يوم قتال معاوية ، وخروجه عليه ، فلو سلمنا أنه كان في ذلك الزمن مفيداً ، أو ينتظر من ورائه نفع لإحقاق حق أو إزهاق باطلٍ ، فاليوم نرى أن بقاء هذه النعرة ، والتمسك بهذه القضية التي مضى أمرها وانقضى مع أمةٍ قد خلت ، ليس فيها إلاّ محض الضرر ، وتفكيك عرى الوحدة الاسلامية .

ثم قال : لو أجمع أهل السنة اليوم ووافقوا المفضلة من الشيعة - من عرب ، وعجم - وأقرّوا ، وسلموا بأن عليّ بن أبي طالب كان أولى بتولي الخلافة قبل أبي بكر . فهل ترتقي بذلك العجم ؟! أو تتحسن حال الشيعة ؟! أو لو وافقت الشيعة أهل السنة ، بأن أبا بكر تولّى الخلافة قبل الامام علي بحق ، فهل ينهض ذلك بالمسلمين السنيين ، وينشلهم مما وقعوا فيه اليوم من الذل ، والهوان ، وعدم حفظ الكيان ؟!!.

أما آن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة ؟! ومن هذا الموت قبل الموت ؟!!.

ياقوم ! - وعزة الحق - إن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب لايرضى عن العجم ، ولا عن عموم أهل الشيعة إذا هم قاتلوا أهل السنة ، أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيله على أبي بكر ؛ وجميعهم لايحسنون أمر دنياهم ، « والناس أبناء مايحسنون »

وكذلك أبو بكر ، فلا يرضيه أن تدافع أهل السنة عنه ، وأن تقاتل الشيعة لأجل تلك الأفضلية التي مرَّ زمنها ، والتي تخالف روح القرآن الآمر ان يكونوا « كالبنيان المرصوص » .

أما قضية التفضيل فلو استحقت البحث بعد تلك الاجيال لكفى أن يقال لحل إشكالها « أن أقصر الخلفاء الراشدين عمراً تولى الخلافة قبل أطولهم عمراً » .

فلو تولى الخلافة بعد النبي ﷺ عليّ بن ابي طالب ، لمات ابو بكر وعمر وعثمان ، ولم يتيسر لهم خدمة الاسلام والمسلمين ، بما استطاعوا ان يخدموه به ، رضوان الله عليهم أجمعين، حكمة الله في خلقه ، (وإن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

رأيه في مذهب النشوء والارتقاء وان العرب سبقوا وقالوا في هذا المذهب

سئل جمال الدين عن البيت المشهور لأبي العلاء المعرّي :

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جمادِ

هل يقصد المعرّي في هذا البيت من الشعر ارتقاء الحيوان من الجماد ؟ ويوافق مذهب دروِن في النشوء والارتقاء؟ ذلك المذهب الحديث ، الذى أوجده درون وأقام علماء الارض وأقعدهم ؟ أم قصد المعرّي معنىً آخر ، وتماس اتفاقاً أو عرضاً ، مع أهل مذهب النشوء والارتقاء .

قال : لا أغالي ولا أبالغ إذا قلت : ليس على سطح الارض شيء جديد بالجوهر والأصول.

تُبتكر في الكون محدثات ، وتحدث أمور ة وتقرر علوم ، يؤخذ ويعمل بها أجيالاً ، ثم تطرأ عوامل مختلفة ، تندثر بها تلك المحدثات ، وتجهل تلك العلوم إذ يحجبها الخفاء،وتحفظ أحياناً بعض رفات آثارها « طبقات الارض » ، وكذلك مايحدث من عظائم الامور ، قد تذهب مع جيلها وربما يبقى شيء من أثرها في خرائب أهلها ، وهكذا القول فيما يزهو ، وما يتمحص ويتقرر من العلوم عند أجيال مضت ، قد تموت مع أربابها او تمحى بمحو ماأودعت فيه من الكتب والاسفار .

فالسعيد من الخلف من يعثر على أثر من آثار السلف فينتبه بكليته اليه ، ويعمل على بعثه

من موته ، إما بإخراجه من الخرائب ، وإما بنقب طبقات الارض ، وإما بمناجاة أرواح قائليه وفاعليه ..

وهكذا يعيد الانسان الكرة على قديم مبتكرات الأسلاف من المحدثات ، والأمور العظيمة ، والعلوم والفنون الغريبة عندنااليوم ، وذلك بسوق غريب وعوامل عجيبة ، تعمل في عقل الانسان في سائر الازمان .

بينما الانسان اليوم سائر في البحث والتجربة يقصد أمراً ، فاذا هو ـ عرضاً ـ يعثر على نتائج لم تكن بحسبانه ، فينشط لها عقله ، ويصرف اليها همته ، ولا يزال يكدّ ويجرّب ويجدّ، حتى يتيسر له وضع أساس الاكتشاف ، أو الاختراع او تقرير قواعد كلية ، لعلم ، أو فن .

أما مقصد أبي العلاء فظاهر واضح ، ليس فيه خفاء ، فهو يقصد النشوء والارتقاء ، أخذاً بما قاله علماء العرب قبله بهذا المذهب وقد مرّ ذكره ولا بأس من إعادته : إذ قال أبو بكر بن بشرون فيرسالته لابي السمح عرضاً في بحث الكيمياء: « ان التراب يستحيل نباتاً، والنبات يستحيل حيواناً . وان أرفع المواليد هوالانسان « الحيوان » وهو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها. وان أرفع مواليد التراب « ومنه المعادن » النبات ـ وهي أدنى طبقات الحيوان ـ سلسلة تنتهي عند الانسان ... الخ .

فاذا كان بناء مذهب النشوء والارتقاء علىهذاالاساس ، فالسابق فيه علماء العرب وليس « درون » مع الاعتراف بفضل الرجل وثباته ، وصبره على تتبعاته ، وخدمته « للتاريخ الطبيعي» من أكثر وجوهه ، وإن خالفتُه وخالفت أنصاره في مسألة « نسمة الحياة » التي أوجدها الخالق سبحانه وتعالى ، لا على سبيل الارتقاء من السعدان فالانسان ، أو من الزوابع المائية . أو أن البرغوث سيكون بعد ألوف أو ملايين من السنين فيلا عظيماً ، لأننا نرى اليوم في البرغوث مايشبه خرطوم الفيل ، وغير ذلك من المباحث التي دونتها في رسالة « نفي مذهب الدهريين » رداً على داروين وأشياعه وأرى إغراقاً في نسبة الابداع ، والابتكار للنشوء والارتقاء ، والانتخاب الطبيعي له .

ولو قال بذلك مثل « بخنر » و « هكسلي » و « سبنسر » وغيرهم من علماء الغرب ممن

جاز ترك مناقشتهم فلا يسعني أن أمرّ على ذكر حكيم شرقي انخرط مع من ذكرت من العلماء ممن أيدّوا مذهب « درون » وأخذوا بناصره ، وهجموا على مألوف الشرقيين بقواعد ذلك المذهب ، فمن حيث الجهر بمعتقد يعتقده الانسان أنه اعتقاد صحيح ولو خالف الجمهور ، فالدكتور شميل له في نشر مذهب «درون» وتحمله أعباء المكفرين له - عن غير علم وتحقيق- يعدّ للشميل فضل ، ولكن لا أرى الدكتور شبلي قد تخلص مع جرأته الأدبية ، وبعض رسوخه في الفلسفة من وصمة التقليد الأعمى لعلماء الغرب . وبمعنى أوضح ، أنه أراد أن ينتصر لدرون ، وأن ينشر مذهبه رغم أهل الأديان ، وفي ذات الوقت عارض أستاذه ، وصاحب المذهب المنتصر له .

إذ لايخفى أن القصد من مذهب الماديين الوصول إلى أن الانسان تدرج من الحيوان ، وأعظم دليل لهم ما يرى في السعدان والقرود وأعلى أنواعه « الأورانغ أوطان » من الذكاء والحركات وتركيب الاعضاء .

ثم إنهم نظروا في أجنة ذوات الفقر ومنها « الانسان » فرأوه يمرّ نموه بدرجات الحيونات التي دونه حتى الاحفورية أو السابقة لها ... الخ .

ولكي يتوصلوا إلى جحود خلق الانسان بتقويمه الحسن هذا رأيناهم يركضون وراء الأحافير ، ويغوصون في طبقات الأرض وإمامهم في مذهب النشوء والارتقاء هو «درون» بلا شك ، وهذا الحكيم لما وصل إلى النقطة الجوهرية وهي « موجود نسمة الحياة » فلم يسعه إلاّ أن قال « إن الخالق هو الذي نفخ نسمة الحياة في الأحياء » وهذا قوله بالنص الواحد : — « اني أرى أن الأحياء التي عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية نفخ الخالق فيها نسمة الحياة !! » .

إن قول « درون » هذا ينفي ظهور الحياة على سبيل طبيعي ، ولكنه لم يرق لعلماء الطبيعة الماديين ، وأنكروا على « درون » هذا القول واتهّموه بالخوف من أهل دينه ،وقالوا إن قوله هذا يجعل المذهب ناقصاً بل ينقضه من آساسه ، لأن الغاية كما ذكرنا من مذهب الطبيعيين « إنكار الخالق » وإسناد الأعمال إلى الطبيعة .

هذا مقام الحيرة لمريدي مذهب « درون » فإما أن يكون إمام مذهبهم « درون » قال قوله السابق عن علم وتحقيق ، وفيه كما قالوا نقض لأساس المذهب ، وإما أن يكون الخوف الذي اتهموه به من أهل الأديان حمله على الجهر بهدم أساس مذهب الطبيعيين .

وبالنتيجة يريد الدكتور شميل ، والأستاذ « برن » وغيرهما أن يوافقوا « درون » إذا أصر على إنكار « الخالق » ويخالفوه إذا أقرّ بوجوده .

وبالاختصار إن كل ما جاء في مذهب الطبيعيين من حصر الاحياء بأنواع قليلة ، وتفرع الكثير منها وعنها ، كل هذا لا يضر التسليم به ، كما أنه لا يفيدهم أن الحياة وظهور الاحياء نتيجة طبيعية لقوى ّطبيعية ، نعم إذا أمكنهم إثبات التولد الذاتي ، كان لاقوالهم معنىً ولمذهبهم مستنداً .

هذا الذي رأيت ما يؤاخذ به الحكيم شبلي الشميل وقد خالف إمامه وأستاذه « درون » وفيما عدا ذلك فإني أقدر شميل قدره في دقة بحثه وتحقيقه ، وجرأته على بث ما يعتقده من الحكمة ، وعدم تهيبه من سخط المجموع لما يجهله من حقائق العلم .

أما جمال الدين فكان يعلم ما بيني وبين الدكتور شميل من الولاء وقد ظهرت عليّ علائم المسرة لتقديره الرجل ، ولكن ساء ذلك أحد إخواننا المصريين فقال: يا أستاذ إنني وجدت في الدكتور شميل « غروراً » ، فأجابه السيد :إن الذي رأيته في الشميل لم يكن « غروراً» ولكنه « عزة النفس » ، والذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان .

وقليل العلم السفسطائي المدلّس ، فيجمع عليه الطيالسة الخضر، ويخرّون له إلى الاذقان ويتبرونه بمظهره العالميّ لا العلميّ ، ويبجّلونه لبذل طعامه ، وعظيم داره .

والدّجالون كثيرون في كل قطر ومصر ، وفي كل آن وزمان .

قيل للسيد : إذا لم يكن لعلماء العرب في مذهب النشوء والارتقاء غير تلك الشذارات والعبارات الوجيزة ، فهي لا تفي بالمقصود بل يصح الاستشهاد بها على أن القوم فهموا من هذا المطلب كليات فقط ، ولم يعيروها اهتماماً استحق منهم أن يفردوا لها بحثاً أو كتاباً خاصاً يتكفل باستيعاب ما يلزم ذلك المذهب من الأدلة واستجماع البراهين !

فقال : هاتوا مكتبة بغداد ، والأندلس ، والقيروان ، وما ترجم في عصر الخلفاء

العباسيين ، وما حقق علماء العرب من المباحث ، وما ألّفوه من الكتب الفلسفية والطبيعية والكيمياء . وبعد ذلك طالبوني والزموني الحجة بعدم استيفاء أولئك العلماء مواضيع ماتوى من المباحث في العلوم والفنون الوافدة إلينا عن طريق الغرب اليوم .

ودعوا العصر الجليدي يستحوذ على قارة أوروبا مرة أخرى ، ويدور الدور الفلكي بفعوله وتأثيره ، ويجعل الحياة في ذلك الاقليم متعذراً كما كان أولاً ، وانظروا إذ ذاك الى نهضة الشرق ـ خصوصاً متى تغير شكل الحكم في أهله ـ فترون الشرق قد عاد مشرقاً بالعلماء، زاهراً بحقائق العلوم ، مثبتاً مقرراً لكل ماهو نافع ويصلح أن يبقى أثراً . (وتلك الايام نداولها بين الناس) .

اما الانتخاب الطبيعي ، فهو في جيل البداوة ، وفي حضارة الاسلام ، أمر معروف ومعمول به ، سواء أكان في انتخاب الزوجات من النساء ، وتحري النجيبات من الأمهات ، فيخطبون بناتهن ، وفي ذلك أقوال مأثورة ، كالقول « خذ لابنك خالاً » ـ أي زوجة يكون لها من الصفات الطيبة وحسن الخَلق والخُلق والمزايا ، مالإخوانها ـ حتى إذا جاء الولد يكون فيه من الوراثة عن طريق أمه مايشبه أخواله من موجبات الفخر ، وكذلك عن طريق الاب ، فيشبه الأعمام فيفتخر او يمتدح ، فيقال: فلان معم ومخول .

أو في تحسين نسل الخيل .

وأما حرص العرب على الانتخاب الطبيعي في تحسين الحيوان ، فأمر مشهور، إذ البدوي الى اليوم يطوف البراري والامصار ليجد الى فرسه جواداً من جياد الخيل ، ويحرصون على حفظ أنساب الخيل ، حرصهم أو أكثر من حرصهم على أنساب البشر . قال وبالاختصار علم قليل مفيد في الصدور يُعمل به ، خير من علوم كثيرة في الكتب مسطورة ولكن لا يُعمل بها .

رأيه في الاشتراكية « السوسياليست » وأنها لاتخالف الدين بل يقول بها

كان مجلس جمال الدين يجمع أهل المذاهب المختلفة والمشارب المتباينة ، فيضطر أن يخاطب كل إنسان على حسب عقله واستعداده ، ويراعي معتقداتهم ما أمكن ، ويخوض مع المعطلة

والماديين وغيرهما من لاهوتيين متعصبين ، يأتي على ذكر الفلاسفة وما قالوه في كتبهم مع توضيح مذاهبهم ، وذكر حججهم ، ومنتهى ما وصلوا اليه من البراهين .

ذلك ما حمل الكثيرين أن يذهبوا بالحكم على جمال الدين مذاهب شتى ، تارة ينظرون اليه بنظر المارق من الدين ، وطوراً أنه دبني متعصب ، ومن حال جمال الدين هذه تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة من الإلحاد إلى رأيه ، وأذاعوا ذلك بين العامة وأيدهم أخلاط من الناس من أولي المذاهب المختلفة الذين كانوا يطرقون مجلسه فيسمعون ما لا يفهمون ، ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون ، ويتبجحون بالتلمذة عليه، وينسبون ما أشربوا من الكفر اليه « كما سبق ذكر ذلك في سيرته » .

على أن المباحث التي كان يدور بها لسانه أثناء مناظراته الجدلية في بيان عقائد من ذكرنا من المعطلين والماديين ، إنما كان المراد منها إظهار حقائق النحل بمعزل عن الاعتقاد بها ، والجنوح اليها ، بل مع تعقبها بالرد عليها ، وإقامة الحجج على بطلانها .

وهكذا اجتهاده في بعض أحكام القرآن ، وتفسير بعض الأحاديث ، واستنباط الأحكام من سيرة السلف .

ومن أمثلة ذلك : أن أحد كبار الأدباء وكتبة الأتراك كان يغشي مجلس جمال الدين ـ وجمال الدين يحترمه لذكائه وحسن أدبه ـ وكان أشد الناس حرصاً على الاقتباس من آراء السيد من سائر من حضر أو تلمذ عليه في ذلك المحيط .

أما الرجل فكان شديد الولوع بآداب الامم الغربية ، كثير الاعجاب في نهضتهم الاجتماعية ، وتوزيع أعمالهم ،وإعطاء كل فئة من المجموع قسطاً من الاشتراك في صالح الهيئة.

فقال لجمال الدين : ياحضرة السيد! إن خير ما في أوروبا من النهضة هو «السوسياليست» « الاشتراكية » وهذه النهضة هي التي ستؤدي حقاً مهضوماً لأكثرية من الشعب العامل .

فاذا كان الدين الاسلامي « أو المشيخة الاسلامية » يقاومان مذهب الاشتراكيين ، فأرى هناك ثلمة لاتسد بسهولة ، وخللاً يجب ملافاته بالحكمة فما رأيكم ؟؟

فقال جمال الدين : إن ماتراه من الاشتراكية في الغرب ، وما تتوخاه من المنافع

بذلك المذهب ، في شكله الحاضر ، وأسسه ، وتخبّط واضعي مبادئه ، كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية ، ويجعلها محض ضرر بعد أن كان المنتظر منها كل نفع .

« الاشتراكية الغربية » ما أحدثها وأوجدها الا حاسة الانتقــــام من جور الحكام والاحكام ، وعوامل الحسد في العمال من أرباب الثراء ، الذين اغا أثروا من وراء كـدم وعملهم ، وادّخروا كنوزهم في الخزائن ، واستعملوا ثروتهم في السفه ، وبذلوهــا في السرف والتبذير والترف ، على مرأى منتجها ، والفاعل العامل في استخراجها من بطون الأرض ، ومن ترابها ... الخ وبالاختصار ثمرات عمل العمال بكل أنواع حاجة العمران .

فكل عمل يكون مرتكزاً على الافراط لا بد أن تكون نتيجة التفريط .

أفرط الغربيون « الاغنياء » بنبذ حقوق العمال . والفقراء وراء ظهورهم ، فأفرط العمال بمناهضة أهــل الثروة . وغاصبي حقوق الأمة ، بالمناصب ومسببات الجاه ، فلا قاعـدة دينية يرجع اليها ، ولا سلطان وازع يعمل بقهرٍ لصالح المجموع ، لذلك أصبـح أمرهم في الاشتراكية « فوضى » ولسوف ينعكس أمرها .

« أمّا الاشتراكية في الاسلام » فهي ملتحمه مع الدين الاسلامي ، ملتصقة في خلـق أهله منذ كانوا أهل بداوة وجاهلية .

أول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالاسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة ، وأعظم المحرّضين على العمل بالاشتراكية كذلك من أكابر الصحابة أيضاً ، واليك البيان :

أمّا أن الاشتراكية من خلق البداوة فالبرهان عليه ما كان من أهل الثراء منهــــم ، ومواساته لأهل قبيلته وعشيرته ، ولا أعدّ كثيراً من ذلك بل أجتزىء بمن اشتهر منهم، مثل حاتم الطائي في السنين المجدبة وكيف انه نحر أعزّ ما لديه « وهو فرسه » ذلك لمجرد مجيء امرأةٍ من أقصى قبيلة طيء إذ قالت له : يا حاتم قيل لنا أن عندك لحماً عبيطاً فأتيت بصبيتي .

فقال : صدقتِ ، ثم نحر فرسه ، وأشعل ناره — تلك العلامة التي كانت كدعوة للمجموع يعلمون منها أن هناك طعام — فيأتون لمكان الدخان في النهار ، ولشعلة النار ليلاً

ويشتركون جميعهم في المأكل دون أذى منّة لصاحبها، لأن الأمر بينهم مناوبة يفعله الميسور والمثري ، كل على نسبته وما لديه من سعة .

هكذا فعل حاتم مع من قصدته وأطفالها ، وبمن رأى النار ويمم نحوهـــا من أهل جواره وقبيلة .

وقد تواتر الخبر بأن حاتم لم يذق من ذلك اللحم شيئاً مع كونه قرماً سغباً .

وهناك رجل آخر من رجال العرب وهو «طلحة الطلحات» ، كان شأنه أن كلّ أعزل معدم يأتيه يقول له : « دونك الفرس والرمح والسيف ، فعسى أن تكتفي بهم ذل السؤال ، وإن لم تفعل ، ولم تحسن العمل بهم ، فلا أرشدك الله ولا أغناك » .

يقال إن ذلك الرجل (طلحة) المثري بالخيل والسلاح جهز على المنوال المذكور ألف فارس ولم يبق عنده إلاّ ما أعطي لواحد منهم .

فكان كل فارس ممن جهّزهم طلحة إذا أتاه غلام سماه طلحة فلم يمض كثـير من الزمن إلاّ وكان في تلك القبائل من أسمـــاء أبناء أولئك الآباء مئات من ذلك الاسم فسمي « طلحة الطلحات » .

هذا مثل من الاشتراكية قبل الاسلام ، ومنه يعلم أن الثروة كانت ولا تزال موجودة في الافراد ، ولكن حسن استعمالها وجعل نصيب للآخرين فيها يجعل الاشتراكية أمراً مقبولاً ، وصفة ممدوحة ؛ اذ لا أنانية ، ولا أثرة ، ولا استطالة على الفقير بخيول مطهمة يستأثر بها ، ولا بطعام شهي يلتذّ به مع لفيفه ، ولا ببناء شاهق يسكن فيه ، بينما موجد ومسبب ومهيء تلك النعم كلها، ذلك العامل الفقير الذي يسكن كوخاً ، حقيراً نصف أعضائه وأبنائه في خارجه عرضة لصبّارة القرّ ، وأوارّة الحرّ ، لا يملك من القوت خبزاً كافياً ، ولا من الملبس مايستر به تمام العورة .

هذا ما عليه اليوم أهل الثروة ، وهذا ما استنفر طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكيـة ، وفي نفيرهم روح الانتقام ، والافراط في المطالبة بحقهم ، يقابله التفريـط في زجرهم ، وعدم الرضوخ لما يطلبونه من الحق ، ولسوف يتفاقم الخطب ، وتعم من جراء ذلك البلوى في الغرب ولا يسلم منها الشرق .

« أما الاشتراكية في الاسلام » ، فهي خير كافل لجعلها نافعة مفيدة ، ممكناً الأخذ بها ، لان الكتاب الديني وهو القرآن أشار اليها بأدلة كثيرة منها : أن المسلم أول ما يقرأ من فاتحة الكتاب (الحمد لله رب العالمين) فيعلم أن للخلق رباً واحداً وهو مع سائر الخلق من المربوبين على السواء .

ويرى ويعلم أن القرآن أتى على ذكر أرباب القوة ورجال الحرب والغزاة ، ومن يتولى إمرتهم وقيادتهم ، فخاطبهم آمراً ، ومعلماً ، ومدافعاً ، ومبيناً حقوق المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك مع من ذكر ليكون لهم من ذلك الجهاد ، وتلك المساعي نصيب ، إذ قال (واعلموا أنّما غنمتم من شيء فأن لله خُمُسَهُ والرسولِ ولذي القُربى ، واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدِنا يومَ الفُرقان يومَ التقى الجمعان والله على كل شيء قدير) هذه آية باهرة أوجبت على من يسمى مجاهداً،ومخاطراً بحياته أن يكون مشتركاً معه بنتيجة غزواته وغنائمه ، من لم يكن مشتركا فعلاً . فأعطى أولاً « لله تعالى » نصيباً ومرجع ذلك النصيب لعباده ، ثانياً « الرسول » ، ثالثاً « لذوي القربى » وهم لاشك من المستضعفين الذين إنما قعدوا عن الاشتراك في الجهاد والسعي وراء الغنائم ، لعلل تخلف أشكالها وأنواعها ، ولكن الدين لم يُجز حرمانهم بل جعل لهم نصيباً من مساعي أولئك الاشداء الاقوياء المجاهدين الخائضين غمرات الموت .. الخ .

كل ذلك نراه مبنياً على حكمة الاشتراك ، ولَبِثَ حكم هذه الآية جارياً ، وكان الرضاء به شاملاً لمجموع المسلمين ، من مجاهدٍ أو قاعد عن الجهاد لعلة ، فبدأ بالدرجة الاولى بعد الله ورسوله بذوي القربى من المجاهدين على درجاتهم ـ ممن ينظر بحاجات أولاد المجاهدين وعيلتهم عند تغيبهم ـ وعطف على من دونهم في المرتبة الثانية ممن ليس لهم في المجاهدين أقرباء فقال « واليتامى » ثم وسع نطاق الاشتراكية فقال « والمساكين » ثم رأى أن يأخذ نطاقاً اوسع فقال « وابن السبيل » أي عابره ، فتم بهذا الشكل نوع من الاشتراكية لم يكن أوسع منه شكلاً ولا أنفع .

ثم جاء بموضع آخر من الكتاب مقرعاً لمن يكنزون الذهب والفضة ، ثم حبّذ وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والإسعاف والإطعام ولو كان بهم خصاصة .

وهكذا ترى قانون الاشتراكية المعقول في آيات القرآن تترى ، فلننظر هل عمل بهذا القانون وما كانت نتائج العمل به .

نعم إن الإخاء الذي عقده المصطفى ﷺ بين المهاجرين والانصار لهو أشرف عمل تجلى به قبول الاشتراكية قولاً وعملا . فالمهاجر من المسلمين ، إنما استطاع أن يفرّ بدينه راضياً بهجره بلده ،وترك مسقط رأسه ، ومفارقه أهله وذويه ، والخروج من ماله ومقتناه مسروراً أن يصل لدار الهجرة سالماً . والانصاريّ ، وهو في بلده مع آله وذويه وماله ، قبل راضياً مسروراً أن يشارك أخاه المهاجر بكل معنى الاشتراك . حتى لو تطلع الانسان منا اليوم ، وأشرف على تلك الأرواح الطاهرة لرأى من مجالي الاشتراك روحاً وجسداً ما ينبهر له عقله ، ولصح اعتقاده أن عمل الدين وتأثيره في تلطيف الكثافة الجسمانيـــة ، لا يضارعه مؤثر ، أو عامل آخر على البشرية ، ولرجعوا اليه لو كانوا يعقلون .

ثم قال : لما كان مذهب الاشتراكية كبقية المذاهب والمبادىء ، لها طرفان ، « وخير الامور اوساطها » . رأى الشارع الأعظم أن تنعّم فريق من قوم ، وشقاء فريق آخر في محيط واحد ، وبمساعٍ ليس بينها وبين مساعي الآخرين كبير تفاوت ، مما لا يتم به نظام الاجتماع . وكان النبي ﷺ (بالمؤمنين رحيماً) فجاءه عن طريق الوحي — وهو نتيجة تمحيص نزعات النفس البشرية ، وما عسى أن ينجم من المضار أو المنافع لها — فوضع للدين أركاناً خمسة ومن تلك الاركان « فرض الزكاة » في المال ، والركاز والانعام ... الخ . ثم أضاف اليها كما سبق « غنائم الحروب »فأخذ منها قسطاًبمقدار الخمس ؛ ثم بعد ذلك حرّض على بذل « الصدقات » وحرّم « الرّبا » بنكتة غاية في الحكمة : وهي أن لا يؤكل الرّباأضعافاً مضاعفة ؛ وهو ما وقع عليه التحريم ، ولكي يكون الامام مخرج إذا قضت المصلحةبالتسامح للحكم بجواز الربا المعقول الذي لا يثقل كاهل المدين ، ولا يتجاوز في برهة من الزمنرأس المال ، ويصير أضعافاً مضاعفة ، وفرّق صراحة بين احتيال المرابين ، المتلبسين بالدين ، الذين يتظاهرون بالتجنب عن الربا ، ببيعهم سلعة قيمتها الحقيقية مئة درهم يجرون عقد بيعها مع المشتري المضطر بثلاثمائة درهم وحقيقة هذا الفرق إن هو إلا نصيب الربا وعينه وإنما يجعلونه عن طريق البيع ، ويخدعون أنفسهم بأنهم تخلصوا من ارتكاب جريمة الربا التي حظرها عليهم الدين .

واليك بعض ما جاء بهذا الشأن بالقرآن : (الذين يأكلون الربا لا يقومونَ إلا كما يقومُ الذي يتخبّطُه الشيطانُ من المسّ ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيعُ مثلُ الربا ، وأحلّ الله البيعَ وحرّم الرّبا ، فمن جاءهُ موعظةٌ من ربّهِ فانتهى ، فله ما سلفَ وأمرُه إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون ، يمحقُ الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم) .

وقال : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون).

أما ما جاء في الحث على الصدقات فكثير ، كقوله تعالى (إن تبدوا الصدقاتِ فنعمّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراءَ فهو خيرٌ لكم ويكفرُ عنكم من سيئاتِكم ، والله بما تعملون خبير) .

وقال :(إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ والعاملينَ عليها ، والمؤلفةِ قلوبُهم وفي الرقابِ والغارمينَ وفي سبيلِ الله وابنِ السبيلِ ، فريضةً من الله) .

وقال: (إن الحسناتِ يُذهبنَ السيئاتِ) وأمثال ذلك كثير في الكتاب والحديث ، حثاً وتحريضاً على البذل ، ومؤاساةِ الفقراء وأهل العوز ، درءاً لمفاسد أرباب المطامع، وسداً لعوامل حسد الحساد لأهل الثروة والنعيم .. إلخ .

أما الثروة فتختلف بكميتها ، من مئة إلى ألوفٍ وملايين من الدنانير ، ولكن لا تختلف بكيفيتها ، بمعنى أن رجلاً يملك مئة دينار بين قومٍ لا يملك أفرادهم إلا دراهم معدودات فيمكن لصاحب تلك المئة ان يظهر بمظهر الثراء ، ويأخذ من التنعم حظاً نسبياً ، ويلفت أنظار قومه ويدعوهم لحسده ، هذا تمادى بالاثرة والانانية ولم ينل قومه منه رشاشة فضل على حد قول زهير بن أبي سلمى :

ومن يكُ ذا فضل ويبخل بفضله على قومه يُستغن عنه ويُذمم

ولقد قلنا عن زمن الجاهلية وعصر البداوة ما فيه الكفاية ، ومختصره أن أعظم مثرٍ كان يتساوى في مسكنه ومأكله وملبسه مع أفراد قبيله وعشيرته ، فلا تتحدث نفس من ذلك المجموع بأدنى حاسةٍ من الحسد ، أو داعٍ يدعوه إلى الانتقام .

ثم جاء الاسلام ، فكان أكبرهم منصباً وهو الخليفة لرسول الله يعمل بسيرة نبيّه من الاكتفاء بالقليل من العيش ، والكفاف منه ، ومجالسة الفقراء ، ومشاركتهم بكل معنى الاشتراك في مظاهر الدنيا ونعيمها .

لقائل أن يقول إن شظف العيش في زمن النبيّ المصفى وخلفائه كان يدعو بطبيعة الامر إلى عدم التحاسد . فنقول إن الفتح الاسلامي في زمن أبي بكر الصديق بلغ من المالك مبلغاً عظيماً ، وجاء بالمغانم الكثيرة ، ومع ذلك لانرى أن وضعية الخليفة أبي بكر قدتغيرت ولا مظاهر وزرائه وقواده تبدّلت ، ولا شكل حياة من أثرى من متّجرة العرب قد ظهر فيهم شيء يلفت نظر حاسد ، أو يجعل في نفوس غيرهم أقلّ غصة .

ولا ريب أن الفتوحات في زمن الفاروق عمر بن الخطاب قد امتدت فصارت أوسع نطاقاً ، والمغانم أعظم وفراً . والنفوس البشرية مع هذه العوامل قلّ ما تنجو من تطلع للسرف والترف ، ومهيئآت الاستطالة ، والأنانية ، وقد توفرت أسبابها ؛ وبالفعل – ورغماً عن قرب العهد بسيرة الشارع وخليفته أبي بكر ، وتمسك الفاروق بسيرتها – فقد أتته الأنباء الصادقة ممن بثّه لمراقبة سير وسيرة عماله بأنه قد فشت لعامل مصر « عمرو ابن العاص » وعامله في دمشق « معاوية بن أبي سفيان » وغيرهما من العمال في العراق وغيره ، هيئة بذخ وسرف وثراء ، خشي معه حصول ميزة الاكاسرة لأولئك الافراد من العمال الخادمين للمجموع ، ويصرفون سلطان الحكم ونفوذه بغير وجوه الحق فتدب النفرة على سبيل التدريج إلى نفوس الامة من حكامها ، وبالأخير تنقبض تلك النفوس عن الطاعة الاختيارية ، وتفقد الثقة ويضعف الايمان ويتزلزل البنيان ، ويعم البلاء « والعياذ بالله » .

فأسرع الفاروق لملافاة ذلك الخلل بتقريع عماله بأخشن الاقوال ، عظةً وتحذيراً ، وقتلاً للغرور ؛ فخاطب عامله في مصر بقوله : « إلى العاصي بن العاصي ، ما أقطعتك مصر طعمة لك ولقومك ..» وبمثل قوله « لا تبالي أن تحيا أنت ومن معك ، أن أموت أنا ومن معي ..» وبمثل قوله « متى كان ابن العاص في مثل ما بلغني عنه من ثراء ودور ، وقصور » وبما معناه ... الخ .

وهكذا خاطب عامله في الشام معاوية بن أبي سفيان ، وهدده بان يجتنب غطرسة هرقل، وتعاظم الاكاسرة والقياصرة .

ولم يكتف بما قاله بل أرسل معتمداً وبيده أمر مبرم أن يشاطر كل عامل بمقتناه ، من ثروة ومتاع حتى ان ذلك المعتمد أخذ فردة نعل العامل وترك له الأخرى .

هذا درس عملي وعلني لملأ المسلمين ، أفهم فيه الفاروق الحاكم والمحكوم عدم سواغية الأثرة والاستطالة ، وعمل بذلك على محو دواعي الحسد من الصدور فعلاً .

فلننظر ماذا فعل عمر بن الخطاب بما صادره من أموال العمال ؟ وماذا صنع بغنائم كسرى وقيصر ؟ وماذا ظهر على تلك الخليفة من آثار عظمة الملوك والامراء ، سواء كان في مسكنه أو ملبسه أو مأكله ؟

ظهر عليه مع كل ما توفر لديه ، ان كان لباسه أحقر مايلبسه الفقير في الأمة، ومرقّعيته مشهورة في تواريخ الامم ، وأن فيها مع رقع الاقمشة رقعة من أدم أي من جلد .

وأمـا مسكنه فكان يقضي سحابة يومه في سقيفة حقيرة يدخل اليها مطأطىء الرأس ، ينظر في شؤون الخلافة ، ويقضي وقت استراحته في البقيع « جبانة الأموات » .

وأما مطعمه فكان خبز الشعير الغالب عليه، بينما كان يطعم الايتام والأرامل والمستضعفين من المهاجرين والانصار ، خبز البُرّ والسمن والتمر وينيلهم كل ما كان مناله عزيزاً إلاّ لأهل الثراء اذ ذاك .

هكذا كان يشاركهم مع نعيم الاغنياء ولا يشترك معهم فيه ، فضلاً عن بذل المـال للمحتاجين ، وقرض القروض لهم من بيت المال ، وإعطاء الجوائز لمن كان له ، أو لآبائه سابقة في الاسلام ، بعشرات الالوف ومئات الالوف كلٌ على حسبه .

فأهل الاسلام مع تمحض سلطان الحرية فيهم ، لم يروا في سيرتي الصديق والفاروق رضي الله عنهما ، مايدعوهم إلى أقلّ تذمر أو تململ أو تفكر ، بمناهضة لسلطانهما ، أو تألب على قلب أشكال حكمها وإمرتها ، أو إحداث شغب يعرقل مساعيها في الفتوحات ،

بل كانوا يبذلون النفس والنفيس في طاعة الخلفـاء تأييداً لشوكة الاسلام ، وتعميماً لعدل الشريعة السمحاء .

هذا كان موقف الخلفاء ، وحال الأمة معهم ، ولذلك تجلّى العدل المطلق في الاحكام والتزم الحكام للتقيد به قولاً وعملاً .

وهكذا مضى زمن خلافة الفاروق ، وجاء زمن خلافة عثمان بن عفان خلالها ظهرت أثرة خاصة للأمويين ، تذمـّر منها الهاشميون وأكثر القرشيين ، وفي مقدمتهم أبناء الصديق والفاروق ، ومن كان على رأيهم الخ ..

في زمن قصير من خلافة عثمان تغيـّرت الحالة الروحية في الأمة تغيراً محسوساً ، وأشد ما كان منها ظهوراً ، في سيرة وسير العمال والامراء وذوي القربى من الخليفـة ، وأرباب الثروة ، بصورة صار يمكن معها الحسّ بوجود طبقة تدعى « امراء » وطبقة « أشراف » ، وأخرى أهل « ثروة ، وثراء ، وبذخ » وانفصل عن تلك الطبقات ، طبقة العمال وأبنـاء المجاهدين ، ومن كان على شاكلتهم ، من أرباب الحمية والسابقة في تأسيـس الملك الاسلامي وفتوحاته ونشر الدعوة ، وصار يعوزهم المال الذي يتطلبه طرز الحياة ، والذي أحدثتـه الحضارة الاسلامية ، إذ كانوا مع كل جريهم وسعيهم وراء تدارك معاشهم لا يستطيعون اللحاق بالمنتمين الى العمال ورجال الدولة ، وقـد فشت العزة والأثرة والاستطالة ، وتوفرت مهيئـات الترف في حاشية الامراء ، وأهـل عصبيتهم ، وفي العمال وبمن استعملوه ، وولوّه من الاعمال الخ ...

فنتج من مجموع تلك المظاهر التي أحدثها وجود الطبقـات المتميزة عن طبقـة العاملين ، والمستضعفين من المسلمين ، تكوّن طبقة أخذت تتحسس بشيء من الظلم ، وتتحفـّز للمطالبة بحقهم المكتسب من مورد النص ، ومن سيرتي الخليفة الأول والثاني أبي بكر وعمر .

كان أول من تنبه لهذا الخطر الذي يتهدد الملك ، والجـامعة الاسلامية الصحابي الجليل « أبو ذر الغفاري » ، فجاء الى معاوية بن أبي سفيان وهو في الشام ، وخاطبه بوجوب الرجوع الى سيرة السلف ، وبتقليل دواعي السرف والترف ، وعدم التمادي في مسببات الحسد ، والعمل

على نزعها من العاملين من رجال المسلمين ، وذكر مواعظ كثيرة ، وعدد أخطاراً جمة من وجود طبقة فقيرة ، عاملة مفكرة في المسلمين ، يكتنفها شظف العيش وقلة ذات اليد بين ظهراني قوم أكثرهم ممن لاسابقة لهم في الاسلام ولا لآبائهم ، ولا من الصفات المحمودة ، ولا من المجهودات او المميزات العلمية والجسدية ، مايوليهم أو يعطيهم حق ماهم فيه من النعيم ، وطيب العيش والرخاء ، غير محض الانتماء والادلاء بولاء لآل حرب وعمالهم .

فأجابه معاوية بما معناه: ياأبا ذَر إن ماتقوله هو الحق ، ولكني ليس في استطاعتي الرجوع ، لا إلى سيرة الصديق وسيره ، ولا الى العمل الذي كان يعمله الفاروق . وغاية مافي إمكاني ، الحث على بذل الصدقات ، والقول اللين إرشاداً وعن طريق الوعظ لتخفيف دواعي الحسد وغير ذلك فلا سبيل اليه .

قال يامعاوية : قد نصحتك والدين النصيحة ، فاحذر أنت والخليفة عثمان مغبة ماأنتما عليه!

وذهب من مجلس معاوية مغاضباً . واجتمع مع طبقة المتألمين والمتذمّرين من المسلمين وقصّ عليهم من سيرة السلف أشياء ، وأطلعهم على ماقاله عامل الشام معاوية بن أبي سفيان وأردفها باعلانه مشاركته لهم في كل مايتحسسون به قلباً وقالباً وبمختصر القول انه شجعهم على النهضة والمطالبة بحق صريح لهم اهتضمه جماعة بغيروجه شرعي ، ولا باجتهاد امام سلف.

فكان من وراء عمل ابي ذر هذا، أن حصل شيء من التهيج، والانفعال النفسي، ماخشي معه معاوية وأعوانه سوء المصير.

فجمع معاوية كيده ، واستنجد دهاءه ، وبعث لأبي ذَر ليلاً بألف دينار ، فقبلها ابو ذَرّ وفي الحال بادر لتفريقها على الفقراء ، والمعوزين من المسلمين.

وفي ثاني يوم أرسل معاوية رسولاً ـ بتعليم منه في الارسال الاول وفي البعث الثاني ـ وقال : ياأبا ذر أنقذني من عذاب معاوية ، فإن الألف دينار لم يرسلها اليك وانما غلطت .

فقال أبو ذر : والله لم يبق معي من دنانيره ولا دينار ، فليمهلني حتى آخذها ممن وزّعتها عليهم من المستحقين في المسلمين، وعلم معاوية صدقه وضاق به ذرعاً ، فكتب الى الخليفة عثمان

مستجيراً من إلقاءات أبي ذر ، وما أحـدثه من التأثير في النفوس ، فأجابه مستسرعاً إرسال أبي ذر إليه ، فأرسله ، ولما تقابل مع عثمان لم يسمع منه أكثر مما سمع من معاوية ، وأنه لايمكنه أن يفعل مافعله الفاروق مع العمال من مصادرة ماعندهم من الثروة ، ولا أن يرجع ما كان من حالة مجموع المسلمين في عهدي الصديق والفاروق ، إلا عن طريق الحث على بذل الصدقات والاحسان فقط .

فقال أبو ذر : ياعثمان أما تذكر حديث رسول الله ، ومعناه : إذا وصل البناء الى سلع.. واستعلى في المدينة .. وفشت الخ ... وجبت الهجرة ، او كما قال في مكان آخر : يا عثمان إن النبي ﷺ أمرني بالخروج منها اذا بلغ البناء سلعاً ، « وهو جبل في المدينة » .

فها قد استعلى بناؤك ، وبناء قريبك معاوية ، وأعوانكما ، فأستودعك الله ، تاركاً لك ولمن استعملت من العمال « أعمالكم » والله من ورائكم محيط .

فألح عثمان على أبي ذرّ ، أن لايفعل ، فقال أبو ذرّ : إن رسول الله أولى أن يتّبع .

وبالفعل قد هاجر أبو ذر من المدينة.

كان في عمل أبي ذر هذا انه قد أخذ بمحض النصح لخليفة المسلمين إذ ذاك « عثمان » وبنصح « عماله » ، وبالدفاع عن حقوق المسلمين كي لا تكون طبقة اشتراكية ، يكون رائدها « الانتقام ؟ » .

بل دعاهم الى العمل بنص القرآن ، والاقتداء بمن طبق ذلك النص عملاً من الخلفاء كأبي بكر وعمر .

هذا مختصر ماعلم به الدين الاسلامي من الاشتراكية المعقولة ، النافعة للمجموع الانساني ، وما عمل به أكبر خلفاء الاسلام .

وكل اشتراكية تخالف في روحها وأساساتها ، اشتراكية الاسلام التي سبق ذكرها ، فلا تكون بنتيجتها إلا ملحمـــة كبرى ، وسيل الدماء ولا سيل العرم من الابرياء ، ومن تخريب لبناء لايشاد عليه شيء ينتفع به أحد من الخلق .

نعم يستفيد من يلوك بلسانه كلمة الاشتراكية ، ويجعلهـا أحبولة صيد ، وهي كلمة حق يراد بها الباطل .

اكرر القول إن اشتراكية الاسلام هي عين الحق ، والحق أحق ان يتبع .

قوله : حقائق الاشياء ثابتة ،والاحاطة بها لفرد متعذر ، والعلم بأسبابها متوزع بين المجموع على نسب متفاوتة

قال : إن كل الحوادث لابد وأن تقترن في آن حدوثها مع سبب لها ، ملازم غير مفارق ويختلف الخلق في معرفة ذلك السبب ، ويتفاوتون على نسبة علمهم بالاسباب ، والمسببات ، وإرجاع كل علة لمعلولها ، وكل سبب لمسببه ، وحادث لمحدثه .

فالحوادث عند الجاهل منسوبة للصدفة على الغالب ، وهي أهون المراجع للتعليل عنده .

فإذا سقطت صاعقة مثلاً على شجرة كبيرة في خلاء من الفضاء ، يقول : بالصدفة حصل نوء شديد ورعد وبرق ومطر غزير ، وبالصدفة التجـأ زيد لتحت تلك الشجرة ، وبالصدفة سقطت عليه تلك الصاعقة .

هذا مايقوله من لايفقه معنى لزوم السبب للحوادث .

وأما من يعلم ـ والعلم متفاوت ودرجات ـ فيعلم أن مهب الرياح وشكل الكرة الارضية ، وما فيها من معترضات الجبـال ، وأوضاعها في الشمال والجنوب والشرق والغرب ، والمضايق وتأثيرها عند هبوب كل ريح منها ، والأحراش ، والاشجار ، الخ .. كل هذه الاشياء من مسببات الأمطار بعد أن تجلب السحاب ، وتسوقها الارياح ، وتحـدث العواصف ، وهي من مسببات الصواعق،لانهالاتحدث إلا من عاصفتين متضادتين يتكون عند اصطدامها والاحتكاك شرارة كهربائية هي « البرق » ، ويليها هزيم « الرعد » وهو صوت الصدمة .

فاذا عرفنا بعض أسباب المطر والبرق والرعـــد ، ورجعنا الى التجاء الانسان لتحت الشجرة ، علمنا ان السبب فيه محبة الذات ، الأمر الفطريّ في الحيوان .

وحب البقاء ، والتذرع بالوقاية ، والمحافظة على الحياة ، أظهر مايكون في الحيوان الناهق من حينما يدب ويدرج، منه في الانسان .

خذ مثلاً الأفعى والجرذ ، فقد رأيت أكثر من مرة جرذاً قابلته أفعى ، فعمد الجرذ فوراً الى عود من الارض ، ووضعه في فمه بشكل مستطيل بارز عن شدقيه ، واستقبلها على ذلك الوضع ، فكانت كلما دارت لتبتلعه أدار ذلك الواقي له وهو العود فيتعذر عليها بلعه ، وكثيراً ماملّت من مداعبته ويئست من ابتلاعه ، لما تحراه وأوجده بسوق الفطرة من أسباب الوقاية ، فانسلّت ومضت .

والانسان في تحري أسباب البقاء في هذا العالم ، الفاني بصورته والباقي في جوهره ، إنما يتحرى مايتحراه الحيوان من أسباب الوقاية والحياة . فاذا رأيناه يلتجيء عند العواصف والأمطار لتحت الشجرة ، فليس ذلك صدفة ، بل عن سائق وقصد وغاية ، وكل ذلك يرجع لحب الذات للوقاية ، وحفظ النفس .

أما الصاعقة ، فالقوة الموجودة في الأشجار لجذبها ، أمر مبسوط مع ماذكرناه في كتب الحكمة الطبيعية وغيرها مما يدرس في المدارس ، فليس في سقوطها شيء من الصدفة .

وهكذا القول في كل ماهو جار ، وفي كل حادث على وجه الارض ، له سبب وإن خفي.

فالصدفة - لعدم معرفة الاسباب - عند الجاهل « كثيرة » ، وعند العلم والعالم « قليلة » ، وعند القدرة الإلهية « معدومة » ، لاوجود لها (وآتيناه من كل شيء سبباً).

والعلم ، أو التسلسل بمعرفة تلك الاسباب ، فمنوزع بين البشر ، بضيق ظرف العمر الانساني عن استيعابها واستيفائها ، ولولا أنه (يرد الى أرذل العمر لكي لايعلم بعد علم شيئاً) لأمكنه أن يعلم أسباب حوادث كثيرة ، ولكن مافات الفرد بالنسبة الى قصر عمره الطبيعي من التتبع ، يتلافى إكمال ذلك النقص النسبي من يأتي بعده من أفراد النوع .

وكل ما وصل إلينا من العلوم، مع خدمة ألوف الرجال لها متعاقبين من علماء محققين، وعلى مدى الاجيال العديدة ، لم تزل بالنسبة الى الحقائق الثابتة فيها « علوماً ناقصة » أو هي في حقيقتها « قشور » لتلك العلوم في غايتها وحقيقتها .

فعلم الطب مثلاً،ووجوده ملازم لوجود الانسان لضرورته، مع كثرة من خدمه من فحول الرجال في مختلف الاجيال ، لم يزل ناقصاً ، بدليل أن أمراضاً كثيرة وقف علماء الطب عند حد العجز عن وجود دواء لها شافٍ ، حتى جاء من الأواخر من وجد الدواء ومحى من سطور كتب الطب « هذا الداء ، لادواء شاف له ولا واق » .

وما يدرينا أن الدواء الشافي لكل داء ، موجود إما في النبات ، أو في المعادن ، أو في قوى الطبيعة وأسرارها ، ولكن نقص العلم وعجز فهوم الرجال جعله مخفياً لعدم الاهتداء اليه اليوم .

وهكذا القول في الكهربائية ، لخواصها ومظاهرها ، عرفها الاقدمون بشكل بسيط في العصر « الظرري » وهو عصر الحجر الصواني .فكانوا يستعملون منه سلاحهم ، إذ يحددونه فيجعلونه ذا حد جارح ويستورونه بالقدح زناداً فيوري . وعلماء اليوم يقولون ان الاصل في المادة الحركة ، ومنها تتولد الحرارة ، ومنها يتولد النور.

فهذه الأصول كما قدمنا كانت ولم تزل عند الاقدمين وعند أهل البادية اليوم معروفة على أبسط حالاتها ، فيعالجون حجر الصوان بالاحتكاك فتتولد منه حرارة فنور فنار ، ويستغنون بذلك عن عيدان الانارة بوضع قطعة صوفان عند القدح وخروج الشرارة من الحجر فتلتهب ، فيضعونها على الهشيم فيشتعل . نعم ان هذا العمل ، ساق البدو وأهل الاعصر الخالية اليه « الضرورة » ولم يكن بالعلم المدون لتحصل منه فائدة كبيرة . وأهل هذا العصر، مع كونهم استفادوا من توليد الكهربائية ، وعلموا مظاهرها ، واستخدموا قوتها، ولكن كنه الكهربائية وحقيقتها ، وطريقتها او كيفية تجمعها في المادة ، لم يزل مجهولاً غير معلوم ، وهذا الجهل لايقدح ولا ينفي أن حقائق الاشياء ثابتة ، والاحاطة بها للفرد متعذر ، حتى ان العلم ببعض سلسلة أسباب الحوادث متوزع بين البشر.

قال : ويعجبني في بحث الحركة والحرارة ، ماقاله ابو بكر بن بشرون قبل أكثر من ألف عام « ان الحركة هي الاصل في توليد الحرارة وللحرارة خاصة نقل الاشياء وتحركها. والكون بما فيه من رطوبة ويبس ليس لهما إلا البرودة والحرارة ، فالبرودة تيبس الاشياء

وتعقد رطوبتها ، والحرارة تظهر رطوبتها وتعقد يبسها . والمرجع الكلي في الاشياء ، الحرارة المنبعثة عن الحركة وهي أصل الحياة ، ومتى فقدت حرارة الكون تعذرت الحياة أو فقدت» اه

ثم تفكر وقال :

إن في خلق الانسان ، وفي عقله من القوى الغريبة والأسرار العجيبة مايدهش العقل ولقد أصاب الشيخ الاكبر بقوله « أيحسب الانسان أنه جرم صغير وفيه انطوى العالم الأكبر » .

نعم ان الانسان من أكبر أسرار هذا الكون ، ولسوف يستجلي بعقله ما غمض وخفي من أسرار الطبيعة ، وسوف يصل بالعلم وبإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته ، فيرى ما كان من التصورات مستحيلاً قد صار ممكناً ، وما صوره جموده وتوقف عقله عنده بانه « خيال » قد أصبح « حقيقة » .

لبث الانسان يقلب طرفه في الفضاء وطبقات الهواء ، يتجادل عقله مع النسور والعقبان محلقة ، ويهبُّ لمجاراتها واللحاق بها ثم يقعده الجمود ، ويريه ذلك مستحيلا فيرجع إلى الوراء.

والعقل وهو معتقل بذلك الجمود يحاول فك قيده ليسير إلى الامام .

وهكذا كان موقف عقل الانسان مع الحيتان ، وأسماك البحار ، يناجي نفسه ويقول : ان عندي من القوى وفهم الاسرار ما ليس في الحيتان والعقبان ، فلِمَ لا أفعل فعلها وأجري جريها ؟

وعندي إذا ظفر العقل في هذا العراك والجدال ، وتغلب إقدامه على الأوهام ، واستطاع فك قيوده ، ومشى مطلق السراح ، لايلبث طويلاً إلا ونراه قد طار بأسرع من العقبان ، وغاص في البحار يسابق الحيتان وسخّر البرق بلا سلك لحمل أخباره ، وتحادث عن بعد أشهر مع غيره كأنه عن قاب قوسين أو أدنى . وهل يبقى مستحيلاً إيجاد مطية توصله للقمر أو الأجرام الأخرى وما يدرينا بعد ذلك ما يأتيه الانسان في مستقبل الزمان ،

إذا هو ثابر على هذا السير لكشف السر بعد السر من مجموع أسرار الطبيعة التي ما وجدت الا للانسان ، وما وجد الانسان الا لها[1] .

قوله : إن الحق لايكون مع الاكثرية أحياناً

قال : وجود بعض المجموع الإنساني على شيء والاعتقاد به ، لا يفيد أحيانا معنى أنه على الحق ، خصوصاً إذا كان رائده وقائده مطلق التقيد بالمألوف ، والتقليد الاعمى بدون حجة ولا برهان .

فالحقائق من دين ومذهب وقواعد علمية وفنية ،ماظهرت واستقرّت وتدوّنت وانتشرت إلا بواسطة أفراد قلائل ، وقد قاومها المجموع بأشد ما لديه من قوة ووسائل القهر .

فجوبيتار « إله الآلهة » ما تجرأ على الكفر به أحد في عصر التعبد له وكانت الكهنة مع مجموع الشعب تنزل على من يكفر به آيات العذاب وأنواعه ، واليوم يعدون من يكفر بجوبيتار وألوهيته مؤمناً .

ثم جاء « موسى » وكفر بألوهية فرعون وكان الإيمان بالله عند مجموعهم يعد كفراً ، واليوم الأمر بالعكس .

ثم جاء عيسى ، وليس من يؤمن به غير ذلك النفر القليل من الحواريين ، ومع تصريحه أنه أتى ليتمم الناموس لالينقضه ، فكان المجموع من اليهود في اورشليم من ألدّ الخصوم ، وصلبوا من تبعه ، وتفننوا بأنواع عذابهم ، واليوم ترى تعاليم المسيح في القدس « مكان الاضطهاد » وفي بيت لحم « محل الولادة » ، وفي أكثر المعمور من الأرض يدان بها ويعمل على نشرها .

ثم جاء محمد ، وكانت شيعته أفراداً قلائل ، ومن آمن به يعدّون على الاصابع وهم : « طفل » وهو علي بن أبي طالب ، « وامرأة » وهي خديجة الكبرى بنت خويلد ، ومن الرجال « أبو بكر » .

---

(١) وقد تم اليوم اكثر ماقاله جمال الدين وكان العلماء اذ ذاك يحاولون ويجربون في أوروبا تسخير الفضاء للطيارات ، والبحار للغواصات .

وكان المجموع من قومه أشد المقاومين لدعوته وجحد نبوّته . وكان من يؤمن «بمحمد ﷺ » عرضة لأنواع العذاب ، وموضع السخرية والاستهزاء .

واليوم ترى مئات الملايين من الخلق تدين بدين محمد ، وأكثر مجموع العالم يحترم ويدين بتعاليم الثلاثة : « موسى » و«عيسى » و«محمد » .

بعد أن كانت أتباع الثلاثة : شرذام ، بل أفراداً قلائل في بدء أمرهم .

ولو لم تكن تعاليمهم محض خير ، وموافقة لروح البشر والانسانية ، لما أخذ التكاثر من تابعيهم رغم مقاومة المجموع ، ورغم الاضطهاد والقتل ، والاستهزاء والنفي والصلب ، وكل أنواع العذاب ، حتى صاروا أمماً وفتحوا ممالكاً ، وصار لأولئك الأفراد والشراذم دولٌ ، وجانب يخشى ، وبأس يتقى ، ومدنيةٌ وحضارة لا تفنى .

وهكذا ينبغي أن نعلم أن كل تعليم إذا كان حقاً في ذاته ، ولو خالف المألوف ، وكانت أنصاره قلائل ، فمن الحكمة ان لا يمتهن لقلة الاشياع والنصراء ، أو لكثرة جماهير المخالفين والمقاومين له في بادىء الامر ، بل يجب أن ينظر اليه بعين البحث ، والنقد الصحيحين .

فان تبين منه نور حق ، وكان الناظر ضعيف الهمة ، لا يجرأ على مناصرته ، ومظاهرته ، فليصبر حتى تكثر الاعوان ، ولا يسارع لمجاراة الكفران به .

فكم مضطهد للمسيح ، لم يلبث حتى اعتنق دينه ، وجاهر بتعاليمه ، غير مبالٍ بالقتل ، وأنواع العذاب .

وكم عربي ناهض محمداً ، ثم خاض بعد إيمانه غمار الحروب ، واستبسل في سبيل دعوته ، وطاب له الموت حباً بنصرته .

والدعوة لطلب الحرية في فرنسا — وهي دعوة ومطلب حق — كم صادف أهلوها من المحن ، وكيف استحرّ فيهم القتل ، وسالت الدماء ، واليوم فالعالم يقدرهم ، ولسوف يقتدي بهم .

وهكذا دعوى الاشتراكية على ما سبق ذكره وبيانه ، وإن قلّ نصراؤها اليوم ،

فلا بد أن تسود في العالم ، يوم يعمّ فيه العلم الصحيح ، ويعرف الإنسان أنه وأخاه من طين واحد ، أو نسمة واحدة ، وأن التفاضل إنما يكون بالأنفع من المسعى للمجموع ، وليس بتاج أو نتاج ، أو مال يدّخره ، أو كثرة خدم يستعبدها ، أو جيوش يحشدها ، وغير ذلك من عمل باطل ، ومجد زائل ، وسيرة تبقى معرة لآخر الدهر .

ثم قال : مخالفة المألوف أمر عظيم ، وما يحتاجه من الجرأة وعلوّ الهمة ، أكبر وأعظم.

لاتصدق أن أحداً من البشرية يمكنه تخطي المألوف ومخالفته بسهولة ، فهناك عقبة كؤود وهوة هائلة ، لايذللها ولا يجتازها إلاّ فحول الأبطال ، ونوابغ الرجال ، إما بالأرفاد ، أو بالحكمة وعظيم الهمة .

وأعظم مزايا الأنبياء عليهم السلام اقتحامهم مخالفة أقوامهم ، وما كانوا فيه من ضلال ، ومساوي أحوال ، بما يعبدونه ويتعاملون به ، ويألفونه من قول ، وفعل ، وعادة .

ولو لم يكن لهم إلا تلك المزية ، وأنصفهم من يجحد وينكر رسالاتهم ، ونبوّاتهم ، لأعظم من شأنهم ، ولوجد فضلهم كبيراً .

فموسى ، وقد بطش بفرعون ، وأخرج بني إسرائيل من مصر على الرغم منه .

والمسيح وهجومه على هيكل اليهود ، والفريسيون في أوج عظمتهم ، وسلطة ناموس موسى في يدهم ، وهو في أجلّ تعاليه . فسفه أحلامهم ودخل هيكلهم وكسّر صناديقهم وخرّب ما يتجرون به وقال : « بيتي بيت الصلاة وأنتم جعلتموه مغارة للصوص » .

وكذلك محمد ؛ فقد كسّر الأصنام وأذلّ اللات والعزى ومناة ، واستأصلهم فعلاً ، وأبى قبول الملك من قريش ، ونهض لإعلاء كلمة الحق ، واستسهل في سبيلها كل اضطهاد وحرب ، وطعن وضرب . وخالف كل مألوف لقومه غير معقول ، وبدأ به بنفسه ، وباشره بذاته ، وطبّقه على الأقربين من عشيرته . مثل نفي التجارة بالربا ، وعدم التعامل بها ، فحطّ الربا ، وأنزله من أموال أقاربه ،من عمومة وخؤولة ، وكان لهم من ذلك أموالٌ طائلة .

وهكذا التبني ، إذ كان الرجل من العرب يتبنى ابن الآخر ، والنبي قد تبنى زيد بن حارثة فكان يدعى زيد بن محمد ، فلما أوحي اليه ﷺ أن (ادعوهم لآبائهم ... الآية) فقد دعاه إلى أبيه « حارثة »

وهذا من المخالفة للمألوف عند العرب في المكان الأعظم ، ففعله بذاته ، وكان خير قدوة لترك كل مألوف غير معقول ، وأمثال ذلك كثير .

رأيه في الاديان الثلاثة وأنها متفقة في المبدأ :

الناس تجاه الأديان الثلاثة : الموسوية ، والعيسوية، والمحمدية ، وكتبها ، لا بد أن يكونوا أحد رجلين ، أما رجلٌ يعتقد أن رجال الأديان الثلاثة قد أرسلهم الله ، وأوحى اليهم بالتوراة ، والانجيل ، والقرآن ، والقصد من إرسالهم إرشاد الخلق إلى الحق ، وإراءتهم الصراط المستقيم الامور التعبدية . ومن بيان الحلال والحرام ، وصون مصالح العباد بما شرعه لهم من الشريعة ، وإلزامهم العمل بها ، وبالاجمال ، بيان مشيئة الله بما يريده من خلقه ، وما يريد أن تكون خليقته عليه .

وعلى هذا فلا يمكن أن يكون قصد الله إلا واحداً ، ومشيئته إلا واحدة ، وكتب الوحي وما أنزله على الرسل، لا بدّ وأن تكون متفقة في المقصد والغاية ، ولا يصح التباين في جوهرها، ولا أن تخالف بعضها بعضاً .

فلننظر الى الأمر الرئيسي الذي جاء في التوراة من أمر العبادة ، وما أراده الله من عباده هناك ، فنرى أن الله قد نادى موسى من جانب الطور وكلّمه قائلاً : إني أنا الله لارب سواي فاعبدني أنت وبنو إسرائيل ، ومختصر ماورد فيها أن طاعة الله وعبادته ، والعمل بما يبلغه الرسول ـ كل ذلك له في الآخرة ثواب ، وسعادة سرمدية ، فضلاً عن عاجلة الدنيا .

والانسان بسوق الحب الذاتي ، لا يريد ، ولا يحب أن يعتقد أنه سيذهب سدىً بعد الموت ـ لأن الاعتقاد بذلك مزعج للنفس ، مقبض للروح ـ فهو يرجو بعد الفناء الظاهري أن يبعث ، ويكون له معاداً ، وأن يحيى حياة أبدية .

ثم لننظر ماجاء في الانجيل ، وما قاله المسيح ، فنرى أنه قال : « بما معناه ـ أعطيتني

سلطاناً على كل جسد لأعطي حياة أبدية لكل من أعطيته وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته » .

فالعيسوية هي ناموس جاء متمماً مكملاً لما قبله من التوراة — كما قال المسيح « جئت لأتمم الناموس » لا لأنقضه » .. الخ .

ثم اذا نظرنا الى المحمدية ـ نرى القرآن مشحوناً بتوحيد الله ، ولزوم طاعته وعبادته ؛ بقوله : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ، (قل إني أمرت أن أعبد الله)،(ولا أشرك به أحداً ..) و (الحمد لله رب العالمين ... » و (إياك نعبد وإياك نستعين) و ...

هكذا نرى الاديان الثلاثة متفقة في الامور التعبدية بلا أدنى تباين أو تخالف .

ثم ننظر في المعاملات ، وما أجيز منها في تلك الأديان ، وما نهي عنه فيها . نرى أن ماجاء به موسى ، أو ماأمره الله به من الوصايا ، قد عمل بها المسيح، ولم ينقض او ينقص منها شيئاً. وكذلك محمد فانه جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل .

قلنا : إن الناس تجاه الاديان الثلاثة وكتبها ، أحد رجلين : رجل يعتقد بالوحي ويؤمن بالانبياء والرسل ، ورجل يجحد الوحي ولا يؤمن بالانبياء ولا بارسالهم من عند الله .

أما الرجل المؤمن ، فقد بحث ودقق ، وطبق كتب الاديان الثلاثة على بعضها كما مرّ، فلم يجد فيها أقل تباين ، بل وجدها متفقة في المقصد والغاية .

واما الرجل الكافر ومنكر الوحي ، فيقول : ان الكون مع حوادثه من حيث حقيقتها ليس فيها شيء جديد . وما نراه جديداً ، فانما هو في شكل الابراز ، وصورة الالقاء والتلقي. فيأتي في قرن من القرون، أولوا بصيرة ولبّ ودهاء ، فيعلـّمون تعليماً بشكل خاص، وصور معلومة عندهم ، تأخذ من نفوس الخلق كل مأخذ ، ويتعبد لها إذا وضعت في شكل تعبدي،أو يعمل بها إذا أفرغت في قالب تعليمي .

فالتعليم بتوحيد الله وتقديسه معروف عند قدماء المصريين قبل موسى بأجيال . والتثليث من تعاليم الوثنيين وقد قال به فيثاغوروس الفيلسوف اليوناني قبل المسيح بخمسمائة عام . وان

موسى وعيسى ومحمداً ، هم رجال عقلاء حكماء امتازوا عن وسطهم ، وجمعوا من معتقدات الأقدمين قواعد وأقوالاً ، وضعوها في كتب ، لا يعقل ان تكون من إله السماء .

ويقول ذلك المنكر ، إنه لو سلمنا أن في كتب الاديان شيئاً من النفع ، فهو لا يوازي مضار مانراه بين أهل الدين نفسه والاديان ، من الاختلاف والتنافر والمشاحنة والبغضاء.ولو كانت من الاله حقيقة ، لجعلهم ان يتفقوا عليها ولا يختلفوا ، ثم يستحيل ان يكون فيها مايرى من الخرافات ... الخ .

قال جمال الدين : هذا غاية ماعند الجاحد المنكر من القول والحجاج .

والمطلوب منه في موضوعنا هنا ، ليس الايمان بالوحي وبالانبياء ، بل إذا كانت كتب الأديان الثلاثة متفقة بالتعاليم الجوهرية ، وفي المقصد والغاية ، أم لا ؟

أما اتفاقها ، وعدم تخالفها فقد ثبت ، ولا يستطيع أحد جحوده ، وإنكاره . وأما مايراه المنكر ، ونراه نحن أيضاً ، من اختلاف أهل الأديان ، فليس هو من تعاليمها ، ولا أثر له في كتبها ، وإنما هو صنع بعض رؤساء أولئك الاديان الذين يتّجرون بالدين ، ويشترون بآياته ثمناً قليلًا ساء مايفعلون .

رؤساء الاديان ، وما أنفعهم إذا صلحوا ، وما أضرهم إذا فسدوا .

فالاديان في أصلها وجوهرها « وازع عظيم ، ودواء نافع مفيد لكثير من أمراض البشر ، هذا إذا أحسن الاطباء - وهم هنا رؤساء الاديان - عدم خلط ذلك الدواء ، بالضار من الاجزاء ، وراعوا قابلية العقول قبل الاجسام ، وأعطوه منه بقدر معلوم ، بقول مفهوم ، وبيان معقول .

قال : سألني أحد نواب الهند عن أشياء يعتبرها شبهات ، كادت أن تخل في عقيدته الاسلامية ، وتريبه في إنزال الكتاب ، أهمها : إذا كان القرآن كلام الله وقوله « ودينِ الحقّ ليظهرَه على الدينِ كلّه ولو كرهَ المشركون » حقاً .

فلمَ الاسلام في هذا العصر في أعظم دركات التقهقر والانحطاط ، وعلى خلاف صراحة الآية . وأطال في القول حتى إذا انتهى ، قلت له :

اعلم أن كل دين يجب أن يكون حقاً . فالاسلام اسم ومسماه الحق . فلو أتاك رجل اسمه « عالم » وهو في حقيقته جاهل، هل تنكر لمجرد الاسم وعدم انطباقه ، فضل المسمى ، وتقول لان اسم هذا الرجل « عالم وهو جاهل » ، إذاً لا فضيلة للعلم .

ولو أتتك الملايين باسم الاسلام، كما هو الحال في هذا العصر ، وهم لم يقوموا بحق المسمى من الحق ، هل ينبغي لمجرد مخالفة الاسم أن ينكر فضل المسمى ، وهو حقيقة « الاسلام» كلا.

لذلك قال الله تعالى « ودينِ الحق ليظهرَه .. الآية »

ولم يقـل : ومن تسمى بدين الاسلام ليظهره ..الخ . على أن الاسلام ، ومن دان به من المسلمين لما عملوا بحق الدين ، ظهروا ظهوراً طبّق الارض نوراً ، وملأها عدلا .

فالظهور للحق وللحقيقـة ، وليس للاسلام اسماً مجرداً . وما نراه اليوم في المسلمين من التقهقر ليس من حقيقة دين الاسلام بل من جهل المسلمين « حقيقة الدين » . وفي هـذه الآية (ودينِ الحق ليظهرَه على الدين كله) مايفهمنا أن هناك « كل » من « بعض ».

فالأديان في مجموعها هي « الكل » وأجزاؤها « الموسوية » « والعيسوية » « والاسلام » . فمن كان من هذه الاديان كلها على الحق فهو الذي يتم له « الظهور والغلبة »

لأن الظهور الموعود به الدين انما هو « دين الحق » كما قلنا وليس دين اليهود ، ولا النصارى، ولا الاسلام اذا بقوا أسماء مجردة ، ولكن من عمل من هؤلاء بالحق فهناك « الدين الخالص».

قال الله تعـالى « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص .. الآية »

رده على من أخذ عليه قوله أن أصول الاديان واحدة وانها من المتناقضات وبحث تصوفي :

قال : إن أمر التصوف لم يكن في المسلمين فقط ، بل رجال أديان الكتب السماوية كانوا على حقيقة من التصوف في المنى ، واختلاف في صور الألفاظ ، وشكل الالقـاء ، أو الفهم

الذي يريده الرئيس أو المسيطر ، ان يحور به المعنى على حسب مايرتئيه نافعاً ومفيداً وموافقـاً للغرض في حينه .

فآيات التصوف في التوراة أكثر إغلاقاً مما في الانجيل.مثل قوله « إسرائيل ابني البكر». فاليهود مع وجود هذه الآية في التوراة ، ماذهبت ولااعتقدت أن الإله له ابن ، أو يجوز عليه مايجوز على البشر من أشكال التناسل والولادة ، أو الزوجة والولد .

ومثل هذه الكلمات والأقوال ، لايسعنا إلا أن نقول إنها « تصوف » أو ألفاظ لمعان حقيقتها غير ظاهر ألفاظها .

وكثيراً ما تأتي أقوال المتصوفة على صورة من الابهام ، بالنسبة لبعـــد مابين منظورهم بالبصيرة ، والحس الروحي ، وبين مايرى من الاشياء المحسوسة ، ولها قوالب ألفـاظ مألوفة تدل على معناها ، بعكس المرئي ، والمشاهد في الحس الروحي ، ومواجـد أهل التصوف الذوقية ، التي يقصر مالدينا من الألفاظ عن تصويرها والدلالة عليها . فالتصوف يجب أن نفهمه ، أنه مذهب حكماء وعقلاء « تريضوا » أي هـذّبت ولطّفت جسمانهم الرياضة ، وكثر منهم النظر في الاشياء ، والتطلع الى حقائقها، وفهم كنهها، عن طريق الحس الروحي والانفعال في النفس المتعلقة في الجسم موقتـاً . فهم فيما كانوا يرون ، ويقولون في مواجدهم ومشاهدهم وذوقهم ، إما أن يراه من كان من غير طبقتهم ، غير معقول وغير مفهوم ، وإما ان يسيء فهم معناها إذا أخذه على ظاهر لفظه .

كان بحث جمال الدين في التصوف ، وفي أن الأديان الثلاثة متفقة في المقصد والغـاية ، وأن غرضها تعليم التوحيد ، وأن تعمل لخير الانسان ، في محفل حافل في بيته ، وكان من جملة الحاضرين طبيب السيد « وهو موسوي » ، فبعـــد أن انفضّ المجلس ، قال الطبيب : ياأستاذ إن النصرانية لاتعلم التوحيد، بل أساسها قائم على التثليث ، بعكس الموسوية والإسلام. والإنجيل طافح بمثل أقوال المسيح « أنا في الآب والآب فيّ » ، ومثل قوله : « أيها الاب مجّد ابنك ليمجدك ابنك أيضاً » . .

فقال جمال الدين : إن المسيح عليه السلام وضع أساس تعليمه والغاية من مجيئه ، أن يكمل الناموس لا أن ينقضه ، وناموس موسى بني على التوحيد ، فلا يصح نقض ذلك الاساس ، وإن ورد بعض الأقوال مايخالف في ظاهرها ذلك الاساس ، وجب الرجوع الى التأويل كما قدمنا ، وأن لا يرمى أي دين بالضعف والوهن .

وأما أمثال قول المسيح « أنا في الآب والآب فيّ » ، فقد ورد عنه قوله أبي وأبيكم « وكلهم أبناء الله يدعون » ، وفي التوراة كما ذكرنا جاء « إسرائيل ابني البكر » وهذه الأقوال كلها تصوف محض .

وورد في كلام أهل التصوف من المسلمين أقوال مغلقة ، مثل قول الشيخ الا كبر ، محي الدين بن عربي ، والخواص ، والجنيد ، والحلاج ، والجيلي ، وابن مشيش ، والسهروردي والبكري وغيرهم ، وإليك أمثلة من ذلك :

يقول الشيخ الا كبر في بعض صلواته « اللهم يامن ليس حجابه إلا النور ولا خفاؤه إلا شدة الظهور ، أسألك بك في مرتبة إطلاقك عن كل تقييد ، التي تفعل فيها ماتشاء وتريد ، وبكشفك عن ذاتك بالعلم النوري ، وتحولك في صور أسمائك وصفاتك بالوجود الصورى » .

وقول السيد البكري : نعم العبد الذي به كمال الكمال ، وعابد الله بالله بلا حلول ولا اتحاد ، ولا اتصال ولا انفصال . قال :

ترون من هذه الكلمات المتناقضة ظاهراً ، انما أراد نفي الحلول الذاتي فأتى لذلك بنفي الحلول أولاً ، وإلا كيف يعقل لو بقينا على مفهوم الظاهر من معنى الكلمات ، أن المتصل بالوقت ذاته يكون منفصلاً .

فمعاني التصوف ، وإن كانت مغلقة في الغالب ، لا يفهمها إلا أصحاب الذوق والمواجد ، ويعسر على غيرهم تناول فهمها ، فلا بأس من التقريب في التأويل لينتفي غير المعقول .

وخير مثال يقرّب للعقل المفهوم في مثل هذه الحال والاقوال « المرآة » التي تمثل الشيء تماماً ، فيُفتح بهذا المثل بعض مغلقات ما ذكر من كلام المتصوفة ، فاذا قابلت

المرآة الشمس ، رأيتها في المرآة ، ولا يعتري الإنسان أدنى شبهة أنهـا « الشمس » على غير طريقة الحلول في المرآة ، ولا على صورة الاتحاد أو الاتصال أو الانفصال .

وحقيقة ذلك المرئي من الشمس إنما تجلى في المرآة « لشفافيتها » وبتلك الشفافية حصل ذلك الانطباع على تلك الصورة ، على غير حلول ولا ... ولا ... إلخ .

ومن الأمثلة : قول ابن مشيش : « وانشلني من أوحال التوحيـد وأغرقني في عين بحر الوحدة ، حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلاّ بها ، واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي وروحه سر حقيقتي وحقيقته جامع عوالمي بتحقيق الحق الأول ، يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن .. » الخ .

وقول الحلاج : « ما في الجبة غير الله ! » .

ثم قال : إذا علمنا أن تجلي الشمس في المرآة حصل لشفافيتها ، هكـذا تجلي الذات في خلقه عندما تتلطف الكثافة الترابية الجسمانية ، وتشف الروح ، وتتمكن من اتصالها بعالمها ، ترى من الذوق في الشهود ، ما لا يسعـه إلاّ التعبير بالمتناقضـات ظاهراً كما تقدم وليس ثمة تناقض .

وكلام المسيح عليه السلام ، إن هو إلاّ غاية في التصوف ، ولا يصح حمله ، أو فهمه على صورته الظاهرية . وإلاّ لانتقض أساس الناموس الموسوي ، الذي إنما أتى ليتممه فلا يصح أن تنزل التوراة على موسى من عند الله « بالتوحيـد » وينزل الإنجيل من عند الله على عيسى « بالتثليث » .

وصريح أقوال المسيح في جوهر الاعتقاد أكبر دليل على صحة ما نقول من أن الأديان الثلاثة متفقة في المقصد والغاية .

المسألة الشرقية ومرثاته في حلها ، وتبجيله لفكرة السلطان محمد الفاتح ، والسلطان سليم باتخاذ اللسان العربي لساناً رسمياً والأخذ بتعميمه .

مختصر المسألة الشرقية ، هي عراك بين الغربي والشرقي ، وقد لبس كل منها لصاحبه درعاً

من الدين . فالغربي تذرع بالنصرانية ، والشرقي بالاسلامية . وأهل الديانتين كالآلة الصماء بأيدي محركيها .

فالقائمون بالنصرانية يسخّرون الدين لأجل الدنيا ، ويحسنون أمر دنياهم وما تتطلبه مظاهر الحياة. والعاملون بالاسلامية يسخّرون الدنيا لأجل الدين ، وإذا هم لم يعملوا بأحكامه يخسرون الدين والدنيا معاً .

إن فتح القسطنطينية — تلك العاصمة الصماء — من قبل السلطان محمد الفاتح سنة ٨٥٦—٨٥٧ هي التي ولّدت الحقد في الملوك المسيحيين ضد المسلمين وأخذت من ذلك الوقت تجمع كيدها وتحصر همها لمناصبة الدولة العثمانية ، وتعمل على إذلالها وتضعضعها ، وإخراجها من فتوحاتها الاوربية بكل وسيلة ، وفي كل سانحة وفرصة .

والأكثر في الحروب والتغلب ، والانتصار فيها ، إنما يكون بالقوة وبالعلم ، ولو أن الدولة العثمانية راعت من يوم تأسست ، أو من يوم ما استقلت به سنة ٦٩٩ وراقبت حركات العالم الغربي ، وجرت معه حيثما جرى في مضمار المدنية ، والحضارة ، وقرنت إلى فتوحاتها المادية القوة العلمية ، على نحو ما فعلت اليابان أقله .

نعم لو فعلت ذلك لما كان ثمة مسألة شرقية ، أو لما ظهر ذلك التباين الذي لا يثبت معه الحكم طويلاً ، وهو تحكم الجهل بالعلم ، أو « حكومة جهل تحكم حكومات علم » ولا يتسنى اليوم للسيف المجرد أن يحكم بأمة يدافع عنها مدافع العلم ، وما مسألة الدين إلا ذريعة ، تظهر بعد استكمال القوة للوصول لتلك الغاية ، وهي دفع الجهل والحكومة الجاهلة ، عن الحكم بأمة عالمة لها تاريخها ولسانها وآثارها ، ولو كانت بالية .

وإذا كان للضغينة الدينية شيء من الدخل في إيجاد المسألة الشرقية ، والاحتفاظ بها ، فإنها ليست هي كل أسباب المسألة ، بدليل أن سلاطين آل عثمان فتحوا وتوغلوا وضموا الممالك ، وكانوا يدينون بالاسلام .

ومن دخل في ملكهم ، وتحت سيطرتهم ، كانوا نصارى وأشد تمسكاً بالنصرانية مما هم

الآن . فلو كان أمر الدين هو الباعث على هذا الحقد والمناهضة ، لكان الأولى أن يظهر إذ ذاك ، وعدم ظهوره بل رضوخ الطوائف والأمارات النصرانية للحكم العثماني الاسلامي ، أكبر دليل على أن مسألة الدين لم تكن هي وحدها الفاعلة في أمر المسألة الشرقية ، التي امتدت وستمتد إلى غير تركيا، وستعم كل قارة وكل حكومة تتفق في شكلها وحكمها وتفريطها مع حكومة تركيا .

وإذا تفحصنا عوامل تغلب الدول الاسلامية على الحكومات النصرانية لوجدناه منحصراً « في القوة والعلم » .

وهكذا يدول أمر الدول انتصاراً وانكسارا .

والدول المسيحية اليوم إنما يغلبون الحكومات الاسلامية بالعلم مصدر القوة ، وينغلب المسلمون بالجهل مصدر الضعف .

علم الأتراك يوم تسنّى لهم فتح الممالك « علم الحروب وتعبئة الجيش »؛ وجهل الاوروبيون ذلك ، ولم يضارعوهم فيه ، فانتصر الأتراك ، وانكسر الفرنجة .

التزم الأتراك والسلاطين العظام منهم جانب الدين وكان على منصة المشيخة الاسلامية علماء أعلام ، وفقهاء ، وأجلاء عالمون ، عاملون بحقيقة وأحكام الاسلام ، يصدر السلطان وأكابر دولته عن رأيهم ، وينزل على حكمهم ، فعدلوا في الرعية ، وأمنوا من دخل في ذمتهم ، وسهّلوا لهم الصعاب ، وحافظوا على جامعاتهم من دين ، ولسان ، وعادة ، فرضخ المستعمرون من الطوائف النصرانية لقوة العثمانيين وعدلهم وعلمهم ، بالنسبة لجهل غيرهم في تلك الأعصر .

فظل النصارى في طاعة العثمانيين ، وظلوا في كل المعاني رعيـــة لهم ، ما دامت تلك المؤهلات والصفات في الفريقين : القوة والعلم في الحاكم ، والضعف والجهل في المحكوم .

حتى إذا انعكس الأمر ، وبان الجهل مصدر الضعف في الأمة الحاكمة وظهر العلم مصدر القوة في الأمم المحكومة ، نهضت للتخلص من ربقة الاستعباد لمن دونهم في العلم ، واستبسلت في الرجوع لحكم ذاتها بذاتها .

وقد سهل عليهم كل صعب في هذا السبيل ، إقرار الدولة لهم على جامعاتهم الكبرى ، من دين ولسان وتاريخ ، تلك النعمة التي كانت وتكون على الدولة أكبر نقمة . ولا مناص لها من تحمل أعباء ذلك ، وهي سنة الوجود . لأن الأمم المحكومة إذا تيسر لهـا المحافظة على جامعاتها من دين ولسان وتاريخ ؛ ولم تستحل ، وتنحلّ في غير عنصرها ، فهي أرقب الناس للفرص وأعلق الخلق بإعادة مجدها وتجديد وإعادة سيرتها الاولى . ولن يثنيها أشد العوامل عن المطالبة بها . وتزداد نشاطاً وتستمد قوة معنوية كلما آنست من حاكمها المستهين بها استطالة بغير حق ، واستهضاماً لحقها بغير وجه مشروع وبقهر ليس له من الانصاف نصيب ، وبقتل يحيي ميت العزائم .

ثم قال:ومن ينظر إلى تاريخ الدولة العثمانية ونشأتها لا يتمالك نفسه من الإعجاب بنشاطها، وكثرة ما فتحته من الممالك ، وأخضعت لسلطانها من الأمم .

ويأخذ به الاستغراب كل مأخذ ، من تفريطها وعدم جريها مع أحكام الزمن،وحرمانها نفسها ومن دخل في حكمها من الأمم ان تجري وإياها في ميدان الحضارة ، أو أن يبقى لها أثر من الآثار ، في تلك الممالك والامصار .

نشأت في الجيل السابع للهجرة ، أو آخر القرن الثالث عشر الميلاد بآسيا الصغرى . فاستخلص السلطان عثمان الاول ما بيد السلجوقيين من الملك وهو القسم الشرقي ومشوا على ما بيد الروم من القسم الغربي .

وقد حول العثمانيون أنظارهم وصرفوا قوتهم ، وهمتهم إلى شبه جزيرة البلقان تلك البقعة الغريبة في وضعها الجغرافي ، إذ وقعت في أقصى الجنوب الشرقي من أوروبا ، وإلى جانب آسيا . وبعد انقسام المملكة الرومانية إلى شرقية وغربية ، كانت شبه جزيرة البلقان في المملكة الشرقية ، وفيها غير تركيا ، اليونان ، والصرب ، والبلغار ، ورومانيا ، والجبل الأسود ؛ ولكل من هؤلاء الأمم عنعنات ومطامع وعروق وأنساب ، ونزعات طائفية ، واختلافات مذهبية وأميال سياسية ، كانت معها البلقان في سائر الأعصر مهد الفتن والقلاقل ، ولا تزال كذلك ، وسيعم بلاء البلقان أهله ، ويتعدى إلى ما سواه من الممالك .

لأن كل دويلة من هذه الدويلات الصغيرة تطمع في تكبير حوزتها ، وهذا الكبر لا يتم إلا بتصغير جارتها ، أو بابتلاعها ومن وراء هذه المطامع في حكومات البلقان وابتلاع بعضهم بعضاً ، الدول الضخمة كروسيا والنمسا ومن ساعد على استقلالهم وإخراجهم من الحكم العثماني وهم بمساعدة البلقانيين على الاستقلال إنما يريدون أن يبتلعوه ويملكوه جزءاً بعد جزء، وستكون الحجة عنصر السلاوي والصقلبي ، وكانت الحجة من قبل تخليص النصرانية من الحكم الاسلامي . والصحيح ، قويّ يحاول اقتناص وابتلاع الضعيف .

ثم قال : هذا بحث يطول ، ولنعد إلى ما كنا فيه من النظر إلى ما ترك العثمانيون من الأثر فيما افتتحوه من الممالك .

افتتح السلطان مراد الثاني بلغاريا سنة ١٣٨٢ م وبقيت تحت حكم العثمانيين وفي حوزتهم نحواً من أربعة أجيال ، والبلغاريون قوم أشداء وأصلهم من المغول مثل المجر والفنلنديين ، نزحوا من جهات قازان في روسيا أوروبا ونزلوا بلاد البلقان في الجيل السابع الميلاد ، وهي من أول نشأتها ألفت الاستقلال وحافظت على مكانتها ، وكانت دولة البيزانطيين تخشى بأسها ، ثم أخذت في التقهقر فافتتحها الروسيون ، ثم ناهضتهم وأعادت استقلالها في القرن الحادي عشر ، ثم دخلت في حوزة الروم وصارت جزءاً من المملكة الرومانية الشرقية ثم استقلت ثالثة ، ولم يفقد البلغاريون استقلالهم أربعة أجيال إلاّ مع العثمانيين ، وماذا فعلوا مع البلغار في مدى تلك الاجيال ، وأي أثر عثماني تركوا في بلغاريا ؟ لا شيء ؟ بلى !! تركوا لهم جامعاتهم الكبرى ، من دين ولسان وتاريخ يسيرون مع الحضارة والمدنية مع السائرين ، وحكامهم الأتراك من القاعدين ، مكتفين بالفخفخة والغطرسة والفخر بالأسلاف .

هذه أربعة قرون ، وبلغاريا تحت حكم العثمانيين ، وهي لا تزداد إلاّ انحطاطاً حتى إذا ما صارت أيالة ممتازة بموجب معاهدة برلين ، نهضت ، وقطعت شوطاً بعيداً في الحضارة والعمران والترقي ، وصار لها جانب يخشى حتى من الدولة العثمانية .

أما الصرب فهي أيضاً من فتوحات مراد الثاني سنة ١٣٨٩ وبقيت كذلك في حوزة العثمانيين أكثر من أربعة قرون ، وقد حاولت التخلص من حكم العثمانيين مراراً ، وآخر

ثورة قام بها الصربيون دامت أربعة عشر عاماً نال بها الصربيون من الباب العالي نوعاً من الاستقلال . وسنة ١٨٧٨ استقلت تماماً بمقتضى معاهدة باريز ، ولحقت بجارتها بلغاريا .

وكذلك اليونان فقد أخضعتها الدولة العثمانية مع من أخضعت من ممالك البلقان وظلت في حوزتها وتحت حكمها إلى سنة ١٨٢٩ فاستقلت بمناصرة أوروبا وبعد حروب طويلة دامت سبع سنين، واشتركت فيها العمارة المصرية بقيادة ابراهيم باشا إذ أرسلها محمد علي باشا الكبير إلى الموره . الأمر المعروف .

أما رومانيا وكانت في القرن الثاني عشر عبارة عن امارتي فلاخيا، ومولدافيا وقد خضعوا للعثمانيين وكانوا يؤدون الجزية من سنة ١٣٩٢ إلى سنة ١٧١٦ . ثم بعد ذلك دخلوا تحت سلطة الحكم العثماني، ثم احتلت روسيا البلاد وأعادت لهم امتيازاتهم التي كانت لهم وخسروها من سنة ١٧١٥ ثم كانت ثورة سنة ١٨٦٦ وانتهت باختيار الرومانيين البرنس شارل دي هوهنزلرن الالماني .

ثم قرر مؤتمر برلين استقلال الولايتين « المعروفتين بالفلاخ والبغدان » استقلالاً تاماً ودعاها باسم رومانيا ، وفي سنة ١٨٨١ جعلت الامارة مملكة ونودي بأميرها ملكاً .

أما الجبل الاسود ـ وله من اسمه نصيب ـ فهو مقاطعة صغيرة ، جبلية وعرة ، لا تزيد مساحته عن ٣٦٣٠ ميلاً مربعاً وسكانه مئتين وسبعة وأربعين ألفاً، وهم من العنصر الصقلبي، وأكثرهم فلاحون رعاة،على غاية من شقاء العيش؛ هذه الامارة الحقيرة قديمة العهد بالاستقلال ولم يرضخها ، ويفتتحها من العثمانيين إلاّ ذلك السلطان العظيم سليمان القانوني ، الذي وصلت السلطنة العثمانية في عصره إلى منتهى المجد والعظمة .

ولما كان الجبل الاسود على ما ذكرنا من الفقر والوعورة ، وأهله أولي بأس وشدة ، واستبسال في الدفاع عن استقلالهم ، فكانت الدولة تعد الجبل من ولاياتها ، والجبليون من حين لآخر يجاهرون بالعصيان ، حتى إذا حملت عليهم جيوش العثمانيين يتظاهرون بالرضوخ وهكذا من سنة١٥٢٦ إلى زمن البرنس نقولا « وهو ملك الجبل الحالي » ظل معترفاً بسيادة الدولة إلى سنة ١٨٦٢ ثم جاهر بالعصيان والتمرد ، حتى إذا كان مؤتمر برلين، « ذلك القضاء

المبرم » على الدولة ، فقد أعلن استقلال الجبل الاسود والتحق باخوانه أمراء شبه جزيرة البلقان ، وتخلصوا من حكم آل عثمان .

هذه هي شبه جزيرة البلقان التي افتتحها العثمانيون ، وبقيت في حوزتهم وتحت سلطانهم الاجيال ، فماذا أحـدثت في تلك الممالك من آثار العمران ؟ وماذا تركت في تلك الشعوب من الذكرى ؟ وماذا أعدّت من الحزم والرأي والتدبير لبقاء تلك المقاطعات والامارات في حوزتها ؟ وإذا كان الجواب « لا شيء ». حينئذ يضطرنا الانصاف إلى أن نقول : ان الدولة العثمانية في فتوحاتها ، وما شاهدناه من تفريطها ، لم تكن لتحسن الاستعمار بل بقيت ســداً منيعاً للأمم المحكومة منها ، يحول بينها وبين الاخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الامم الراقيـة في مـدنيتها وعلومها وصنائعها . شعوب من ذكرنا من ممالك البلقان يزيدون عن السبعة عشر مليوناً . ولـكل أمة ومملكة، جامعات ومميزات ، من تاريخ ودين ولسان، وعادات وأخلاق، وهي في كل هـذا ، على طرفي نقيض مع العثمانيين الاتراك ، فلو أخذت الدولة بالحزم بعـد الفتح ، وعملت بصائب الفكر والرأي ، لعلمت أن بقاء تلك الممالك في حوزتها يحتاج لإيجاد جامعات تجمعها مع شعوبها فتعمد إلى وسائل تعميم لسانها ، بإحداث دور علم وغيرها ، حتى إذا استطاعت وتسنى لها في ظرف جيل أو جيلين أن تعمم لسانها ، كان لها إحـدى العوامل الكبرى للبقاء ، ولعدم سرعـة الانفصال والتفكك . إذ يكونوا أتراكاً باللسان مثلاً ، أو بالدعوة الدينيـة كما يفعل اليوم دول الاستعمار ببث المبشرين من الانجيليين والرهبان ، وبتشييدهم « دور العلم » .

فاذا انتشرت الدعوة الدينية ، وقبلتها الأمـة المستعمرة ، اشتركوا بجامعـة ثانية ، وهي اللسان والدين ، فكان الارتباط أشد وأوثق .

وهكذا إذا فازت على مدى أربعة أجيال ، أن تعمم الجامعات التي لها بين تلك الشعوب، اشتدّت عرى الاتحاد وانتفى التغاير ، وأسباب النفرة ، أما والدولة العثمانية لم تفعل في ممالك البلقان ما ذكرنا ، ولم تفكر فيه فضلاً عن أن تسعى إليه ، فكان خروج تلك الممالك من حوزتها واستقلالهم ، أمراً محتماً وقوعه لا مردّ له (سنة الله في الذين خلوا من قبل)

ثم لننظر في فتوحات الدولة للممالك الاسلامية من مصر والشام ، حلب فبغـداد وتونس

وسائر الممالك العربية . فنراها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة والحروب . وكان لجامعة الدين التأثير العظيم في قبول الحكم العثماني ، ولو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها ، وعملت بالفكرة من عهد السلطان محمد الفاتح ، أو السلطان سليم ، بأن يتخذ اللسان العربي ، وهو لسان الدين ، لساناً رسمياً ، وتسعى بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك ، لكانت في أمنع قوة ، وآمن حصن من الانتقاض ، والخروج عن سلطانهم . ولكنها فعلت العكس ، إذ فكّرت بتتريك العرب، وما أسفها سياسة ! وأسقمه من رأي ! لأن تدين الاتراك بالدين الاسلامي ، على جهل باللسان العربي، جعل لهم في القلوب منزلة، ساقت وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين .

فما قولك لو تعربت ، وانتفى من بين الامتين النعرة القوميـــــة ، وزال داعي النفور والانقسام « بالتركي وبالعربي » ، وصاروا أمة عربية بكل ما في اللسان من معنى ، وفي الدين الاسلامي من عدل ، وفي سيرة أفاضل العرب من أخلاق ، وفي مكارمهم من عادات .

لا ريب لو تيسر ذلك لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسوراً ، وجمع شتات الممالك الاسلامية تحت لواء سلطان عادل همام مثل الفاتح ، أو السطان سليمان ، أو السلطان سليم ، غير عسير .

ولكن مع الاسف عدم قبول فكرة السلطان الفاتح ، أو السلطان سليم لتعميم اللســان العربي ، خطأ بيّنٌ ، لا يضارعه إلا توغل العثمانيين في أوروبا، وشبه جزيرة البلقان ، وجعل القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة .

لأن المستعمرة مها عظم موقعها ، وطاب هواؤها ، لا يصح أن تتخذ قاعدة أو عاصمة الملك، لاسباب أهمها، أن المستعمرة كما سيأتي بيانه كالثوب العارية قابل للاسترداد ، والممالك لا تسقط ولا تتبعثر أجزاؤها ، إلا من ضعف السلطان في عواصمها وبسقوطها .

ومنها بعد المستعمرة على الغالب عن مجموع القوة ، وإحاطتها بأعداء الملك واعوانه .. الخ.

انظر ، هل ترى دولة أوربية جعلت عاصمة ملكها في غير قلب مملكتها ، وفي غير مكان نشأة تلك الأمة .

فالانكليز لم يجعلوا عاصمتهم – مع سعة ملكهم – إلاّ جزيرة بريتانيا وفي قلبها مدينة «لندن» وهي الجزيرة التي سكنها البريتانيون ، في دور توحشهم .

والفرنسيس ، في باريس ، قلب بلاد الغاليين .

وهكذا بقية الدول ، لأنه على تقدير ذهاب المستعمرات كلها ، وانتقاضها فانه يبقى من البلاد ما كان لهم ملكاً خاصاً .

وعلى هذا جرى الخلفاء الراشدون ، فمقرهم كان المدينة وهي قلب البلاد العربية ، محاطة بقوة العرب من سائر الجهات .

ثم الأمويون ، ففي الشام .

ثم العباسيون ففي بغداد ، والعاصمة أنشأها المنصور إنشاءً وكان في ملكهم من المدن ما هو أطيب هواء ، وأمنع موقعاً من بغداد ، ومع ذلك فلم يستبدلوا العاربة بالملك الصرف .

نعم إن فتح القسطنطينية فيه من الفخر للفاتح ما لا يمحوه الدهر ، خصوصاً بعد أن حاوله الأمويون وبعثوا بالجيوش تحت قيادة يزيد ، ومعه خالد أبو أيوب الانصاري صاحب المقام المعروف بالسلطان أيوب ولم يظفروا . ثم العباسيون ، واكتفى الرشيد ومن بعده بأخذ الجزية من ملكها . وغيرهم من ملوك الإسلام ، ولم يظفر بالفتح وبمعنى الحديث الشريف « لتفتحن القسطنطينية ، فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش» إلاّ ذلك الفاتح العادل الكبير السلطان محمد طيّب الله ثراه .

ولا أرتاب أن فتح القسطنطينية لو تيسر للأمويين أو للعباسيين، لما جعلوها عاصمة ملكهم. بل جعلوها كما جعلوا غيرها من الممالك ، مستعمرة تتقوى المملكة بجباية الأموال منها،وفوضوا أمر إدارة شؤونها لأحد الدهاة منهم كما فوضوا مصر ، والاندلس ، والسند ، وبخارى ، وبلاد الفرس وغيرها للمقتدرين من العمّال ، وهذا هو الحزم ، وغاية الصواب .

وأما شبه جزيرة البلقان ، فان كان في ظاهر أمر فتحها من الأتراك ما يدل على القوة والبأس ، فان في حقيقة الأمر كانت مصدر بلبال الدولة ، وإضعاف قوتها إذ لم تسكن فيها

القلاقل ، والفتن ، ولم تفتر الدولة من تجييش الجيوش ، وإراقة الدماء في سبيلها ، كل ذلك وبالنتيجة كان البقاء في البلقان غير مضمون ، بل كان استقلال ممالك البلقان مجزوماً فيه من كل عاقل .

قال : ولقد سمعت من المرحوم عالي باشا ذلك الصدر الأعظم الكبير العقل النافذ النظر، وهو يعتقد أن داء البلقان سوف يضعف جسم الدولة ، وسوف تضطر مكرهة على التخلي عن البلقان ، بعد خسارات مادية ومعنوية لا يمكن تعويضها . وأنه وجد طريقة للتخلص من البلقان ، مع حفظ شرف الدولة ، والاستعاضة عنه بمبالغ جسيمة يمكن إصلاح بقية المملكة بها . وتعزيز قوتها في آسيا ، وافريقيا .

وياللأسف كيف أن هذا الرجل الكبير لم يتوفق لتحقيق هذا الفكر السليم ، والعمل الذي فيه كل خير ، وكان أمر الله مفعولاً .

فلو فعلت الدولة ، وأخذت برأي عالي باشا وغيـــيره من حكماء الوزراء ، أو بالذي تصورته لها من أنها تتخذ بغداد عاصمة ملك ، ومقر الخلافة . وعندها الدجلة ، والفرات ، والخابور ، والبصرة وشط العرب ــ ذلك النيل الذي يفيض كل أربعة وعشرين ساعة مرة . وتلك السهول الخصبة التي على جانبي وضفتي ذينيك النهرين العظيمين ، والتي مساحتها عشرة أضعاف أراضي مصر على أقل تعديل ، وأعظم منها خصباً ، وأكثر إنباتاً .

ثم قال : رحم الله محمد علي باشا ذلك الأمي الكبير ، نابغة رجال أعصـار وأجيال ، فقد طوى تحت جبته هماً تدكدك الجبال ، وقلباً يقدم به على هائل الأعمال ، وتحت عمامته دماغاً فعالاً ، وعقلاً جوالاً ، وبصراً نافذاً ، وفكراً ثاقباً ورأياً صائباً .

بلغ الرجل من حدة الذهن ، وفرط الذكاء والدهاء ، وبعد النظر ، أنه بعد أن حسّن خراب مصر تحسيناً بيناً ، ونظّم ما اختل من أمورها ، واستنهر النيل للقنـــاطر الخيرية . ومنها يجري في الجداول والترع . عرض على الباب العالي والتمس من السلطان أن يعيضه بالبصرة عن مصر . وأنه يعد إسعاف هذا المسئول منةً وفضلاً فتأمل ؟؟

هذا الرجل العظيم ، لو لم يعلم يقيناً أن البصرة خير من مصر ، لما طلب ما طلب . هذه هي البصرة ، وأما الموصل « ذات الربيعين » فما شئت عنها فقل .

ثم إذا علمنا أن المسافر من بغداد في عصر الرشيد كان يمشي في ظل الاشجار حتى يبلغ غوطة دمشق ، ومصب نهر « قويق» في حلب . ثم إذا اتجه من هناك للشمال ورأى سيحون وجيحون يجريان في سهول أطنه ، وفي الجنوب عند دمياط ورشيد ، والاسكندرية يصب النيل المبارك ، وان كل تلك الممالك والأمصار والأنهار ، هي ملك خاص المسلمين، لا ينازعهم فيه منازع إلا أولوا القوة من أهل المطامع ، ونزاعهم بالختل والخداع ، وبالحيلة والمكر ليس إلا .

فلو أنصف الأتراك أنفسهم ،وأخذوا بالحزم واستعربوا ، وترأسوا ذلك الملك ،وعدلوا في أهله ، وجروا على سنن الرشيد ، أو المأمون على الأقل ولا نقول على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين . فمن كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة ؟ أو أعز جانباً ؟ ، وأمنع حوزة ؟ من ؟؟ ولكن الأسف ، إن إخواننا الأتراك لم يحسنوا من أعمال الدنيا غير الحرب، وهم فيما عدا ذلك ، وفيما يختص في شؤون العمران أقل روية وعملاً من سواهم ، يسوؤني وأنا ممن يحبهم ، وأتأثر كلما افتكرت بما ارتكبوه من الخطأ في عدم قبولهم اللسان العربي ، وأن يستعربوا وأزداد تأثراً إذ أراهم يرتكبون خطأ أفدح ، وهو جريهم وراء تتريك العرب واستبدال اللسان العربي لسان الدين الطاهر ، والأدب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر، باللسان التركي !!

وذلك اللسان الذي لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية ، لكان أفقر لسان على وجه الأرض ، ولعجز عن القيام بحاجيات أمة بدوية . ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسنة لما رأينا للأتراك شعراً يقرأ ، أو منثوراً يفهم ، أو بياناً يترجم عن جنان . وهو في حالته هذه إذا وزن مع لسان من الألسنة الحيّة ، تجده قد خف وزناً ، وانحط معنى .

فكيف يعقل تتريك العرب ، وقد تبارت الاعاجم في الاستعراب وتسابقت ، وكان اللسان العربي لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر ، فالأمة العربية هي « عرب » قبل كل دين ومذهب ، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان ، مالا يحتاج معه إلى دليل أو برهان . ثم قال : لقد كاشفت السلطان عبد الحميد في أكثر هذه المواضيع في خلوات عديدة فكان يسمع بكل إصغاء ولكنه في النتيجة كان قليل الاحتفاء بكل ماقلته

له وفهمت من أوضاعه ، وأساريرِ وجهه أنه لا يعتقد أن قبول اللسان العربي ،وفكرة الفاتح والسلطان سليم بذلك صواباً ، وكذلك لايحب أن يعترف أن توغلهم في أوروبا وفتح شبه جزيرة البلقان كان خطأً ، نعم إن زمن العمل قد مضى وانقضى ، وكان الحزم في إخراج تلك التصورات لحيّز العمل ، والدولة العثمانية إبّان عزها واستكمال قوتها وبأسها أما اليوم فالأمر للقوة والطاعة على الضعيف ، وليس باستطاعة عبد الحميد أن يفعل ما كان بامكان السلطان الفاتح ، أو السلطان سليمان ، أو السلطان سليم أن يفعله . قال : فحولت وجهي عن مالايمكن ، إلى مايمكن وفيه وقاية مابقي من أملاك السلطنة العثمانية في غير أوروبا .

فقلت للسلطان عبد الحميد ، أتأذن في تقديم لائحة في تصوراتي ، لتحسين حال المملكة ، والتحوط بصونها من مطامع الاعداء ؟ قال :

لا أريد أن تكتب شيئاً من ذلك . إذ لا أحب أن يطلع أحد على مايدور بيننا ، بل قل لي ما تشاء أن تكتبه بكل حرية ، وصراحة فأنا لك من السامعين .

قلت : أيعتقد جلالة السلطان أن مصر لو بقيت ولاية ترسل اليها الولاة من الاستانة مثل باكير باشا ، ومحمد باشا اليدكشي وأمثالهما ، لجمع الأموال من غير وجهها ، وتوزيعها على رجال الدولة هنا « الاستانة » فقط على ما هو مشهور ، وغير خافٍ على جلالتكم .هل هو خير لمصر وأهلها ، وللسلطنة . أم جعلها خديوية كما هي قبل الانكليز ، خاضعة للدولة ، ومن الاجزاء المتممة للسلطنة يأتمر خديويها بأمركم ، والعساكر المصرية عثمانية تسرع لتلبية الأمر باللحاق مع جيوش السلطان ، وبكل المعنى ، رعية خاضعة طائعة ؛ فتفكر ملياً ، وحول وجهه نحو النافذة عني ، حتى ظننت أن الحديث قد أساءه ، وانه لايحب الخوض فيه ، ولا العود اليه . وإذا هو بغتة قد التفت ، وتوجه بكليته إليّ وكأنه قد انتهى من ذكرى ما جرى من محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا ، وكيف أنه كاد أن يستخلص السلطنة العثمانية فتحاً بالقوة . وقال : لو قلنا أن وجودها خديوية أحسن من بقائها ولاية ، ثم ماذا ؟ .

قلت يامولاي ! إن السلطنة العثمانية تتألف اليوم من ثلاثين ولاية ومساحة أملاكها في آسيا فقط ستمئة وواحد وستين ألف ميل مربع (ومساحة بريطانيا وإيرلندا مئة وعشرون ألف ميل فتأمل !!) فتبدأ بالبعيد منها والمطموع فيها ، مثل طرابلس الغرب ، فتجعلها خديوية

ثم إلى ولايات بغداد ، فالبصرة، فالموصل فتجعلها خديوية ؛ وإلى بيروت، وسورية ، وحلب، مع القدس فتجعلها خديوية ؛ ثم إلى جزائر بحر سفيد و كريد مع ادرنه وسلانيك فتجعلها خديوية ؛ ويشترط عليها تعزيز المهارة البحرية قبل كل شيء؛ ثم الحجازفتجعل خديويها الأقدر من الأشراف الهاشميين اليوم ، والأحسن سيرة . ثم اليمن وخديويها يكون الإمام الزيدي .

أما الاناضول وولاياته قونيه ، انقره ، آيدين ، اطنه ، قسطموني ، سيواس ، دياربكر بتليس ، ارضروم ، معمورة العزيز ، وآن ، طرابزون ، فتقسم إلى ثلاث خديويات ، يكون لكل خديوية منفذ بحري : الواحد على البحر الأسود إما في سيواس ، أو سامسوم ؛ والثاني في بروسه ؛ والثالث في ازمير . وبلاد الالبان ، وهي ولايات قوصوه ، ويانيه ،واشقودره ، ومناستر ، فتجعلها خديوية أيضاً . هذه يامولاي عشر خديويات بل عشرة ممالك ، كل واحدة منها ، أعظم موقعاً من اليونان ، وأكبر مساحة وأخصب أرضاً وأنشط قوماً وأرجح عقولاً وما يقعدهم عن اللحاق بمن انفصل عن السلطنة العثمانية ، أو التفوق عليهم ، إلا شكل الحكم وقيود وأغلال المركزية القاتلة للهمم ، الموهنة للعزائم .

ومن يرسل لتلك الولايات من الولاة اليوم ، أحد رجلين : إما الخامل البليد المرتكب، وهمه جمع المال ، وتوسيع الخراب . وإما الرجل النشيط ، العاقل ، وليس له من الأمر شيء، إلا الاستئذان من الباب العالي لترميم جسر في بغداد مثلاً سقط منه حجران أو أكثر ، فلا يصدر الإذن إلا بعد أشهر أو أعوام ، وبعد أن يكون طغيان النهر قد جرف كامل الجسر.

وهذه الخديويات يامولاي ، أول من تفوضها إليهم ، أهل بيتك من أمراء آل عثمان ، فتخلصهم من القعود مع النساء ، وتربية الخصيان ، فيحسّن بالضرورة كل منهم ماتولاه من أجزاء السلطنة ، ومصير ذلك التحسين والخير اليه ولأسرته ، ويكون مع كل أمير وزير فاضل أمين .

ثم لا أرى مانعاً يمنع من العهد ببعض الخديويات إلى من عُرف من الوزراء ، بالاخلاص والهمة ورجاحة العقل ، ومن غير الوزراء أيضاً ؛ وجلالة السلطان إذا شاء وفتش عنهم ، وجدهم في غير حاشيته ، الذين يدخلون على بلاطه ، ولحضوره ، ويحشون آذانه بالباطل ، ويمنعون عنه كل حقيقة ، ويقصون عن قربه كل فاضل .

ثم قال : وقد رأيت السلطان ، وهو على تمام الإصغاء لما أقول ، قد تقطب وجهه، وعلته كآبة امتعاض وحزن . فقلت :

يامولاي ! وعزة الحق ، وبولائي لأمير المؤمنين ونصحي المسلمين ! أن ما ساقني لما قلته إلا الإخلاص ، والحرص على ملكك ، والغيرة على الدولة والممالك الاسلامية الشرقية ، التي ليس لجمع شتاتها وتوحيد كلمتها ، إلا الاعتصام والانضواء تحت لواء الخلافة .

وجلالتك ترى أن أجزاء السلطنة أخذت تتفكك ، الجزء بعد الآخر فصار من الواجب نظم الممالك ، وأجزائها ، بسلك من النظام ، أوثق وأشد وأحكم . وما وجدت ذلك السلك إلا بذلك الشكل الذي قدمته . ولما انتهيت ، هزّ السلطان رأسه ، وتناول لفافةً من التبغ، اسرع في تدخينها وقال : ماذا تركت ياحضرة السيد للسلطان ، وما أبقيت لتخت آل عثمان ؟

قلت : يبقى جلالة مولاي السلطان ، ملك أولئك الملوك ، وينضمُ إلى العرش العــثماني عشرة عروش غير عرش مصر . ثم متى نهضت تلك المقاطعات والخديويات،وأخذت نصيبها من الرقي والعمران ، وصارت « مثلاً » خديوية العراق مثل خديوية مصر،ثروة وانتظاماً ؛ لاشك في أن إيران تسرع لمقام السلطنة العظمى ، للاتحاد معها ، إذ هي في أمس الحاجة لشد الأزر ولصون كيانها من مطامع الغرب ، الموجّه نحو عموم دول الشرق .

ثم ما أسرع الافغان ، للانتظام في ذلك السلك . سلك اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى ، والسلطنة الكبرى .

ثم ومتى تم ذلك — وسيتم إن شاء الله — هل تقعد أهل الهند ، وراجاتها وأمراؤها ، المئة وثمانين مليوناً من المسلمين ، عن نصرة الخليفة الاعظم ، واللحاق لشد ساعد إخوانهم ، ليدفعوا غارة الغرب عن الدول الاسلامية في الشرق ، وعن هندهم أيضاً ، أو ينهضون نهضة الرجل الواحد للتخلص من ربقة الاستعمار والمستعمرين ، ويرجع الشرق للشرقيين ، وما ذلك على الله بعزيز .

قال : أما السلطان عبد الحميد فكان سيء الظن ، لايأمن أحداً ، ويسيء الظن في كل أحد . فقال لي :

ياحضرة السيد هل اجتمعتم باسماعيل كمال بك في هذه الايام ؟

فانتقلت بسرعة إلى مايرمي اليه السلطان ، وهو أن اسماعيل كمال بك كان قد كُلـّف، أو تعين لولاية طرابلس الغرب ، وطلب توسيع صلاحيته ، وأن يكون له الحق في عقدقرض لتحسين وإصلاح الولاية وغير ذلك . وقد سمعته من بعض الزائرين ، وليس من نفس الرجل.

أجبت : يامولاي أعتقد أنني لا أسخر ضميري لجد العرب «اسماعيل بن ابراهيم الخليل» إذاً فما أبعد اسماعيل كمال أن يسخـّرني ، أو أن أسخـّـر له .

وما اتّبعت فيما عرضته على جلالتكم ، إلا ّ داعي النصح والإخلاص .

فلم يرد السلطان جواباًعلى ماذكرته وسردته، بل قال مثلاًتركياًوآت اسكدار دن كچتدي»، ومعناه«ان الجواد اجتاز اسكدار ، وهو مثل يضرب به الاتراك، لما فات من الا ًمر، ولا حيلة فيه.

ثم تنفس جمال الدين الصعداء وقال : هذا ما كان مني في هذا الشأن ، ياشيخ بني مخزوم، وهذا ما كان من السلطان عبد الحميد ، سلطان العثمانيين ، وخليفة المسلمين ، الذي تعنو له وجوه ما يقرب من الثلاثمئة مليون ، ينتظرون من هذه الدولة هبة ً ليحيا بها حقهم ، ويموت ويهلك باطل غيرهم .

كيف لا تذهب النفس حسرات ، وأكبر سلطان في المسلمين ، هذا موقفه من الجمود عن قبول النصح ، واصلاح الملك ، والمحافظة ، أو المطالبة بصريح حقه في أجزاء سلطته ، بل روح الممالك الاسلامية « باب الحرمين ، مصر » .

وفي صون مصر في حوزة الملك الاسلامي ، وكشف الانكليز عنها ، صون للممالك العثمانية ، وغلق لكل بلية مهيأة في المسألة الشرقية .

وعزة الحق ! إن ما كتبته عن حق مصر ، وما استنهضت من الهمم ، وما حذرت به من سوء المصير ،لو تلي على الا ًموات لتحركت أرواحهم ،ولرفرفت على أجداثهم ،ولأحدثت لا ًعدائهم أحلاماً مزعجة ، ومرائي مريعة .

كان أن لا يخلو سطر من « العروة الوثقى» إلا ّ وفيه ذكر « مصر » ، ولا براهين وأدلة على ظلم الانكليز إلا ّ ويتمثل في « مصر » ،ولا خوف من شر مستطير يفكك أجزاء السلطنة العثمانية الا ّ وراءه في التهاون في أمر « مصر » . ذلك لا ًن جرح مصـر كان ولم يزل له في جسم الا ًمة الاسلامية ، والعرب عموماً نغولاً ، وبعروقها اتصالاً .

ولا يفوتن أهل الشرق العلم بأن كل مدينة ، وكل مقاطعة إسلامية شرقيـة هي بمنزلة « مصر » وإن لم تسقط تحت حكم أهل المطامـع اليوم ، فالشراك لها منصوبة والسقوط — والعياذ بالله — قريب ؛ إلا إذا نشطت العقول، وعملت أولوا العزائم، ولمّت الأمم الشرقية شعثها ، ووحّدت كلمتها ، وطلبت حفظ ملكها بأسبابه ، وعزة الحرية والاستقلال بمؤهلاتها.

ماقرعت آذان المسلمين ، والشرقيين عموماً بالحجج القاطعة ، وهتكت أستار الطامعين بالبراهين الساطعة ، وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوساً ،إلا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد ، وأقصر طيّات المسافة في الذل والمهانة ، لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية، وله من الزمن مايؤجل معه سقوطه ، ويلمّ شعثه ، ويمدّ بعضهم لبعـض يداً ، عسى أن تكون يد الله فوق أيديهم .

ولكن يالأسف ! إن مبدأ تدهور ممالك المسلمين في الشرق ، كان من شاهـق عظيم لايمكن للحكيم الوقوف في سبيل سقوطه وهو في وسط الانحدار،أو بقربه من نقطة المركز، وذلك الشاهق العظيم ، شاهق حكمة الدين؛وإذا كان انحطاط الامم مرضاً،وله سير معلوم ، فيتعذر على الطبيب الحاذق توقيف السير ، بل غاية مايمكنه الإتيان بالملطّفات والمسكّنات ،حتى ينتهي السير ويبلّ العليل ، ويدخل في دور النقاهة ،هذا إذا لم يمت ، وكان في موته راحة. ولَميت مع الاموات ، خير من ميت الاحياء ! ولقد أحسن من قال :

ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الاحياء

ثم سألني السيد : ان كان عندي « العروة الوثقى » متفرقة ، أو مجموعة أجبته — كلا — وإنما قرأت منها قديماً أعداداً متفرقة .

ثم سأل من كان يكثر من زيارته من إخواننا المصريين ، مثل عبد السلام بك المويلحي فلم يجدها عنده ، بل وجد مجموعتين الواحدة عند ابراهيم بك أدهم ، والثانية عند أبوالنصر السلاوي أفندي ، فأخذها وأعطاني نسخة . وبعد أن تصفح صفحات منها ، ظهرت على السيد علامات تأثر عميق ، وقال :

نعم هو الحق الذي لامرية فيه ، لو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحطّ رفيع ، ولا ضعف قوي ، ولا انهدم مجد ولا تقوّض سلطان .

ولكن هو القدر فلا يغالب ، ولو كان لنصح الحكيم تأثير لما أخطأ الجاهل . ثم قال :
مصر أحب بلاد الله إلي ، وقد تركت لها في الشيخ محمد عبده طوداً من العلم الراسخ ، وعرمرماً من الحكمة والشمم وعلو الهمم ، وإني ليذهب بي العجب ، ويأخذ مني كل مأخذ عندما أرى المصريين في جمود ، وأولي الهمة منهم في قعود .

وكيف لم يتسنّ إلى الشيخ في همته ونهضته ، وله من تلميذه مثل سعد زغلول وإخوانه خير أعوان ، ولم تتألف منهم إلى اليوم عصبة حق ؟ تصدم باطل الانكليز ، وتجليهم عن الهرمين ، وتصون الحرمين ، فلم يبق في قوس الصبر منزع ، ولا في معونة الغير مطمع .

كان جمال الدين كثير الاعجاب بذكاء وفضل الاستاذ العلاّمة الشيخ محمد عبده ، وكان كلما ذكره يقول « صديقي الشيخ » وقلت « للصديق » أو قال لي « الصديق » فنفهم أن المراد بالصديق المرحوم الشيخ محمد عبده ، وكان السيد عبد الله نديم المصري في آخر أيامه يكثر من التردد إلى منزل جمال الدين ، وكأن الغيرة قد فعلت في نفسه من كثرة الثناء على الشيخ محمد عبده فقال : ياسيد ماغفلت مرة عن إضافة لفظة الصديق إلى الشيخ ، كأنه لم يكن لك بين الناس صديق غيره ، إذ نراك تنعت من سواه « بصاحبنا ، أو فلان من معارفنا » ، فتبسم عند ذلك جمال الدين وقال : وأنت ياعبد الله صديقي ، ولكن الفرق بينك وبين الشيخ ، أنه كان صديقي على الضراء ، وأنت صديقي على السراء ، فسكت النديم ، ولم يحر جواباً مع شدة عارضته ، وولوعه في كثرة الكلام ، وكان كثيراً مايدّعي الكفاءة مع جمال الدين ، فيقول نفي جمال الدين كما نفيت ، وسجن كما سجنت ، وأهدر دمه كما أهدر دمي وهكذا ، وجمال الدين يقابل كل هذا باعراض وابتسام .

ثم قال : ياشيخ بني مخزوم !! إنك ترى بين هذه الوريقات « العروة الوثقى » أمثلة تنطق ، وقضايا تصدق على الشرق وأهله ، ماداموا في تلك الغفلة ، وفي ذلك الشقاق والنفاق ، ورضاهم في الذل خوف الذل .

فالظلم إذا تغيّر في شكله ، لا يتغير في نتيجته . وتتغيّر أسماء البلدان والمقاطعات المظلومة وأهلها ولكن أعمال الظالمين لاتتبدل . وإن كان لها مبدل ، فقوة الأمة ، واجتماع الكلمة .
وهكذا القول في الصادقين الناهضين ، المجاهدين في سبيل أوطانهم وتخليص أمتهم .

والساقطين الخائنين ، إنما تختلف أسماؤهم ، وتتفق صفاتهم (سنةَ الله في الذين خلوا من قبلُ ولن تجدَ لسنة الله تبديلا) .

فاذا رأيت مثلاً نوبار باشا الأرمني يعمل على نكاية مصر وما يضير المصريين ـ وقد تبوأ رياسة النظار فيهم ـ وليس بينه وبينهم أقل جامعة ، حتى أنه لو باع مصر بأبخس الأثمان فهو الرابح ، ولا يخسر في هذا البيع ، ملةً ولا وطناً ، ولا جنساً .

فلسوف ترى من الدخلاء في غير مصر ـ بغير اسم ـ يعمل ماهو أنكى من عمل نوبار للبلاد ويكون شر آلة للاستبداد ، وإن رأيت نوباراً يعطل جريدة وطنية مثل الأهرام ، فمن كان على شاكلته في غير اسم من الشرق ربما يصادر الجرائد الوطنية ، بعد أن يزجّ في أعماق السجون أصحابها وهكذا لا تتبدل من الخائنين إلا الأسماء ، ولا من أعمال الظالمين إلا الأشكال .

ذكره الفرق بين عدل يأتيه الفاتح عن علم وحب باجراء العدل والاخذ به ، وبين مايأتيه عن غرور وإتيان العدل إذ ذاك عرضاً :

قال : لاريب أن العدل من أشرف الصفات ، وأسمى الفضائل ، إذ به حفظ المجتمع الانساني ، وعليه قوام الممالك وعمرانها ،

وإذا كان العدل فضيلة ، فلا بد أن يكون هيئة متوسطة ، بين الجور والظلم ، وبين الخرق والتسيب ، فلو تصفحنا ماوصل الينا من أقرب التواريخ تصديقاً ـ ولو شذرات ـ عن الموآبيين ، والرومانيين ، والآشوريين ، ومعاصريهم من المصريين ، وما بعدهم من التتار وغيرهم ، نجد أن الملوك في فتوحاتهم كانوا أحد رجلين : فاتح لا يهمه غير جمع الغنائم ،وسفك الدماء ، واكتساح البلاد ، يمر على البلاد مرور العاصفة الشديدة والاعصار ، فيتقلص ظله بعد موته إما لتنازع قواده وقومه ، أو لانتقاض البلاد عليهم ، وفاتح تتوفر في حاشيته الحكماء وأولوا الحصافة من الوزراء ، مع ميل منه الحكمة ، فيؤسس ملكه على شيء من العدل، فيدوم ويتداوله من بعده ، إلى أن تضعف تلك القواعد بعدم العمل بها ، أو لتحريف بمضمونها ، فتخرج عن مواضعها ، وتسقط مزيتها ، أو تنعكس النتيجة المنتظرة منها ، فيدخل الملك في في الهرم ، وتدبُّ فيه عوامل الانقراض ، وأفعلها استفحال الظلم ، وضعف العدل .

وإذا نظرنا إلى أعمال الملوك ، وما فيها من الأثر المحمود ، نرى من العدل الذي أتى وهو مقصود بذاته ، هو ذلك العدل الذي بقي أثره ، وعلقت به النفوس وطاب ذكره .

فكسرى أنو شروان ، وانحراف إيوانه ، وذلك العدل ، بذلك الانحراف ، الذي لم يدفعه إليه دافع ، ولم يحمله على إجرائه غير الحب للعدل والولوع به فطرةً ، كان أفصل وأبلغ الأمثلة لمثل الفاروق أن يكتب لعمرو بن العاص « أكسرى أعدل منا » فاستهدمه حائطاً بعد أن أخذه من اليهودي بقهر وغلب ، وبغير الرضا ، الأمر المشهور المعروف .

هذا مثال من العدل الذي بقي قدوةً ومثالاً . لأنه صدر عن حب حقيقي لمجرد العدل . وأما ماجاء من العدل في ظاهر أعمال بعض الملوك عفواً عن غير حب في إجراء العدل ذاته فقد ذهب ومضى ، مع من ذهب وقضى من الملوك ، ولم يبقَ له من المحمدة أثر ، وإن ذكر فعلى سبيل الاستدلال على التفريط ، والضعف في الحزم .

مثل ماذكر عن أحد أجداد كسرى نفسه ، قيل إن أبرويز دخل قرية من أعمال ملكه فرأى فتاة حسناء أعجبته وفتن بها ، ولكي يتقرب من فؤادها ، ويشغفها بحبه ، أمر برفع المظالم عن القرية وجوارها ، وعفاهم من دفع الخراج ، وأسبغ على تلك المقاطعة من النعم مالا يحصى . ولو قيس ماصرف من الأموال في سبيل تلك الفتاة ، إلى ثمن بيت الأرملة التي لم تبعه من كسرى ، وعفّ لها عنه ، كان كنسبة الدانق للمليون ، ومع ذلك فربما كان عمل أبرويز في حينه ، وفي نظر أهل القرية وجوارهم ، عدلاً وكرماً ، ولكنه لم يثمر ثمراً صالحاً ولا قدوة حسنة ، ولم يكن له في الأخلاف ذلك الذكر الحميد ، بل ذهب وانقضى بانقضاء الغرض ، وانطوى مع فاعله . وذلك كله لأنه لم يقصد به العدل المجرد .

وأما عمل كسري ، ذلك العمل البسيط بذاته ، العظيم بنتيجته ، وهو قبوله انحراف إيوانه ، ذلك الشين المعيب ، لذلك البناء الرحب المهيب دون أن يكره عجوزاً فقيرة على ابتياع بيتها منها ، ولو كان به زخرف الايوان وسلامته من العيب والنقصان . فأثمر عدله ، وتحدى بها أعدل الخلفاء ، وهدّد به أكبر العمال .

هذا هو العدل الذي يبقى ، وينتج للبشر خيراً ، ويكون أبلغ عبرة وذكرى .

يذكر المنصفون من مؤرخي الافرنج وغيرهم ، عدل المسلمين الفاتحين في الرهبان ،

والولدان ، والشيوخ ، ويترجمون وصايا الصديق والفاروق ، وسيرة الخلفاء من أمويين وعباسيين ، وسير قادة الجيوش على تلك السنن ، وعدلهم ورأفتهم بالأسرى ، وما كان يجري من العدل لم يكن لغرض ، ولا عن غرور ، بل حباً بالعدل ، واعتقاداً أنه واجب تتطلبه الانسانية ، ويأمر به الشرع . فبقيت لتلك الأعمال والآثار خير أحدوثة ، وأقدس مثال ، وأحسن ذكرى لاتقوى على ملاشاته الأدهار . ولم ينعكس أمرها على فاعليها ، ولا أتت بغير النتائج المنتظرة منها .

خذ مثلاً سلاطين آل عثمان ، وما عاملوا به الأقوام عند فتح بلادهم، وما تساهلوا به من الامور بسوق الغرور بما لديهم من قوة وشدة وبأس ، واعتقدوه في حينه رحمةً وعدلاً ؛ ولم يكن في الحقيقة إلا من قبيل العدل العرضي ، والرحمة الغير مشفوعة بدعامة منقول ، أو دليل معقول .

من ذلك ، أن الأجانب لما طرقت بلادهم ، توسل أولياؤهم للسلاطين العثمانيين بوسائل الخضوع والاستعطاف ، لكي يسمح للتراجم أن تحضر مع رعاياهم الأجانب الغرباء عن اللسان ، إلى مجالس الحكم ليترجموا أقوالهم ، فسمحوا لهم بما طلبوا ، وكان ذلك السماح من السلاطين للأجانب ، وفي نظرهم ، أقل مامنحوه من المراحم في حينه .

فلما مرّ زمن الغلبة والقهر والقوة والبأس من العثمانيين ، وظهرت علامات الضعف في الملك العثماني ـ كما سبق بيانه ـ انقلبت تلك المراحم ، وأشكال العدل العرضي المعطى للأجانب بشكل امتياز وتحكم في أهل البلاد وحكامهم ، واستطالت على العباد ، وانعكس الأمر تماماً وأتى بعكس النتيجة المنتظرة .

واستحالت تلك الرحمة نقمة ، وصار الوطني بها محكوماً ذليلاً ، والأجنبي في الوطن حاكماً عزيزاً لا يسأل عما يفعل ، والوطنيون يسألون . وما زالت تلك المرحمة يتوسع بها الأجنبي ، ويضيّق بها على الوطني ، حتى أصبح دماء أهل البلاد « جبار » تقريباً . فاذا قتل يوناني وطنياً مثلاً ، أسرع القنصل لانتشال القاتل من يد القضاء وتلقّاه بالترحاب من الباب . حتى إذا كانت الجناية فظيعة في شكلها ، كان أعظم قصاص أن يرسل الجاني اليوناني معززاً لأقرب الجزر ، يقضي بها أياماً معدودات ، ثم يعود رافعاً رأسه بقبعته ، متبختراً بمشيته ، معتزاً بتابعيته .

هذا ما فعلته الدولة العثمانية، وأعطته إبَّان عزها ومجدها للأجانب، وحسبته رحمة وعدلاً ولم يكن كذلك . ولو عمدت للعدل الحقيقي إذ ذاك، وطرحت العزة والغرور جانباً، وسهّلت أسباب المساواة بين العموم ، من رعية وأجانب ، تجاه العدل العام الإسلامي ؛ لما تورطت باعطاء ذلك الامتياز البسيط للأجانب، الذي أصبح مركباً، وصار من أقوى عوامل المداخلة في أمور الدولة وأقرب الحجج تناولاً لحفظ حقوق الأجانب .وما ضاع في البلاد إلا حقوق أهلها ، مع تلك الامتيازات .

تلك الامتيازات التي لم يعهد لها مثيل في دولة من الدول ، إلا في الدولة العثمانية . وهذه لو أنها طلبت من الدول وهم في ضعفهم ، وهي في أوج مجدها ، أن يكون الرعايا العثمانيين حق وجود التراجم في مجالس الحكم عندهم ، كما أعطته هي مرحمة للأجانب ، لا أظن أنها كانت تقبل .

واليوم نرى أن أصغر دولة لا تقبل من أعظم الدول أن يكون لرعاياها أقل امتياز على أهل البلاد ، ولا شبه مداخلة في القضاء .

فالانكليزي مع غطرسته وعجرفته ، واعتداده بنفسه، وأنه من طينة غير طينة الآدميين؛ لا نراه يجرؤ أن يكون في بلاد البلجيك ، أو السويد ، أو الدانمارك غير خاضع لقضائهم ، أو أن يحضر لمجلس القضاء تراجم يؤثرون على الحكام كما هو الشأن في الممالك الاسلامية . والسبب ـ كما علمت ـ هو تلك المرحمة الموهومة المعطاة عن عزة وغرور من السلاطين ، وهي إلى الخرق والتسيب أقرب منها إلى العدل . ولو كان العدل مقصوداً في ذاته وحقيقته ، ويراد العمل به عند طلب تلك المراحم ، واللطف والعطف على الأجانب ، بحجة عدم معرفتهم اللسان ، لكان في الشرع مندوحة عن تخصيصهم ، وميزتهم عن الغير ، إذ في الفقه فصل خاص لمن لا يعرف اللسان ، أن يؤتى بترجمان ، أيّاً كان، يحلّفه القاضي اليمين على أن يصدق بالترجمة ، وليس من حاجة لترجمان من دولة أجنبية أو من رعايا دولة المجرم ، تؤول معه حال الرحمة نقمة ، ويتمرد الجناة على القضاء والقضاة .

رأيه مختصراً في الدول الاسلامية ، وأسباب ماتراه فيها من التقهقر والانحطاط:

قال : لا تتكوّن الدول ، ولا يخلص لها السلطان، إلا بقوتين : قوة الجنس التي تدعو

للاتحاد لمغالبة من سواهم ، ويكون فيه النعرة والعصبية والانتصار لجنسه . وقوة الدين ، الذي يقوم مقام الجنسية في جمع الكلمة ، وتوحيد الوجهة ، وطلب الغلب بتلك القوة لمن خالفهم فيها .

فإذا أخذنا العرب قبل الاسلام ، وجدناهم أمةً فيها النجدة والبأس والقوة الجنسية ، ولكن ما تيسر لها تكوين دولة ، ولا قام لها سلطان يجمع الكل . ذلك لأن قوة الجنس توزعت في القبائل ، فكانت كل قبيلة تجمع في نفسها من قوة الجنس كتلة صغيرة ، تغالب فيها غيرها من القبائل .

وعلى هذه الصورة ، لم ينتفع العرب كأمة من قوتها الجنسية ، بل خسرت لأنها وزعتها، بدلاً من أن تجمعها ، ووجهتها لنفسها ، عوضاً من أن تغالب بها غيرها فكانت قوة الجنس في العرب على هذه الحال ، أشبه شيء بسلاح المنتحر ؛ جاء الاسلام ، والأمة العربية على هذا الوضع ، من شتات قبائل مختلفة الأهواء ، بأسهم بينهم ، كل قبيلة تتعصب لقبيلتها ، يغيرون ويقتلون ، ويسبون حلة بعضهم بعضاً . فدعاهم إلى دين يجمع الاهواء ، ويوحد الكلمة ، ويمنع الدعوة إلى عصبية ، وأقام قواعده مقام القوة الجنسية ، مع حفظ ما ألفوه ورضعوه من الحرية بكل معناها ، ومساواة بأصح مبناها، وعدل شامل ، وبالإجمال بكل ما يطهر الأنفس ، ويلطف الشعور .

فالعرب بذكائهم ، وحدة ذهنهم لم يطل عليهم الزمن حتى وجدوا من أنفسهم ارتياحاً للدعوة ومن قلوبهم ملبياً ، ومجيباً للداعي ، فدخلوا في دين الله أفواجاً ، وازداد العرب بالاسلام إقداماً ، وبأساً ، وقوةً . تلك القوى التي كانوا قبل الاسلام ، يضعونها بينهم . قد وجهها بها الاسلام — بعد أن اتحدت قلوبهم — إلى الممالك ، والامصار ، فدانت لدعوة دينهم الأمم ، ودخلت في طاعتهم الملوك ، وذلّت لهم الاكاسرة ، فملؤوا أكثر معمور الأرض عدلاً وفتحاً من جبال بيريني الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا إلى جدران الصين ، في أقل من ثمانين سنة .

وهكذا دام مجد الاسلام في تعالٍ ، وملكهم في اتساع ، في دور الخلفاء الراشدين. فالأمويين فالعباسيين ، إلى عصر الرشيد والمأمون ، وهناك بلغ مجد الدولة الاسلامية الأوج،

وأخذ من بعدها زمناً في التوقف،ثم بدأ في التقهقر والانحطاط إلى دركة لم يبق معها من تلك العظمة والإجلال ، إلا رسوم وألقاب ، فقد مسماها وانعكس معناها .

فهل تم هذا الانحطاط والتقهقر ، بدون سبب ؟ كلا ! !

هل حصل لقلة في عدد المسلمين ؟ لا . بل إن عدد المسلمين في دور انحطاط دولهم كان أكثر من يوم مجدهم وإبّان عزهم .

إذاً فالسبب الأعظم ، والفاعل الأكبر في السقوط ، هو إهمال ما كان سبباً في النهوض والمجد وعزة الملك ، وهو ترك حكمة الدين ، والعمل بها ، وهي التي جمعت الأهواء المختلفة، والكلمة المتفرقة ، وكانت للملك أقوى من عصبية الجنس وقوته .

نعم لما فشى الجهل في الخلفاء ، وبعدوا عن العلم بحقيقة الدين وحكمته ، وهن وضعف أساس الملك ، وتزلزل أقوى دعامة له . فرجعت القواد والرؤساء ، إلى توزيع قوى الجنسية، وتفرق عصبيات القبائل ، من وائلي ومضري ويمني ، ولم يعد لسلطان الدين تلك القوة الجامعة المانعة من عصبية .

وقد زاد في ضعف الخلفاء بلية ، الإكثار من الأغراب ، وجعلهم قوة استعاضوا بهم عن قوة عصبيتهم وجنسهم ، فارتقى كثير من المماليك إلى أعلى مراتب القواد ، وترأسوا الدواوين ، ومدوا أيديهم إلى الأموال ، واستبدوا بالقرى والسواد ، وتصرفوا بأموال الدولة حسب الهوى .

فوقع الخلفاء بين فقدان قوة الدين وقوة الجنس ، ولا يكون مع هذا إلا الانحطاط ، وبالتالي الانقراض ـ كما حصل وا أسفاه ـ!(وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .

وهكذا ترى الممالك في دور تأسيسها معززة الجانب بأهل عصبيتها أولي الغيرة على الملك، وصونه ، لا يدخل في مناصب الدولة الرئيسية غريب عن الجنسية ، ولا تبدو لذلك أقل ضرورة. بعكس دور التقهقر ، فأول ما تبدو طلائعه في استخدام الغريب وهو بخلق التملق والتزلف والمسكنة ، وبالاجمال كلما تأباه نفوس أهل عصبية الملك من الأخلاق ، يتمكن من التقرب ، ويتدرج في المراتب ، ويقرّب من كان على شاكلته من أهل جنسه وقبيله،حتى يسقط بآخر الأمر ، الملك والمملكة بأيديهم .

وما أكثر الأمثلة على ذلك في بطون التواريخ ، كالقائد افشين ، والديلمين ، آل بويه وغيرهم .

ثم إن ماجرى لدول الاسلام العربية في دور تأسسها وانحطاطها، جرى للعثمانيين ويجري على غيرهم من الدول .

ومتى رأيت الغريب المناوىء قد دبّ وتسنّم ذرى المراتب الهـامة في الدولة ، فبشرها بسوء المصير .

هل يمكن لنا اليوم أن نرى مستشار خارجية انكلترا هندياً أو مصرياً ، أو هل يخطر ذلك ببال انكليزي ؟؟ كلاّ !! ثم كلاّ !!

ولكنك ترى ذلك في الدولة العثمانية اليوم ، وهي في دور الضعف والتقهقر ، فمستشار نظارة الخارجية العثمانية ، أرتين باشا « أرمني » . وسفيرها لدى أنكى دول الارض لها ، وأشدها عداءً وهي « انكلترا » موزوروس باشا « رومي ».وحاكم جزيرة كريد ، قسطاكي باشا ... وهكذا مناصب الدولة العثمانيـة ، مشحونة بيورغاكي ، وقسطاكي ، وآغوب ، وأوخانس الخ .

وكل فرد من هؤلاء الرجال ، له أمة محكومة من الدولة العثمانية ، باذلة جهدها للتخلص من الحكم العثماني ، تعمل فيها دسائس الدول الغربية لتناهض الدولة ، سعياً وراء استقلالها . فمع هذه الآمال والأماني ، هل يعقل أو ينتظر من أولئك الرجال إخلاص في خدمة الدولة ، أو تعزيز جانبها ، والعمل على صونها ، وتعاليها ؟ ومصلحتهم القوميـــــة ، ومصلحة أممهم في خلاف ذلك ؟!

حديثه عن الهند ومستقبلها وشيء عن سيرة السلطان محمود الغزنوي بفتحه لتلك الاقطار والمقابلة بين حالة مصر في عهد محمد علي باشا وحالتها بعد الاحتلال

قال : ما أغرب ماسقطت به الاقطار الاسلامية من تفكك عرى الاتصال ، وجهل بعضهم أخبار بعض ، رغم أقطارها المتصلة ، وأمصارها المتجاورة .

فالأفغاني قلما يعلم أو يهتم بحال أخيه الايراني ، وكلاهما لايدري من حوادث الهند إلا

طفيفها ، ويجهلان الخطير من أمورها وحالاتها ، وكم تضيع في هذا الجهل فرص سانحة ، وتخسر صفقات ربما كانت رابحة ، لو انتهزت في حينها ، وأعدّ لها معداتها مثل الثورة التي حدثت في الهند سنة ١٨٦٠ ولم تصل أخبارها الأفغان ، ولا لإيران إلا بعد أن تمكن الانكليز من إطفاء جذوتها .

وهكذا ترى الهندي أجهل من إخوانه المسلمين في أخبارهم وأحوالهم في مشارق الارض ومغاربها ، من جهلهم بأحواله .

فالتركي ، والمغربي من تونسي وجزائري ومراكشي ، يعلمون أن في الدنيا مقاطعة تسمى « الهند » وفيها من الملايين « هنود مسلمون »

والهنود يعلمون أن في المعمور ، دولة عثمانيـة إسلامية ، وإذا وصلتهم نتف من أخبارها أو شيء عن قوتها : خفقت له قلوبهم فرحاً ، وعطفوا على حبها جوارحاً وأفئدة ، طحنتها مظالم حكامهم طحناً ، وعجنتهم بالكوارث عجناً .

وهكذا ترى العالم الاسلامي يجهل أهل كل مقاطعة ما ألمّ بالأخرى من جور ورزية ، وكل واحد في شأن يلهيه ، وهمّه يكفيه .

وإني في كل ماجُبته من الأقطار ، وتجولت فيه من الأمصار الاسلامية ، قلما رأيت من يعلم شيئاً جوهرياً عن الهند ؛ بل كان أعـلم من رأيت ، من يدرك أن الهند قد سقطت تحت نير الانكليز ، وأنها تسوم الهنود سوء الأحكام .

الهند ، هي تلك الدرة الثمينة في عقد القارة الآسيوية ، وهي التي كانت من قديم الزمن هدف الفاتحين ، ومطمح أنظار الملوك والسلاطين ، وإليها زحف اسكندر الاكبر ، ودخلها من الشمال فاتحاً ، عن طريق سرخس باب الهند ؛ وعن طريق الحمرة « البصرة » وبندر عباس فبلوجستان دخل الجيش الاسلامي ، الجيش الذي بعثه الحجاج بن يوسف ففتح به السند وبخارى وكابل فالهند .

ثم في القرون الوسطى زحف السلطان محمود الغزنوي ذلك السلطان الكبير الهمة ، الذى

أقل مايؤثرعنه في فتحه وغزوه بلاد الهند، أن الماء نفد من الجيش ، وكاد أن يهلك في تلك الفيافي والوهاد ، فجاء خادم السلطان بقربة ماء كان خبأها وحرص عليها للسلطان خاصة ، فأخذها وأراقها على مرأى من الجيش ، وخاطبهم بقوله « لاخير في حياته إذا هلك الجيش ، ويفضل الموت إذا كان فيه سلامة عسكره » . فتحمس العسكر عند ذلك وجدوا السير ، ونسوا ماهم فيه من الظمأ ، حتى وصلوا إلى مكان المياه فاستقوا ، وبعد ذلك انقضّوا على حصون الهند - وقد ثبت أن ذلك الجيش كان مجهزاً بالمدافع - فدكدكوها ، وافتتحوا مدنها وغنم السلطان ماشاء أن يغنم ، وقضى من الهند أربه .

ثم عقبه تيمورلنك بخيله ورجله ، فسخّر الأقطار الهندية ، وأسس فيها ملكه ، وتعاقب في أولاده وأحفاده .

وآخر من زحف على الهند وفيها السلطنة التيمورية ، نادرشاه الايراني، فأخذ من خزائن الهند وجواهرها مالا يحصى .

ومختصر القول إن الملوك والفاتحين طرقوا الهند، وغنموا منها الغنائم ولكن بحروب هائلة، وتجشم أخطار ، واقتحام مهالك تشيب لها النواصي .

أما الانكليز ، فقد ملكوا نحو ثلث العالم ، وما سفكوه في ذلك السبيل من الدماء ، وصرفوه من الاموال ، كنسبة القطرة إلى البحار ، أو الدرهم إلى المليار ، وإنما تملكوا ماملكوا ، بسلاح الخديعة والحيلة. يدخلون إلى الاقطار ، والامصار أسوداً ضارية ، في لين ملمس جلود الأفعى ، يعرضون أنفسهم في صورة خدمة صادقين وأمناء ناصحين ، لايهمهم إلا تقرير الأمن وأسباب الراحة ، وتقويم النظام ، وتثبيت الامراء ، وتأييد نصوص الفرامين ، وتعزيز شوكة السلطان ، وغير ذلك من الحبالات والمصائد ، وأنواع التغرير والمكائد . حتى إذا أرادوا التدخل في شؤون ملك للشرقيين ، ورأوا أن القائم به رجل حكيم يقظ ، وبصير حاذق ، وأن وجوده في الملك يعرقل سعيهم ، ويؤخر سيرهم نحو ما يقصدون ، بادروا وأخذوا في التشويش عليه ، فإمّا أن يفسدوا عليه قلوب رعيته ، ويأخذوا بيد السفهاء منهم ، ويثيروا عليه الأحقاد ، أو يغروا أحد أعضاء العائلة المالكة بالعصيان وطلب الملك ، ليجدوا

في ذلك وسيلة للدخول في الأمر ، أو يتفقوا مع الوزراء على خلع السلطان ثم ينصبون بدله إما ضعيفاً أحمق ، وإما صبياً لم يبلغ الرشد من أبناء الملك أو أقاربـــه ، ليتمكنوا من بلوغ مآربهم تحت علمه ، ويبلغوا غايتهم باسمه ويقطعوا المسافات الطويلة في مدة قصيرة بلا ممانع ولا عائق ، مع إصابتهم جزيل الأجر ، على ماعملوا في بداية الأمر .

أو أنهم يفعلون كما فعلوا مع الهنود لما انتشروا في أقطارهم كتجار وشركة تجارية ، واندسوا بينهم وصرفوا فيهم كيدهم ، فتمكنوا من تفريق كلمة الأمراء ، وإغراء كل نواب أو رجا بالاستقلال والانفصال عن السلطنة التيمورية ، فتمزقت المملكة إلى ممالك صغيرة ، ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه. فصارت الأراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال ، واضطر كل نواب أوراجا إلى النقود أو الجنود ليدافع بها عن حقه ، أو يطلب التغلب بها على عدوه .

فعند ذلك تقدم الانكليز بسعة الصدر ، وانبساط النفس ، ومدوا أيديهم لمساعـدة كل من المتنازعين وبسطوا لهم إحدى الراحتين ببدر الذهب وقبضوا بالأخرى على سيف الغلب . بدؤوا قبل كل عمل بتنفير أولئـك الملوك والصغار من عساكرهم الأهلية ، ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال ، ثم أخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الانكليزية وقوادها ، وما هم عليه من القوة والبسالة والنظام ، حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبة خصمه إلا بالجنود الانكليزية .

فأقبل الانكليز على أولئك السذج ، يضمنون لكل واحد صيانة ملكه ، وفوزه بالانتصار على غيره ، بجنود منظمة تحت قيادة قواد من الانكليز ، ويكون بعض الجنود من الهنديين ، وبعضهم من البريتانيين ، وما على الحاكم إلا أن يؤدي نفقتها .

ثم خلبوا عقول أولئك الأمراء بدهائهم ، وبهرجة وعودهم ، ولين مقالهم ، حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم ، فرقة من العساكر ، لتدفع شر بعضهم عن بعض . وصار بذلك « الانكليز » أولياء المتباغضين ، وسموا كل فرقـة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التي أعدوها لحمايتها ، ففرقة الحكومة السنية سموها « عمرية » ، وفرقة الحكومة الشيعية « جعفرية » ، وللوثنيـين سموها « كشتية » ، ولما فرغت خزائن الحكام

الجنود ، وقصّرت بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الانكليز خزائنهم ، وتساهلوا مع أولئك الأمراء في القروض ، وأظهروا غاية السماحة ، فبعضهم يقرضونه بفائدة قليلة ، وبعضهم بدون فائدة ، وينظرون به الميسرة ، حتى ظن كل أمير أن الله قد أمدّه بأعوان من السماء ، وبعد مضي زمان كانوا يومئون إلى طلب ديونهم بغاية اللطف ، ويشيرون إلى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية الرفق ، فإذا عجز الأمير عن الأداء ، قالوا : نحن نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم ، وإننا ننصحكم أن تفوضوا إلينا العمل في قطعة كذا من الأرض نستغلها ، ونستوفي ديوننا ، وننفق من غلاّتها على الجيوش التي أقمناها لكم . ثم الأرض أرضكم نردها إليكم عند الاستيفاء والاستغناء ، وإنما نحن خادمون لكم . فيضعون أيديهم على أخصب الأراضي ، وأنبتها ، وفي أثناء استغلالها يؤسسون فيها قلاعاً حصينة وحصوناً منيعة ، كما يفعلون في ثكن « قشلاقات » عساكرهم على أبواب العواصم الهندية . وفي خلال هذا يفتحون للامراء أبواباً من الاسراف والتبذير ، ويقرضونهم ويكتفون بمقابل قرضهم قيامهم على أراضٍ أخرى يضمونها إلى الأولى . ثم يحشُّون ويذكون نار العداوة بين الحكام ، لتنشب بينهم حروب فيتداخلون في أمر الصلح فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزءٍ من أملاكه ليتنازل لهم الثاني عن قطعة من أراضيه ، وهم في جميع هذه الأعمال موسومون متصفون بالخادم الصادق ، والناصح الأمين لكل من المتغالبين . وغير هذا فلهم شؤون لا يهملونها في إيقاع الشقاق بين سائر الأهالي فتضعف قوة الوحدة الداخلية ، ويخرّب بعضهم بيوت بعض ، حتى إذا بلغ السير نهايته ، واضمحلّت جميع القوى من الحاكم والمحكوم ، وغلّت الأيدي فلا يستطيع أحد حراكاً ، ساقوا الحاكم إلى المجزرة بسيوف تلك العساكر التي كانت حامية له ، واقية لبلاده ، وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة ، وينفق على صقالتها من ماله . ثم خلفوه على ملكه في حقيقة الأمر ، وفي الظاهر يظاهرون بقوتهم أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك فيخلعون الملك ويولون الطالب على شريطة أن يقطعهم أرضاً أو يمنحهم امتيازاً ، فيحولون الملك من الأب للابن ، ومن الأخ لأخيه ، ومن العم لابن أخيه ، وفي كل هذا التداول هم الرابحون وأول خطوةٍ خطوها في الهند كانت في مملكة « اود » وهي من الممالك الواسعة ، وأغلب أهلها على مذهب الشيعة ، ولها نواب « حاكم » عظيم زيّنوا له الطمع في لقب شاه لينفصل عن الملك التيموري .

وفي التنازع لنيل هذا المطمع ، يصيب كلاً من الطامع وصاحب الملك سهم من الضعف والوهن ، فيتهيأ كل منهما للوقوع في مخالب الانكليز وقد حصل .

وعندما كانت الحرب قائمة بين دوست محمد خان وبين « رانجت سنك » البنجابي ، تخوّف الانكليز من تسلط الأفغانيين ، فتداخلوا في الصلح وبذلوا جهدهم في ذلك ، وسحروا قلوب الافغانيين بلين القول ، ولطف الوعد حتى أرضوهم بترك مدينة بيشاور ، وما يليها (لرانجت سنك) .

وانعقد الصلح على ذلك ، وانجلى الأفغانيون عن مملكة بنجاب ، ورجعوا إلى بلادهم . وبعد عشر سنين من تاريخ الصلح زحف الانكليز إلى بنجاب وافتتحوها لأنفسهم ، واستولوا على مدينة بيشاور . فقال بعض أمراء الأفغان « إن ذلك الصلح كان مقدمة لهذا الفتح ، وأن الانكليز في تعيينهم الحدود إنما كانوا يحددون بلادهم ولكن كنا عنه غافلين » .

ومن أفعال الانكليز في الهند ، ما فعلوه من زمن غير بعيد مع « راجابرودا » وهو أمير عظيم ، فلما أحسوا فيه البصيرة ، والحزم خلعوه بدعوى باطلة . وأقاموا بدله ولداً صغيراً من عائلته ، ثم انتصبوا له أوصياء ، فوضعوا أيديهم على جميع خزائنه ، وتولوا إدارة ممالكه ، واستلموا قيادة عساكره . ولم يبقَ له إلا الاسم يذكر ولا يشكر .

كل هذا يفعله الانكليز تحت راية العدالة والإصلاح ، وحفظ الراحة وتقرير النظام ، ويساقون إليه بباعث المحبة والإخلاص . ولا يذكر هناك اسم « التملك » ، والاستيلاء ، نعم ولهم الحق في استبقاء اسم والسكوت عن آخر .

فان أمراء الشرقيين لا يبالون بما دلت عليه الأسماء ، وإنما يهمهم طنطنة الألفاظ ، وفخامة الألقاب . إذا سلب الأمير الشرقي ملكه وماله ، وجرّد من جميع حقوقه ، وبقي له لقبه ، ولواحق لقبه ، فهو في سكرة من لذة ما بقي له ، وفي ذهول عما سلب منه . هذه خلة عرفها الانكليز في كل أمير شرقي ، لذلك فهم يقرُّون أعينهم بترك هذه الأسماء محفوظة ، بعدما جرّدت عن معانيها . ولا يرى الانكليز أقل داع يدعوهم لنزع هذه الألقاب من الأمراء ، وإزعاجهم بذلك .

واللقب الضخم ، حصن حصين يسجن فيه الأمير الشرقي ، أو جبّ عميق يلقى فيه ، وهو يظنه جنة عرضها السموات والأرض .

فليعش أمراء الشرق متمتعين بنعيم ألقابهم ، وسعادة أسمائهم ويكفيهم من المجد أن يقال لهم بين خدمهم وخاصتهم في داخل دوائرهم « نواب صاحب » « راجا صاحب » « خديوي صاحب » « سلطان صاحب » .

واخجلتاه ! هذه الألقاب كانت تشير إلى ملك فسيح ، ومجد شامخ ، وشوكة قوية ، وسطوة تخضع لها الجبابرة فكيف طابت نفوس أمراء الشرق بقبولها عارية من كل شرف ، لم يبق من معناها إلاّ سلطة على الخدم والحشم ؛ وما هم فيها بأحرار ، بل لا بد أن يوافقوا فيها رضاء الأجانب .

ومن مناقب الانكليز ، وغرائب عدالتهم في الهنـد ، أن « جيرت سنك » كان راجا على ممالك « جنبه » الواقعة في جنب « عنبرسر » من طرف حملايا فلما مات هذا الملك تولى ابنـه « سوجت سنك » على طبق قانون الوثنيين. فأراد حاكم الهند الانكليزي ، وهو إذ ذاك « اللورد نورثبروك » ضم تلك المملكة إلى الأملاك الانكليزية ، وإدخالهـا واستملاك أراضيها حسب المألوف ، وعادة الانكليز . فطلب من « سوجت سنك » أن يتنازل عن الملك لأخيه « قوبال سنك » وكان وليداً من جارية ، ولا يجوز في قانون الوثنيين أن يتولى الملك أبناء الإماء ، ما دام من أبناء الأحرار حيّ .فلما تمنع « سوجت سنك » من التنازل اعتماداً على قانون بلاده، أُنزل بحكم اللورد جبراً ، بعد ما ضربت زوجته التي كانت ملكة تلك البلاد ، لكونها زوجة الملك ، ونهب جميع ما كان في بيت الملك من الخزائن والتحف والجواهر الثمينة ، والمخلفات القديمة « انتيكات » التي كان يتوارثها الملوك من أجيال طويلة .

فإن عائلة الملك كانت من قدماء العائلات الملوكية . ثم نصب بدله « قوبال سنك » وبعد مدة قصيرة عزل « قوبال سنك » ونصب بدله ولده الصغير « سيـام سنك » ليكون الأمر والنهي ، حساً ومعنى بيد أمراء الانكليز ، وتحت تصرف الذي أقاموه من طرفهم « وصياً على الملك الصغير » .

ثم إن « سوجت سنك » المخلوع ظن أن اللورد نورثبروك ، وحده هو الظالم ، وأنه لو

رفع أمره للحكومة العادلة في لوندرا ، يجد لديها عدلاً ويصادف منها إنصافاً ، فجاء وعرض حاله على الحكومة العادلة !؟. فإذا النفوس متشابهة ، والنفوس متوافقة ، والآراء متحدة ، والأفكار متألبة على سلب الحقوق والغلو في العدوان . وفي خلال السنين التي صرفها في بث شكواه ، أنفق كل ما كان عنده في المطالبة بحقه ، والمرافعة مع ظالمه ، والحاكم خصمه ، حتى أصبح صفر اليدين لا يملك قوت يومه ، ولا يجد له منصفاً . هذا الملك السيء الحظ ، مع ما كان له من رفعة الشأن وارتفاع نسبه في الملك إلى أجداده الأقدمين من نحو ألف سنة . رأيته وأنا في أوروبا يتضور من الجوع ، رث الثياب ، حقيراً ذليلاً .

قال : ولقد عثرت على منشور انكليزي قديم ، نشرته حكومة انكلترا في الهند ، ونحن نشرنا ترجمته في « العروة الوثقى » ونصه :

« إذا وجدت في دوائر الحكومة وظيفة لا يقوم بها انكليزي » أي لا تليق لخستها أن تكون لأحد من « الجنس الشريف » ، وجب أن يقام فيها أحد الفارسيين ، الباقين على دين « زردشت » (المجوس) . فإن لم يكن منهم مقتدر على القيام بها ، أقيم فيها « وثني » (عابد صنم) . فإن لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء من يؤدي عملها ، كلف بها « مسلم » .

فليس للمسلمين في الهند حظ من وظائف الحكومة إلا ما يعافه المجوسي والوثني ، وهذا هو عنوان محبة الانكليز للمسلمين ! ! وهو برهان دعواهم أنهم أولياء المسلمين وأنصارهم ! ! لا أكثر الله من أمثال هؤلاء الأولياء والأنصار .

ومن مناقبهم وغرائب عدلهم ! ! أنهم جعلوا جزائر « اندومان » منفى لعلماء المسلمين ، والجريمة التي يستحق العالم عليها النفي هي أن يعترف بأنه معتقد ببعض آيات القرآن ! ! وقد مر ذكر ذلك .

ولو أردنا تعداد مناقب الانكليز ، وقصصنا ما يعاملون به رعاياهم في الهند عموماً والمسلمين خصوصاً ، لطال بنا الشرح ، وانتفخت بطون المجلدات، وضاقت الصدور من كثرة السطور، وما ذكرناه إن هو إلا نزر يسير ، وقليل من كثير .

هذه هي الهند ، الذي إذا أشرف السائر على أي بقعة من بقاعها الشاسعة الواسعة ، شخص بصره ودهش لبه بما يراه من آثار عناية الله بتلك البقاع ، وما منحتها من الخصب الطبيعي ، حتى أن الأحجار الصلدة لتنشق عن الأشجار الضخمة العالية الأغصان، المورقة

الأفنان ، بفيء ظلها محيطاً واسعاً من الأرض ، وكأن أديمها بما فرش عليه من أنواع النباتات ، وقد بسط عليه بسط من السندس الأخضر ، فيخيل للناظر أن سكنة هذه الأراضي في خفض من العيش ، وسعة من الرزق ، بل يظنهم أسعد من على وجه الأرض . ولكنه إذا تجاوز المروج والأودية إلى المدن والقرى ، ضاق صدره ، وتفطر قلبه من منظر سكانها ، يرى ألوفاً مؤلفة يعبرون في الشوارع والأزقة ، جيئة وذهاباً ، حفاة عراة ، بادية سوءاتهم ، كاسفة أحوالهم ، لا يجدون رمقة من العيش .

ثم يتمكن الحزن من الانسان — إذا رأى بأم العين ، ووقف على أحوال أولاد السلاطين المغوليين ، وما هم فيه من الذلة ، وأحفاد « تيبو » سلطان وما أصابهم من الفقر والمسكنة ، وسلالة سلاطين « اوده » وما نزل بهم من الهوان ، ونوابي « كارناتك » وأمراء « السند » وما حل بهم من الصغار ، و « مرتة » تلك القبيلة العظيمة ، القاطنة في « فونا » و « ستاره » وما حولها وما أحاط بها من البلاء المنصب عليهم وعلى غيرهم من سائر الأمراء والرجاوات العظام .

كل تلك الأحوال والمشاهدات ، تسوق المنصف قهراً لأن يحكم حكماً لا ريبة فيه ، بأن إدارة الحكومة الانكليزية « العادلة !! » هي التي هيأت تلك الرزايا والبلاء للهنود ، وهي التي حرمت أولئك المساكين من التمتع بما آتاهم الله من فضله ، وهي التي جعلت الأعزة أذلة ، وبعد أن كانوا يسكنون القصور العالية أصبحوا اليوم يأوون إلى خصاص ، بل أقفاص ؟

إذا خاطب الانكليزي هندياً ، إنما يكلمه بالعصا ، إذ لا يعدونه من فصيلة الانسان ، وإذا أراد حكام الانكليز أن يجمعوا أعيان البلاد لإلزامهم بأداء ضريبة جديدة ، هيؤوا مكاناً علياً يرتفع عن الأرض نحو ثلاثة أدرع ، لتوضع عليه كراسي السادات الانكليز ، ويجلس الهنود مفترشين منخفض الأرض ، إظهاراً الامتياز ، مع أنهم ماجمعوهم إلا لسلخ مابقي من جلودهم ، وامتصاص ثملة دمائهم ، فهل سمع بمثل هذا في الأمم السالفين ؟ كلا !! ان جنس الهندو « قوم برهما » لما قدموا من إيران وفتحوا الهند ، لم يسيئوا معاملة أحد من السكان القدماء ، مع أنهم كانوا يعتقدون أنهم سماويون ، وأبناء الآلهة ؛ قبلوا جنس « التلنكان » الهندي في مصافهم ، وأشركوه في حقوقهم مع كونه مغلوباً لهم حرباً .

فتح المسلمون أرض الهند ، فعاملوا الوثنيين مثلما عاملوا بني ملتهم ، ماحرموهم الوظائف السامية . وما من سلطان مسلم تسلط في الهند إلا ّ كان له من الوثنيين عمال ووزراء .

كان المسلمون يسيرون مع الوثنيين سيرة الأخوة ، حتى أوقع الانكليز بينهم الشقاق في بنجاب ، وأطراف مدراس .

يزعم الانكليز أن المسلمين – يسوق التعصب الديني – يجورون ولا يعدلون . مع أنا نرى إلى الآن حكومات صغيرة يحكمها راجوات ونوابون من أهل السنة والشيعة ، ونرى للراجا الوثني وزيراً مسلماً وعمالاً مسلمين ، وللنواب المسلم وزيراً وثنياً وعمالاً وثنيين .

وهكذا السنيون مع الشيعة،والشيعة مع السنيين . ولانرى في الملايين الكثيرة المحكومة بالانكليز ، رجلاً هندياً في وظيفة شريفة .

رب نعمة جلبت نقمة . نعم إن ما أنعم الله على أرض الهند من الخصب ، وما أودعه فيها من الثروة الطبيعية ، جلبت عليهم الانكليز ، وما أكبرهانقمة على الهنود ، وعلى من جاورهم من الممالك ، وما اتصل بها من البحار ، لأن الانكليز يرون كل مملكة في شمال الهند ، أوفي جنوبها ، أو شرقها ، وشمالها ، هي بابا للهند ، ومهدداً لملكهم في الهند ، ويلزم الأمبراطورية البريتانية أن تدرأ الخطر عن الهند بالاستيلاءعلى تلك الممالك بأي حيلة أو خديعة كانت . استلبت من الدولة العثمانية جزيرة « قبرس » بحجة المحافظة على أملاك الدولة في البحر المتوسط ، « وما أصدقها ، وأبرّها ، وما أعظم ماحافظت على أملاك الدولة العثمانية !؟ »

وحقيقة ذلك السلب ، إنما هو مقدمة لاستلاب ملك مصر ، وفيه ترعة السويس « باب الهند » والسودان وفيه « مصوع » و « سوا كن » على البحر الاحمر « باب آخر للهند » و « عدن » وبوغاز « باب المندب » و « جبل طارق » وكلها « أبواب » أو كوات ، وشبابيك للهند » والافغان ، وإيران وهماالبابان الكبيران العظيمان اللذان سيدخل منهما « إن شاء الله تعالى» الى الهند فتستريح بريتانيا من الهند، ويستريح الهنود، والممالك الاسلامية الشرقية من الانكليز، وتنام في جزيرة بريتانياالعظمى ناعمة البال ، لايروعها ولايخيفها « أبواب الهند » إذ يعود البيت الى صاحبه ، ويتكفل بحراسة بابه بسيوفه ، وأسنة حرابه .

صرفت كل كيدها، وبذلت ماعندها من الحيل في الافغان فلم تفلح ، حتى طرقتها بستين ألفاً من جيوشها المنظمة ، بأمضى الأسلحة الجديدة ، ولكن لما كان الأفغانيون قوم حرب يناطحون الموت ، فقد هبّوا ونهضوا نهضة رجل واحد، وكشفوا بلاء الانكليز عن بلادهم؛ فاضطرت بعد فناء رجالها ، وأموالها الى ترك البلاد الأفغانية ورجعت الى الملاينة والمجاملة ، شأن الانكليز إذا رأت من الأمة اتحاداً ومقاومة ، فإنها تولي الادبار ، وتترك الديار لأهلها .

وأما العجم ، فانها لم تنج من حبالة شرها ومصائد مكرها.فطالما جاملت دولة روسيا على حساب العجم ، وقسّمتها بينهما مناطق « اقتصاد » !

وكانت إذا ضربت أو عملت على كيد الافغان ، لاطفت وتجملت لدولة ايران ، وإذا جاء دور ملاطفة الأفغان ، اشتدّت على ايران ، وكلاهما في غفــلة عن مصيرهما ، ولو علموا —ولا بد أن يعلموا بالقريب إن شاءالله — ان مايصيب الواحد منهم اليوم من المكروه والرزايا، لابد وأن يصيب الآخر في الغد .

من الغرائب — وليس من طبيعة الوجود — أن يستمرّ سلاح الخداع والمكر لرقاب الشرقيين قاطعاً ، ولا لجيش الوهم ، أن يكون للحقائق غالباً . نعم إن للوهم آثاراً غريبة ، خصوصاً في الأمم الضعيفة ، فطوراً يكون مرآة المزعجات، ومجلى المفزعات ، وطوراً يكون ممثلاً للمسرّات ، حاكياً للمنعشات ، وهو في جميع أطواره حجاب الحقيقة ، وغشاء على عين البصيرة . ولكنْ له سلطان على الارادة ، وحكم على العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومبعد الخير .

الوهم يمثل الضعيف قوياً ، والقريب بعيداً ، والمأمن والمنقذ مهلكاً .

الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه . يخيّل الموجود معدوماً ، والمعدوم موجوداً .

الوهم في كونٍ غير موجود ، وعالم غير مشهود ، يخبط فيه خبط المصروع ، لايدري ماذا أدركه ، وماذا تركه .

الوهم روح خبيث يلابس النفس الانسانية وهي في ظلام الجهل . إذا خفيت الحقائق تحكمت الاوهام ، وتسلطت على الارادات ، فتقود الواهمين الى بيداء الضلالة ، فيخبطون في مجاهيل لايهتدون الى سبيل ، ولا يستقيمون على طريق .

وإذا كان « الوهم » مولوداً ، فأبواه « الجبن » ، ومربيه ومنشئه « الجبن » ، وهو العلة في إخلاد الجمهور الأعظم من بني الانسان إلى دنيات المنازل ، وقصورهم عن الوصول إلى معالي الأمور .

و « الجبن » هو الذي يعقد بالنفوس عن العمل ، وينحدر بها في مزالق الزلل . وهو علة العلل ، ومنشأ يقرن به كل خلل .

« الجبن » هو الذي أوهى دعائم الممالك ، وهو الذي قطع روابط الامم ، حل نظامها .

وهو الذي أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ،وأضعف قلوب العالين فسقطت صروحهم.

هو الذي يغلق أبواب الخير في وجوه الطالبين ، ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين ، ويسهّل على النفوس احتمال المذلة ، ويخفف عليها مضض المسكنة ، ويهوّن عليها حمل نير العبودية الثقيل ، يوطّن النفس على تلقي الاهانة بالصبر ، والتذليل بالجلد ، ويوطىء الظهور لأحمال من المكاره والمصاعب ، أثقل مما يتوهم لو تحلّى بالشجاعة والاقدام .

«الجبن » يلبس النفس عاراً ، دون لبسه الموت الاحمر عند كل روح زكية وهمة عالية .

يرى الجبان وعر المذلة سهلًا ، وشظف العيش في المسكنات نعيماً .

ومن يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

« الجبان » يتجرع مرارات الموت في كل لحظة ، ولكنه راض بكل حال ، وإن لم يبق له إلا عين تبصر الأعداء وترى الأحياء ، ونفس لا يصعد إلا بالزفير والصعداء ، وإحساس لا يلم ، إلا بألم الحر واللأواء . هذه حياته ، أضاع كل شيء في القناعة بلاشيء ، وهو يظن أنه أدرك مبتغاه ، وحصل ما يتمناه .

الجبن انخذال في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها . وهو مرض من الأمراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة للوجود ، التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية ؛وله أسباب كثيرة ؛ لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت .

الموت مآل كل حي ، ومصير كل ذي روح .

سبيل الموت غاية كل حي وداعية لأهل الأرض داعي

وليس للموت وقت معروف ، ولا ساعة معلومة ، ولكنه بين النشأة وأرذل العمر ، ينتظر في كل آن ، ويرتقب في كل لحظة ، ولا يعلمه إلا مقدّر الآجال جلّ شأنه .

يشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل « الجبن » فبسبب الغفلة عن حسن المصير ، والذهول عما أعدّه الله للانسان من خير الدنيا ، وسعادة الآخرة ، إذا صرف قواه الموهوبة فيا خلقت لأجله .

نعم ، يغفل الإنسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقياً للحياة ، وهو الشجاعة والاقدام ، سبباً للفناء .

يحسب الجاهل أن في كل خطوة حتفاً ، ويتوهم أن في كل خطرة خطراً ، مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الإنسانية ، وما ناله طلاب المعالي من الفوز بآمالهم ، وما ذللوا من المصاعب في سيرهم ، تكشف له أن تلك المخاوف إنما هي أوهام ، وأصوات غيلان ، ووساوس شيطان . غشيته فأدهشته ، وعن سبيل الله صدّته ، ومن كل خير حرمته .

« الجبن » فخ تنصبه صروف الدهر ،وغوائل الايام لتغتال به نفوس بني الانسان ،وتلتهم به الامم ، والشعوب . هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ، ويصدهم عن سبيله . هو غاية كل رذيلة ، ومنشأ لكل خصلة ذميمة . لاشقاء إلاّ وهو مبدؤه ، ولا فساد إلاّ وهو جرثومته ، ولا كفر إلاّ وهو باعثه وموجبه . ممزّق الجماعات ، ومقطّع روابط الصلات . هازم الجيوش ومنكس الأعلام ، ومهبط السلاطين في سماء الجلالة إلى أرض المهانة .

ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية ؟ أليس هو الجبن ؟

ماذا يبسط أيدي الأدنياء لدنيئة الارتشاء ؟ أليس هو الجبن ؟

ربما تتوهم بعد المثال ، فتأمل ! فإن الخوف من الفقر يرجع في الحقيقة إلى الخوف من الموت ، وهو علة « الجبن » !

وبعد ذلك ، يسهل عليك أن تعتبر هذا في الكذب والنفاق ، وسائر أنواع الأمراض الروحية في الانسان .

« الجبن » عار وشنار على كل ذي فطرة إنسانية ، خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ، ويؤملون أن ينالوا جزاءً لاعمالهم أجراً حسناً . ومقاماً كريماً .

إن أبناء الملة الاسلامية ينبغي أن يكونوا — بمقتضى أصول دينهم — أبعد الناس عن هذه الصفة المهينة « الجبن » فانها أشد الموانع عن أداء ما يرضي الله ، وإنهم بما يعملونه إنما يبتغون رضاه . يعلم من في القرآن هدايته ، أن الله قد جعل حب الموت علامة الايمان ،وامتحن

الله به قلوب المعاندين ، ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين (ألم ترَ إلى الذين قيل لهم كُفوا أيديَكم وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ فلما كُتِبَ عليهم القتالُ إذا فريقٌ منهم يخشونَ الناس كخشيةِ اللهِ أو أشدَّ خشيةوقالوا ربَّنا لِمَ كتبت علينا القتالَ لولا أخَّرتَنا إلى أجَلٍ قريب ..) الخ الآيات .

الإقدام في سبيل الحق ، وبذل الأموال والأرواح في إعلاء كلمته ، أول سمة يتسم بها المؤمنون . لم يكتف الكتاب الإلهي بأن تقام الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتكف الايدي، وعدَّ ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون ، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في إعلاء كلمة الحق والعدل الالهي . بل عده الركن الوحيد الذي لا يعتد بغيره إذا هو فقد .

لا يظن أحد أنه يمكن الجمع بين الدين الاسلامي وبين الجبن في قلب واحد . كيف يمكن هذا ، وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ، ويصور الاقدام .

المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ، ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة في الأجل ، ولا ينقصه الاقدام دقيقة منه .

المؤمن من ينتظر بنفسه إلى إحدى الحسنيين : إما أن يعيش سعيداً عزيزاً ، وإما أن يموت شجاعاً شهيداً ، وتصعد روحه إلى أعلى عليين ، ويلتحق بالكروبيين ، والملائكة المقربين .

من يتوهم أنه يجمع بين الجبن وبين الايمان بما جاء به محمد ﷺ فقد خدع نفسه وغرر بعقله ، ولعب به هوسه ، وهو ليس من الايمان في شيء فمتى طهّرت أبناء الملة الاسلامية نفوسها من معرة « الجبن » ونفت عن أذهانها أشباح « الوهم » واعتصموا بحبل الله جميعاً ، عادوا كما كانوا أول نشأتهم أسوداً ، فاستردوا المفقود ، وحفظوا الموجود ، وكان لهم بين الامم ، وعند الله المقام المحمود .

كيف ربح الانكليز بالحيل والمكر ، وكيف خسر الشرقيون بالجبن والوهم ؟ كان الانكليز أمة مجتمعة القوى ، مستكملة العدد ، مستعدة للفتوحات وذلك في زمان بليت به الامم الشرقية بتفرق الكلمة ، واختلاف الأهواء ، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم ؛ وكان الشرقيون يعدُّون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الاختراع سحراً وكرامة ، فانتهز الانكليز تلك الفرصة ، واندفعوا إلى الشرق ، وبسطوا

سلطتهم على غالب أرجائه ، وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الاوربية ، التي أثارت فيهم خواطر الأوهام ، ثم زاد الوهم قوة مانصبوه من حبائـل الحيلة والختل ، حتى خلبوا قلوب المساكين ، وأذهلوهم عما في أيديهم ، بل أخذوهم عن عقولهم ، وخطرات قلوبهم ، فسلبوا أموالهم ،وانتزعوا منهم أراضيهم ، وأجلوهم عن أملاكهم . فاستغنت الأمة الانكليزية بما سلبت ، واثرت بمـا نهبت ، وترفت بما ملكت .

نعم ذهب الانكليز إلى الهند في قوى مجتمعة ، وتسابقوا مع الفرنساويين والهولانديين والبورتغاليين ، في ميدان الاراضي الهندية الواسعة ، فحازوا قصب السبق بما امتازوا بـه من الدهاء والمكر ، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذاك العهد ، أو طيب قلوبهم ،فمالت النفوس إلى الانكليز اغتراراً بوعودهم ، وتغلبوا على تلك البلاد ، واستقلوا بأمرها شيئاً فشيئاً ، وما أبقوا لغيرهم من الدول الا مضائق من الأرض لاتذكر .

وأول مااستمالوا به القلوب السالمة ، قولهم اننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمـــة « فرنسا ، وهولاندا ، والبورتغـال » فانها تريد التسلط على ممالككم ، أما نحن « الانكليز » فلا نريد إلا تحريركم ، واستقلالكم .

وهكذا ترى الآن للانكليز ، في الهند الأصلية ، والهند الصينية ، والبرمان ، سلطة على نحو مئتين وثمانين مليوناً من النفوس ، جميعها كاره لتلك السلطة الانكليزية ، شاخص ببصره متطلع للتخلص منها . يفضّل أية سلطة سواها ، ظالمة كانت أو عادلة ، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم أنه لاتوجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الانكليز ، ولا تصل إلى ما وصل اليه الانكليز من الكبرياء والجبروت .

ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا ، ومع سعة ديارهم، وتباعد أرجائها وشدة ميلهم للتملص من تلك السلطة الظالمة ، لايوجد قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة الا خمسون الف جندي انكليزي !!! تأمل

فانه لايصيب المليون من النفوس إلا أقل من مئتي نفر من الانكليز .

فلو كان ذلك المليون من الناس ذباباً ، لأصم آذان المئتين بطنينه ، أو لو كان غنماً ، لبقر بطونهم بصغار قرونه .

مع أنه يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوع من الاستقلال ، وتخشى زوال مابقي لها ،

ما لو جمعت قواها لبلغت أزيد من ثلثمائة ألف جندي، هذا فضلاً عمن يمكنه حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلت في حوزة الحكومة الانكليزية ، وزال استقلالها بالمرة .

فلو لا « الوهم » الذي استولى على المشاعر والحواس ، و « الجبن » الذي أطار النفوس شعاعاً ، حتى أذهلها عما بين يديها ، بل عما هو موجود فيها ، إن هـــذه النفوس الكثيرة العدد ، الفائقة القوة ، وهم في قبضة قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل ، والهـوان . فلو لمح أولئك المساكين أنفسهم لحقاعتبار ، وأدركوا ماآتاهم الله من القوة الطبيعية ،لانكشف لهم ضعف الانكليز ، وبرز لهمعامل الخلاص متجلياًبين أيديهم ، وملجأ النجاة تحتأرجلهم، وعلموا أن استقلالهم لأنفسهم وبلادهم لايحتاج الى تجشم تعب، ولا تكلف مشقة ، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ، ولا سفك دماء غزيرة ، أ كثر مما سفك جورج واشنطون رجـل أمريكا ومحررها من نير الانكليز !

يوجد في الدول الأوروبية من يهاب دولة الانكليز ، اعتباراً لما في سلطتها من الممالـك الواسعة والأمم العظيمة ، مما لم يبلغ عدّه رعية دولة ، أو ثلاث دول من أوروبا ، ويقيس وضعها وقوتها في تلك الأطراف القاصية بما يراه في جزائر بريتانيا ، ويغفل عن مقاومـة جزيرة ايرلاندا ، مع قربها من مجمع القوة الانكليزية ، ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك ، تساوي قدرتها عليه في بريتانيا ، أو تقرب منها . ولم يلتفت إلى أن جسم الدولة الانكليزية قد مدّ في الطول والعرض إلى حدٍ لو حصلت فيه أدنى هزّة لتقطعت أوصاله ، وتبعثرت أجزاؤه .

تفرقت قواهم في بسيط الأرض حتى لم يبق لهم في موضع قوة يخشى بأسها ، ورعاياهم في كل صقع في ضجر وتذمر وتململ لامزيد عليه ، يترقبون في كل آن زحفاً من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين .

لو التفتت تلك الدولة التي تهاب انكلترا إلى حقيقة الأمر ، لما احتاجت إلى دقة الفكر ، وتأخير الأمر ، لولا حجاب الوهم !! قاتل الله الوهم !!

والعثمانيون أعظم الدول خطأً إذ ينظرون إلى دولة الانكليز كما ينظرون إلى دولة الروس ، من حيث إن انكلترا تحكم على مئتين وثمانين مليوناً من النفوس ، فيظنون لهذا النظر

أن معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر ، وليتهم مدّوا أنظارهم إلى ما وراء ذلك ليتبين لهم حقيقة قوتها العسكرية « مجردة عن المستعمرات » وماذا يمكنها أن تسوق من الجنود إلى ميادين القتال ، ليتضح لهم أن هذه الملايين الكثيرة لا ينبغي أن تحسب في قوة انكلترا ، وإنما هي في ارتقاب الفرص لخلع طاعتها . خصوصاً ثمانين مليوناً من المسلمين في حكومة انكلترا ، يعدون الدولة العثمانية قبلة لهم ، وملاذاً يلجؤون إليه وهم أول قوم حربيين في الأقطار الهندية .

لو علم العثمانيون أن دولة انكلترا إنما تستميل المسلمين في الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ، واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء أولي الحزم ، لما صبروا وتجرعوا مرارة الصبر على تحكات الانكليز ، وحيفهم في أعمالهم وتعديهم على حقوق السلطان خصوصاً في المسألة المصرية التي هي في الحقيقة أم مسألة عثمانية ، وإسلامية .

قال : الأسباب التي هيأت سقوط مصر في مخالب الانكليز غريبة في بابها ، إذ أصبحت وهي من نفس المصريين وبقوتهم ، يعدّونها خارجة عنهم .

نعم ، إن المصريين كانوا أيام « عرابي » على قسمين ، قسم يروم حفظ الحالة القديمة ، والوقوف عندما يرسم به الخديوي ، وقسم كان يميل بأحد جانبيه إلى عرابي ، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم . فكان هذا القسم الثاني في ريبة من أمره ، ولا عزيمة مع الريب ، والقسم الأول مخلد إلى الخمول والفشل ، فدخل الانكليز بلا حرب حقيقة ، بل بنوع من الترهيب ، وقليل من الترغيب ، وخفيف من الدسائس ، صادف قلوباً مستعدة ، فأخذ منها مقاماً ، فانحلّت الرابطة ، وتفرّق الناس عن « عرابي » بزوال جانب الميل اليه من قلوبهم .

ومع ذلك ما كان يعتقد فرد منهم أن الانكليز يبتغون من البلاد شيئاً ، سوى أنهم يؤيدون « الخديوي توفيق باشا » وينقذونه من الثائرين عليه فتساهل المصريون في الأمر بحسن ظنهم في حكومة الانكليز ، مع ما جاءتهم من الحجة القوية القائمة ، على أن صاحب السيادة الشرعية « السلطان » في رضاء عن تصرفها !

بهذا فاز الانكليز ، واستقرّت أقدامهم ؛ أمّا وقد مضى الزمان الكافي لظهور غدرهم وسوء نيتهم ، فلا أظن أنه يوجد من المصريين من يميل اليهم ، بل لا يوجد إلاّ من يبغضهم ، ويتمنى فناءهم ، ويود لو يعمل عملاً لهلاكهم . ولكن « الوهم » يجسم المخافة ، ويكبح العزيمة . إن أهالي مصر كأنهم ذهلوا عن الاسباب التي مكنت الانكليز من بلادهم ؛ كأنهم

يظنون أن المصريون كانوا على كلمة واحدة في مدافعة الانكليز ثم تغلبت عليهم القوة الانكليزية وقهرتهم جميعاً . كأن المصريين نسوا ما كان بينهم ، وأن الانكليز ما دخـــلوا بلادهم إلا بمعونتهم ، ولتأييد خديويهم المنصوب بفرمان من سلطانهم .

هذا هو الوهم العجيب ! إن الذين كانوا سبباً في تغلب العساكر الانكليزية ، وحلولها في وادي النيل ، والذين لولاهم ما استقرَّ لها قدم فيه ، يظنون الآن أن تلك العساكر قادرة على قهر الأهالي عموماً ، وإخضاعهم لحكومة بريتانيا . كلاّ ! ثم كلاّ ! وإن بهذا الظن الباطل ، يستسلمون لأعدائهم كرهاً ، ويجاورونهم في أهوائهم نفاقاً .

ولا أدل على سوء نوايا الانكليز ، وسوء تدبيرهم ، وتحويل سعادة ما يحتلونه من البلاد إلى شقاء ، من النظر إلى مصر بعد أن فوضت إلى نابغة الدهر محمد علي باشا ، ثم إلى ما حل فيها من البلاء والشقاء ، بفضل الانكليز في سنين قليلة ، بعد احتلالهم مصر عقب ثورة «عرابي» .

فالنسبة بين العملين موجودة معكوسة .

وذلك أن مصر بعد ما فوضت أمورها إلى محمد علي باشا ، لم يمض قليل من الزمن ، حتى دخلت في طور جديد من أطوار المدنيـــة ، وظهر فيها شكل من الحكومة النظامية ، وتقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء .

نعم ! نالت مصر في عهد ذاك الرجل العظيم ، وعهد خلفائه من بعـده ، ما كانت تقف دونه أفكار المفكرين ، طرقت أبواب السعـادة من كل وجه ، فتقدمت فيها الزراعـة تقدماً غريباً ، واتسعت دائرة التجارة ، وعمرت معاهد العلم ، وانتشرت في أرجائها مبادىء المعارف الصحيحة ، وتقاربت أنحاؤها ، واتصلت أطرافها بما أنشىء فيها من سكك الحديد ، وخطوط التلغراف ، وتعارفت أهاليها وائتلفوا ، وقوي فيهم معنى الأخوة الوطنيـــة ، وتواصلوا في المعاملات ، وتشاركوا في المنافع ، واعتدلت المشـارب المذهبية ، حتى كان لهم زمن أحسَّ فيه كل واحد بنسبته من الآخر بأنه « وطني مصري » ، وارتفعت بذلك أصواتهم بعد ما جالت فيه أفكارهم .

تفجّرت من أرض مصر ينابيع الثروة ، وعمّت بقاعها ، وطفحت ففاض خيرهـا على ما يجاورها من الأقطار الشرقية ، بل وصل من نيلها إلى أراضي البلاد الغربية ، وتوارد إليها الغرباء ، وقصّاد الكسب من كل مكان وما خاب لهـا قاصد ، ولا أخفق فيها سعي ساع ،

فأوى في مغانيها الفقراء وعزّ بها الأذلاء ، وصارت قبلة لآمال كثيرين من الغربيين ، ومحط رحال الراجين من الشرقيين ، وكل وافد إليها يجد أهلاً خيراً من أهله ، ومسكناً خيراً من مسكنه ، وتكاثرت فيها العناصر الغريبة حتى حاكت برج بابل يوم تبلبلت الألسن .

وساد بها الأمن ، وعمت الراحة ، وضارعت في كل أحوالها نوع ما عليه الممالك الاوربية العظيمة ، وكان المتأمل في سيرها هذا ، يحكم حكماً ربما لا يكون بعيداً من الواقع ، أن عاصمتها لا بد أن تصير في وقت قريب أو بعيد ، كرسي مدينة لأعظم الممالك الشرقية ، بل كان ذلك أمراً مقرراً في أنفس جيرانها من سكان البلدان المتاخمة لها ، وهو أملهم الفرد ، كلما ألمّ خطب ، أو عرض خطر .

غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحته ، فعثر العاقل ، وفرّط المالك ، واغتر المعجب ، وتهوّر الغبي ، وضعف القوي ، فتقرب البعيد ، وألحمت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها ، وانتقضت منها أصول على وجه غير مألوف ، ففتحت الدسائس أبواب وانساب بين طبقات الناس دهاة سياسة ، وطلاّب غايات ، فتفرّق اتصال ، وتقطعت أوصال فضعفت السلطة الوازعة ، ونبذت الطاعة ، والتهبت نيران الفتن .

قضاء حلّ في تلك البلاد ، كانت أشأم نتائجه دخول الانكليز إلى مصر لتأييد الخديوي ، وقمع الثورة « العرابية » ، والاشفاق على طريق « الهند » . احتلت مصر ، ورأت أن إعادة الأمن ، وتثبيت الراحة فيها من فرائض ذمتها . فكان من التحريق ، والتدمير ، والقتل ، والشنق ، والحبس ، والإبعاد، والتغريم وما شا كل ذلك مما يطول شرحه... وعمّ الهون والذعر كل من عرف اسمه في أهل البلاد ، ما خلا أشخاصاً قلائل دخل الانكليز ، ولم يمض إلاّ زمن قليل، حتى حكموا بطرد آلاف من الوطنيين الموظفين في دوائر الحكومة، وما منهم أحد إلاّ ويتبعه عائلة ، وأولاد ، ولا قوت لهم إلاّ من مرتب عائلهم ، وما مرن على عمل للكسب سوى ما نشأ فيه من خدمة الحكومة .

ألم يمس هؤلاء الفقر ؟ ألم يعضّهم ناب الجوع ؟ ألم يهتك مستورهم ؟ ألم يضق ذرعهم ؟ ألم يصبحوا كساة بسرابيل الكآبة ، عراة من أكسية المسرة [1] ؟.

---

(١) كل هذه الأحوال يرجع تاريخها إلى ما بعد حلول الانكليز في مصر عقب الحوادث العرابية المشهورة سنة ١٨٨٢ م .

إن لم يكن كل هذا فقد كان جله ، وإن صدى أنينهم يتلى في صفحات الجرائد الوطنية العربية والافرنجية ، وسيتبع السابقين اللاحقون حتى لا يجد الوطني من المهن إلا ما لا يليق بالانكليز تعاطيه من سفاسف الأمور — كما هو الحال في الهند — .

اضطرب ميزان السلطة العامة لتعاكس قواها المختلفة ، فاشتبه الأمر على العمّال ، وظنوا أن لا تبعة عليهم فيما يعملون فانطلق ما غلّ من أيديهم ، وحكّموا أهواءهم في أداء وظائفهم ، وأدخل في الوظائف والدواوين من ليس بأهل، فخبطوا وخلطوا ، وصار الحكم في هرج ومرج .

أفعمت السجون بأعيان الرعية ، ورفعت أذناب الكرابيج لتشريح أبدانهم ، واستعملت آلات التعذيب ، وامتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقايا أموالهم ، وثمرات كسبهم ،وحدث نوع من الحكم المطلق ، وشكل من الاستبداد ، أذاقهم الأمرّين ، وبعث عليهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

غلقت أبواب العمل من وجوهه الرسمية في الادارات ، وتعطلت أشغال المحاكم ، وشخصت الأبصار لمراقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمة ، فاتسع نطاق الفوضى ، وارتفع حجاب المنعة ، فاذا الفلاح لا يبالي بعمدته والعمدة لا يبالي بمأمور مركزه ، والمأمور لا يحترم مديره ، وسرى التهاون إلى الدوائر العليا ، وعمّت الفوضى ، وعاد الأمر لقوة الساعد ، وكثرة الأعوان ، فماثت اللصوص ، وتشكلت منها عصابات ، وكثر قطع الطرق في أكثر النواحي ، وارتفعت الأصوات بالشكوى منهم في عموم الجرائد الوطنية ، فوقفت حركات الأعمال العمومية ، وظهرت الازمة ، وبدت للناس شؤون قبضت صدورهم،وعدلت بهم عن ضرورات معاشهم ، وامتنع المدينون من أداء ما عليهم لدائنيهم من التجاروالصيارفة، فقبض المقرضون أيديهم ، واحتكروا نقودهم ، لفقد ثقتهم ، واشتدت الحاجة ، وارتبكت الأحوال إلى حد لم يسمع إلا في القصص وروايات القدماء قبل محمد علي باشا . ومطالب الحكومة ، والزيادة في الضرائب ، والرسوم على أشد الحالات ، مع الإلحاح في اقتضائها وتحصيلها ، فعمّ العسر ، وأحاط الضنك ، وتقوضت آلاف من البيوت التجارية ،وأتربت أيدي الجماهير من عمّال الصناعة ، وأعدم المزارعون قاطبة ، إلا نزر يسير من حفظة الكنوز ، والمستأثرين بأموال الكافة ، نهباً وسلباً .

وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية ، والأخذ بالشبه وإن ضعفت ، واتباع بواطل التهم وإن بعدت أو استحالت ، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه ، وبلغ منها مبلغه ، فلا ترى ماراً بطريق إلا وهو يلتفت وراءه لينظر ، هل تعلق بأثوابه شرطي يقوده إلى السجن، أو يقتضي منه فدا . وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر في كل خطوة عثرة ، وفي كل نهضة سقطة ، وله من كل شاخص دهشة ، ومن كل طارق لبابه غشية .

أي شقاء ينتظره الحي في حياته أشنع من هذا ؟ !

هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر ، هذا بعض ما يضيق به الصدر وتنقبض له الانفس مما رزئوا به ، وترك الأهالي حيارى في أمورهم ، تائهين عن رشادهم، لا يعلمون ماذا يحل وينتهي بهم ، يذكرون من حكومتهم وأحوالهم السابقة — وكانت الدول الاوربية تضليلا وتغريراً ، تسميه ضيقاً وعناء واستبداداً وجوراً ، وتمنيهم بالإنقاذ منه — فيحنون إليه ويبكون عليه ، ويودون لو رجعوا إليه ، ويحسبونه غاية سعادتهم ، ومنتهى راحتهم ، بعد الحالة التي هم فيها .

ومختصر القول ، إن محمد علي باشا أوصل مصر في زمن قليل إلى أوج السعادة والمجد والاثراء مع الأمن الشامل ، والعدل الكامل . والانكليز بفضل احتلالهم أسقطوا مصر إلى حضيض الشقاء والذل والفقر وفقد الامن ومحض الجور ، كل ذلك في أقل من سنتين . فيا لله ما أعظم الفرق بين الزمنين ، ونتيجة العملين : عمل محمد علي باشا ، وعمل السادة العادلين « الانكليز » ! !

ألا فليعلم الشرقيون ، من هنود ومصريين وغيرهم ، ممن سقطوا بين مخالب الانكليز ، أن لهذه الدولة خطة تجري عليها ، ودستوراً تعمل به في البلاد ، وذلك أنها إذا رأت البلاد في قبضة سلطان أو أمير ، نازلته وضمنت لنفسها الفوز ، إما بقوة الرجال ، أو بقوة المال والمكر والاحتيال ، فلا تبالي بريتانيا بأفراد ولو كانوا سلاطين أو أمراء ، ولا بجيوشهم وقوادهم ، وإنما الذي تخشاه وتفرق منه ، قيام الامة بوجهها ، هذا هو السلاح الوحيد القاطع لحول بريتانيا وحيلها، وهذا الذي رأيناه يخلص البلاد وينجي العباد من نير الانكليز. وقد سبق فذكرنا دخولها لبلاد الافغان بستين ألفاً من الجنود المنظمة ، وكيف أنها توغلت في البلاد ، واستولت على المعاقل والحصون ، ولكن لما هب الافغانيون من كل صوب وناحية،

وصدموها باسم أمة الافغان لا باسم أمير أو سلطان ، اضطرت لترك البلاد وولت الادبار بعد أن صرفت ثلاثين مليوناً من الجنيهات ، فضلاً عن دماء رجالها وقوادها .

أي سلطان كان يمكنه أن يكشف الانكليز عن مستعمرة « أميركا » لو لم يصدمها اتحاد الامريكانيين ، وينهضون باسم الامة الاميريكانية مستميتين في طلب استقلالهم . نعم لما رأت انكلترا أن الامة هي التي تقاومها وتخلع طاعتها ، أكرهت على العمل بدستورها، وجرت على خطتها بترك البلاد لاهلها ، ودهاة الانكليز أعقل من أن يتوهموا إمكان إفناء أمة بأسرها تتفق وتستبسل وتطلب الموت في سبيل استقلالها .

هذا الذي علمناه ، وشهدت به الحوادث ، وأيدته الوقائع ،

فاذا اتحد المصريون ، ونهضوا كأمة لا ترى بداً من استقلالها ، ولا تقبل به بديلاً . وثبتوا على شيء من الجور والحيف والقتل في بادىء الامر ، وصبروا ورابطوا وارتبطوا ، فبشر المصريين بحسن المآل ، ونيل الاستقلال إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أما الهند ، فقد بدت طلائع خير تبشّر بقرب نهضتها من كبوتها ، وتيقظها من غفلتها ، وذلك أن الانكليز قد جروا في الهند على قاعدة « فرّق تسد » ، وقد تمكنت من تفريق المسلمين والوثنيين بعضهم عن بعض ، وغرست في المنصرين بذور البغضاء ، بالميل تارة إلى جانب المسلمين ، وتارة إلى الآخرين ، وكان إيثارها للوثنيين أظهر ، واعتمادها عليهم بتذليل بعضهم بعضاً أقوى ، إذ ليس فيهم من البأس والنجدة ما في المسلمين ، ولا ضاع لهم من العزة والسلطان ما ضاع للمسلمين . فظل الوثنيون في رضوح واسترضاء للانكليز ، يفرحهم ذلك الايثار الطفيف في سفاسف الأمور والوظائف ، ويبعدهم عن المسلمين حتى جاء دور القهر إليهم، فأخذت تستلب ملك «نواب» الوثنيين وراجاتهم، وتذيق أمراءهم أنواع الذل والهوان. وبالإجمال فقد سقطوا تحت مكبس الضغط والتضييق مع إخوانهم المسلمين، فالتحمت الأجزاء المتفرقة ،وتقاربت القلوب المتنافرة ، وأخذت أفكارهم تجول في المصير ، وسُبُل الخلاص ، ولسوف تعلو به أصواتهم .

آن لنسيم الحياة والنشاط ، أن يهب على الممالك الشرقية وأهلها ، فتهب من رقدتها ، وتستيقظ من غفلتها وسنتها ، فتجمع كلمتها ، وتوحّد قوّتها .

آن للافغانيين أن يرفعوا أبصارهم ، ويستقبلوا باليقظة حظهم بفكر ثاقب ، وعقل رشيد، ويتقدموا للاتفاق مع إخوانهم الايرانيين ، فليس بينهم ما يصح عليه الاختلاف في المصالح العمومية ، فالجميع من أصل واحد ، وتجمعهم رابطة واحدة ، وهي أشرف الروابط «رابطة الدين الاسلامي » وليعلموا أن استمرارهم على التخالف ، جلب ويجلب الضرر عليهم وعلى إخوانهم الفارسيين ، وعلى إخوانهم المسلمين في الهند ، وعموم سكنتها .

وعلى الفارسيين ، والأفغانيين ، أن يراعوا الكلمة الجامعة ، والصلة الجنسية ، ولا يجعلوا الاختلاف الفرعي في المذهب ، سبباً في خفض الكلمة الاسلامية ، وقطع الصلة الحقيقية ، فليس من العقل والحزم ، أن يقام من خلاف جزئي ، علة لاضمحلال الكل .

قد علم كل من القبيلين أن الاختلاف بينها هو الذي جلب على كل منها ما جلب . فعلى الأفغانيين أن يجوزوا عن هذا الاختلاف الفرعي إلى الوحدة الاصلية ، ويمدوا سواعدهم لمحالفة إخوانهم ، ويجعلوا تلك « الوحدة » سياجاً لأوطانهم ، وعدّة لمكافحة أعدائهم ،ومنبعاً فيّاضاً لخير بلادهم ، وملاذاً لجيرانهم ، ومثالاً تنسج على منواله عموم المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، فينالوا شرفاً رفيعاً ، ويورثوا أعقابهم مجداً مخلداً .

وليس ببعيد على همم الايرانيين وعلو أفكارهم ، أن يكونوا أول القائمين بتجديد «تلك الوحدة الإسلامية » وتقوية الصلات الدينية ، كما قاموا في بداية الإسلام بنشر علومه، وحفظ أحكامه ، وكشف أسراره . فلقد عملوا وما قصّروا ، بل صرفوا قصارى الجهد في خدمة الشرع الشريف وتوسلوا لذلك بأجل الوسائل .

نعم !! البخاري ، ومسلم ، والنيسابوري ، والترمذي ، وابن ماجه، وأبو داود ، والبغوي وأبو جعفر البلخي ، والكليني وغيرهم ممن أنبتتهم أراضي إيران .

أبو بكر الرازي الطبيب الشهير ، والإمام فخر الدين الرازي ممن نشؤوا في طهران .

أبو حامد الغزالي حجة الإسلام ، وأبو إسحق الاسفرايني ، والبيضاوي وخواجه نصير الدين الطوسي ، والابهري ، وعضد الملة والدين وغيرهم من علماء الكلام والاصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس ، وهم فخر المسلمين .

أبو علي ابن سينا الفيلسوف الشهير ، وشهاب الدين المقتول ومن كان على شاكلتهم ، ممن جبلوا من تراب فارس .

إن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربي ، وضبط أصوله ، وتأسيس فنونه ، منهم سيبويه ، وأبو علي الفارسي ، والرضي ، ومنهم عبد القاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة لبيان إعجاز القرآن ، وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية .

وصاحب الصحاح الجوهري ، من إحدى قراهم ،ومجد الدين الفيروز آبادي من إحدى بلدانهم ، الزمخشري جار الله ، والسكاكي ، وأبو الفرج الاصفهاني ، وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم ممن بيّنوا دقائق القرآن وشيدوا الدين ، كلهم من أرض فارس .

الطبري أول المؤرخين ؛ والاصطخري ، والقزويني ، أول الجغرافيين كانوا من بلاد فارس .

الشبلي كان من نهاوند ،وأبو يزيد البسطامي من بسطام ،والاستاذ الهروي وهوالاستاذ الحقيقي للشيخ الاكبر محي الدين بن العربي ، كان من هراة ، وكلها بلاد فارس .

هل ينسى صدر الشريعة ، وفخرالاسلام البزدوي ،والآمدي، والمير غيناني،والسرخسي والسعد التفتازاني ، والسيد الشريف ، والابيوردي وكلهم من أبناء فارس .

القطب الشيرازي ، والصدر الشيرازي ، ورأس الحكمة في المتأخرين مير باقر الداماد ، أمير فندركسي وغيرهم ؛ كانوا من بلاد فارس .

أي فضل كان ولم يكن لهم فيه اليد الطولى ، أي مزية من الله بها على الاسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها . نعم وفيهم جاء قول المصطفى ﷺ « لو كان العلم في الثريا لناله رجال من فارس » .

فالفارسيون ، إذا تذكروا أياديهم في العلم ، ونظروا إلى آثارهم في الإسلام نهضوا ليكونوا للوحدة الدينية دعامة ، كما كانوا للنشأة الاسلامية وقاية . فهم بما سبق لهم أحق الناس بالسعي في استرجاع ما كان لهم في فتوة الإسلام ، وهم أجدر المسلمين بوضع أساس « للوحدة الإسلامية » وما ذلك ببعيد على طيب عناصرهم ، وقوة عزائمهم .

أظن حان وقت ندائهم بالوحدة مع الأفغانيين ، والتحالف معهم على مقاومة العادين ليكونوا بالاتحاد معهم حصناً حصيناً ، وحرزاً منيعاً تقف دونه أقدام الطامعين .

أظنهم لم ينسوا أن استيلاء الانكليز على الممالك الهندية ؛إنما تمّ بوقوع الخلاف بينهم وبين

الافغانيين ، هل يخفى عليهم أن كل مسلم في الهند شاخص ببصره إلى طرف بنجاب ، ينظر قدومهم إذا اتحدوا مع إخوانهم الافغانيين .

حصلت لهم تجارب كثيرة وشهدوا من مظاهر الحوادث مافيه أكبر عبرة ، فهل يصح بعد هذا أن يستمروا على التجافي والتباعد ، مع علمهم أن الوحدة منبع الشوكة .

هذا آن التآخي والتوافق ، هذه أوقات التحالف والتواثق ، أحاط الاعداء ببلادهم شرقاً وغرباً ، وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه ، حتى يمكنه الفرصة من شن الغارة على أطراف بلادهم ، فلا يضيعوا الفرص وليعلموا أن اتفاق سلطنة الشاه مع إمارة الافغان توجد قوة إسلامية جديدة في الشرق تسرع للانضمام اليها والاتحاد معها سائر الطوائف الاسلامية مع أمرائها وحكامها ، وينبعث فيهم وفي سائر المسلمين حياة جديدة ، وتجدد لهم آمال جليلة ، وتنعش بذلك أرواح المؤمنين . وما أجلّها نعمة ، وأهيبها سطوة ، وأمنها قوة ، إذا توسط عقد تلك الوحدة الإسلامية ، صاحب الخلافة العظمى والإمامة الكبرى جلالة السلطان ، فيستردوا المغصوب من ملكهم ، ويسترجعوا المنهوب من اموالهم ، ويستعيدوا مجدهم وما بان من عزهم ، ويرجعوا الملك الاسلامي كما كان ، مسيطراً مابين نقطة الغرب الاقصى إلى أحشاء الصين ، في عرض مابين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء ، وتعاد السيرة الاولى التي كانت لملوك الاسلام العظام الذين أداروا بشوكتهم أكثر المعمور من الكرة الأرضية ، اولئك الذين ما كان يهزم لهم جيش ، ولا ينكس لهم علم ، ولا يرد قول على قائلهم ، كان الخليفة العباسي إذا نطق بالكلمة ، خضع لهافغفور الصين وارتعدت منها فرائص أعظم الملوك في أوروبا ، وكم نبغ في القرون الوسطى من أقيال الملوك والسلاطين ، مثل محمود الغزنوي ، وملكشاه السلجوقي ، وصلاح الدين الأيوبي ، وفي المشرق مثل تيمور الكوركان ، وفي الغرب مثل السلطان محمد الفاتح ، والسلطان سليم ، والسلطان سليمان .

كانت لأساطيل المسلمين سيادة لا تبارى في البحار ، الأبيض ، والأحمر ، والمحيط الهندي ، ولها الكلمة العليا فيها إلى زمن غير بعيد ، كان مخالفوهم يدينون للمكوت فضلهم ، كما يذلون لسلطان غلبهم . والمسلمون هم هم يملؤون اليوم تلك الأقطار والأمصار ، لا يعوزهم للعود إلى ذلك المجد الباذخ ، والعز الشامخ ، إلاّ وحدة تتم بإذن الله ، وفضل يعم بحول الله ، وما على الله أمر عسير وهو جلّ جلاله على كل شيء قدير نعم المولى ونعم النصير.

استغرابه ميل الشرقيين في هـذا العصر إلى حب التطويل في المقـال ، والمماطلة بالأفعال ، على عكس ما كان عليه السلف ، وأمثلته على ذلك :

قال : أرى للبلاغة في القول ، والإيجاز بالبيان ، والاعجاز فيه ، علاقة مع عزة سلطان الامة ، وزمن فتوتها ، فكم من خطوب ألمّت وكادت تثير حروباً ، وتحدث شراً مستطيراً ، أزالته خطبة ، وحسن بيان بإيجاز . وكم من جيش سمع من أميره كلمات فاستمات وذلّت عنده الحياة ، وكم من أمر خطير ووعظ وتحذير تضمنه كتيب صغير . دونك وخطبة الصديق بعد بيعته حيث قال :

أيها الناس ! وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوّموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة .

لأغمدنّ سيفي حتى يستلّه الحق ، ولأعملنّ بالحلم حتى لا تنفع إلاّ الشدة ، الضعيف منكم قوي عندي حتى آخذ الحق له ، والقوي ضعيف حتى آخذ الحق منه ، لا يدعْ أحد منكم الجهاد ، فإنه لا يدعـــه قوم إلاّ ضربهم الله بالذل ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ... الخ .

ومن مواعظ الصديق لأسامـة بن زيد وهو أمير الجيش : لا تخونوا ، ولا تغـدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيراً ؛ وسوف تمرون برهبان قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ...

ومن بليغ وصاياه وموجز حكمه رضي الله عنه ، مما لا يستغني عنه أمير ولا قائد جيش ، ولا عامل ولا وليُّ أمر – مدى الدهر – قول ليزيد بن أبي سفيان :

« إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم ، وابـدأهم بالخير ، وعدهم إياه ، وأصلح نفسك يصلح لك الناس ، وصلّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها ، والتخشع فيها .

وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم ، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ، ولا ترينهم فيروا خللك ويعلموا علمك ، وأنزلهم في ثروة عسكرك ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولي لكلامهم ، ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك .

وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك ، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الاخبار ، وتنكشف عندك الاستار ، وأكثر حرسك ، وبددهم في عسكرك ، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه ، وعاقبه في غير إفراط ، واعقب بينهم في الليل ، واجعل النوبة الاولى أطول من الاخيرة فإنها أيسرهما ، ولا تخف من عقوبة المستحق ، ولا تلجنّ فيها ، ولا تسرع إليها ، ولا تخذلها مدفعاً ، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ، ولا تجسس عليهم فتفضحهم ، ولا تكشف الناس عن اسرارهم ، واكتف بعلانيتهم ، ولا تجالس العبّاثين ، وجالس أهل الصدق والوفاء ، واصدق اللقاء ، ولا تجبن فيجبن الناس ، واجتنب الغلول « البخل والشح » فانه يقرب الفقر ويدفع النصر ، وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له ... انتهى » .

أيُّ خير لم تدل عليه هذه الوصايا ؟ وأيُّ شر لم تحذر منه ؟ وهل باستطاعة المجلدات أن تقوم بما قامت به هذه الاسطر القليلة والعبارة الوجيزة ! !

مَن ؟ مِن فحول الفصاحة ، وأقطاب البلاغة ، وفطاحل فقهاء الامة ، وأعلام المجتهدين ، كان يطمع أن يجمع أصول القضاء ، وأم فروعه كما جمعه الفاروق في كتابه الصغير المشهور لأبي موسى الاشعري حيث قال له :

« أما بعد فإن القضاء فريضة محكَمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدّي إليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، وآس في وجهك ومجلسك وعدلك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلاّ صلحاً أحلّ حراماً أو حرم حلالاً ؛ ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهمَ ، الفهمَ ، فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ؛ ثم اعرف الامثال والاشباه ، وقس الامور بنظائرها ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بيّنة أمداً ينتهي إليه ، فان أحضر بيّنته أخذت له بحقه ، وإلاّ استحللت القضية عليه ، فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعماء ، وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم ، فإن استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ، ويحسن به الذكر .. انتهى » .

ومن موجز ومعجز وصايا الفاروق لامراء الجيوش ، ما قاله لسعد بن مالك بن وهب حينما أمّره على حرب العراق :

« لا يغرّنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ، فان الله لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعة ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويذكرون عنده بالطاعة ، فانظر الامر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه ، وعليك بالصبر » .

وقد أوصى عتبة بن غزوان حين وجهه إلى البصرة بقوله : « يا عتبة ! إني قد استعملتك على أرض الهند وهي حومة من حومة العدو ، وأرجو الله أن يكفيك ما حولها ويعينك عليها ... واتق الله فيما وليت ، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر مما يفسد عليك أخوتك ، وقد صحبت رسول الله ﷺ ، فعززت به بعد الذلة ، وقويت به بعد الضعف ، حتى صرت أميراً مسلطاً ، وملكاً مطاعاً ، تقول فيسمع منك ، وتأمر فيطاع أمرك ، فيالها من نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك ، وتبطرك على من دونك ، واحتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية ، ولهي أخوفها عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم ، أعيذك بالله ونفسي من ذلك ، إن الناس أسرعوا إلى الله حتى إذا رفعت لهم الدنيا فأرادوها ، فأرد الله ولا ترد الدنيا ، واتق مصارع الظالمين » .

نعم تسنّى للفاروق أن يأتي على خير نتائج الأحكام ، وما ينتظره النـــاس على اختلاف طبقاتهم من عدل الحكام ، « بأربعة كلمات » حيث قال للمغيرة بن شعبة حينما ولاّه : يامغيرة « ليأمنك الأبرار ، وليخفك الأشرار » .

ومن معجز الايجاز ذلك الكتاب الذي حوى عزل أمير ، وتولية أمير ، وعظم الذنب الذي أسند للمعزول ، ولزوم تسليم العمل للخلف والسرعة بالمجيء ، وفي كل ذلك لم يتجاوز السطر ، وإليك نص الكتاب الذي بعثه إلى المغيرة :

« أما بعد فانه بلغني نبأ عظيم ، فبعثت أبا موسى أميراً فسلم إليه ما في يدك ، والعجل » .

وهكذا فانك ترى في طيات تلك الكلمات الموجزة قد انطوى العدل المطلق ، ومنها بدأ علم الأخلاق واليها انتهى مع حفظ وصون الشعور ، واليك ما قاله لعمرو بن العاص : ان الله خلق الناس أحراراً فلِمَ تستعبدونهم ؟

ومن خطبة له أيها الناس اني ما أرسل لكم عمالاً ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم وانما أرسلهم اليكم ليعلموكم ويرشدوكم ، فمن فُعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ فو الذي نفس عمر بيده لأقصنه منه . . . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تحمدوهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم » .

لانه حسب نزول العرب في الغياض يستحلون فيه برد الماء وطيب الهواء وظل الاشجار، فيسترخون ما وجدوا في العيش رخاء وتذهب منهم النجدة ، ويضعف منهم البأس — هذا ما خشي عليهم منه وحسبه رضي الله عنه مضيمة .

وكان مع الاصحاب رضي الله عنهم يرمي في نصحه ووصاياه وبسيط أقواله ، إلى غرض جيد من الحزم والتيقظ . من ذلك أنهم ذكروا رجلاً عنده فقالوا يا أمير المؤمنين ! فاضل لا يعرف من الشر شيئاً ، قال « ذاك أوقع له فيه ! »

وما زال معين الحكمة وحسن البيان مع الإعجاز في الايجاز ، يجريان مع الدولة صعوداً وارتقاءً وانبساطاً ، حتى إذا أتى دور التقهقر ، والانحطاط ، أخذ اللسان وحسن البيان ، وتلك البلاغة والفصاحة ، في السقوط والسخافة ، وفساد التركيب ، وسقم المعاني وسوء اختيار الألفاظ لدرجة يتعذر على الغالب معها فهم المراد ، ولا أرى حاجة للاتيان بأمثلة ، لأننا من المعاصرين لابتلاء اللسان بهذا الداء ، قال : خرجت من صلاة الجمعة في المسجد الجامع في البصرة ، وفي نفسي حسرة أن أسمع الخطيب أعرب ولو كلمة واحدة في خطبة مكتوبة في يده ، فترحمّت على سيبويه ، وعلمت أن كتابه « البحر » هو الذي أغرق البصريين والكوفيين ، فغاص الاعراب معهم إلى القعر ؟ هذا من حيث الاعراب ، وأما من حيث المعنى، فالى الله المشتكى .

منبر الخطبة في المساجد الجامعة شيده المصطفى ﷺ ليرتفع منه صوت التعليم للمسلمين، والايقاظ وتحريك الهمة ، والحث على جمع الكلمة ، وما فيه سعادة الدارين ، يصير إلى ما صار اليه اليوم ! وعلى منابر البصرة ، والكوفة ، ارتقى مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره من أكابر الصحابة والتابعين ، بحور البلاغة ، وفحول الفصاحة ، وحسن البيان ، يرتقي ذلك المنبر اليوم أجهل الأعراب والعجم ويخطب الناس وقد ركبوا بعضهم احتشاداً وغصّ بهم فناء الجامع على رحبه ، ولا تكون الخطبة إلا « أن الورد اللطيف فتح من عرقه الشريف». وهكذا أكثر خطباء المنابر في الأمصار فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ومن العبث القيام لعمل قياس مع السلف الصالح ، ولو كان القياس مع الفارق فقط لهان الأمر وخف الشر ، ولكنه العكس التام .

فإذا قلنا ان السلف كان لا ينقض عهداً ، ولا يخلف وعداً ، وأردنا أن نعلم مانحن عليه من هذا القبيل ، فما علينا إلا أن نعكس الأمر ، فيكون نحن الخلف ، لا نحفظ عهداً ، ولا نفي وعداً ، ، وهكذا مضاؤهم في العمل وتسويفنا ، إيجازهم وتطويلنا ، صبرهم وجزعنا ، شجاعتهم وإقدامهم ، جبننا وإحجامنا ، عزة نفسهم وإباؤهم وذلنا واستكانتنا ، وإلى ماهنالك من المخزيات (إنّ اللهَ لا يغيرُ ما بقومٍ حتى يُغيروا ما بأنفسهم) (ذلك بأنّ اللهَ لم يكُ مغيراً نعْمةً أنعَمها على قومٍ حتى يُغيروا ما بأنفسِهم) .

تلك آيات الكتاب الحكيم تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، ولا يرتاب فيها إلا القوم الضالون . هل يخلف الله وعده ووعيده ، وهو أصدق من وعد ، وأقدر من أوعد ؟ هل كذب الله رسله ؟ هل ودع أنبياءه وقلاهم ؟ هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال ؟ « نعوذ بالله » ؟ هل أنزل الآيات البينات لغواً وعبثاً ؟ هل افترت عليه رسله كذباً ؟ هل اختلقوا عليه إفكاً ؟ هل خاطب الله عبيده برموز لا يعلمونها وإشارات لا يدركونها ؟ هل دعاهم إليه بما لا يعقلون ؟« نستغفر الله » .

أليس قد أنزل قرآناً عربياً غير ذي عوج ، وفصّل فيه كل أمر ، وأودعه تبياناً لكل شيء « تقدست صفاته وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً » .

هو الصادق في وعده ، ووعيده ، ما اتخذ رسولاً كذاباً ، ولا أتى شيئاً عبثاً ، وما هدانا إلاّ سبيل الرشاد ، ولا تبديل لآياته ، تزول السماوات والأرض ، ولا يزول حكم من أحكام كتابه ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

يقول الله (ولقد كتبْنا في الزَبورِ من بعدِ الذكرِ أنّ الأرض يرِثُها عباديَ الصالحون) ويقول (ولله العزةُ ولرسولهِ وللمؤمنين) وقال(وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين) وقال (ودينِ الحقّ ليظهرَه على الدينِ كلّه وكفى بالله شهيداً) .

هذا ما وعد الله في محكم الآيات مما لا يقبل تأويلاً ، ولا ينال هذه الآيات بالتأويل إلاّ من ضل عن السبيل ، ورام تحريف الكلم عن مواضعه . هذا عهده إلى هذه الأمة المرحومة ولن يخلف الله عهده ، وعدها بالنصر والعزة ، وعلوّ الكلمة ، ومهّد لها سبيل ما وعدها إلى يوم القيامة ، وما جعل لمجدها أمداً ، ولا لعزتها حداً .

هذه أمة انشأها الله من قلة ، ورفع شأنها إلى ذروة العلا ، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات ، ودكّت بعظمتها عوالي الراسيات ، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات ، وذابت للرعب منها أعشار القلوب هال ظهورها الهائل كل نفس ، وتحيّر في سببه كل عقل ، واهتدى إلى السبب أهل الحق ، فقالوا قوم كانوا مع الله فكان الله معهم ، جماعة قاموا بنصـــر الله واسترشدوا بكتابه فأمدهم بنصر من عنده .

هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر ، معوزة من الاسلحة ، وعدد القتال ، فاخترقت صفوف الأمم ، واختطّت ديارها ، فلا أبراجُ المجوس وخنادقهم دفعتها ، ولا قلاعُ الرومان ومعاقلهم صدّتها ، ولا صعوبة المسالك عاقها ، ولا أثّرَ في همتها اختلاف الأهوية ، ولا تهيبت نفوسها غزارة الثروة عند من سواها ، ولا راعها جـلالة ملوكهم وقدم بيوتهم ، ولا تنوع صنائعهم ، ولا سعة دائرة فنونهم ، ولا عاق سيرها أحكام القوانـين ، ولا تنظيم الشرائع ، ولا تقلّب غيرها من الأمم في فنون السياسة .

كانت تطرق ديار القوم ، فيحقرون أمرها ، ويستهينون بهم ، وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة « العرب بعد الاسلام » تزعزع أركان تلك الدول العظيمة ، وتمحو أسماءهم من لوح المجد ، وما كان يختلج بصدر أن هـــذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الامم الكبيرة ، وتمكـن في نفوسها عقائد دينها ، وتخضعها لأوامرها ، وعاداتها وشرائعهـا . لكن كان كل ذلك ، ونالت تلك الامة المرحومة على ضعفها ، ما لم تنله أمة سواها .

نعم قوم صـدقوا ما عاهـدوا الله عليه ، فوفّاهم أُجورهم مجداً في الدنيا وسعـادة في الآخرة .

هذه الأمة اليوم يبلغ عددها مئتـين وثمانين مليوناً — على وجه التقريب — وأراضيها كما سبق بيانه آخذة من المحيط الاطلانتيكي إلى أحشـاء بلاد الصين ، تربة طيبـــة ، ومنـــابت خصيبة ، وديار رحبة ، ومع ذلك نرى بلادهـا منهوبة ، وأموالها مسلوبة ، تتغلب الأجانب على شعوب هـذه الأمة شعباً شعباً ، ويتقـاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة ، وممالكها مملكة بعد مملكة ، وولاية بعد أخرى ، ولم يبقَ لها كلمة تسمع ، ولا أمر يطاع ، حتى إن الباقين من ملوكها ، يصبحون كل يوم في ملمّة ، ويمسون في كربة مدلهمّة ، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التي تلم بهم ، وصار الخوف عليهم أعظم من الرجاء لهم .

هذه هي الأمة التي كانت الدول العظام يؤدون لها الجزية استبقاء لحياتهن ، وملوكها في هذه الأيام يرون بقاءهم في التزلف إلى تلك الدول الأجنبية ؟ يا للمصيبة ! ويا للرزيئة ! أليس هذا بخطب جلل؟ أليس هذا ببلاء نزل؟ ما سبب هذا الهبوط ، وما علة هذا الانحطاط والسقوط ؟ هل نسيء الظن بالوعود الإلهية ؟ « معاذ الله » ! هل نستيئس من رحمة الله ، ونظن أن قد كذب علينا ؟ « نعوذ بالله » ! هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد أن أكده لنا ؟ « حاشاه سبحانه » ! لا كان شيء من ذلك ، ولن يكون ، فعلينا إذاً أن ننظر إلى أنفسنا ، ولا نلومنا إلا عليها . إن الله سبحانه وتعالى بحكمته قد وضع لسير الامم سنناً متبعة ثم قال (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) .

أرشدنا تعالى في محكم آياته إلى أن الامم ما سقطت من عرش عزها ، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود ، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة. إن الله لا يغير ما بقوم ، من عزة وسلطان ، ورفاهة وخفض عيش ، وأمن وراحة ، حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم ، من نور العقل ، وصحة الفكر ، وإشراف البصيرة ، والاعتبار بأفعال الله في الامم السابقة ، والتدبر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ثم الفناء ، لعدولهم عن سنة العدل، وخروجهم عن طريق البصيرة والحزم والحكمة . حادوا عن الاستقامة في العمل ، والصدق في القول ، والسلامة في الصدر ، والعفة عن الشهوات ، والحمية على الحق ، والقيام بنصره ، والتعاون على حمايته . تركوا الحق ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمته ، واتبعوا الاهواء الباطلة ، وانكبوا على الشهوات الفانية ، وأتوا عظائم المنكرات . خارت عزائمهم فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة ، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق ، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة المعتبرين !!.

هكذا جعل الله بقاء الامم ونماءها في التحلي بالفضائل التي أشرنا إليها ، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها . سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الامم ، ولا تتبدل بتبدل الاجيال ، كسنته تعالى في الخلق والايجاد ، وتقدير الارزاق ، وتحديد الآجال ، علينا أن نرجع إلى قلوبنا ونمتحن مداركنا ، ونسبر أخلاقنا ، ونلاحظ مسالك سيرنا ، لنعلم هل نحن على سير الذين سبقونا بالايمان ؟ هل نحن نقتفي أثر السلف الصالح ؟ هل غير الله ما بنا قبل أن نغير

ما بأنفسنا ، وخالف فينا حكمه ، وبدّل في أمرنا سننه ؟ « حاشاه وتعالى عما يصفون » !
بل صدقنا الله وعده، حتى إذا فشلنا ، وتنازعنا في الامر ، وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا ما يحبون ، وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئاً ، فبـدّل عزنا بالذل ، وسموّنا بالانحطاط ، وغنانا بالفقر ، وسيادتنا بالعبودية .

نرى الاجانب عنا يغتصبون ديارنا ، ويستذلون أهلنا . ويسفكون دماء الابرياء من إخواننا ، ولا نرى في أحد منا حراكاً .

هذا العدد الوافر ، والسواد الاعظم من هذه الملة وغيرهم من الشرقيين لا يبذلون في الدفاع عن أوطانهم ، وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم ، يستحبون الحياة الدنيا ، ويود كل واحد منهم لو يعيش ألف سنة وإن كان غذاؤه الذلة ، وكساؤه المسكنة ، ومسكنه الهوان.

تفرقت كلمة الشرقيين عموماً ، والمسلمين خصوصاً « وهم أصحاب الملك المسلوب ، والمال المنهوب » شرقاً وغرباً ، وكاد يتقطع ما بينهم ، لا يحنُّ أخ لاخيه ، ولا يهتمّ جار بشأن جاره، ولا يرقب أحدنا في الآخر إلاًّ ولا ذمة ، ولا نحترم شعائر ديننا ، ولا ندافع عن حوزته ، ولا نعززه بما نبذل من أرواحنا وأموالنا حسبما أمرنا . أيحسب اللابسون لباس المؤمنين ، أن الله يرضى منهم بما يظهر على الالسنة ولا يمس سواد القلوب ، هل يرضى الله عنهم بأن يعبدوه على حرف ، فإن أصابهم خير اطمأنوا به وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم ، خسروا الدنيا والآخرة .

نسأل الله الحماية والهداية إلى سواء السبيل فهو حسبنا ونعم الوكيل .

رأيه في المستعمرات والمستعمرين ، وأن الاستعمار لاي دولة مهما تعاظمت قوة واقتداراً فمستعمراتها إن هي إلاّ ثوب عارية قابل للاسترداد .

قال : لقد برزّ الاوربيون بضروب السياسة لتوسيع ممالكهم ، وتفننوا بايجاد الوسائل المؤدية لذلك ، وكان أسبقهم في الدهاء وأكثرهم في الاستيلاء « الانكليز » وهم في مقدمة من رأى من دول الغرب ، أن فتح البلاد ، وتملكها بالجيوش والكفاح والقتال، من مزعجات الامور ، وأن الدخول من باب المكر واللين والخديعة والختل ، أوفر وأسهل وأقرب وأفعل فاعتمدت هذا الاخير سلاحاً ، ونالت به نجاحاً وفلاحاً ، وتركت الاول وهو « الحرب والقتال ، وفتح البلاد غلباً وقهراً ، ورجمت الثاني وألبسته من الاسماء طيلساناً لين الملمس هين

الملبس ، ودعته « بالاستعمار » وما يؤخذ من الممالك « مستعمرات » ومن يحكم من الناس فيها « بستعمرين » ، وجرت في هذا المضمار فكانت (الجلتي) وحازت قصب السبق ، وتبعها غيرها من الدول فكانوا « السكيت » .

إن هذا « الاستعمار » لغة واصطلاحاً ، مصدراً واشتقاقاً ، لا أراه إلاّ من قبيل أسماء الأضداد ، وهو أقرب إلى « الخراب والتخريب » وإلى « الاسترقاق والاستعباد » منه إلى « العمار والعمران والاستعمار » . لا تسير دول الاستعمار إلاّ إلى البلاد الغنية في ثروتها ومعادنها وخصب تربتها ، ومن كان أهلها في الدرك الاسفل من الجهل ، قد خيّم عليهم الخمول ، لا يبدون حراكاً ، ولا يقربون عراكاً .

وإذا صادفت دول الاستعمار — على طريق الشذوذ — في بعض الممالك ، أو المقاطعات مقاومة من سلطان أو أمير ، فما هي إلاّ مناوشة صغيرة حربية — مع تلك المعدات الحديثة — وقد سقط الملك أو الامير أسيراً ، فسيق مع أهل بيته ذليلاً حقيراً ، وحجر عليه في أضيق البلدان ، وأبعدها عن العمران وتدخل المملكة أو الجزيرة أو المقاطعة ، وتنتظم في سلك المستعمرات ، فتصبح أعزة البلاد أذلاء ، ويحل محل الحرية الشخصيـــة الاستعباد وكمّ الافواه ، وينتصب الميزان ليحاسب من تطرف عينُـه من الاهلين ، أو يشخص ببصره ، أو يلتفت إلى ورائه ، ليس لاحد من خيرات بلاده شيء وكل الضرائب والضريبات ، والشر والويلات لاهل البلاد وعليهم لا يشاركهم بذلك أحد .

هذا إذا كان الدخول للبلاد « بلعبة حربية » . وأمّا إذا دخلوا من باب الانتصار للأمير أو تثبيت الملك ، أو قمع الثورة ، وكانوا في ذلك اللباس ، لباس الأصدقاء الامناء المخلصين ، أو محبين للشعب ورقية وتعليمه دروس الحكم الذاتي ليستغني عنهم ويحكم بلاده بذاته !! فهناك تبقى مظاهر الأمور محفوظة ، وبعض التقاليد التافهة مأمونة ، يشكلون للأحكام ، وإدارة مهام البلاد ، هيا كل من الناس ، ويتركون معهم أمير البلاد قبّة جوفاء يرجع منها صدى الصوت فقط ، وليس لهم من الأمر الاّ اتباع الأمر لاغير .

ومختصر القول ، إن الاستعمار بمعناه الصحيح ، ومبناه الصريح : هو تسلط دول وشعوب أقوياء علماء ، على شعوب ضعيفة جهلاء ، ولا يخرج عامل الغلب والقهر ، عما ذكرناه فيما سبق

وهو « القوة والعلم يحكمان ويتحكمان بالضعف والجهل » . سنّة ثابتة ، وقانون متبع في الكون . .

ولما كان لحياة الامم والدول ، أدواراً وآجالاً ، ولحدوثها وتكوّنها وتعاليها ثم توقفها وانحطاطها ، أسباباً وعوامل ، هكذا وجب أن يكون الاستعمار خاضعاً لتلك النواميس الكونية ، بمعنى أنه يصل إلى حد محدود وأجل معلوم ، وانقضاء أجل الاستعمار إنما يتم بزوال الأسباب التي مكنت أهله من التسلط ، وأكرهت الشعوب على الخضوع لهم .

نعم متى ضعف ما كان سبباً في الصعود ، يحصل الهبوط والانحطاط ، ومتى زال ما كان سبباً في السقوط ، يحصل الصعود . دور للحاكم والمحكوم ، وقاعدة هي بحكم اللازم والملزوم .

يحصل للضعيف من صدمة القوي ، « دهشة ورجفة » ؛ ويحدث من آثار العلم على الجاهل « خشية » ، فيقف بين هاتين القوتين مندهلاً حائراً ، ذليلاً صاغراً ، كما هو الحال مع أهل الاستعمار ، والمستعمرين ، إذ يمر الدور الاول بين تجبر وتكبر وعسف وجور ، وأهل المستعمرات قد أدهشتهم المفاجأة ، وأذهلتهم الصدمة ، فيقابلون كل قول بالسمع والطاعة ويفعلون مايؤمرون بكمال الخضوع ، فيصادرون بمعنوياتهم ، من حرية شخصية ، وعزة نفسية ، وحرمة ملية ، أو جامعة قومية . ثم يأتي دور القضاء على مادياتهم ، فيحرمون من خيرات بلادهم ، ومن كسب تجارتهم ، واستثمار مناجمهم ، وبالاجمال الحرمان المطلق من كل خير ، وإنزال كل شر وضير ، فيرزحون آخر الأمر تحت أثقال الضرائب وتتحمل أجسامهم ما لا تطيق ، فعند الوصول إلى هذا الحد ، من إرهاف الحد ، تظهر على الأمة عندئذ بعض آثار الحياة وهو ما يشبه « الاختلاج » فاذا التقوا أفراداً أخذ كل منهم ينظر إلى الآخر ، فيهزؤون رؤوسهم هزاً خفيفاً ، ويفركون أيديهم فركاً غير منتظم ، ويحكّون رقابهم ، وأرباب اللحى منهم يسبّلون لحاهم ، ويتفون عثنونهم . هذه هي أول مظاهر الشعور ، ثم تجول الافكار ، وبعده يبدأ الهمس ، ثم الهذرمة ثم ، وثم.. إلى أن يعلو الصوت ، ويرتفع السوط ويحكم السيف ويأتي من بعده حكم العادل وهو سبحانه وليّ المظلومين .

ولو جاز لدولة أن تشذ فتعامل المستعمرات بشيء من العدل ، لا ترهقهم ظلماً ، وتسومهم

جوراً وعسفاً ، للزم أن يكون ذلك الشذوذ بمعاملة الانكليز لمستعمرة « أميركا » وبينهم من جامعات اللسان والدين ، والمذهب والأخلاق ، مايدعو للعطف ، ويحمل على الإقلال من العنف .

ولكن هيهات !! فليس لقاعدة الاستعمار من شاذ ، وكلنا يعلم ماعاناه الاميركانيون من جور الحكومة الانكليزية ، وتفننها بأنواع المظالم ، وسلب أموالهم بأشكال الضرائب ، وآخر ضريبة أو ضربة نبهت الاميركانيين ودفعتهم لطرح نير انكلترا بقوة السلاح ، ونهوض الامة ضريبة « ورقة التمغة » وان صكوك البيع وكافة العقود والعهود إذا لم تكن محررة على تلك الورقة لا يعمل بها ... وناهيك ما في هذا الحكم من الجور ومن ضياع أملاك وحقوق ، نعم لجأ الاميركانيون في بدء أمرهم إلى مايلجأ اليه الضعيف ، إذ بعثوا بالشكوى إلى عاصمة الانكليز ومجلس أشرافهم ، عقب أن عقدوا جمعية عمومية في مدينة نيويورك ، وعقب أن أوسعوا « مأمور بيع ورق التمغة ضرباً » واتفقت كلمة الجميع على الرفض ، وهذا أول طلائع القوة — التي لاترضخ الانكليز لقوة سواها — وهو اجتماع كلمة « الأمة » ، خدّرت أعصاب الاميركانيين بابطالها ورقة التمغة ، وبالوقت ذاته أحدثت ما يمكّنها من سلب مال الولايات المتحدة ، فوضعت رسم الكمرك على ما يدخل إليها من الشاي ، وهذا الرسم أكثر سلباً للمال من التمغة ، وعمدت للتنفيذ على استعمال القهر والقوة ، ولما كانت روح الحياة في الاميركانيين قد دبّت وجازت ، وتخطت دورة « الاختلاج » و « الهمس » ووصلت إلى دور ارتفـــاع الصوت ، وسل السيف ، فرمت بالشاي الوارد إلى البحر ووقفت للقوة الانكليزية بقوة الأمة الاميركانية ، وألقت مقاليد أمورها ، وإدارة حروبها الوطنية إلى بطل حريتهم ، واستقلالهم « الجنرال واشنطون » العظيم .

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حدّه الحد بين الجد واللعب

قل لي لو ثابر الاميركانيون دهراً على بث الشكوى من ولاة الانكليز إلى مجلس وزراء الانكليز ، واستنفدوا المداد ، وسوّدوا ما في الارض من قرطاس تظلماً واستغاثة ، هل كان يفيدهم في استقلالهم شيئاً ، أو يكشف عنهم بلاء استعمار البريتانيين ؟؟ لا والذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف . فقوة كل أمة كامنة في أفرادها ، لايظهرها إلاّ الاتحاد ، ولا يخفيها إلاّ التفرق فمن رام من الأمم استعادة مجدها ، والتخلص ممن أذلها فليس غير طريق

و «الاتحاد» ما يوصل إلى الغاية وينقذ من البلاء ، ولا غير حب الموت ما ينجي من الموت » وينيل المرء إحدى الراحتين ، فإمّا أن يعيش بحريته واستقلاله «سيداً» ، وإما أن يموت دونها «بطلاً شهيداً» .

أروني مملكة أو أمة ، انغمس ملوكها وأمراؤها بالسفه والسرف وعمّ الجهل طبقات الشعب وتفرقت كلمتهم ، فاستكانوا الذل والهوان ، لم تسقط تلك الملوك والأمراء عن عروشها ، ولم يستعبدها الاستعمار ، ويحل فيها الدمار !!

وهاتوا مملكة أو قارة ، اتفقت كلمة أهلها ، وأنفت من الذل ، ورفضت الاستعباد واستلّت السيف ، وطاب لها الحتف ، ولم تنل استقلالها والتمتع بحريتها ، ولو كان المستعمر أعظم الدول قوةً واقتداراً .

هل من حاجة للاتيان بالأدلة وضرب الأمثلة ، على أن أصغر الأمم ناهضت أعظم الدول ، وظفرت بحاجتها ، ونالت حريتها واستقلالها .

مَن هم اليونان «سكنة ولاية المورة» قبل أقل من عصر ؟ عندما ناهضت الدولة العثمانية — تلك الدولة التي كانت تحكم ستين مليوناً من النفوس إذ ذاك — واليونان إلى اليوم لم يتجاوزوا في متفرق المعمور مليونان.

كم هو عدد الصربيين ؟ وهل تجاوزوا بعد استقلالهم مليونين ونصف مليون نسمة تقريباً ؟!

ما هو جبل الاسود ؟ ومجموع سكانه لم يبلغوا عدد سكان محلة «بك اوغلو» في الاستانة ، وما هي قوته وجيشه ، بالنسبة لقوة وجيش الدولة العثمانية ! .

وهكذا القول في بلغاريا ورومانيا ...

فبعد هذه الأدلة المحسوسة والأمثلة الملموسة ، يصح أن يبقى أدنى ريب ، أن المستعمرات لأي دولة مهما تعاظمت قوةً ، واقتداراً كالثوب العارية لا يلبث حتى يسترد عند طلب صاحبه بالسنن المعروفة ، والطرق الموصوفة .

وهل يشك المصريون ، وهم يزيدون عن العشرة ملايين (١) وكلهم أحفاد الغزاة الفاتحين من أعز قبائل العرب ، وإخوانهم الأقباط ، أحفاد أولئك الأشداء الذين آثارهم تدل على عظم هممهم ، أنهم إذا نهضوا لم يظفروا بالاستقلال والحرية ، وإعادة المجد القديم لذلك القطر السعيد .

---

(١) هذا كان عدد سكان القطر يوم كتبت هذه المقالة سنة ١٣١٠ هـ ١٨٩٣ م

بلى !! وأنهم سينهضون إن شاء الله ، ويسلون متحدين ، معتصمين بحبل الله ، وينالون مايتمنون بحول الله ، والله على كل شيء قدير .

قوله : ان المسلم ، سواء فيه العربي والاعجمي، انما يعجب بماضيه وأسلافه ، وهو في أشد الغفلة عن حاضره ومستقبله وكيف يجب أن يكون .

قال : الكون يشهد ، والآثار تدل ، ولا من ينكر على أن العرب وغيرهم من العجم آثاراً ومفاخر أتت من وراء الهمم ، وصدق العزائم ، ولكنها يالأسف دفنت في أجداث الأجداد ، وجاورت عظام أولئك العظام ، أعلام المروءة ، عصبة الرحمة ، أولياء الشفقة ، أهل النجدة ، أسود الحمية ، وغوث المضيم يوم الشدة ، شوامخ القوة ، رواسي العدل.. تلك بعض صفات السلف ، عثر عليها الخلف بالنبش وهو في جبانة « الجبن » و « الخمول » وقرأها في سطور كتاب حادثات الدهر ، وأوراق سجل رجال العالم ، فطفق يفخر ويمدد ،ويصول ويطول ، ويقول : نحن من لمت سيوف أجدادهم بالمشرق ، وانقضّت شهبها على المغرب ، فذلّت لهم رقاب القياصرة والأكاسرة ، وخضعت لأمرهم الامم ، خفقت أعلام فتوحاتهم فوق ممالك الارض ، فطهروها من جرائم الظلم والجور ، وملؤوها بالرحمة والعدل . . . وهكذا لاتزال تسمع كلا من العربي والفارسي وغيرهما من الشرقيين ، يقول: نحـــن أحفاد أولئك الاجداد ،ونحن سلالة وذرية أولئك الاقيال الامجاد ،ونحن ، ونحن ، مما يثير الاشجان ويزيد الاحزان .

نعم أولئك آباؤنا وأجدادنا قد جاد الزمان بهم فجاؤوا ، ولكن واسوأتاه ، وامعرتاه ! ، واخجلتاه ! : إذا هم سألونا عما فعلنا بمخلفاتهم ، وما أورثوه لنا واستخلفونا عليه من الممالك والاقطار ، وعظيم المدن والأمصار .

نعم أين أنتم أيها الأجداد الأمجاد الأنجاد،القوامون بالقسط، الآخذون بالعدل، الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الامة ، ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدكم وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم ، انحرفوا عن سنتكم ، وحادوا عن طريقكم ، فضلوا عن سبيلكم ، استبدلوا كل فضيلة برذيلة ، وأتوا على كل أمر لله بعكسه ، نبذوا حكمة الدين واتباع شرع سيد المرسلين ، وتفرقوا فرقاً وأشياعاً. الملوك منهم أزلوا عن عروشهم جوراً، وذووا حقوق حرموا حقوقهم ظلمـــاً ، وأعزة باتوا أذلة ، وأجلاء أصبحوا حقراء ،

وأغنياء أمسوا فقراء، وأصحاء أصبحوا سقاما، وأصول تحولت تماماً، فأصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً، وتحترق الأكباد حزناً، أصبحوا فريسة للأمم القريبة لا يستطيعون ذوداً عن حوضهم، ولا دفاعاً عن حوذتهم، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل، ويوقظ النائم، ويهدي الضال إلى سواء السبيل، «إنا لله وإنا إليه راجعون».

نعم، إن للأرواح إشراقاً بهيا كلها الروحانية، على ما تلبس من الاجسام الترابية في هذه الدار الفانية، ومناجاة لمن فيه ذلك الاستعداد، وإذ الامداد لا يكون إلا على قدر الاستعداد، فإذا أصغينا بالحس الروحي إلى ما تريد أن تناجينا به أرواح أجدادنا، لوجدناهم يحرّقون علينا الأرم ويزعجهم الألم وينادوننا: أيها الأحفاد! تفتخرون بسيوف لمعت بالمشرق!

نعم! وقد تركنا لكم تلك السيوف مشحوذة في أغمادها، فهل تقلدتموها؟ وهل سللتموها بوجه من اكتسح بلادكم، وضرب عليكم الذلة والمسكنة؟ تفتخرون بما فتحنا وتركناه لكم من الممالك، وما تحملناه في سبيل ذلك من المخاطر والمهالك، ولا تخجلون، ولا تحزنون وقد سلبتها منكم الاعداء، وأنتم من مقاعد جبنكم وذلكم تنظرون، ولا تتحركون ولا تنهضون، حتى ولا تنطقون.

تفتخرون بصبرنا وثباتنا وإقدامنا وبسالتنا، واعتصامنا بحبل الله واتباع سنن نبيه الكريم ﷺ وأنتم على عكس الامر، من أخلاق وصفات، وما أبعدكم بهذا عن الفخر، وأبعد الفخر عنكم، ولأنتم أولى بإطراق الرأس وغض الطرف، خجلاً وحياء من الله، ومن أرواحنا في الملأ الأعلى، التي تبرأ إلى الله من صنعكم وقلة إيمانكم بالله، والعمل بما جاء به رسول الله.

تفتخرون بتمسكنا بأصول الدين، وحسن اليقين، والتزام الكتاب والسنة والعمل بأحكامها، وأنه قد استحكمت بيننا رابطة الاخوة، فكنا كالبنيان المرصوص، نعم! هكذا كنا، أمّا أنتم فلم يبق من جامعة بينكم إلا العقيدة الدينية - وليس في الجميع - مجردة عما يتبعها من الاعمال. انقطع التعارف بينكم، وهجر بعضكم بعضاً هجراً غير جميل، علماؤكم وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس اليها، لا تواصل بينهم ولا تراسل، مع جمودهم، فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي، والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغاني، وهكذا... بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا جامعة تجمعهم، ولا صلة إلا

ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم والآخر ، أمّا في هيئتكم الكلية فلا وجدة لكم ، بل لا أنساب بينكم وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها ، كأنه جزء منفصل أو عضو مبتور .

تفتخرون بأنه غلب على صفاتنا « التعقل » والتروي وانطلاق الفكر من الأوهام، والعفة والسخاء والقناعة ، والدماثة ولين الجانب ، والوقار والتواضع ، وعظم الهمة والصبر ، والحلم والشجاعة ، والايثار والنجدة ، والسماحة والصدق ، والوفاء والامانة ، وسلامة الصدر من الحقد والحسد ، والعفو والمروءة والحمية، وحب العدالة، والشفقة . نعم منّ الله علينا وهكذا كنا . وأنتم أيها الأحفاد ! ماذا غلب على أكثركم غير السفه والقحة، والبذاء والبله ، والطيش والتهور ، والجبن والدناءة والجزع ، والحقد والحسد ، والكبرياء والعجب ، واللجاج والسخرية ، والغدر والخيانة ، والكذب والنفاق والشح . أفبهذه الأخلاق تحبون أن تغلبوا، وتعجبون كيف تسلبون أملاككم وتذلون ، أم بهذا ترومون اللحاق بنا وقد خالفتمونا سيرة وسيراً ، شياً وأخلاقا !!

هذا بعض ما تحس به أرواحنا من مناجاة أجدادنا لنا، وما أطبق أقوالهم هذه على الحق، وما أقربها من الصواب والواقع. أي بيّنة لنا على أننا خلف ذلك السلف، وهل يعقل لو ورثنا أخلاقهم ، وحافظنا على فضائلهم ، واقتفينا أثرهم ، ولم نحد عن سيرهم وسيرتهم ، نعم لو عملنا بعض ذلك هل كان يسهل سلب الميراث منا ، وأن يستبد بملكنا غيرنا، أم بقينانحن الوارثين؟

إن « دعوى » حق الاحفاد في ميراث الاجداد ، هي في محكمة « الكون » والبينة التي يصدر من بعدها الحكم ، هي إثبات التحلي بفضائل السلف ، والتخلق بأخلاقهم ، والنسج على منوالهم ، والتزام ما لزموه من السنن ، وجروا عليه بالقول والعمل ، فعسى أن نوفق للادلاء بتلك الحجة ، فتستقيم لنا الحجة ، إذ كفانا من الذل ما لاقينا ، ومن البلاء ما عانينا .

وبعد أن سكت جمال الدين برهة قال : من العجيب الغريب ، وما يدعو إلى الحيرة ، ما نراه في المسلمين ، فهم بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة ، مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ملكهم وولايتهم من البلدان ، وكلهم مأمور بذلك، لا فرق بين قريبهم وبعيدهم، ولا بين المتحدين في الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم ، إن لم

يقم قوم بالحماية عن حوزتهم ، كان على الجميع أعظم الآثام . ومن فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية ، بذل الأرواح والأموال، وركوب كل صعب، واقتحام كل خطب،ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم في حال من الأحوال ، حتى ينالوا الولاية خاصة لهم دون غيرهم . وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد ، لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره لوجبت عليه الهجرة من دار حربه ، يحس كل مسلم لهاتف يهتف من بين جنبيه، يذكّره بما تطالبه به الشريعة وما يفرض عليه الايمان ، وهو هاتف الحق الذي بقي له من إلهامات دينه ، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الأيام ، بعضهم في غفلة عمـا يلمّ بالبعض الآخر، ولا يألمون لما يألم له بعضهم ، فأهل بلوجستان كانوا يرون حركات الانكليز، وعيثهم في أفغانستان ، ينظرون إلى ذلك، ولا يجيش لهم جأش،ولا تبدو لهم نعرة على إخوانهم، والأفغانيون كانوا يشهدون تداخل الانكليز في بلاد فارس ولا يضّجرون ، ولا يتململون ، وكلاهما يعلمان ما في الهند ، من ظلم وجور وفتك وسلب ، ولا يتحركون ، وان جنود الانكليز تضرب في الأراضي المصرية ذهاباً وإياباً ، تقتل وتفتك ، ولا ترى نجدة في نفوس إخوانهم المشرفين على مجاري تلك الدماء والناظرين إلى تلك المصائب والبلاء .

نعم هذا ما يجري من الأمور ، وساء معه المصير ، وإن النفس لتتوق لمعرفة الأسباب وإن كان الإتيان على ذكرها مما يطول ، فلا بأس من الإلمام بها على وجه الاجمال . قال :

لا ريب أن الأفكار العقلية،والعقائد الدينية، وسائر المعلومات والمدركات، والوجدانات النفسية ، وان كانت هي الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر ، ولكن « الأعمال » هي التي تثبتها وتقوّيها ، وتطبعها في الأنفس ، وتطبع الأنفس عليهـا ، حتى يصير ما يعبر عنه « بالملكة » و « الخلق » ، وتترتب عليه الآثار التي تلائمها .

نعم إن الإنسان إنسان بفكره وعقائده ، إلا أن ما ينعكس من مرايا عقله ، من مشاهد نظره ، ومدركات حواسه ، يؤثر فيه أشد التأثر . فكل شهود يحدث فكراً ، وكل فكر يكون له أثر في داعيه يدعو اليها ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل إلى الفكر ، دور يتسلسل ، ولا ينقطع الانفعال بين الأعمال والأفكار ما دامت الأرواح في الاجساد ، وكل قبيل هو للآخر عمـاد ، « آخر الفكر أول العمل » و « أول العمل آخر الفكر » .

إن للاخوّة، وسائر نسب القرابة، صورة عند العقل، ولا أثر لها في الاعتصاب والالتحام، لولا ما تبعث عليه الضرورات وتدعو اليه الحاجات، من تعاون الانسباء وأهل العصبية على نيل المنافع، وتضافرهم على دفع المضار .

وبعد كرور الايام على المضافرة، والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذاً، يصرفه في آثارها بقية الاجل، ويكون انبساط النفس لصون القريب والتأثر لما يصيبه من نكبة أو ضيم، جارياً مجرى الوجدانيات الطبيعية، كالإحساس بالجوع والعطش والشبع وما أشبه، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعدّه « طبيعياً »، فلو أهملت صلة النسب، بعد ثبوتها والعلم بها، ولم تدع ضرورات الحياة والظروف، إلى ما يمكّن تلك الصلة ويؤكدها، أو وجد صاحب النسب قوة، ومظاهرة في غير أهـل نسبه، أو ألجأته الضرورة إلى ذلك، ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ولم يبقَ منها إلاّ صورة في الذهن تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات .

وعلى هـذا المثال من رابطـة النسب، وهي أقوى الروابط بين البشر، يكون القول والأمر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الانساني من حيث ارتباط بعضه ببعض.

إن لم يلازم العقد للرابطة ضرورة أو قوة الداعية إلى عمل تنطبع عليه الجارحـــة، وتمرن عليه، ويعود أثر تكريره على الفكر، حتى يكون هيئةً للروح وشكلاً من أشكالها، فلن يكون منشأ لآثاره، وإنما يتهيأ له في الصورة العلمية رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات كما هو في المحفوظات كما قدمنا .

بعد تدبر هذه الأصول والنظر فيها بعين الحكمة، يظهر لك السبب في سكون المسلـمين إلى ما هم فيه، مع شدتهم في دينهم، والعلة في تباطئهم عن نصرة إخوانهم، وهم أثبت الناس في عقائدهم، لأنه لم يبقَ من جامعـة بين المسلمين في الأغلب إلاّ « العقيدة الدينية » مجردة عما يتبعها من الأعمال التي من آثارها جلب المنافع، ودفع المضار وما يستلزم ذلك من تعارف وتواصل، وتبادل بالشعور والتحسس .

وقد انعكس كل ذلك ولم يبقَ إلاّ تقاطع وتدابر وجفاء، إلى غير ذلك مما سبق ذكره في حالة الامة وعلمائها .

وكما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء ، كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين . أليس بعجيب أن لا يكون سفارة للعثمانيين في مراكش ، ولا لمراكش عند العثمانيين ، أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين في المشرق ؟.

بهذا التدابر والتقاطع ، وإرسال الحبال على الغوارب ، عم المسلمين حتى صح أن يقال : لا علاقة بين قوم منهم وقوم ، ولا بلد وبلد ، إلا طفيف من الاحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ، ويعتقدون مثل اعتقادهم ، وربما يتعرفون بمواقع ممالكهم وأمصارهم بالصدفة ، إذا التقى بعض ببعض في موسم الحج العام ، وهذا النوع من الاحساس هو الداعي إلى الحزن ، وانقباض الصدر .

كانت الملة كجسم عظيم ، قوي البنية صحيح المزاج ، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه ، فتداعت للتناثر والانحلال ، وكاد كل جزء يكون على حدة وبمثل هذه الحال تضمحل هيئة الجسم .

بدأ هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة ، وقتما قنع العباسيون بعد المأمون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين ، والاجتهاد في أصوله وفروعه ، كما كان الراشدون رضي الله عنهم .

كثرت بذلك المذاهب ، وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة ، حتى بلغ إلى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان ، ثم انثلمت وحدة الخلافة ، فانقسمت إلى أقسام ، خلافة عباسية في بغداد ، وخلافة فاطمية في مصر والمغرب ، وأموية في أطراف الأندلس .

تفرقت بهذا كلمة الأمة ، وانشقت عصاها ، وانحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة الملك فسقطت هيبتها من النفوس ، وخرج طلاب الملك ، والسلطان يستجمعون لأنفسهم وسائل القوة والشوكة ، ولا يرعون جانب الخلافة . وزاد الاختلاف شدة ، وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده ، وتيمورلنك وأحفاده ، وإيقاعهم بالمسلمين قتلاً وإذلالاً ، حتى أذهلوهم عن أنفسهم ، فتفرق الشمل بالكلية ، وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك

والعلماء جميعاً ، وانفرد كل بشأنه ، وانصرف إلى ما يليه ، فتبـدد الجمع إلى آحاد ، وافترق الناس فرقاً ، كل فرقة تتبع داعياً إما إلى ملك أو مذهب ، فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو إلى الوحدة وتبعث على اشتباك الوشيجة وتقوية الرابطة، وصار ما في العقول منها صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال،وتلحظها الذاكرة عند عرض ما في خزائن النفس من المعلومات، ولم يبق من آثارها إلا أسفاً ، وحسرة تأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ، ويبلغ الخبر إلى المسامع على طول الزمان ، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت ، كما يكون على الأموات من الأقارب ، لا يدعو إلى حركة لتدارك النـازلة ، ولا دفع الغائلة .

وكان الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع ، أن ينهضوا لاحياء الرابطة الدينية ، ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك ، بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين ، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم ، حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة ، مهبطاً لروح حياة الوحدة ، ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة ، إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء ، والأئمة والوعاظ في جميع أنحاء الارض بعضهم ببعض،ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة، يرجعون إليهـا في شؤون وحدتهم ، ويأخذون بأيدي العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل ، وصحيح الأثر ، ويجمعون أطراف الوحدة إلى مقعد واحد يكون مركزه في الأقطار المقدسة، وأشرفها « معهد بيت الله الحرام » حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين ، وحفظه من قوارع العيون ، والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل ، وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ، ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم ، وتنوير الافهام ، وصيانة الدين من البدع المضرة فإن إحكام الربط إنمـا يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف ، فلو أبدع مبدع ، أمكن بالتواصل بين الطبقات ، تدارك الأمر ومحو بدعته قبل فشوها بين العامة ، وليس يخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها ، واقتدارها على رفع ما يغشاها من النوازل . قال :

وإني لآسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهي أقرب الوسائل،وإني لأرجو أن تهب إلى هذه الوسيلة أرباب العزة والحمية ، ويؤازرهم

ملوك المسلمين وعلماؤهم فيؤيدونهم بما يوحّد جمعهم ويجمع شتيتهم ، وما هو بالعسير أن يثنوا الدعاة إلى ما يبعد عنهم ، ويصالحوا بالأكف من هو على مقربة منهم ، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم ودنياهم بالفائدة أو ما يخشى أن يمسهم بضرر ، ويكونوا بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة ، وطلبوا سعادة ، والرمق باق ، والآمال مقبلة وإلى الله المصير .

قوله في الناشئة الشرقية استحساناً واستهجاناً . وأمثلته على التقليد النافع ، وضربه المثل بدولة اليابان الشرقية وذكره أنجع الوسائل للنهوض من السقوط :

قيل للسيد جمال الدين : إن في الشرق ناشئة ممن تثقفوا وتعلموا وكتبوا ، وعلموا مرامي الغرب نحو الشرق ، وليس هم بالقليل عددهم ، فما بالهم لم يؤثروا في صالح المجموع ورقيه ، وإصلاح الهيئة الاجتماعية من قومهم ؟

فقال : إن أشد وطأة على الشرق ، وأدعى إلى تهجم أولي المطامع من الغربيين ، وتذليل الصعاب لهم ، وتثبيت أقدامهم ، هم أولئك الناشئة الذين بمجرد تعلمهم لغة القوم ، والتأدب بأسفل آدابهم ، يعتقدون أن كل الكمال إنما هو فيما تعلّموه من اللسان على بسائطه ، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات ، وقراءة سير ومسير من قطع مراحل من الغربيين في سبيل الأخذ في ترقية أمته بدون أن يسبروا من ذلك غوراً أو يفهموا لتدرجهم معنى .

ويعتقد الناشىء الشرقي ، أن كل الرذائل ، ودواعي الحطة ، ومقاومات التقدم إنما هي في قومه ، فيجري مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية ، ومن كل مشروع وطني يتصدى له فئة من قومه ، أو أهل بلده ، ويأنف من الاشتراك في أي عمل لم يشارك فيه الاجنبي ولو اسماً ، ويسارع لتقديس وتصويب كل خطأ يأتيه الغريب ، ويسهّل له كل صعب في مطلبه ، ويطلعه على هنات قومه وزللهم ، وموقع الضعف منهم ؛ وبالاجمال يكون الآلة القاطعة الفاعلة للغريب في جسم قومه ، والوسيلة الممكنة من الاستئثار في البلاد ، واستعباد العباد ، بدون أن يشعر أنه سيلاقي شر ما يصنع قبل أمته ، وينزل في تاريخها مع الأدنياء الخائنين ، وإذا أحس البعض في شنيع فعلته فإنما يؤثر مصلحته الخاصة ونفعه الخسيس الموقت على صالحه العام مع مجموع من جمته وإياهم الجامعات الكبرى .

وسواء في الامر من علم وارتكب تلك الخطيئات ، أو من أتاها جهلاً بغير علم ؛ فالشرق والشرقيون ابتلاهم الله « بما فرطوا » حتى بهذه العلة ، ولا أرى لهم مخرجاً من ضيقهم ،

وشفاءً من أدوائهم إلا باشتداد الأزمة وقوة الضغط ، حتى يفقدوا بقية ما ترك لهم من شبه الراحة التي أخلدوا إليها ، أو سعة العيش الضيق الذي سوّل لهم الخمول الرضاء بـه وحتى يزاحموا على ما لا يخطر لهم ببال، من دين لا يتمكنون من التعبد به كما يرومون، ومن تجارة لا يجدون لها مالاً أو مجالاً ، ومن حرية شخصية يفقدونها ، ومن قهر وإذلال الأعزاء ، وتعزيز الأذلاء السفهاء،وحتى يحيق بالمجموع بلاء يساوي بين الكل ويكون فيه المسلم الشرقي واخوه المسيحي سواء ، يظهر في بدء الأمر للأخير «المسيحي» ميزة تقدم على الأول «المسلم» بشيء من تافه الوظائف تنويهاً بكرامة تدينه بالمسيحية ، ولمعرفته اللسان ، وتمكيناً لداعي التنافر ، وعدم الاتحـاد ، وكل ذلك إلى حين ، ومن ثم يرجع الاثنان إلى التساوي في المذلة والهوان .

ثم قال : لقد كثر اختلاف الناظرين في وسائل النهوض من السقوط وتضاربت الآراء فيها ، وحامت ظنون كثيرة حولها ، فتفنيداً لباطل الظنون ، ونفياً لريب المرتابين ، والواهمين بقرب الوسائل مع بعدها وقلة نفعها ، أقول اليوم ما قلته قبل أعوام : أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئاً مذكوراً ثم انشق عنها عماء العدم ، فإذا هي بحميّة كل واحد منها ، كون بديع النظام ، قوي الاركان ، شديد البنيان ، عليها سياج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم ، تخمد في ساحاتها عاصفات النوازل ، وتنحل بأيدي مدبريها عقد المشاكل ، نمت فيها أفنان العزة بعد ما ثبتت أصولها ، ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها ، والداني إليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الكلمة ، وكلت القوة ، فاستملت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها ، وأحست مشاعر سواها من الامم بأن لا سيادة إلا في انتهاج منهجها ، وورود شريعتها ، وصارت وهي قليلة العدد ، كثرة الساحات ، كأنها للعالم روح وهو لها بدن عامل .

وبعد هذا المجد كله ، ترى بنيانها قد وهى ، وانتثر المنظوم منها وتفرقت فيها الأهواء ، وانشقت العصى ، وتبدد ما كان مجتمعاً ، وانحل ما كان منعقداً ، وانفصمت عرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد ، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ، ودار كل محيط بشخصه المحدود بنهايات بدنه ، لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية ، وهو في غيبة عن أن ضروريات حاجاته ومرافق حياته وكمالاته ، لا تنال إلا على أيدي المتحمين

معه بلحمة الأمة وأنه أحوج إلى شد عضدهم من تقوية ساعده ، وإلى توفير خيرهم من تنمية رزقه ، وكأنه بهذه التية في سبات يخيله الناظر إليه صحواً ، وذبول يظنه المغرور زهواً ، وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادها ، وحدثت لهم قناعة البهم والرضاء بكل ذل .

ولئن تنبه خاطر للحق في خيال أحدهم ، أو استفزّه داع من قلبه الى ما يكسب ملته شرفاً ، أو يعيد اليها مجداً ، عدّه هوساً وهذياناً ، أصيب به من ضعف في المزاج ، أو خلل في البنية ، أو حسب أنه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالوبال ، وأورده موارد الهلكة ، أو لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته ، ونكد معيشته ، وهكذا يحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالاً من اليأس ، فتغل يده عن العمل ، وتقف قدماه عن السعي ، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه ، ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبله ، وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا ، وقيماً على ما أورثوه لأعقابهم ، ويبلغ هذا المرض من الأمة حداً يشرف بها على الهلاك ، ويطرحها على فراش الموت ، فريسة لكل عاد ، وطعمة لكل طاعم .

نعم رأيت كثيراً من الأمم لم تكن ثم كانت ، وارتفعت ثم انحطت ، وقويت ثم ضعفت ، وعزت ثم ذلت ، وصحّت ثم مرضت . ولكن أليس لكل علة دواء ؟ بلى !.

ما أكثر ما قلت وا أسفاه ! نعم وا أسفاه ! ما أصعب الداء وأعز الدواء ، وما أقل العارفين بطرق العلاج ، كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها ، وهي لم تفترق إلا ّ لأن كلاً عكف على شأنه ! ! ! أستغفر الله ، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالاً به ، ولكنه انصرف لشؤون غيره وهو يظنها من شؤون نفسه .

نعم ربما التفت كل واحد إلى ما هو في فطرة كل حي ، من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه ، وهو لايدري من أي وجه يحصلها ، ولا بأية طريقة يؤمن عليها . كيف تبعث الهمم بعد موتها ، وما ماتت إلا بعد أن سكنت زماناً طويلاً إلى ما ليس من معالها .

هل من السهل رد التائه إلى الصراط المستقيم وهو يعتقد أن الخلاص في سلوك سواه ، خصوصاً بعد ما استدبر المقصد ، كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه ، المبتهج بأحلامه ، وفي أذنه وقر ، وملامسه حذر .

هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة ، من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤهـا ، وتتنائى أطرافها ، وتتباين عاداتها وطباعها ، وتتخالف آراؤها ، وقـد تراكم فوقها الجهل ، وخيل للعقول أن كل قريب بعيد ، وكل سهل وعر ، وعزة الحق ! إنه لشيء عسير يعيي في علاجه النطاسي ، ويحار فيه الحكيم البصير !

هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على الداء ، وأسبابـه الاولى ، والعوارض التي طرأت عليه . إن كان المرض في أمة ، فكيف يمكن الوصول إلى علله وأسبابها الا بعـد معرفة عمرها ، وما اعتراها فيه من تنقل الأحوال ، وتنوع الأطوار ، أيمكن لطبيب يعالج شخصاً بعينـه أن يختار له نوعاً من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل في حيـاته ليكون على بينة من حقيقة المرض . والا فان كثيراً من الأمراض تتولد جراثيمها في طور من أطوار العمر ثم لا تظهر الا في طور آخر ، لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها ، انه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد ، سني عمره محـدودة ، وعوارض حياته محصورة ، فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل ، وافرة العـدد ، لهذا يندر في أجيال وجود بعض رجال ، يقومون بإحياء أمة ، أو ارجاع شرفها ومجدها اليها ، وان كان المتشبهون بهم كثيرين ، وكما أن المتطبب القاصر في الامراض البدنية لا يزيد علاجه المرض الا شدة ، لولا مساعدة الصدفـة والاتفاق أحياناً ، بل ربما يفضي بالمريض إلى الموت ، كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشأنهـا ، وموجب اعتلالها ووجوه العلة فيها ، وأنواعها ، وما يكتنف ذلك من العادات ، وما يوجد في أفرادهـا من المذاهب والاعتقادات وحوادثهـا المتتابعة على اختلاف مواقعها من الأرض ، ومكانتها الاولى من الرفعة ، ودرجتها الحالية من الضعة ، وتدرجها فيما بين المنزلتين ، فان أخطأ طالب إصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء والوجود فناء .

فمن له حظ من الكمال الانساني ، ولم يطمس من قلبه موضع الإلهام الإلهي ، لا يجرأ على القيـام بما يسمونه « تربية الأمم » وإصلاح ما فسد منهـا ، وهو لا يحس من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الامر العظيم علماً وعملاً ، نعم يكون ذلك من محبي الفخفخة الباطلة ، وطلاب العيش في الوظائف التي ليسوا من حقوقها في شيء .

ظن قوم في زماننا أن أمراض الامم تعالج بنشر الجرائد ، وأنها تكفل إنهاضها وتنبيه

الافكار وتقويم الاخلاق . كيف يصدق هـذا الظن ؟ وإنا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون إلاّ نجاح الامة مع التنزه عن الاغراض ، فبعد أن عم الذهول ، واستولت الدهشة على العقول، وقل القارئون والكاتبون فلا تجد لها قارئاً ،ولئن وجدت القارىء فقلما تجد الفاهم ، والفاهم قد يحمل ما يجده على غير ما يراد منه ، لضيق في التصور ، أوميل مع الهوى فلا يكون منه إلا سوء التأثير فيشبه غذاءً لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافاً . على أن الامة إذا كانت في درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة ، وتدفق سيول الحوادث ، إن هذا وحقك لعزيز !

ويظن قوم آخرون أن الامة المنبعثة في أقطار واسعة من الارض مع تفرق أهوائها ، وإخلادها الى ما دون رتبتها بدرجات ، ورضاها بالدون من العيش ، والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها بل لمن كان خاضعاً لسيادتها راضخاً لأحكامها ، مع هـذا كله انه يتم شفاؤها من هذه الامراض القتالة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحـدة في كل بقعة من بقاعها ، وتكون على الطراز الجديد المعروف بأوربا حتى تعم المعارف جميع الافراد في زمن قريب ، ومتى عمت المعارف كملت الاخلاق ، واتحدت الكلمة ، واجتمعت القوة . وما أبعد ما يظنون ، فان هذا العمل العظيم انما يقوم به سلطان قوي قاهر ، يحمل الامة على ما تكره أزماناً حتى تذوق لذته ، وتجني ثمرته ، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائباً عن سلطته، وقائماً مقامها في تنفيذ ما أراد من خيرها ، ويلزم لهذا الامر ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة ، وموضوع كلامنا في الضعف ودوائه ، فهل من الضعف سلطة تقهر ، وثروة تفي ؟ ولو كان للأمة هذان، لما عدّت من الساقطين ، فان قالوا يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات ، وافقناهم على الإمكان لولا ما يكون وما هو كائن من طمع الاقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلاً لان يستنشقوا نسيم القوة ، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الاثر .

على أنا لو فرضنا مسالمة الدهر ، ومنحت الامة مدة من الزمن تكفي لبث تلك العلوم في بعض الافراد ، والاستفادة منها شيئاً فشيئاً ، فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية ، وأن ما يصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللائق به، ويمكنه من القيام بارشاد الباقي من أبناء أمته .

وا عجباً كيف يكون هـذا ؟ والامة في بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنهـا ، لا تدري كيف بذرت بذورهـا ، وكيف نبتت واستوت على سوقها وأثمرت وأينعت ، وبأي ماء سقيت ، وبأية تربة غذيت ، ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها ، ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات وإن وصل اليها طرف من ذلك فانما يكون ظاهراً من القول ، لا نباء عن الحقيقة . فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الافراد بتلك العلوم ، وسوقها الى الاذهان المشحونة بغيرها ، يقوّم من أفكارهم ، ويعدّل من أخلاقهم ، ويهديهم طرق الرشاد ، ويعمل في إفادة إخوانهم .

لعل الاقرب أن ناقلي تلك العلوم ــ وهم من أُمة هـذا شأنها ــ مع ما ينعكس اليهم من الاوهام المألوفة فيها ، وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا ، وما يعظمونه من أمر الامة التي تلقوا عنها علومهم ، يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعهم إلاّ فساداً .

ماذا يكون من أولئك الناشئين في عـلوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ، ولو صدقوا في خدمة أوطانهم ، يكون منهم قذف مافي خزائن خواطرهم ، يؤدون ماتعلموه كما سمعوه ، لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطباعها ، ومامرّنت عليه من عاداتهافيستعملونه على غير وضعه ، ولبعدهم عن أصله ، ولهوهم بحاضره عن ماضيه ، وغفلتهم عن آتيه ، يظنونه على شكل مابلغهم ، هو الكمال لكل نفس ، والحياة لكل روح ، فيرومون من الصغيرمالايرام إلا من الكبير وبالعكس، غير ناظرين إلا إلى صور ماتعلّموه ، ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم ، وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد ، أو يزيدها خبالاً وضعفاً ، وما هذا إلا لكونهم ليسوا أرباب تلك العلوم ، وإنما هم حمَلة نقَلة .

فهؤلاء النـاشئون ــ إلا من وفقه الله منهم بعنـايته الإلهية ـ يكون مثلهم كمثل والدة حنون ، يلذ لها غذاء ، فتفيض منه على طفلها وهو رضيع ليساهمها في اللذة ، وسنّه سن اللبان لا يقبل سواه ، فيسرع اليه المرض ، وينتهي به التلف ، فتكون منزلتهم من الأمة منزلة الآلة المحللة ، يشتتون بقية الجمع ، ويبددون أخريات الالتئام ، إن كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط فهؤلاء المغرورون يصدمونهم بما يذهلهم عنها ، وربما لا يقصدون إلا خيراً إن كانوا من المخلصين ، ويوسعون بذلك الخروق حتى تعود أبواباً ، ويباعدون ما بين الصفاف حتى تصير ميادين لتداخل الأجانب فيهم تحت اسم النصحاء ، وعنوان المصلحين، وطلاب الإصلاح، ويذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير.

. شيد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجـديد ، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا اليهم مايحتاجون له من العلوم والمعارف ، والصنائع والآداب، وكل مايسمونه « تمدناً » وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظـام الطبيعة ، وسير الاجتماع الانساني !.

هل انتفع المصريون والعثمانيون بمـا قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا أحسن حالاً مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟ .

هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة ؟ هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم اليه الأجانب بتصرفاتهم ؟ هل أحكموا الحصون ، وسدوا الثغور ؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع غارة الأعداء عليهم ؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الأفكار حداً يزحزح عزائم الطامعين عنهم ؟ هل وُجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية التي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة ، وتسعى اليها وتطلبها ، ولو تجاوزت محيط الحياة الدنيا ؟ ولو بادت في سبيلها، خلفها وارث على شاكلتها ، كما كان في كثير من عزّ من الأمم .

نعم ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية ، والوطنية ، والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها في عبارات متقطعة، بتراء لاتعرف غايتها، ولا تعلم بدايتها، ووسموا أنفسهم« زعماء الحرية » أو بسمة أخرى من السمات ووقفوا عند هذا الحد .

ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل اليهم من العلم ، فقلبوا أوضاع المباني والمساكن وبدّلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية ، وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقهـا على أجود مايكون منها في الممالك الاجنبية ، وعدُّوها من مفاخرهم ، وعرضوها معـرض المباهاة ، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ، واعتاضوا أعراض الزينة ، مما يروق منظره ولا يحمد أثره ، فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم ،وأهلكوا العاملين في المهن ، لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ماتستدعيه تلك العلوم الجديدة ، من الحاجيات الجديدة ، وأيديهـم لم تتعود على الصنع الجديد ، وثروتهم لاتسع جلب الآلات الجـديدة من البلاد البعيدة ، وهذا جدع لأنف الامة يشوّه وجهها ويحط بشأنها ، وما كان هذا إلاّ لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها ، وفاجأتهم قبل أوانها .

علمتنا التجارب ، ونطقت مواضي الحوادث، بأن المقلّدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار

غيرها ، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء اليها ، وتكون مدارك بهم مهابط الوساوس ، ومخازن الدسائس — بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واحتقار من لم يكن على مثالهم ، شؤماً على أبناء أمتهم يذلونهم ، ويحقرون أمرهم ، ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلت ، وإن بقي في بعض رجال الأمة بقية الشمم ، أو نزوع إلى معالي الهمم ، انصبوا عليه ، وأرغموا من أنفه ، حتى يمحى أثر الشهامة ، وتخمد حرارة الغيرة ، ويصير أولئك المقلدون ، طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبل ، ويفتحون الابواب ثم يثبتون أقدامهم ، ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلاً لغيرهم ، ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم .

ولا أخشى لوماً إذا قلت : لو كان في البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب الانكليز على بعض أراضيها ، لما بارحوها أبد الآبدين ، لان نتيجة العلم عند « الناشئة المقلدين » ليست إلا توطيد المسالك والركون إلى قوة مقلديهم ، واستقبال مشارق فنونهم ، فيبالغون في تطمين النفوس ، وتسكين القلوب ، حتى يزيلوا الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم ، ويحفظون بها استقلالهم ، ولهذا متى طرق الاجانب أرضاً لأية أمة ، ترى هؤلاء المتعلمين فيها أول مايقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم ، بعد الاستبشار بقدومهم ، ويكونون بطانة لهم ، ومواضع ثقتهم ، كأنما هم منهم ، ويعدون الغلبة الاجنبية في بلادهم أعظم بركة عليهم وعلى أعقابهم .

فما الحيلة ؟ وما الوسيلة ؟ « فالجرائد » بعيدة الفائدة ، ضعيفة الأثر ، لو صحت الضمائر فيها و « العلوم الجديدة » ونقلها « بالناشئة » لسوء استعمالها رأينا مارأينا من آثارها ، والوقت ضيق !! والخطب شديد !! .

أي جهوري من الاصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات !! أي عاصفة تزعج الطباع الجامدة ، وتحرك الأفكار الخامدة ! أي نفخة تبعث هذه الارواح في أجسادها ، وتحشرها إلى مواقف صلاحها وفلاحها .

الأقطار فسيحة الجوانب ، بعيدة المناكب ، المواصلات عسرة بين الشرقي والغربي ، والجنوبي والشمالي ، الرؤوس مطرقة إلى ما تحت القدم ، أو منفضة إلى مافوق السماء ، ليس للأبصار جولان إلى الأمام والخلف ، واليمين والشمال ، ولا للاسماع إصغاء ، ولا للنفوس

رغبات ، ولكن للأهواء تحكم ، وللوساوس سلطان !!!

ماذا يصنع المشفقون على الأمة ـ والزمن قصير ! ـ ماذايحاولون والأخطار محدقة بهم ! بأي سبب يتمكنون ، ورسل المنايا على أبوابهم .

لا أطيل عليك بحثاً ، ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان ، ولكني أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب ، ووسيلة تحيط بالوسائل ـ وقد مرّ ذكرها معنا فيا سبق ـ أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التي خملت بعد النباهة ، وضعفت بعـد القوة ، واسترقت بعد المنعة ، واطلب أسباب نهوضها الاول حتى تتبين مضارب الخلل، وجراثيم العلل ، فقد يكون ماجمع كلتها وأنهض همم آحادها ، ولحم مابين أفرادها وصعد بها إلى مكانة تشرف منهـــا على رؤوس الامم وتسوسهم ، وهي في مقامها بدقيق حكتها ، إنما هو « دين » قويم الاصول ، محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم ، باعث على الألفة ، داعٍ إلى المحبة ، مزكٍ للنفوس مطهّر للقلوب من أدران الخسائس ، منوّر للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه ، كافـل لـكل مايحتاج إليه الإنسان من مباني الاجتماعات البشرية ، وحافظ وجودها ويتأدّى بمتقديه إلى جميع فروع المدنية .

فان كانت هذه شرعة تلك الامة ، ولها وردت وعنها صدرت ، فما تراه من عارض خللها ، وهبوطها عن مكانتها ، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهرياً ، وحدوث بدع ليست منها في شيء ، أقامها المتقدون مقام الأصول الثابتة ، وأعرضوا عما يرشد اليـه الدين ، وعما أتى لاجله ، وما أعدته الحـكمة الإلهية له ، حتى لم يبقَ منه إلا أسماء تذكر ، وعبارات تقرأ مجردة ، فتكون هذه المحدثات حجاباً بين الامة وبين الحق الذي تشعر بندائه أحياناً بين جوانحها .

فعلاجها الناجع انما يكون برجوعها إلى قواعد دينها ، والأخذ بأحـكامه على ما كان في بدايته ، وإرشاد العامة بالمواعظ الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الاخـلاق ، وايقاد نيران الغيرة ، وجمع الكلمة ، وبيع الارواح لشرف الامة ، ولا سبيل لليأس والقنـوط ، فإن جراثيم الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة والقلوب مطمئنة اليه وفي زواياها نور خفي من محبته ، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نفسهـــا في في جميع الارواح لأقرب وقت . فإذا قاموا لشئونهم ، ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم ،

وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم ، فلا يعجزهم أن يبلغوا في سيرهم منتهى الكمال الانساني ، ومن طلب إصلاح أمة شأنها ماذكرنا بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططاً وجعل النهاية بداية ، وانعكست التربية وانعكس فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الأمة إلا نحساً ولا يكسبها إلا تعساً .

من يعجب من قولي أن الاصول الدينية الحقة ، المبرأة عن محدثات البدع ، تنشىء للامم قوة الاتحاد ، وائتلاف الشمل ، وتفضيل الشرف على لذة الحياة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل ، وتوسيع دائرة المعارف ، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية، فإن عجبي من عجبه أشد ، ودونك تاريخ الأمة العربية ، وما كانت عليه قبل بعثة الدين ، من الهمجية والشتات ، وإتيان الدنايا والمنكرات ، حتى جاءها الدين فوحّدها وقوّاها ، وهذّبها ونور عقلها ، وقوّم أخلاقها ، وسدّد أحكامها ،فسادت على العالم ، وساست من تولته بسياسة العدل، والإنصاف ، وبعد أن كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها ،نبهتها شريعتها وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة ، والتبحر فيها ونقلوا إلى ديارهم طب بقراط وجالينوس، وهندسة إقليدس وهيئة بطليموس ، وحكمة أفلاطون وأرسطو ، وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا . ولقائل يقول ها هي دولة اليابان وقد ارتقت بتقليد الغربيين وبدون توسط الدين فالجواب : نعم إن الدولة اليابانية ، وهي أمة شرقية لاتختلف عن أهل الصين في شيء لا في المذهب والاقليم ، ولا في العوائد والأخلاق واللسان ، وقد عزّت ونمت وارتفعت، وما كان الفاعل في كل ذلك إلاّ أخذها بالأحسن ، والسير في تقليد المرتقين في المدنية على أحسن خططهم ، وانتهاج أقوم صرطهم ومناهجهم ، تركوا عبادة الأوثان وصحتها أو عدمه جانباً ، وجروا وراء العلم الدنيوي فقلدوا أعظم الامم تقليداً صحيحاً ، وأدخلوا على بلادهم قواعد المدنية السالمة ،والموافقة لجموعهم ونبذوا ما كان مألوفاً في الغرب ، ولا يوافق طباعهم في شرقهم وتذرعوا في التدريج واتخذوا سنن الارتقاء سلماً لقومهم ، واهتموا في المولود الحديث ، ليجعلوه وليكون « سواء فيه الانثى والذكر » مخلوقاً يابانياً نافعاً لقومه أولاً ، وبالتالي للانسانية ، فظفروا ببغيتهم ، ووجدوا ضالتهم باقرب الأوقات وأقصر الازمنة .

أما القول بأن ارتقاء تلك الأمة الشرقية قد تمّ بدون توسط الدين ، وفعله فالجواب : نعم إن اليابان لم ينتفعوا بالوثنية من حيث هي دينهم ، ذلك لأن الديانة الوثنية وإن كانت

لاتخلو من آداب وأخلاق ، فليس في أصولها ماينفع في أحكام أمور الدنيا ، وما يحتاجه الانسان من مطالب المدنية ،والدين ولو كان في أصوله كل مايدعو إلى السعادة ، وفي قواعده ماينهض ، ويصعد إلى ذرى المجد ، إذا بقي عقيدة مجردة عن الاعمال فلا يحدث عنه أثر ولا ينتفع المتسمون به ، بل بتركهم الاعمال بتلك الاصول ، يتدهورون من شاهق عزٍ إلى حضيض ذلٍ ، وفيما سبق من القول في هذا المعنى كفاية .

والدين الذي في أصوله ماينفع في الامور الدنيوية أيضاً ، لابد وأن يكون من جملة أصوله الحث على التحلي بالفضائل ، والاستكثار من مكارم الاخلاق والصفات الحميدة ، والاستزادة من نافع العلوم والفنون . نعم ، جاء في القرآن الكريم — حثاً على العلم وبياناً لجليل فضله — منع أن يكون غير العالم عاقلاً، فقال(وما يعقلها إلا العالمون)ومنع المساواة بين العالم والجاهل ، فقال (هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون) وقد مرّ ذكر ذلك ، وقال المصطفى ﷺ اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد ، وأمثال ذلك كثير .

ومما ساعد الأمة اليابانية على رقيها،وخلّص سيرها من العرقلة، موقعها ومجتمع جزائرها في أقصى الشرق ، فوجدت من الدهر مسالمة ، وعن أنظار أولي المطامع من الغربيين بعداً ، ينضم إلى ذلك سبب من أكبر الاسباب،وعامل من أقوى العوامل، ألا وهو ميل الامبراطور « الميكادو » إلى تقييد حكومته بالدستور، وقبوله الشورى عن طيب خاطر، وسعيه بإخلاص وراء ذلك ، فقد بعث من أفراد أسرته وعقلاء رعيته ، بعثات لأوربا لدرس أشكال وقواعد الحكم النيابي الدستوري ، حتى أن امبراطور النمسا فرنسوا جوزف لم يتمالك نفسه فقال لابن عم الميكادو وهو على مائدته في فينا « عجباً من امبراطوركم كيف يسعى لايجاد الحكم الدستوري النيابي في مملكته ، ونحن في أوربا نودّ لو أمكننا التخلص من تحكم النواب في البلاد »! أجابه البرنس الياباني : ان جلالة الميكادو « معناه العادل » يحب أربعة أشياء : يحب بلاده أولاً ، ورعيته ثانياً ، ويحب العدل ثالثاً ، وراحة نفسه رابعاً؛ وما وجد ما ينيله ما يحب إلا « بالحكم الدستوري النيابي » واشتراك الأمة بإنهاض نفسها وصون ملكها .

نعم ! إن مصدر الشقاء ومنبع البلاء في الشرق وممالكه ، إنما كان من الامتيازات الأجنبية « قابيتولاسيون » تلك الامتيازات التي سبق فذكرنا كيف كان بدء أمرها ،

وكيف أخذت في الشرق الاقصى ـ الصين واليابان ـ والشرق الادنى ـ البلاد العثمانية وفارس ـ وكيف أعطيت على سبيل الرحمة أولاً ثم عادت نقمة أخيراً .

وعلمت اليابان ، أن لا قوة مع الجهل ولا ضعف مع العلم . فكتمت غيظها وتحملت جور الغربيين وامتيازاتهم ، وانصرفت الأخذ بالتقليد الصحيح ، وثابرت على بعث البعثات العلمية اليابانية لاوروبا « بالمئات » وقسمتهم شُعباً على شعب العلوم والفنون ، من مالية وسياسية وعلمية وزراعية وطب وهندسة ... الخ .

فلم يمض على سعي اليابان هذا ربع جيل ، حتى انتظمت محاكمهم ، وعم العلم الصحيح في ناشئتهم ، وعرف القسم المنوّر فيهم ما يجب أن يعمله ويعلمه للطبقات الاخرى من قومه ، في المدارس الوطنية اليابانية .

فتهيأ لهم بذلك المسعى ، هيئة اجتماعية وقومية صحيحة ، ومدنية لم يترك معها مجال للمكابرين من الغربيين « الافرنج » أن يدّعوا أو يفتروا عليهم بأنهم « شرقيين » ولا يحسنون أمر الادارة ، أو معرفة الحقوق العمومية ، أو العدالة المطلقة البشرية . بل بالعكس ظهر أن محاكم « القونصلاتات » وتلك الامتيازات الاجنبية ، من محاكمة الجاني القاتل الاوروبي تجاه قنصله ، والمفلس الاحتيالي الافرنجي تجاه محكمة دولته « القنصلية » أبعد بمراحل عن عدل محاكم اليابان وقصاصاتهم العادلة ، ونزاهة حكام اليابان ، وصدق وجدانهم ، وعدم تسلط أي قوة ، من أموال أو جاه أو نفوذ عليهم ، بعكس القناصل والمحاكم القنصلية هناك ، فأجمع رأي معتمدي دول أوروبا ، بطلب عموم الرعايا ، أن يطلبوا من الميكادو قبول طلبهم بالغاء الامتيازات « قابيتولاسيون » وأن تفصل قضاياهم ، وتجازى مجرموهم في محاكم اليابان ، فترددت حكومة الميكادو في قبول مطلب السفراء هذا ولم تقبل فصل قضايا الاجانب في محاكمها ، محتجة أن حكامهم إنما يسع وقتهم فصل قضايا اليابانيين فقط ، ولا متسع لهم لإضاعة الأوقات بشؤون الاجانب ، وأشارت تشفياً بلزوم احتفاظهم بامتيازاتهم ، فاشتدت الدول ، وطال الأخذ والرد حتى قبلت اليابان أخيراً بتشميل عدلها للأجانب ، وبلغو امتيازاتهم .

وقد كان في خدمة اليابان عدة من الاخصائيين الاجانب في شعبات إداراتها لسنين محدودة ، برواتب معينة ، وكانت كلما أتم الياباني عمله في شعبة من الشُعَب وعاد لوطنه أرفقوه بذلك الاخصائي ، فكان في دقائق تلك الشُعبة وما تحتاجه من علم وفهم وعمل ، يبرّز الياباني

على رئيسه الافرنجي ، حتى خجل أولئك الرؤساء المأجورون من أنفسهم ، وطلبوا إعفاءهم من الخدمة قبل انقضاء الأجل المعقود ، ورضوا بحرمانهم من الراتب ، باعتراف أن الياباني أقدر منهم على أداء وظائفهم ، وما جلبوا لأجله واستؤجروا له . هكذا تم لليابان الفوز بالتقليد النافع ، وجلب المفيد اللازم من العلوم والفنون والصنائع ، وبرزت بين صفوف الدول العظام ، دولة شرقية لها من بأسها منعة ، ومن علمها واتحادها قوة تخشى ، وحد يتقى . والناس أبناء ما يحسنون ولله في خلقه شؤون .

قوله إن أضعف ما في هذا العصر حق لضعيف لا قوة له وأقوى شيء باطل لقوي يجعل بطله حقاً :

قال : خضعت الموجودات في الكائنات إلى ناموس عظيم وهو « القوة » فظهرت آثارها في الحيوان والنبات والجماد ، وفي الافلاك ، وكان لكل منها حركات اضطرارية ، ووظائف تأتيها طوعاً أو كرهاً . فبالقوة يستجلب الانسان المنافع لذاته ، ويدفع المضار عنها ، وبالقوة المعبر عنها « بالجاذبية » حفظ نظام هذا الكون العظيم الشاسع الاطراف ، وما نشاهده من توالي الليل والنهار ، وحركة سائر الأجرام السماوية ، وما على وجه الارض من المواد المختلفة كثافة وثقلاً ، وتحول الكثيف إلى لطيف وبالعكس ، كل ذلك وغيره من دائم النظام ، إنما هو ناتج عنها « أي القوة » وهي التي لا يمكن تصور المادة مجردة منها ولا تصورها مجردة من المادة ، وهي الحافظة لنظام ما بين أيدينا ، وما يحيط بنا ، ويظللنا من العوالم المستقرة ، والسابحة في الفضاء .

ثم إذا أخذنا « النبات » رأينا أثر القوة أشد وضوحاً فيه ، فإنك إذا غرست نباتات عديدة في بقعة واحدة من الارض ، ليس فيها من الغذاء ما يكفي الجميع ، ترى تلك الاحياء النامية تتنازع فيما بينها ، ولا يمضي زمن حتى يبلغ البعض أشده من النمو ، والبعض الآخر قد أدركه الاضمحلال فيبس ، ولا ريب أن تلك الناميات ، تنازعت على ما كان من الغذاء ففازت به القوية فاغتذت ونمت ، وحرمت منه الضعيفة فزادت ضعفاً وتمكن منها حتى قضى عليها ، وأدركها الفناء قبل القوية .

ومن تأمل بأعضاء النبات ، يرى بينها ما جعل للدفاع ، وما جعل لاستجلاب الاقوات ، مجهزاً بأسنة من الشوك ، تدفع بها عنها أذى المعتدين ، ومنها ما هو مجهز بأعضاء مخصوصة

لافتراس بعض الحشرات التي تقتات بها ، وهي بتلك القوى تجلب النفع ، وتدفع الضر .

أما عالم الحيوان ولا سيما الإنسان ، فأثر القوة فيه أشد وضوحاً من الجميع ، لأنك لو نظرت في أعضائه عضواً عضواً ، بل لو أخذت كرة من كريات دمه لرأيت تنازعاً دائماً ، وتسابقاً إلى الغذاء مما بينها ، فيغلب القوي منها الضعيف .

فالقوة مظهر الحياة والبقاء ، والضعف مجلى الخفاء والفناء ، فحيثما وجدت القوة في تلك المواليد ظهرت معها وبجنبها علامات الضعف والاضمحلال لغيرها .

ولا تظهر وتتعين القوة إلا بإضعافها الغير وتسخيره لها ، وما كان قوة في طبقة بعض الأحيان يكون ضعفاً مع الاقوى منها ، وهي والحالة هذه « نسبية » فالنبات المغروس في بقعة واحدة لا تظهر على البعض منه علامات الضعف « بالذبول والموت والاضمحلال بيبسه » إلا بوجود نبات أقوى منه ينازعه أسباب حياته ووجوده ، ولا يبالي القوي منه بذبول وذهاب نضارة من جاوره من فصائله . وهكذا نرى القوة في كل الطبقات الحيـة ، مظهراً للتبجيل والإعجاب ، على علاتها وظلمها لمن هو أضعف منها .

فإذا دخلت جنة أو روضة ، ورأيت أزهاراً نضرة وبجنبها حشائش وبقايا أزهار ذابلة إنما تعجب بالزاهي النضر البهج من الأزهار ، ولا يلفتك ما حواليها من الذابل ، الذي إنما اضمحل وذهبت نضرته بالنسبة لغلبة القوي ونزاعه له ، وانتزاعه منه أسباب حياته .

وهكذا في الجماد ، وكذلك بنتيجة البحث في عمل الحيوان ، وأرقاه الانسان .

تأمل : في الامم المهضومة ، والمتنازع في هضمها ، أو المهيئة للهضم والازدراد والابتلاع ، كم ترى في شؤونها ، وإبّان سيرها وتدهورها وانجرارها نحو المحو والفناء من المشاهد المؤثرة ، إذ تراها كصاحب بيت قبل ضيفاً على الرحب والسعة ، ثم ما لبث ذلك الضيف إلا وتداخل في شأن بناء البيت ، ثم في أثاثه ، ثم في مصرفه ، فخالته الروحية فمادته ، فلسانه ، وبأخلاقه ومميزاته حتى يضطره أخيراً لعمل ما لا يحب ، ويكرهه على إتيان ما لا يريـد ، ويجبره على غير ما يلائم طباعه وحياتـه ، ومختصر كل ذلك وآخره « الاستعباد » وهو الموت الاحمر لكل حرّ ، والفناء إلى كل ذي حياة ، ونفس أبيّة .

فإذا رأيت تلك الامم الضعيفة ـ مع الاقوياء ـ على تلك الحال من محو وفناء ، وليس

فيهم غير بقية رمق ، ولا ما يدل على آثار أسلافهم العظام فيهم ، إلا ذلّ عجيب بعـد العز ، وفقر مدقع بعد الغنى ، واستباحة بعد المنعة ، فربما تأسف وتحزن ، أسفك وحزنك على زهر رياض ذبلت ويبست ، وكُنت تعهدها زاهية زاهرة .

فيا ليت من بُلي من أممنـا الشرقية بذلك البلاء ، ينحطون من مرتبة الحيوان إلى عالم النبات « المجهز بأسنة من الشوك » فيدفعون عنهم أذى المتدين ، ويحفظون كيانهم من طمع الطامعين ! !

حجة الانكليز على امتلاك الهند ، أنها أي الهند غنية وذات ثروة طبيعية وموقعها في آسيا لا مثيل له ، فعلى هذا ولهذه الاسباب ، أصبح امتلاك الهند لازماً لبريتانيا ، وابتذاذ أموال الهند وثروتها تحتاجه الامبراطورية .

هذا هو الحق الذي تدعيه الانكليز في الهند !! وهل من حاجة للقول أنه « أقبـح الأباطيل » وأنه ليس لمبطل مطمع في باطل أشنع منه وأفظع ! ماالذي صير هذا الباطل حقاً للانكليز ؟ أليس الا «القوة» ! وما الذي صير حق الهنود الصريح وحجتهم الدامغة بأنه إن كانت ثروة بلادنا وأموالنا لازمة للانكليز فهي لنا ألزم ! باطلا ؟ ـ أليس هو إلا « الضعف » !! .

ولولا الضعف في الهنود والقوة في الانكليز لكان الأولى أن يملك الثلاثمئة مليون هندي ويستعمروا جزيرة بريتانيا العظمى وهم لا يزيدون عن الأربعين مليوناً !

وهكذا القول في المراكشيين وقد اكتسح بلادهم الاسبان بحجة القرب منهم ولزوم تلك المملكة لاسبانيا وكان الحق أن يفتتح المراكشيون بـلاد الاسبان بنفس الحجة ، وبالحق المكتسب من ابن نصير وطارق ، وآثار أولي الهمم من أعزة العرب في تلك الأقطار القائمة لليوم شاهدة ولسوف يعيد الله بالرجوع إلى أحكام كتابه مافقد من ملك ، وبان من عز ، وتقوض من مجد وسلطان الى أصحاب الحق من المسلمين إذ قال وقوله الحق (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) .

نظرته العامة في الاسلام والمسلمين ، وأسباب ما ألم بهم من الانحطاط مع توفر ما في الدين من دواعي النهوض ، وأسباب الرقي ـ على عكس من نهض وليس في دينهم ما يحملهم على ما هم عليه ،وفيه من أخذ العدة والنهضة المشهودة فيهم ـ وفلسفته بذلك

نعم كان لجمال الدين سلطة على دقائق المعاني وتحديدها ، وإبرازها في صورها اللائقة بها وله قوة في حل المشكلات وما يعضل فيها ، وما على المستشكل في أمر ما إلا أن يلقيه عليه فإذا هو بمقال وجيز بليغ منه ، قد فكك عقد المشكل ، وكشف ستر الغموض عنه ، فظهر المستور واضحاً ، والمشكل منحلا ، من ذلك أنه زار جمال الدين ذات يوم جماعة من أهل الفضل في ساعات مختلفة ، وكأنهم كانوا على موعد ، أو اتفاق أن يستوضحوا السيد عن مشكلة ما يرى في الملتين النصرانية والإسلامية من إعداد الاولى عدة الحرب وطلب الغلب ، على عكس الثانية مما هو يخالف ما في أصول الديانتين ، حتى إن الناظر في أهل الملتين يحكم أن كلا منهما عمل بما في كتاب الآخر ، فالنصارى عملت بما جاء في القرآن ، والمسلمون عملوا بما جاء في الانجيل ، فكان جواب السيد لآخر من دخل عليه وسأل ما سأله الزائرون السابقون ، أكنتم على موعد واتفاق ؟ أجابوا كلا ، فعجب من توارد خواطرهم وقال :

لقد استوقفني ما استوقفكم ، ودعاني لحل إشكال ما حيرني قبلكم واليوم يحيركم ، الى تحرير مقال قبل إحدى عشر عاماً ومقدمته :

إن الله خلق الانسان عالماً صناعياً ، ويسر له سبيل العمل لنفسه ، وهداه للابداع والاختراع،وقدر له الرزق من صنع يديه ، بل جعله ركن وجوده ودعامة بقائه ، فهو على جميع أحواله ، من ضيق وسعة ، وخشونة ورفاهة ، وتبـد وحضارة ، صنيعة أعماله ، وسرابيله وما يقيه الحر والبرد ، من عمل يديه نسجاً أو خصفاً ، وأكنانه ومساكنه ليست إلا مظاهر تقديره وتفكيره ، وجميع ما يتفنن فيه من دواعي ترفه ونعيمه إنما هي صور أعماله ومجالي أفكاره ، ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان ، وبسط أكفه للطبيعة ليستجديها نفساً من حياة ، لشحت به عليه بل دفعته الى هاوية العدم ، وهو في صنعه وإبداعه محتاج إلى أستاذ يثقفه ، وهاد يرشده ، فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياتـه ، يعمل ليتعلم ويعلم كيف يعمل ، وليقتدر على أن يعمل ، فصنعته أيضاً من صنعه ، فهو في جميع شئونه الحيوية « عالم صناعي » كأنه منفصل عن الطبيعة ، بعيد من آثارها ، حاجته إليها كحاجة العامل لآلة العمل . هذا هو الانسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه .

دعه في هذه الحالة ، وخذ طريقاً من النظر إلى أحواله النفسية من الإدراك والتعقل والأخلاق والملكات والانفعالات الروحية، تجده فيها أيضاً « عالماً صناعياً » شجاعته وجبنه، جزعه وصبره ، كرمه وبخله ، شهامته ونذالته ، قسوته ولينه ، عفته وشرهه ، ومايشابهها من الكمالات والنقائص ، جميعها تابع لما يصادفه في تربيته الاولى ، وما يودع في نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم ، فمرامي أفكاره ومناهج تعقله ، ومذاهب ميله ، ومطامح رغباته ، ونزوعه إلى الاسرار الالهية أو ركونه إلى البحث في الخواص الطبيعية ، وعنايته باكتشاف الحقيقة في كل شيء أو وقوفه عند بادىء الرأي فيه ، وكل مايرتبط بالحركات الفكرية ، إنما هي ودائع اختزنها لديه الآباء والامهات ، والأقوام والعشائر والمخالطون . أما هواءالمولد والمربى ، ونوع المزاج ، وشكل الدماغ ، وتركيب البدن وسائر الغواشي الطبيعية فلا أثر له في الأعراض النفسية ، والصفات الروحانية ، إلا مايكون في الاستعداد والقابلية ، على ضعف في ذلك الأثر ، فان التربية وما ينطبع في النفس من أحوال المعاشرين وأفكار المثقفين تذهب به كأن لم يكن أودع في الطبع شيء ، نعم إن أفكاراً تتجدد ، ومعقولات عن أخرى تتولد ، وصفات تسمو ، وهمماً تعلو ، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين ، ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة ، لا من آثار الاكتساب ، ولكن الحق فيه ، أنه ثمرة ما غرس ، ونتيجة ما كسب ، فهو مصنوع يتبع مصنوعاً ، فالإنسان في عقله وصفات روحـــه « عالم صناعي » ؟ كما قلنا .

هذا مما لا يرتاب فيه العقلاء والسذج ، ولكن هل تذكرت مع هذا أن الأعمالالبدنية إنما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ، وأن الروح هي السلطان القاهر علىالبدن ، أظنك لا تحتاج فيه إلى تذكير ، لأنه مما لا يعزب عن الأذهان ، إنما قبل الدخول في موضوعنا ، أقول كلمة حق في الدين ، ولا أظن منكراً يجحدها.

إن الدين وضع إلهي ، ومعلمه والداعي إليه البشر ، تتلقاه العقول من المبشرين المنذرين، فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي ، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين ، وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب ، ويرسخ في الأفئدة، وتصبغ النفوس بعقائده ، وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرن الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال — عظيمها وحقيرها — فله السلطة الأولى على الأفكار ، وما يطاوعها من العزائم ، والإرادات ، فهو

سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها ، وكأنما الإنسان في نشأته لوح صقيل، وأول ما يخط فيه رسم الدين ، ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده ، وما يطرأ على النفوس من غيره ، فانما هو نادر شاذ ، حتى لو خرج مارق عن دينه ، لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات ، بل تبقى فيه كأثر الجرح و « الندبة » في البشرة بعد الاندمال .

وبعد هذا فموضوع بحثنا الآن « الملة المسيحية » و « الملة الاسلامية » — وهو بحث طويل الذيل — وإنما نأتي فيه على إجمال ينبئك عن تفصيل . إن الديانة المسيحية بنيت على المسالمة، والمياسرة في كل شيء وجاءت برفع القصاص ، واطّراح الملك والسلطة ، ونبذ الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين لها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية ، ومن وصايا الإنجيل : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، ومن أخباره أن الملوك إنما ولايتهم وحكمهم على الأجساد — وهي فانية . والولاية الحقيقية الباقية ، على الأرواح وهي لله وحده .

فمن يقف على مباني هذه الديانة ويلاحظ ما قلنا ، من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الأفكار ، مع ملاحظة أن لكل خيال أثراً في الإرادة ، يتبعه حركة في البدن على حسبه ، يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي المنتسبين في عقائدهم إليه ، فانهم يتسابقون في المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ، ورفه العيش فيها ، ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها ، ويسارعون إلى افتتاح الممالك ، والتغلب على الأقطار الشاسعة ، ويخترعون كل يوم فناً جديداً من فنون الحرب ، ويبدعون في اختراع الآلات الحربية القتالة والمدمرات المهلكة ، ويستعملها بعضهم في بعض ، ويصولون بها على غيرهم ، ويبالغون في ترتيب الجيوش وتدبير سوقها في ميادين القتال ، ويصرفون عقولهم في إحكام نظامها ، حتى وصلوا غاية صار الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها ، على أن أصول دينهم صارفة لعقولهم عن المنابة حتى بحفظ أملاكهم فضلاً عن الالتفات إلى طلب غيرها ، وقتل الأمم لأخذها من أيديهم؟!.

والديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة ، والافتتاح والعزة ، ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها ، فالناظر في أصول هذه الديانة ، ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل ، يحكم حكماً لا ريب فيه بأن المعتقدين بها لا بد أن يكونوا أول ملة حربية في العالم ، وأن يسبقوا جميع

الملل إلى اختراع لآلات الحربية ، وإتقان العلوم العسكرية والتبحر فيها ، وما يلزمها من الفنون الطبيعية والكيمياء ، وجر" الاثقال والهندسة وغيرها ، ومن تأمل في آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة وطلبها ، واتخاذ كل ما يسهّل له الوصول إليها ، وبذل الجهد والسعي بقدر الطاقة البشرية في سبيلها ، فضلاً عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه ، من لاحظ أن الشرع الاسلامي حرّم المراهنة إلا" في « السباقة والرماية » انكشف له مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها ، ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات إذ يراهم يتهاونون بالقوة ، ويتساهلون في طلب لوازمها ، وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال ، ولا في اختراع الآلات ، حتى فاتتهم الأمم فيما كان من واجباتهم عمله والتخلق به ، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون إليه من تلك الفنون والآلات وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم ، واستكانوا لها ، ورضخوا لأحكامها ومن وازن بين الديانتين حار فكره ، كيف اخترع مدفع كروب ، والمتراليوز وغيرهما بأيدي أبناء الديانة الأولى قبل الثانية ! وكيف وجدت بندقية مارتين في ديار الأولين قبل وجودها عند الآخرين ، وكيف أحكمت الحصون ، ودرعت البواخر ، ومخرت كالرواسي وأخذت مغالق البحار ، بسواعد أهل السلامة والسلم ، دون أهل الغلبة والحرب .

لِمَ لا يحار الحكيم — وإن كان نطاسياً —؟ لِمَ لا يقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ؟ هل القرون الخالية والأحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المتمسكين بعراهما ؟ هل نبذت كلُّ ملة من الملتين عقائد دينها ظهرياً من أجيال بعيدة ؟ هل اقتصر النصارى في دينهم على الاخذ بشريعة موسى فقط واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت آيات الانجيل من حيث يدري ولا يدري بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين ؟ أو ألقي شيء منها في أماني معلميهم وناشري شريعتهم عندما يتربعون في محافل دروسهم ؟ هل تبدلت سنة الله في الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيها ؟ هل استبدت الابدان فيها على الارواح ؟ أو انفلتت الافكار من سلطة الدين ، أو تعاصت النفوس عن الانتقاش بنقشته وهو أول حاكم عليها ، وأقوى مؤثر فيها ؟. هل تتخلف العلل عن معلولاتها؟ هل تنقطع النسب بين الاسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول إلى كشف المساتير وحل المعميات ؟.

أينسب هذا إلى اختلاف الاجناس ، وكثير من أبناء الملتين يرجعون إلى أصول واحدة، ويتقاربون في الانساب الدانية ، أينسب إلى اختلاف الاقطار! وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البلدان ، ويتجاورون في مواقع الامكنـة . ألم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم أعمال بهرت الابصار ، وأدهشت الالباب ؟ ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك، الذين دوخوا الممالك واستولوا على كرسي السيادة فيها ،نعم كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع ، ففزع لها المسيحيون ، وغابوا عن معرفة أسبابها .

ذكر ملكام مترجم « الانكليزي » في تاريخ فارس أن السلطان محمود الغزنوي كان يحارب وثنيي الهند بالمدافع ، وكانت أهم الاسباب في انهزامهم بين يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة.

فأي عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية ، فقدمها إلى ما لم يكن في قواعد دينها ؟ وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين ، فأخرتهم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم ؟ مقام للحيرة وموضع للعجب ! ولا بد لهذا التخالف من سبب . نعم ! وتفصيله يطول ولكن نجمل على ما شرطنا :

إن الدين المسيحي إنما امتد ظله وعمّت دعوته في الممالك الاوروبية من أبناء الرومانيين، وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن أديانهم السابقـة ، وعلومهم وشرائعهم الاولى ، وجاء الدين المسيحي إليهم مسالماً لعوائدهم ، ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقناع ، ومسارقة الخواطر ، لا من مطارق البأس والقوة ، فكان كالطراز على معارفهم ، ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم ، ومع هذا فان صحف الإنجيل الداعية للسلامة والسلم ، لم تكن لسابق العهد مما يتناوله الكافة من الناس ، بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ، ثم إن الاحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع، وسنوا محاربة الصليب ، ودعوا إليها دعوة الدين ، التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية ، وجرت منها مجرى الاصول، ولحقها على الاثر تزعزع عقائد المسيحيين في أوروبا وافترقوا شيعاً ، وذهبوا مذاهب ، تنازع الدين في سلطته ، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم في جرائيم وجودهم ضراماً ، وتوسعوا في فنون كثيرة ،وانفسح لهم مجال الفكر وأكثر ما أفادهم زحفهم إلى الشرق للحرب الصليبي، واقتباسهم أشياء كثيرة وعودتهم بها إلى المغرب ، ومن هناك أخذت براعتهم في الفن العسكري واختراع الآلات الحربية والدفاع تساوق براعتهم في سائر الفنون .

أما المسلمون ، فبعد أن نالوا في نشأة دينهم ما نالوا ، وأخذوا من كل كمال حربي حظاً ، وضربوا في كل فخار عسكري بسهم ، بل تقدموا سائر الملل في فنون المقارعة ، وعلوم النزال والمكافحة ، ظهر فيهم أقوام بلباس الدين ، وأبدعوا فيه البدع ، وخلطوا بأصوله ما ليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجـبر وضربت في الاذهان ، حتى اخترقتها وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الاعمال . هذا ما أدخله الزنادقة فيها بين القرن الثالث والرابع للهجرة ، وما أحدثه السوفسطائية الذين أنكروا مظاهر الوجود ، وعدّوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق ، وما وضعه كذبة النقل من الاحاديث ، ينسبونها إلى صاحب الشرع ، ويثبتونها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة ، وإن ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفاً في الهمم ، وفتوراً في العزائم . وتحقق أهل الحق ، وقيامهم ببيان الصحيح والباطل لم يرفع تأثيره عن العامة ، خصوصاً بعد حصول النقص في التعليم والتقصير في إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الحقة ، ومبانيه الثابتة ، التي دعا إليها النبي وأصحابه ، فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا منحصرة في دوائر مخصوصة ، وبين فئة معينة .

لعل هذا هو العلة في وقوفهم ، بل الموجب لتقهقرهم ، وهو الذي تعاني من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه .

إلا أن هذه العوارض التي غشيت الدين ، وصرفت قلوب المسلمين ، عن رعايته ، وإن كان حجابها كثيفاً ، لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالمرة تدافع دائم ، وتغالب لا ينقطع ، والمنازعة بين الحق والباطل ، كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج ، وحيث إن الدين الحق هو أول صبغة صبغ بها نفوسهم ، ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة ، فلا بد يوماً أن يسطع ضياؤها ويقشع سحاب الغفلة ، وما دام القرآن يتلى بين المسلمين ، وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق ، وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم ، والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين ، وطلب المنعة من كل سبيل ، لا يعين لها وجهاً ، ولا يخصص لها طريقاً ، فإننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم ، ونهوضهم إلى مطالبة الزمان ، ومقاضاته ما سلب منهم ، فيتقدمون على من سواهم في فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة ، حفظاً لحقوقهم ، وضناً بأنفسهم عن الذل ، وملتهم عن الضياع ، وإلى الله تصير الأمور .

ذكره مذهب الجبرية ، والمعتزلة ، ورأيه في القضاء والقدر وإفاضته فيه .

مرّ معنا فيما سبق من القول في سيرة جمال الدين وصفاته ، أن الناس قد تخالفوا في أمره ، وتباعد ما بينهم في معرفة حاله ، وتباينت صوره في مخيلات اللاقفين لخبره ، حتى كأنه حقيقة كلية ، تجلت في كل ذهن بما يلائمه ، أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله ، والرجل في صفاء جوهره ، وزكاء مخبره ، لم يصبه وهم الواهمين ، ولم يمسه حزر الخرّاصين .

نعم تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأيه ، وكذلك المباحث التي كان يدور بها لسانه أثناء مناظراته الجدلية ، في بيان عقائد المعطلين ، وكان المراد منها إظهار حقائق النحل والبدع ، بمعزل عن الاعتقاد بها والجنوح إليها، بل مع تعقيبها بالرد عليها وإقامة الحجج على بطلانها ، يؤيد هذا قول جمال الدين « في الاستانة » لأحد المتلبسين بلباس العلماء ، من عمة كالبرج، وجبة كالخرج، يا هذا ! أضعتم حقائق الدين بين سوء معقولاتكم وعدم تفهم منقولاتكم !.

وكان السبب في هذا ، أن الرجل دخل إلى مجلس جمال الدين وجلس في مكان رفيع فيه ، من غير أن يدعى إليه ، فتركه السيد إجلالاً لطيلسانه ، وعملاً بعادته باحترام زائريه ولما كان البحث في ذلك المجلس دائراً على ما قالته المعتزلة ، وما سبّبه اجتهاد القدرية والجبرية اندفع الشيخ المعمم مقاطعاً لكل بحث وقول ، متصدياً لشرح تلك الخلافات والنظريات التي عجزت عندها الفطاحل ، وتجردت لها فحول علماء الكلام فتركه جمال الدين يخوض ويهرف بما لا يعرف ، مظهراً له ارتياحاً لكي يفرغ جعبته ، ويستنفد ما عنده ، فطمع الشيخ وأول صولة صالها على جار الله الزمخشري فطعن به ما شاء أن يطعن ... إلى أن قال : هذا الرجل « الزمخشري » كل من قرأ كتابه الكشاف ، يخرج من عداد أهل السنة ويكون من الملحدين .

فتنفس عند ذلك جمال الدين الصعداء ، وظهرت على وجهه علائم الامتعاض والتأثر ، على خلاف المعهود فيه مع زائريه فقال :

يا حضرة الشيخ هل لك أن ترشدنا إلى مواقف الزلل التي ارتكبها جار الله الزمخشري فنتجنبها ، وإلى ما ارتكبه من الشطط الذي أدّى به على زعمك إلى الإلحاد ؟!. قال الشيخ :

يكفي أنه من المعتزلة ، وأنه من المدافعين في تفسيره عن مـذهب الجبرية ، ويكفي لتكفيره أن العلامة ابن خلدون قال في مقدمته : يجب أن لا يُقرأ كتاب التفسير الزمخشري ، وكل عالم يخالف ابن خلدون في اجتهاده هذا يكون مارقاً من الدين ، مضلاً ومضللاً للمسلمين .

عند ذلك وقف جمال الدين ، ومشى حتى وقف تجاه الشيخ وقال له : يا حضرة الشيخ ! إذا أجبتني الآن معنى الاعتزال من حيث الاشتقاق والمذهب ، ومعنى الإلحاد لغة وفقهاً ، ومعنى الجبر والجبرية ، والقدر والقدرية لغةً وفقهاً ، إذا أجبت على ذلك ناقشتك فيمن هو المصيب أأنت أم جار الله الزمخشري .

فأجاب الشيخ بالجرأة المعهودة فيمن يتلقفون بعض جمل من مختلف العلوم ، ويتصدرون في المجالس لسردها ، فيوهمون السذج والبسطاء أن الواحد منهم ارتشف وارتوى من العلم المحيط ، وأصبح من المتبحرين اللا أدريين ، وجاز مراتب الوارثين المحققين !! فقال : لا يهمني يا حضرة السيد ألاّ أفقه معاني ما سألتني عنه لغةً وفقهاً ، ويكفي أن أقول لك تحديثاً بنعمة الله أنني من كبار مدرسي السليمانية ، وقد أتممت دراسة كل العلوم العقلية والنقلية ، والخلافيات ، وما قاله علماء الكلام ، وعلمت أن الجبرية والمعتزلة والقدرية يقولون بأن كل أفعال العبد مسندة إلى الله ، وبتقدير منه ، ليس للعبد أدنى تأثير فيها ، بل هو بمنزلة الجمادات ، حتى أن الكفر والمعاصي بتقدير الله ، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! هـــذا يا حضرة جمال الدين مذهب من ذكرت وفي مقدمتهم الزمخشري المارق المضل !.

كان الشيخ عند إيراده ما تقدم من القول على غاية من الحدة ، تتحرك يداه وأصابعه ، وعيناه فتحاً وإغماضاً ، وحاجباه ارتفاعاً وانحناء ، وجمال الدين يحدق بوجهه ، ويرقب حركاته بكمال الهدوء ، ومنتهى السكينة ، ولما رأى أن جمال الدين أطال السكوت ، تبين على وجـه الشيخ علائم السرور بالظفر .

عندئذٍ قال جمال الدين : يا حضرة الشيخ !. إذا قال لك الزمخشري : إن حجتي باسناد أفعـال العبد إلى الله سبحانـه مأخوذة من صريح النص (ولا تقولنّ لشيء إني فاعلٌ ذلك غداً إلاّ أن يشاءَ اللهُ) و (ما تشاؤون إلاّ أن يشاءَ الله) و (ولكنّ اللهَ يفعلُ ما يريدُ) و (ليسَ لكَ من الأمرِ شيء) و (ومن يضلل الله فمـــا له من هادٍ) . وإذا قال لك الزمخشري : إن الكفر والايمان بتقديره تعالى الواحد الأحـد والقاهر فوق عباده ، وأورد

عليك حجة من القرآن بقوله لرسوله المصطفى (إنك لا تهدي من أحببتَ ولكنَّ الله يهدي من يشاءُ) .

ماذا عندك يا شيخ من الحجة على الزمخشري في مذهبه هذا ومستنده القرآن الكريم !

ثم إذا قال لك الزمخشري : إن أفعال العبد راجعة إلى الله بدليل قول المصطفى ﷺ : الشقي من بطن أُمه والسعيد من بطن أُمه وكل ميسر لما خلق له ، وقوله في الحديث الطويل : لو اجتمع أهل السماء والأرض على أن يضروك بشيء لم يضرك الله به ما أضروك ولو اجتمعوا ، أو كما قال : ما نفعوك ، جفت الأقلام وطويت الصحف ... الخ . ثم ياحضرة الشيخ لو قال لك الزمخشري : إن أعمال التقوى والفجور من العبد مرجعها أيضاً إلى الله سبحانه القاهر فوق عباده، وأورد لك حجة من القرآن أيضاً بقوله تعالى(ونفسٍ وماسوَّاها فألهمَها فجورَها وتقواها) . وإذا قال لك إنه لا يصح إيمانك إلا أن تؤمن أيضاً ، وبالقدر خيرهِ وشرِّه من الله تعالى . و (ألا له الخلقُ والأمرُ إلى الله تُرجَعُ الأمورُ) و.و.و... مما تكرر وروده في القرآن والحديث ماذا يكون جوابك وما عندك من الدفع ؟ ؟.

ثم قال : يا حضرة الشيخ ! كنت فيما مضى من حياتي ، وفي أول نشأتي أثناء جريي وراء العلماء للاستفادة من منقولاتهم ومعقولاتهم ، أمرُّ على مقامات أغربها وأدهشها ، أنني عندما كنت أستفيد جملة من شيخي يهجم علي الغرور ، فأتهجم على أستاذي بتنقيد كلماته ولو من قبيل الصرف والنحو الذي تعلمته منه — وعهدي إذ ذاك فيه حديث — فأخطئه أحياناً بالعلمية والعجمة ووزن الفعل ، إذا هو لم يراع حقهم في كلامه ، ثم كانت تأخذني عزة الغرور من الجهل فأستكبر عن سؤاله عما جهلته من مثل الفرق بين مذهب القدرية والجبرية والمعتزلة ، حتى إذا كنت يوماً في حلقة درسه وكان أحد رفاقي يشاكلني إذ ذاك في الغرور ، فخلط بحضرة أستاذنا بين مذهب الخوارج والقدرية والجبرية والمعتزلة ، وجعلهم شيئاً واحداً غير مميز بين فرقة وأُخرى، قال الاستاذ بلهجةناصح: أولادي الأعزاء ! خذوا العلم عمن أدبه العلم فأحنى ظهره إجلالاً له ، وأغضى بصره بساطع نوره ، وخفف صوته خشية أن يسكته من هو أعلم منه ، وفوق كل ذي علم عليم ، أما المعتزلة فليس من العدل أن ننظر إلى كل مذهبهم بعين السخط ، ولا أن نقبل مرتآهم بعين الرضى ، إذ فيهم من أجلة العلماء والأئمة من يطأطىء الخلف رأسه إجلالاً لهم ، فواصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس

أستاذه الحسن وجلس عند أسطوانة من أسطوانات المسجد النبوي ، وعلم بالمنزلتين ، وقال : إن لكل شكل مبتدأ ومنتهى وبينها وسط لا محالة ، فبين الكفر المطلق والإيمان المطلق منزلة متوسطة لا يصح معها الاطلاق ، بمعنى أن صاحب الكبيرة « أي الذنب العظيم » لا يصح الحكم عليه لا بالكفر المطلق ولا بالايمان المطلق بل يجب وضعه في المنزلة المتوسطة .

قال الاستاذ : هذا نظر لا يصح نبذه ظهرياً ، أو عدم الاعتداد به ، وقد قال الشارع الأعظم ﷺ : « من مات يشهد أن لا إله إلاّ الله دخل الجنة » . أما نظر المعتزلة ،وماقيل عنهم أو قالوا به أنهم اعتزلوا فئتي الضلالة وهما الخوارج وأهل السنة ، فأرى في هذا شططاً، وهو ما أدى إلى تفرغ العلماء لقدح زناد فكرهم بإيراد الحجج نفياً أو إثباتاً لأمور في الفروع كان الاولى الاقتصاد بها والوقوف عند حدود ما تم معه الفائدة من فهم مقاصد الشارع من نفع الخلق في أمور العبادات والمعاملات .

ثم قال : إن مذهب الجبرية ، وهي أكثر الفرق الاسلامية في وقتها وأكثرها جدلاً ، لم يكن في كل ما ارتأته محض الحق أو ما يجوز الأخذ به للمسلمين كافة ، لأن في مباحثهم وأسس مذهبهم بإسناد أفعال العبد كلها إلى الله تعالى، وجحودهم الجزء الاختياري والكسبي، مزلة أقدام لضعفاء العقول ، قصار النظر من الأمة ، ولا يسلم إلاّ الثابتون في إيمانهم ، الراسخون في عقيدتهم ، إذ في تلك المباحث عقبات كؤود ، ومقامات تشبه في اجتيازها هول الصراط ، وهي إلى العلم الروحاني أقرب منها إلى العلم الجسماني .

وأما ما ورد عن لسان الجبرية ووافقت به المعتزلة في بحثهم عن قول الانسان « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ، هذه الاستعاذة من الشيطان ، إن كانت كي لا يوسوس للانسان حتى لا يعصي الله ، ويعصمه منه ، فاما أن يكون الباري تعالى عالماً بالمحدثات كلها ، وسبق في قضائه الأزلي منع الشيطان أو عدم منعه ، فان كان الأول وهو المنع للشيطان بالزجر الإلهي وقهره، ألاّ يفعل وألا يوسوس ، كان الشيطان أحقر من أن يخالف أمر الله وكانت الاستعاذة لا معنى لها ؛ وإن كان الشيطان مأموراً أن يوسوس الانسان بأمر الله ، كان الشيطان مسلطاً ومدفوعاً بأمر لا مردّ له فلا نفع ولا فائدة من الاستعاذة ... الخ .

وأن الله إنما يريد إصلاح العبد ، ولا يريد إلاّ الخير لعباده وما ربك بظلاّم للعبيد ..

كل مثل هذه الشبهات والخواطر لا يجوز الأخذ بها على ظاهرها ، لأن لها من المقامات

- كما ذكرنا - لا تحصل ، ولا يمكن الوصول إليها إلاّ بمجاهدات نفسية وامداد ليدخل وراء الشارع الأعظم إلى حضرة « لا إله إلاّ الله » ولافاعل إلاّ الله . بدليل قول المصطفى ﷺ : « أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من غضبك ، وأعوذ بك منك ولا أحصي ثناءً عليك أنت كما أنت ، وكما أحصيت على نفسك » هذا المقام الأسمى من المقامات المحمدية ، التي علم بها بعالم الشهود لمقام التعينات أن الله تعالى هو الفاعل المختار لا ربّ سواه .

ولسان حال الربوبية ينادي عباداً نفخ في ترابهم نسمة من روحه ، فتألهوا بها مع هيكلهم الترابي ، فتقولوا على باريء النسم وقد أنشأهم من العدم ، وحاموا جهلاً وغروراً حول إدراك تلك القوة ، التي تناديهم من فوق عظم يحيط رؤوسهم ، ويضغط على أدمغتهم حتى لا تتعالى فوق قدرها ، ولا تتجاوز إلاّ ما كان من القدر المعلوم .

قال الاستاذ علي منلا خان : أما القضاء والقدر ، فيجب التنبه فيهما إلى معنى التعريفات ، إذ كثيراً ما يظنون القضاء والقدر شيئاً واحداً بالمعنى والمبنى ، وخير التعاريف : أن القضاء هو ما قضى به الخالق سبحانه جملة في اللوح المحفوظ بالتعينات الأزلية ، والقدر ما تنزل على الأرض بالتدريج من ذلك المجموع واحداً فواحداً ، حادثاً فحادثاً بشخص معلوم ، في زمن محدود ، بسبب معين ، كموت زيد في المرض الفلاني ، بالعلة الفلانية . هذا ما قاله أستاذنا ، وأظن أن كل ذلك يا حضرة الشيخ هو من منسياتك في السليمانية ! فما عندك من الدحض ، والدفع لتقولات الزمخشري ، ومذاهب الجبرية ، والمعتزلة ، والقدرية ؟ فبهت الشيخ بهتة رجل ظهر على وجهه أنه لم يفقه كل ما قيل ، ولم يحب أن يظهر على نفسه العجز ، فجمع نفسه واعتصم بالجرأة وقال : يا حضرة السيد ! إن ابن خلدون أعلم مني ومنك وهو الذي حذّر من قراءة تفسير الزمخشري ، فما قولك أنت بتحذير ابن خلدون .

فطلب جمال الدين مقدمة ابن خلدون وقرأ فصل التفاسير حتى وصل إلى ذكر الزمخشري وإذا هو يقول بالحرف الواحد : « إن خير ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق إلاّ أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه مع إقرارهم برسوخ

قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة وإذا كان الناظر فيه واقفاً على المذاهب السنية ، محسناً للحجاج فيها ، فلا جرم أنه مأمون من غوائله فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه ...» .

هذا ما قاله ابن خلدون يا حضرة الشيخ ومنـه يعلم أن الشرط الأعظم الذي وضعه ابن خلدون لمن يحب أن يستفيد من تفسير الزمخشري ، أن يكون ذا قدم ثابت في العقائد ، وعلم راسخ في حقائق العبادات ، عندئذ يستفيد ما شاء أن يستفيد من تفسير الزمخشري لأنـه « أبدع ما شاء أن يبدع » .

هذا ما كان يا حضرة الشيخ في شأن ما قاله ابن خلدون ، فما عندك بما بقي من المطاعن؟

قال الشيخ يا حضرة السيد جمال الدين ! « أنت والزمخشري ومن نحى نحوكم من علمـاء المنطق يصعب على مثلي مجادلتكم ، وإذا عجزت عن إيراد الحجة فلا يستفاد من عجزي ثبوت مذهب الجبرية الذي وافق المعتزلة على أهمها ، تقول الجبرية والمعتزلة أن الاستعاذة من الشيطان لا فائدة منها ، كما ذكر ذلك عن لســـان الزمخشري وأمثاله . وقد ورد في صريح النص « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ، فهل يصح اجتهاد في مورد النص ؟ وهل لم يثبت من قول ابن خلدون أن تفسـير الزمخشري محفوف ، ومحظور على أهل السنة مطالعته ؟ أجاب جمال الدين يا حضرة الشيخ ! إنني للآن ما أعلنت ولا صرحت عن مـذهبي في هذه الجدليات ، ولكن أوردت أقوال أهل تلك البدع والنحل على علاتهـا ، وأحببت البحث معك لكي أسبر غورك ومبلغ ما عندك من الحجج التي اعتمدتها أهل السنة ومايدحض حجج أهل الاعتزال والجبرية ، وهما لم يخرجا في ظاهر اجتهادهما عن الكتاب ، وقـد أطلقوا للعقل سراحه معتمدين على قوله تعالى (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) و (إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) والعقل يا حضرة الشيخ يسع التكليف قبل ورود الشرع ، وهو أي العقل أعظم من كل خلق .

الاستعاذة من الشيطان ، تقول الجـبرية وغيرهم أنه من الامور التي يحق للعقل الإنساني أن يبحث فيه من وجوه ، أولاً : هل فوق الشيطان من هو أقدر منه ؟ ثانياً : هل إن القوة القادرة والقاهرة للشيطان محيطة بالحدثات أو غير محيطة ، عالمة أو غير عالمة ؟ .

والجواب يا حضرة الشيخ لا بد أن يكون ، أن الله سبحانه وتعالى أقدر من الشيطان ، وأنه سبحانه محيط بكل الحوادث أليس كذلك ؟ قال الشيخ : نعم .

إذاً ، إذا قال الشيطان يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها : يا رب وسوست لزيد من الناس بأن يفعل الشيء الفلاني وهو من المسطور في لوحك المحفوظ وكتابك المسطور ، الذي سبق قضاؤك به ، فأيُّ سلطان لي على محو قضائك ؟ وأيُّ حول لي على عدم تنفيذ إرادتك، جعلتني مرجوماً ملعوناً ، فإن كان ذلك بسبب جرم صدر مني من غير سبق علم لك ،ولا إرادة ولا قضاء فيه ، تعالت عظمتك ، وجلت قدرتك أن يكون لك شريك في الملك ، وأنت وحدك لك الخلق والأمر . وإن كان رجمي وجعلي ملعوناً بغير ذنب صدر مني فحكمك إذاً عليّ أيها العادل محض الظلم ، حالة كوني لم أخرج من عداد عبادك ، وقلت وقولك حق (وما ربك بظلام للعبيد) .

وإن كنت سلّطت عليّ شيطاناً آخر لأكون من جنده لإغواء عبادك ، فمن غيرك المسلط له ، وليس لغيرك سلطان مطلق لا في السموات ولا في الأرض (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان ... الآية) .

وإذا امتنع التسلسل بالشياطين ، وهو ممتنع لا محالة ، لأنه لا بد أن يصل إلى آخر ليس بعده آخر ، فما تقول يا حضرة الشيخ بقول هؤلاء الجبرية والمعتزلة ؟ قال الشيخ :

يا حضرة السيد ، كل هذه المغالطات ، والسفسطات من المعتزلة ، والجبرية ، قرأتها أساتذتنا في مطولات التفاسير مثل الفخر الرازي ، وشرح الكشاف لابن الطيبي ، وقد دحضت علماء أهل السنة ، وفندت مزاعمهم وأثبتت فساد حجتهم ، ومع كوني أعجمياً عن اللسان ، وبعيداً عن الحجاج يمكنني بيسيط العقل وقلة النقل ، أن أرد كل ما جاء من علماء وأئمة المعتزلة والجبرية بسؤال واحد وهو :

إما أن الأديان ومنها الاسلام بما ورد فيها من التكليف حق وواجب الاتباع ، وعلى اتباعه يكون الثواب ، وعلى مخالفته يقع العقاب .

وإما ، إذا صح مذهب الجبرية والمعتزلة ، بأن كل أفعال العبد من خير وشر ، وإقرار بوحدانية أو شرك ، وفسق أو فجور أو سرقة أموال وقتل أنفس ، أو ما هنالك من الموبقات والشرور ، كل ذلك يفعله العبد بأمر من الله ، وعملاً بقضائه وقدره ، ومتى صح إطاعة العبد لربه بأفعاله هذه ، صح له أن يطلب من الله مثوبة على إطاعته لأمره وقضائه بفعل القتل

والسرقة والكفر ... الخ . كما يطلب من أطاعـــه بأداء الزكاة والفروض وعمل الخيرات وما هنالك من أعمال الخير والبر التي وعد بالثواب عليها المتقون .

فياحضرة السيد أنت تقول أنك من أبناء نبي هـــذه الأمة ، ولك شهرة طـائرة بين المسلمين ، منهم من يقول عنك أنك من خيرة العلمـاء الواقفين على حقائق ودقائق الشرع وأحكامه ، ومنهم من يقول أنك مارق من الدين لا اعتقاد لك بالأديان ، ولا بمن أتى بهـا من الرسل . وقد حملتني من الأسئلة عن لسان الزمخشري ، وعن واصل بن عطاء المعتزلي ، وعن مذهب الخوارج السبعة من أباضية وصفرية وغيرهما ، أسئلة ما كنت قبل وجودي في مجلسك أعلم شيئاً عن مذاهبهم بالتفصيل ، فالآن إذا شئت أن تفصح لي أولاً عن مذهبـك الخاص ، لأ كون إما متبعاً لك إذا وجدته موافقاً لنفسي وإما أن أتجنبك ، لأن شبهات أهل الجبر وحججهم واستنتاجاتهم ، مما يضل العقل في سبيل ردها ، خصوصاً إذا كان ضعيفاًمثلي، والقرآن والتكليف الشرعي يعارضهم ، والحججمعأهل السنة على ما أرى ضعيفة ، ومختصر القول يا جمال الدين :

إما دين متبع بكل ما ورد فيه من أمر أو نهي ، أو جبر لا لزوم للتكليف معه لابأمر ولا بنهي . فهذا هو الإشـكال في سبيل أمثالي من الأمـة ، فان استطعت يا حضرة السيد أن تكشف لنا النقاب ، وتذلل لنا من الصعاب ، وترينـا حقيقة تزيل من نفوس مرضاء القلوب قصار النظر ، ما يعتريها من الارتياب فافعل ولك الشكر وجزيل الاجر .

قال جمال الدين : أيها الشيـخ المحترم ! إن موقفك اليوم كان عين موقفي تجاه أستاذناعلي منلا خان ، إذ كانت تشد إليـــه الرحال لحل المشكلات والمعضلات من أقطار الهند وبلاد الأفغان ، وإني لأذكر لك ما قاله وما أجاد به وأفاد في هذا الموضوع الخطير .

قال أيها الأعزاء ! إن دين الاسلام المأخوذ عن القرآن قد أجاز وأباح الجدل بالتي هي أحسن ومنع المخاشنة به ، وما أحسن الجدل إذا كان المراد منه استجلاء الحقيقـة بعيداً عن التعنت .

تنبهوا أيها الأعزاء لأمر غاية في الخطر والدقة لفهم كتاب الله وما أتى به من التكليف بنهي أو أمر . *فالتكليف وقع على الانسان دون سائر الحيوان* ، وفي أولئك *الحيوانات* من الصفات ما يضارع الانسان ، ويشاكله إذا لم نقل يفوقه حساً وشعوراً ووفاءً ، وصبراً إلى

آخر ما هنالك من الصفات العالية ، ولكن لم يقع عليها التكليف ، ولماذا ؟ نعم لماذا جعلها مع تلك الصفات مسخّرة للحيوان الانساني وهو أضعف من أكثرها بنية ، وأقل صبراً ،وأشد منها عتواً ، وأكفرها نعماً ، وأقربها جزعاً إذا مسه شيء من الضر .

قـدرة سخرت للانسان ما في الأرض جميـعاً ، وجعلت آلة التسخير لتلك الموجودات « روحانية عقله » ليتصرف بها ويسخّر بها من دونه من جمـاد وحيوان ونبات ، خلق ذلك الانسان بأحسن تقويم ، وعلى شبهه وأمثاله وجعله خليفة عنه في الأرض .

فإله علم بكل الحدثات وقضى قضاءه وقدّر قدره، وأعطى الإنسان جزءاً من ألوهية، يسخّر بها ما في الارض من حيوان وغيره ، ويتصاعـد إلى ما فوقه من العلويات ، وأعطى روحه شيئاً من الإحاطة بغيبه في موته الصغير وهو نومه، ذلك الانسان! ذلك الجرم الصغير! الذي انطوى فيه العالم الأكبر ! حقيق ، وجدير أن يفقه أقل مراتب الترجيح !

أيُّنا أيها الأعزاء إذا وقف على مال لا صاحب له ، لا يتردد بين أخذه أو تركه ، فإذا ترجح لديه تركه ، وقع فعل الترك، وإن ترجح له أخذه، وقع فعل الأخذ لا محالة . فعلى هذا الترجيح الذي يقع به الفعل ، أو الترك . على ذلك المرجح يقع الثواب أو العقاب !!.

فكل أمر يحدث للانسان فكراً ، ويقترن فعله مع زمن ويكون للانسـان آن ولو غير منفصل لأعمـال الفكر ، ولو بسرعـة البرق في الفعل أو في الترك ، وكل ما دخل ويدخل تحت هذا القيد من أفعال الانسان ، يكون مؤاخذاً به ، وأُمور لا دخل لترجيح البشر فيها ، ولا أدنى تأثير في عملها أو تركها ، ففيها نظر ذلك ما شوش على أهل الخير في فهمها ، وعدم التفريق بينها وبين ما للانسان من الترجيح فيهـا ، وهو ما يسمونه بالكسب أو الجزء الاختياري ، وضرب لنا المثل الآتي فقال :

القتل المحرم في الشرائع، وهو قتل النفس ، على مطلق المعنى (يقتلون النفسَ التي حرّمَ اللهُ) ولكن أتى التفصيل في الشرع أن القتل على أنواع : فقاتل العمد يُقتل ، وقاتل معذور يعفى ، ثم أتى على أنواع المعذرة ، وجل ما ورد في العمد أن القاتل لا بد أن يسبق فعله التصور والتصميم ، ويكون له فرصة يفتكر فيها بالاقدام على فعل القتل ، ويتردد بين ذلك الإقدام أو الاحجام ، ثم وهو بين ترجيح الفعل أو ترجيح الترك ، يترجح له جانب العمل فيقع الفعل بترجيحه وهو فعل القتل ، فيقتل بذلك الترجيح الذي يقولون عنه أنه «العمد»

ورجل يستأجر آخر في منجم من مناجمه فتقع عليه صخرة فتميته ، أو تنطلق رصاصة من بندقية فتصيب ماراً فتقتله ، هـذا المستأجر ومطلق الرصاصة لا يطالبها الشرع لا بدية ، ولا ينظر إليها بنظر قتلة . ولماذا ؟ والنتيجة من حيث هي قتل لنفس بشرية « واحد » . ذلك لان في الامر الاول وهو القتل عمـداً — وقد ترجح أحد طرفي الفعل أو الـترك فرجح الفاعل أحدهما — فوجب أن يقع عليه ما يقع من ثواب وعقاب ، وأما القتل الثاني فإن صاحب المنجم ومطلق الرصاصة ، ليس لهما أدنى دخل ، لا في ترجيح القتل ، ولا في عدمه ، فكان هنالك محض القدر الذي ليس للبشرية دخل فيه .

هذا يا حضرة الشيخ ما قاله أستاذنا علي منلا خان ، وإليـــه انتهت الرياسة في المعقول والمنقول ، ومع ذلك لم يسلم من تصلف وتعنت بعض تلاميذه إذ قال أحـدهم : مولانا ! إذا سلمنا بالترجيح ، وأن المرجح هو الذي يقع عليه بترجيحه العقاب ، فهل المرجح هو الانسان بدون أن يكون للاله دخل في الترجيح ، وهل هو في الظروف التي أشرت إليها هو خالق لافعال نفسه بدون أمر الخالق !

وعلى هذا أجاب الاستاذ قائلاً : إن ما سبق من القول في هذا المعنى كفاية ، ومختصرها أن أفعال العبد التي يقع الترجيح فيها معدودة محدودة ، وهي التي جاء التكليف بهـا وحظر الشرع عملها وأوجب العقـاب عليها . فالشارع الاعظم أتى مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل ، وكان شرعه أوضح وأصرح وأقرب تناولاً للفطرة ولاستنتاج العقل السليم .

فالمنهي عنه في الشرائع كلها ما خرج عن : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزن ... والخ ما هو معلوم عند أهل الكتاب وصدقت عليه الحنيفية البيضاء وأوجبت عقاباً لمن خالف النهي فيها .

وكل تلك المنهيات لم تخرج عن كونها أفعالاً إنما يأتيها الانسان بعد التصور والتردد بين فعلها أو تركها ، والفعل في القتل العمد ، والسرقة لمال الغير مع تحيين زمن السرقة ، وإعداد المفاتيح وآلات السرقة ، لا بـد أن يكون بترجيح الانسان ، ولا منكر لذلك إلا مكابر ومتعنت ، إذا رجع إلى نفسه علم علمَ اليقين أنه المؤاخذ بما رجح من عمله .

وما خرج عن دائرة ترجيح العبد ، بلا تخرص ولا سفسطة ، فأنا أقول لكم إن الله سبحانه لا يسأله عنه ولا يعاقبه عليه .

وكذلك ما أتت به الرسل من التشريع فانها وافقت حكمة الله فيما يستطيع العبـد أن

يعمله ، وما هو خارج عن استطاعته فلا عقاب عليه فيه . وليس في كل التكليفات الشرعية من أمر أو نهي فيها ثواب أو عقاب إلا ولترجيح الانسان فيها كل الدخل . ثم قال مكرراً : السارق بعد أن يعد آلة السرقة ، ويفتح المغلقات ويأخذ ما فيها من متاع ونقود ، إذا وقع في يد القضاء يقول « قدَّر الله » . وهكذا القول في الزاني بعد أن يعمل لاستهواء واستغواء المعصومات ، إذا افتضح أمره يقول « قدر الله » . والحقيقة في كل تلك الافعال ، شعور ذلك المرجح وهو الانسان أن ما فعله قبيح ، ولو عومل بمثل ما عامل به الغير ، فسرقوا له ماله ، أو فضحوا له عرضه ، أو قتلوا من يهمه ، لأ كبر الامر ، ولطلب تشديد العقوبة على من فعل ، ولو كان من أكبر الجبريين لرجع عن جبره وقال بالجزء الاختياري والكسبي طالباً عقاب المجرم !

ثم اختتم الأستاذ مقاله قائلاً : أيها الأعزاء ! ما خلق الله خلقاً أشرف من العقل الذي وهبه لخليفته في الأرض وهو « الانسان » فسخَّر له ما في السموات وما في الأرض ؛ فجدير ألا يجعل لحيوانية قوامها التراب أن تتغلب على تلك « الروح » ذات العلاقة في الملأ الأعلى ، لأمور كل نتائجها ندم، وملذات حقيقتها دفع ألم، ويا ليت تلك الآلام تزول بعد الموت.. هيهات!

ولا يرتاب أحد منكم أن الشارع الأعظم ﷺ قد تحرى الأنفع والاصلح للأمة ، فنهى عما نهى عنه للخير المطلق ، وأمر بما فيه الأليق ، هذا بقطع النظر عن الثواب الأخروي ، أو العقاب الدنيوي !!

قال الشيخ : يا حضرة السيد ! إن أقوال مولانا أستاذكم علي منلا خان التي أنرت بها عقولنا وشرحت بها صدورنا ، لهي خير ما سمعته للآن ، وأعظم ما تأثرت به نفسي ؛ بقي شيء مهم ألا وهو تهجم المتفرنجين من المسلمين وموافقتهم للأعداء في الأخذ على الدين الاسلامي وأهله ، وأن سبب انحطاطهم وتقهقرهم ، وفقدان ما كان لهم من عزة السلطان ونفوذ الكلمة ، وتسخير معظم الأرض إن هو إلا لاعتقادهم « بالقضاء والقدر » واستسلامهم لهذه العقيدة ، حتى آل أمرهم إلى ما آل إليه مما نراه من ذل واستعباد .. والخ !!

فما رأي السيد في هذا ؟ أجزل الله ثوابه ونفع بعلومه .

فتبسم جمال الدين وقال : أراك يا حضرة الشيخ تحسن النطق بالعربية وأظن أنك تحسن

فهم ما تقرأ ، وغداً إن شاء الله أعطيك مقالاً مطبوعاً في بحث « القضاء والقدر » طبع ونشر في مدينة باريس قبل أحد عشر عاماً ، نقرؤه سوية حتى إذا أشكل أمر تعاونا على حله إن شاء الله .

وفي الغد كان الشيخ أول زائر تربع في حجرة الاستقبال ، واستنجز السيد وعده ، فلبّاه وألقى علينا وعليه ما يأتي :

قضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطاناً على الاعمال البدنية ، فما يكون من صلاح أو فساد فإنما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها ، ورب عقيدة واحدة تأخذ بأطراف الأفكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى ، ثم تظهر على البدن بأعمال تلائم أثرها في النفس ، ورب أصل من أصول الخير ، وقاعدة من قواعد الكمال إذا عرضت على الانفس في تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع ، فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها ، أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة والاعتقادات الباطلة ، فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه ، وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها ، وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم ، أو على خبث في الاستعداد، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة ، وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد، ولا كيف يصرفه اعتقاده ؟ والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الاعمال إنما نشأت عن الاعتقادات بذلك الاصل وتلك القاعدة، ومن مثل هذا الانحراف في الفهم ، وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الاديان غالباً ، بل هو علة البدع في كل دين على الاغلب ، وكثيراً ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الاعمال ، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به إلى الهلاك وبئس المصير ، وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن في دين من الاديان ، أو عقيدة من العقائد الحقة استناداً إلى أعمال بعض السذج المنتسبين إلى ذلك الدين أو العقيدة ، من ذلك عقيدة « القضاء والقدر » التي تعد من أصول العقائد في الديانة الاسلامية الحقة ، كثر فيها لغط المغفلين من الافرنج وظنوا بها الظنون ، وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعة ، ورموا المسلمين بصفات ، ونسبوا إليهم أطواراً ثم حصروا علتها في الاعتقاد « بالقدر » ، فقالوا إن المسلمين في فقر وفاقة وتأخر في القوى الحربية والسياسية عن سائر الامم ، وقد فشى فيهم فساد الأخلاق،فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض وتفرقت كلمتهم،

وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم ، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون ، وينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة ، ولكن متى أمكن لأحدهم أن يضر أخاه لا يقصر بل يسرع في إلحاق الضرر به ، فجلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى ، رضوا بكل عارض ، واستعدوا لقبول كل حادث ، وركنوا إلى السكون في كور بيوتهم ، يسرحون في مرعاهم ثم يعودون إلى مأواهم ، الأمراء فيهم يقطعون أزمنتهم في اللهو واللعب ، ومعاطاة الشهوات ، وعليهم فروض وواجبات تستغرق أعمارهم في أدائها ولا يؤدون منها شيئاً ، يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم إسرافاً وتبذيراً ، نفقاتهم واسعة ولكن لا يدخل في حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة ، يتخاذلون ويتنافرون ، وينيطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية ، فرب تنافر بين أميرين يضيع أمه كاملة ، كل منهما يخذل صاحبه ، ويستعدي عليه جاره فيجد الاجنبي فيهما قوة فانية ، وضعفاً قاتلاً فينال من بلادهما ما لا يكلفه عدداً ولا عدة ، شملهم الخوف ، وعمهم الجبن والخور ، يفزعون من الهمس ، ويألمون من اللمس ، قعدوا عن الحركة إلى ما يلحقون به الأمم من العزة والشوكة ، وخالفوا في ذلك أوامر دينهم ، مع رؤيتهم لجيرانهم ، بل الذين تحت سلطتهم يتقدمون عليهم ، ويباهونهم بما يكسبون ، وإذا أصاب قوماً من إخوانهم مصيبة ، أو عدت عليهم عادية ، لا يسعون في تخفيف مصابهم ، ولا ينبعثون لمناصرتهم ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لا جهرية ولا سرية ، يكون مقاصدها الغيرة وتنبيه الحمية ، ومساعدة الضعفاء ، وحفظ الحق من بغي الاقوياء وتسلط الغرباء .

هكذا نسبوا إلى المسلمين هذه الصفات وتلك الأطوار ، وزعموا أن لا منشأ لها إلا اعتقادهم « بالقضاء والقدر » وتحويل جميع مهامهم على القدرة الإلهية ، وحكموا بأن المسلمين إذا داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ، ولن ينالوا عزاً ، ولن يسيدوا مجداً ، ولا يأخذون بحق ، ولا يدفعون تعدياً . ولا ينهضون بتقوية سلطان ، أو تأييد ملك ، ولا يزال بهم الضعف يعمل في نفوسهم ، ويركس من طباعهم حتى يؤدي بهم إلى الفنـــاء والزوال «والعياذ بالله» يفني بعضهم بعضاً بالمنازعات الخاصة ، وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الاجانب.

واعتقد أولئك الافرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين بأن الانسان مجبور محض في جميع أفعاله ، وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء

يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل ، ومتى رسخ في نفوس قوم أنه لا اختيار لهم في قول ولا عمل ، ولا حركة ولا سكون ، وإنما جميع ذلك بقوة جابرة، وقدرة قاهرة فلا ريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى ، ويمحى من خواطرهم داعية السعي والكسب ، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم .

هكذا ظنت طائفة من الافرنج ، وذهب مذهبها كثيرون من المتفرنجين وغيرهم من ضعفاء العقول في المشرق ، ولست أخشى أن أقول كذب الظان ، وأخطأ الواهم ، وأبطل الزاعم ، وافتروا على الله والمسلمين كذباً ، لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني وشيعي وزيدي ، واسماعيلي ووهابي وخارجي ، يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة ، بل كل هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بان لهم جزءاً اختيارياً في أعمالهم ويسمى « بالكسب » وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ، ومطالبون بامتثال جميع الاوامر الإلهية والنواهي الربانية الداعية إلى كل خير ، الهادية إلى كل فلاح ، وأن هذا النوع من الاختيار ، وهو مورد التكليف الشرعي وبه تتم الحكمة والعدل .

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت إلى أن الانسان مضطر في جميع أفعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار، وزعمت أن لافرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ ، وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته ، ومذهب هذه الطائفة يعدُّه المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة ، وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم أثر ، وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون .

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع ، بل ترشد إليه الفطرة ، وسهل على من له فكر أن يلتفت إلى كل حادث له سبب يقارنه في الزمان ، وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها وأن لكل منها مدخلاً فيما بعده ، ذلك بتقدير العزيز العليم .

وإرادة الانسان إنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة ، وليست الارادة إلا أثراً من

آثار الإدراك والإدراك أثر من انفعال النفس بما يعرض على الحواس وشعورها وبما أودع في الفطرة من الحاجات ، فلظواهر الكون من السلطة على الفكر ، والارادة ما لا ينكره أبله فضلاً عن عاقل ، وإن مبدأ هذه الاسباب التي ترى في مظاهر مؤثرة إنما هو تأييد مدبر الكون الأعظم الذي أبدع الاشياء وفق حكمته وجعل كل حادث تابعاً لشبهه كأنه جزء له خصوصاً في العالم الانساني .

ولو فرضنا أن جاهلاً ضل عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم ، فليس في إمكانه ان يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية في الإرادات البشرية ، فهل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التي سنها الله في خلقه . هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلاً عن الواصلين ، وإن بعضاً من حكماء الافرنج وعلماء سياستهم التجؤوا إلى الخضوع لسلطة القضاء ، وأطالوا البيان في إثباتها ولسنا في حاجة إلى الاستشهاد بآرائهم.

إن للتاريخ علماً فوق الرواية ، عني بالبحث فيه العلماء من كل أمة ، وهو العلم الباحث عن سير الأمم في صعودها وهبوطها ، وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها ، وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل ، في العادات والأخلاق والأفكار ، بل في خصائص الإحساس الباطن والوجدان، وما يتبع ذلك كله من نشأة الأمم وتكوّن الدول ، أو فناء بعضها واندراس أثره.

هذا الفن الذي عدّوه من أجلّ الفنون الأدبية وأجزلها فائدة ، بناء البحث فيه على الاعتقاد « بالقضاء والقدر » والإذعان بأن قوى البشر في قبضة مدبر للكائنات ومصرف للحادثات ، ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ولا ضعف قوي ، ولا انهدم مجد ولا تقوض سلطان .

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر ، يتبعه صفة الجرأة والإقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التي توجف لها قلوب الاسود ، وتنشق منها مرائر النمور .

هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات ، واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال ، ويحليها بحلي الجود والسخاء ، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعزُّ عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح والتخلي عن نضرة الحياة ، كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذي يعتقد بأن الأجل محدود والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه ، وإعلاء كلمة أمته أو ملتـه ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ، وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق ، وتشييد المجد على حسب الأوامر الالهية ، وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلتـه في قوله الحق (الذينَ قال لهم الناسُ إنّ الناسَ قَدْ جمعوا لكمْ فاخشَوْهم ، فزادَهم إيمانـاً وقالوا حسبُنا اللهُ ونِعمَ الوَكيلُ ، فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوانَ الله والله ذو فضلٍ عظيم) . اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ، ويتسلطون عليهـــا ، فأدهشوا العقول وحيروا الألباب، بما دوّخوا من الدول وقهروا من الامم ، وامتدت سلطتهم من جبال بيريني الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين كما سبق القول مع قلة عـددهم وعددهم ، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة ، وطبائع الاقطار المتنوعة ، أرغموا الملوك ، وأذلوا القياصرة والأكاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة ! ! إن هـذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات !

دمروا بلاداً ، ودكدكوا أطواداً ، ورفعوا فوق الأرض أرضاً ثانية من القسطل ، وطبقة أخرى من النقع ، وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم وأقاموا بدلها جبالاً ، وتلالاً من رؤوس النابذين لسلطانهم ، وأرجفوا كل قلب، وأرعدوا كل فريصة ، وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلاّ الاعتقاد « بالقضاء والقدر » .

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الأعـــداد القليلة منهم أمام جيوش من الأعداء يغصُّ بها الفضـاء ، ويضيق بها بسيط الغـبراء فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم .

بهـذا الاعتقاد لمت سيوفهم بالمشرق وانقضت شهبها على المتهجمين للحروب من أهل المغرب ، وهو الذي حملهم على بذل أموالهم، وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم ، لا يخشون فقراً ولا يخافون فاقةً !

هذا الاعتقـاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ، ومن يكون في حجورهم إلى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم كأنما يسيرون إلى الحدائق والرياض ، وكأنهم أخذوا

لأنفسهم بالتوكل على الله أماناً من كل غادرة ، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة ، وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج إليه ، ولا يفرق النساء والاولاد عن الرجال والكهول إلا بحمل السلاح ، ولا تأخذ الناس رهبة، ولا تغشى الأولاد مهابة .

هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ، ويبدد أفلاذ الأكباد ، حتى كانوا يُنصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم فينهزمون بجيش الرهبة ، قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم ، بل قبل أن تصل الى تخومهم أطراف جحافلهم ! !

أقول ولا أخشى واهماً ينازعني فيما أقول أنه من بداية تاريخ الاجتماع البشري إلى اليوم، ما وُجد فاتح عظيم ، ولا محارب شهير ، نبت في أوسط الطبقات ثم رقي إلى أعلى الدرجات، فذللت له الصعاب ، وخضعت الرقاب ، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو إلى العجب ، ويبعث الفكر لطلب السبب إلا كان معتقداً « بالقضاء والقدر » .

سبحان الله ! ! الانسان حريص على حياته ، شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة، فما الذي يهوّن عليه اقتحام المخاطر ، وخوض المهالك ، ومصارعة المنايا ، إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وركون قلبه إلى أن المقدّر كائن ولا أثر لهول المظاهر !!.

أثبتت لنا التواريخ ان كورش الفارسي « كيخسرو » وهو أول فاتح يُعرف في تاريخ الأقدمين ما تسنى له الظفر في فتوحاته الواسعة إلا لأنه كان معتقداً بالقضاء والقدر ، فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول ولا توهن عزيمته شدة ، وان اسكندر الكبير المكيدوني كان ممن رسخت في نفوسهم هذه العقيدة الجليلة ، وجنكيز خان التتري صاحب الفتوحات المشهورة كان من أرباب هـذا الاعتقاد وكان نابليون الاول بونابرت الفرنساوي من أشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء وهي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيفة الكثيرة فيتهيأ له الظفر وينال بغيته من النصر . ويقتحم المهالك ويتعرض للموت ولا يبالي . فنعم الاعتقاد الذي يطهر النفوس الانسانية من رذيلة الجبن ، وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله في طبقة أياً كانت ، نعم إنا لا ننكر أن هذه العقيدة قد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر ، وربما كان هذا هو السبب في رزيئتهم ببعض المصائب التي

أخذتهم بها الحوادث في الأعصر الأخيرة ، ورجاؤنا في الراسخين من علماء العصر أن يسعوا في تخليص هذه العقيدة الشريفة، من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع ،ويذكّروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون ، وينشروا بينهم ما أثبته الأئمة رضي الله عنهم كالشيخ الغزالي وأمثاله ، من أن التوكل والركون إلى القضاء إنما طلبه الشرع منا في العمل لا في البطالة والكسل ، وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا ، وننبذ ما أوجب علينا بحجة التوكل عليه ، فتلك حجة المارقين عن الدين ، الحائدين عن الصراط المستقيم ، ولا يرتاب أحد من أهل الدين الاسلامي في أن الدفاع عن الملة في هذه الأوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف وليس بين المسلمين وبين الالتفات إلى عقائدهم الحقة ، التي تجمع كلمتهم ، وترد إليهم عزيمتهم ، وتنهض همتهم لاسترداد شأنهم الأول ، إلا دعوة خير من علمائهم وأن جميع ذلك موكول إلى ذمتهم .

أما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط والتأخر ،فليس منشؤه هذه العقيدة ،ولا غيرها من العقائد الاسلامية ، ونسبته إليها كنسبة النقيض إلى نقيضه بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة إلى الثلج والبرودة إلى النار .

نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر ، وثمل من العز والغلب ، وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان ، صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتر من جنكيز خان وأحفاده ، وصدمة من جهة الغرب ، وهي زحف الأمم الاوروبية بأسرها على ديارهم ، وإن الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي ، وتوجب الدهشة ، والسبات بحكم الطبيعة ، وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة ، ووسّد الأمر فيهم إلى غير أهله ، ووليّ على أمورهم من لا يحسن سياستها ، فكان حكامهم وأمراؤهم من جراثيم الفساد في أخلاقهم وطباعهم ، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم ، فتمكن الضعف من نفوسهم ، وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التي لا تتجاوز لذته الآنية ، وأخذ كل منهم بناصية الآخر يطلب له الضرر ، ويلتمس له السوء من كل باب ، لا لعلة صحيحة ، ولا داع قوي ، وجعلوا هذا ثمرة الحياة فآل الأمر بهم إلى الضعف والقنوط ، وأدّى إلى ما صاروا إليه .

ولكني أقول وحق ما أقول : إن هذه الملة لن تموت ما دامت هذه العقائد الشريفة

آخذة مأخذها من قلوبهم، ورسومها تلوح في أذهانهم، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم ، وكل ما عرض عليهم من الأمراض النفسية ، والاعتلال العقلي ، فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحقة ويعود الأمر كما بدأ ، وينشطون من عقالهم ، ويذهبون مذاهب الحكمة والتبصر في إنقاذ بلادهم ، وإرهاب الامم الطامعة فيهم ، وإيقافها عند حدها .

وما ذلك ببعيد والحوادث التاريخية تؤيده ، فانظر إلى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية « حروب التتر والحروب الصليبية » وساقوا الجيوش إلى أرجاء العالم واتسعت لهم ميادين الفتوحات ، ودوّخوا البلاد وأرغموا أنوف الملوك ، ودانت لسلطانهم الدول الافرنجية ، حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول « بالسلطان الاكبر » .

ثم ارجع البصر تجد هزة في نفوسهم ، وحركة في طباعهم أحدثها فيهم ما توعدتهم به الحوادث الاخيرة من رداءة العاقبة وسوء المنقلب — حركة سرت في أفكار ذوي البصيرة منهم في أغلب الانحاء شرقاً وغرباً ، وتألفت من خيارهم عصبات للحق كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع والسعي بغاية الهمة لبث أفكارها وجمع الكلمة المفترقة وضم الشتات المتبدد . وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل اليهم بعض ما يضمره الأجانب لهم وإنا نرى عدد « الجمعية الصالحة »[1] . يزداد يوماً

(١) ان الذي عناه جمال الدين « بالجمعية الصالحة » ورجالها في مقاله هـذا الذي كتب في باريس سنة ١٣٠١ هـ وسنة ١٨٨٤ م هم رجال « تركيا الفتاة » وكان السيد قد اجتمع ببعض رجال تلك الجمعية في باريس وأطلعوه على خطتهم وما يحاولونه من إصلاح المملكة العثمانية وجمع كلمة الامة على النهوض بالملك الاسلامي ودرء المخاطر الاوربية عن الممالك الاسلامية الشرقية ، وتنبيه الخواطر الغافلة لما تنويه انكلترا خصوصاً من الشر والكيد للمسلمين ، فراق ذلك للسيد واستحسنه ، وشجع القائمين بتلك الفكرة ، والساعين وراء تلك الغاية الشريفة ، التي هي من أسمى أغراض جمال الدين ومايسعى في سبيله ، ويعمل على تحقيقه . ويرجع تاريخ « جمعية تركيا الفتاة » في أقرب العهد إلى أحرار الأتراك الذين ذهبوا الى اوروبا مهاجرين مغاضبين في عهد سلطنة المرحوم السلطان عبدالعزيز ، وكان على رأسهم والآخذ بنصرتهم البرنس مصطفى فاضل باشا المصري ولفيف الاحرار اذ ذاك كان من خيار الفضلاء والمفكرين من العثمانيين الاتراك ، منهم ضيـا باشا المؤرخ ، والشاعر نامق كمال بك ، ومحمد بك ، ونوري بك ، ورشاد باشا وغيرهم ، ولهذه العصبة مجاهدات جلية في سبيل إصـلاح المملكة ، ومقالات مؤثرة أبدعوا في تحريرها ، وتفننوا في وسائل إدخالها حتى كانوا يطبعونها في آخر العهد على أثواب الأقمشة القطنية وغيرها ، ثم توسط نابليون الثالث الأمرين السلطان عبد العزيز والبرنس مصطفى باشا فاضل ومن معه من الاحرار آخـذاً موثقاً من جلالة السلطان أن يعمل على مايرومونه من الاصلاح بعد عودتهم إلى الاستانة وقد تمنع الاحرار في بادىء الامر ولم يقبلوا بالعودة من غير ضمان وثيق ثم عادوا وكان من أمرهم، مما يطول شرحه وما هو معلوم عند بقية قدماء الرجال من العثمانيين الباقين في قيد الحياة اليوم ، وما تركوه في صدور الاخلاف .

بعد يوم نسأل الله تعالى نجاح أعمالها ، وتأييد مقصدها الحق ، ورجاؤنا من كرمه ان يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموماً وللمسلمين خصوصاً . انتهى !

ثم قال : هذه عقيدة « القضاء والقدر » التي تعد من أصول العقائد في الدين الاسلامي ، كيف انقلبت حقيقتها مع جهلة الافرنج ومن تابعهم من المغفلين وضعفاء العقول من المتفرنجين في الشرق . وكيف استنتجوا منها نتيجة لم تكن من لوازمها ، بل هي في الحقيقة من نقيضها وبعد أن كانت تلك العقيدة الشريفة مما تحمل معتقدها على التحلي بأكمل الصفات من جرأة وإقدام ، والتخلق بخلق البسالة والشجاعة واقتحام المهالك، واحتمال المكاره والجود والسخاء واحتقار الموت في سبيل الحق وطلب المجد رأوا ما في المسلمين اليوم من فقر وفاقة ، وضعف واستكانة إلى الذل وغير ذلك من المذام فنسبوها إلى اعتقاد المسلمين بالقضاء والقدر ،والعقيدة مع المسلمين فيما لو عملوا بها براء مما ينسبونه اليهم ، ولكن من سنن الوجود ، ومقتضيات انحطاط الامم، ولوازم تقهقرها ان ترمى بكل شائنة ، وتسلب من كل فضيلة، فتعود حسناتها سيئات ، ويعدُّ كل وصف كمالي لها نقصاً ، وبالاختصار تسلب كل ما عندها من المحاسن ، وتلبس ما في الغير من المساوي ، سواء في ذلك العقائد وجميل الصفات ، من ذلك القبيل « التعصب » وهو لفظ شغل مناطق الناس خصوصاً في البلاد الشرقية ، تلوكه الالسن وترمي به الأفواه في المحافل والمجامع ، حتى صار متكئاً للمتكلمين يلجأ اليه العي والجامد البليد . أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير ، فقلما تكون عبارة إلاّ وهو فاتحتها أو حشوها أو خاتمتها يعدُّون مسمّاه علة لكل بلاء ، ومنبعاً لكل عناء ، ويزعمونه حجاباً كثيفاً ، وسداً منيعاً بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ، ويجعلونه عنواناً على النقص ، وعلماً للرذائل ؛ والمتفرنجون الذاهبون في تقليدهم الأعمى مذاهب الخلط والخبط ، لا يميزون بين حق وباطل، هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد ؛ فتراهم في بيان مفاسد التعصب يهزون الرؤوس ، ويعبثون باللحى ، ويبرمون السبال ، وإذا رموا به شخصاً للحط من كرامته أردفوه للتوضيح بلفظ افرنجي « فناتيك» وإن عهدوا بشخص نوعاً من المخالفة لمشربهم عدُّوه متعصباً وهزئوا به ، وغمزوا ولمزوا ، وإذا رأوه عبسوا وبسروا ، وشمخوا بأنوفهم كبراً ، وولَّوه دبراً ، ونادوا عليه بالويل والثبور .

ماذا سبق إلى أفهامهم من هذا اللفظ ، وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدءاً

لكل شناعة ، ومصدراً لكل نقيصة ، وهل لهم وقوف على شيء من حقيقته .

« التعصب » قيام بالعصبية ، والعصبية من المصادر النسبية نسبة إلى العصبة ، وهي قوم الرجل الذين يعزّزون قوته ، ويدفعون عنه الضيم، والعداء، فالتعصب وصف للنفس الانسانية تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها ، والذود عن حقه ، ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس في معلوماته ومعارفها .

هذا الوصف هو الذي شكل الله بـه الشعوب ، وأقام بناء الامم وهو عقد الروابط في كل أمة . بل هو قوة المزاج الصحيح ، يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد ، وينشئها بتقدير الله خلقاً واحداً ، كبدن تألف من أجزاء وعناصر تدبّره روح واحدة فتكون كشخص يمتاز في أطواره ، وشؤونه وسعادته وشقائه ، عن الاشخاص .

وهذه الوحدة هي مبعث المباراة بين أمة وأمة ، وقبيل وقبيل ، ومباهاة كل من الأمتين المتقابلتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهة وهناء العيش ، وما تجمعه قواها من وسائل العزة والمنعة ، وسمو المقـام ونفاذ الكلمة ؛ والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الاشخاص ، وهو أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال في جميع لوازم الحياة بقدر ما تسعه الطاقة .

التعصب روح كلي،مهبطه هيئة الأمة وصورتها،وسائر أرواح الأفراد حواسه ومشاعره، فإذا ألمّ بأحد المشاعر ما لا يلائمه من أجنبي عنه انفعل الروح الكلي، وجاشت طبيعته لدفعه، فهو لهذا مثار الحمية العامة ، ومسعر النعرة الجنسية ، هذا الذي يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الأمة بضرر أو يؤول بهـا إلى سوء العاقبة ، وإن استقامة الطباع ورسوخ الفضيلة في أمة، تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين أفرادها ، يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم في بدن حيّ ، لا يجـد الرأس غنى بارتفاعه عن القدم ولا يرى القدمان في تطرفها انحطاطاً في رتبة الوجود ، وإنما كل يرى ويجدو يعمل وظائفه لحفظ البدن وبقائه .

كلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الامـة بضعف التعصب فيهم استرخت الأعصاب ، ورثّت الأطناب ، ورقّت الأوتاد ، وتداعى بناء الأمة إلى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية إلى الفناء ، بعد هذا يموت الروح الكلي وتبطل هيئة الامة ، وإن بقيت آحادها فماهي

إلا كالاجزاء المتناثرة اما تتصل بابدان أخرى بحكم ضرورة الكون، واما ان تبقى في قبضة الموت إلى أن ينفخ فيها روح النشأة الآخرة .

سنة الله في خلقه إذا ضعفت العصبية في قوم رماهم بالفشل ، وغفل بعضهم عن بعض ، وأعقب الغفلة تقطع في الروابط ، وتبعه تقاطع وتدابر ، فيتسع للأجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بافاضته روح التعصب في نشأة ثانية .

ثم إن التعصب وصف كسائر الاوصاف ، له حد اعتدال وطرف إفراط وتفريط ، واعتداله هو الكمال الذي بيّنا مزاياه ، والتفريط فيه هو النقص الذي أشرنا إلى رزاياه ، والإفراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء ، فالمفرط في تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة ، وينظر إلى الاجنبي عنه كما ينظر إلى الهمل من السوائم لا يعترف له بحق ، ولا يرعى له ذمة ، فيخرج بذلك عن جادة العدل فتنقلب منفعة التعصب إلى مضرة ، ويذهب بهاء الامة بل يتقوض مجدها ، فان العدل قوام الاجتماع الانساني وبه حياة الامم ، وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها إلى الزوال وهذا الحد من الافراط في التعصب هو الممقوت على لسان الشارع ﷺ في قوله « ليس منا من دعا إلى عصبية » . . . الحديث .

التعصب كما يطلق ويراد منه النعرة على الجنس ، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد ، كذلك توسع أهل العرف فيه فأطلقوه على قيام المتلحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً ، والمتنطعون والمغفلون من المتفرنجين يخصّون هذا النوع من التعصب بالمقت ويرمونه بالذم ، ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل أو يتفق مع الحزم ، فان لحمة يصير بها المتفرقون إلى وحدة تنبعث عنها قوة لدفع الغائلات وكسب الكمالات لا يختلف شأنها ، ولا فرق أصلاً إذا كان مرجعها الدين أو كان مرجعها النسب ، وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين في أقوام مختلفة من البشر وعن كل منها صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الانساني ، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ، ومساوته على حاجات معيشته ، وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين المتصلين بصلة المعتقد ورابطة المشرب .

فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في أصول العقائد بعضهم لبعضهم إذا وقف عند الاعتدال، ولم يدفع إلى جور في المعاملة، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لذمته، فهو فضيلة من أجل الفضائل الانسانية وأوفرها نفعاً، وأجزلها فائدة، بل هو أقدس رابطة وأعلاها، إذا استحكمت صعدت بذوي المكنة فيها إلى أوج السيادة وذروة المجد، خصوصاً إن كانوا من قوم قوي فيهم سلطان الدين، واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال، كما في أهل الديانة الاسلامية كما أشرنا اليه في غير مقال سبق.

ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من أقدس الروابط، فإنه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة، ويصل ما بينهم في المقاصد والعزائم والأعمال، كذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر بل الأجناس المتخالفة في المنابت واللغات والعادات، بل المتباعدة في الصور والأشكال، ويحول أهواءها المتضاربة إلى قصد واحد، وهو تأصيل المجد وتأييد الشرف، وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم.

هذا الأثر الجليل أبرزه قوة التعصب الديني، وشهد عليه التاريخ بعد ما أرشد اليه العقل الصحيح، وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شيء منه.

تشدق جماعة من متزندقة هذه الأوقات في بيان مفاسد التعصب الديني، وزعموا أن حمية أهل الدين لكشف ما يغشى إخوانهم من ضيم، وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من عوامل الوهن والضعف، هو الذي يصدهم عن السير إلى كمال المدنية، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة، ويرمي بهم في ظلمات الجهل، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم، ومن رأي أولئك المتفتقين أن لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها، وتخليص العقول من سلطة العقائد، وكثيراً ما يرجمون بأهل الدين الاسلامي ويخوضون في نسبة مذام التعصب إليهم.

كذب الخرّاصون، إن الدين أول معلم، وأرشد أستاذ، وأهدى قائد للانفس إلى اكتساب العلوم والتوسع في المعارف، وأرحم مؤدب، وأبصر مروّض، يطبع الأرواح على الآداب الحسنة، والأخلاق الكريمة، ويقيمها على جادة العدل، وينبّه منها حاسة الشفقة والرحمة، خصوصاً دين الاسلام، فهو الذي رفع أمة كانت من أعرق الامم في التوحش والقسوة والخشونة، وسمى بها إلى أرقى مراقي الحكمة والمدنية في أقرب مدة وهي «الامة العربية».

قد يطرأ على التعصب الديني من التغالي والإفراط مثلما يعرض على التعصب الجنسي فيفضي إلى ظلم وجور ، وربما يؤدي إلى قيام أهـل الدين لإبادة مخالفيهم ومحق وجودهم ، كما قامت الأمم الغربية واندفعت إلى بلاد الشرق لمحض الفتك والإبادة ، لا للفتح ولا للدعوة الدينية وذلك في الحرب الهائلة المعروفة بحرب « الصليب » ، وكما فعل الاسبانيون بمسلمي الاندلس، وكما وقع قبل هذا وذاك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحي ، فإن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود في القدس وأحرقهم ، إلا أن هـذا العارض لمخالفته لاصول الدين قلما تمتد له مدة ومن ثم يرجع أرباب الدين إلى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل.

أما أهل الدين الاسلامي فمنهم طوائف شطّت في تعصبها في بعض الأجيال الماضية إلا أنه لم يصل بهم الافراط إلى حد يقصدون فيه الإبادة وإخلاء الارض من مخالفيهم في دينهم، وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنـا الدليل الأقوم على ما نقول ، وهو أن وجود الملل المختلفة في ديارهم إلى الآن حافظة لعقائدها وعوائدهـا ، من يوم تسلطوا عليها وهم في عنفوان القوة وتلك الملل في وهن الضعف .

ثم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك ، وامتـداد الفتوحات ، وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم ، إلا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الأديان ، ويرعون حق الذمة، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه ، ويدفعون عنه غائلة العدوان ، ومن العقائد الراسخة في نفوسهم أن من رضي بذمتنا فله ما لنا وعليه ما علينا، ولم يعدلوا في معاملتهم لغيرهم عن أمر الله في قوله (يا أيهـا الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شُهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين...الآية) اللهم إلا ما لا تخلو عنه الطبائع البشرية، ومن نشأة المسلمين إلى اليوم لم يدفعوا أحداً من مخالفيهم عن التقدم إلى ما يستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة، ولقد سمى في دول المسلمين على اختلافها إلى المراتب العالية كثير من أرباب الاديان المختلفة ، وكان ذلك في شبيبتها وكمال قوتها وكان من يصطنعونه على ما يرام من الإخلاص لا يحاولون كيداً لسلطان المسلمين ولا يعملون النوائل لملكهم، ولم يزل الأمر على ما كان مع تغير أخلاق المصطنعين وسوء نواياهم،وفي الظن أن الامم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل والمسامحة إلى اليوم ، فبعداً لقوم يظنون ان المسلمين بتعصبهم يغمطون مخالفيهم من حقوقهم !!.

لم يسلك المسلمون مسلك الإلزام بدينهم ، والإجبار على قبوله مع شدة بأسهم في بدايات

دولهم ، وتغلغلهم في افتتاح الاقطار ، واندفاع هممهم للبسطة في الملك والسلطة ، وإنما كانت لهم دعوة يبلغونها فان قبلت وإلا استبدلوها برسم مالي يقوم مقام الخراج عنـد غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الاسلامي .

هذا على خلاف متنصرة الرومانيين ، واليونانيـــين أيام شوكتهم الاولى فانهم ما كانوا يطؤون أرضاً إلا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم والتدين بدين أولئك المتسلطين كما فعلوا في بعض أنحاء الشرق ، بل وفي البلاد الافرنجية نفسها. ومع المخالفين بالمذهب مثل أتباع « لوتير » في بداية مذهبه البروتستانتي .

هذا فصل من الـكلام ساق إليه البيان ، وفيه تبصرة لمن يتبصر ، وتذكرة لمن يتذكر ، ثم أعود بك إلى سابق الحديث فيما كنا بصدده ، هل لعاقل لم يصب برزيئة في عقله أن يعد الاعتدال من التعصب الديني نقيصة !. وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي إلا بما يكون به التعصب الديني أقدس وأطهر وأعم فائدة ؛ لا نخال عاقلاً يرتاب في صحة ما قررنا ، فما لاولئك القوم يهذرون بما لا يدرون ؟ أيّ أصل من أصول العقل يستندون إليه في المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط ، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ويعبرون عنه « بمحبة الوطن » ؟ وأيّ قاعدة من قواعد العمران البشري يعتمدون عليها في التهاون بالتعصب الديني المعتدل ، وحسبانه نقيصة يجب الترفع عنها ؟.

نعم إن الافرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطـــة بين المسلمين إنما هي الرابطة الدينية وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا « بالعصبية الاعتقادية » ، ولأولئك الافرنج مطامع في ديار المسلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم إلى بث هذه الأفكار الساقطة بين أرباب الديانة الاسلامية، وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة، وفصم حبالها لينقصوا بذلك الملة الاسلامية، ويمزقوها شيعاً وأحزاباً ، فانهم علموا كما علمنا وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسيـة إلا في دينهم واعتقادهم، وتسنّى للمفسدين نجاح في بعض الأقطار الاسلامية وتبعهم بعض الغافلين من المسلمين جهلاً وتقليداً فساعدوهم على التنفير من العصبية الدينية بعد ما فقدوها ولم يستبدلوها برابطة الجنس التي يبالغون في تنظيمها واحترامها حمقاً منهم وسفاهـــة فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيء لنفسه مسكناً سواه ، فاضطر للاقامة بالعراء معرضاً لفواعل الجو وما تصول به على حياته !

من هذا ما سلك الانكليز في الهند لما أحسوا بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم، لقرب عهدهم به ، وفي دينهم ما يبعثهم على النهوض إلى استرداد ماسلب منهم، وأرشدهم البحث في طبائع الملل إلى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية ، وما دام الاعتقاد المحمدي والعصبة الملية سائدة فيهم ، فلا تؤمن بعثتهم إلى طلب حقوقهم ، فاستهووا طائفة ممن يتسمون بسمة الاسلام ، ويلبسون لباس المسلمين وفي صدورهم غل ، وفي قلوبهم زيغ وزندقة ، وهم المعروفون في البلاد الهندية « بالنيجرية » أي الدهريين ، فاتخذهم الانكليز أعواناً لهم على فساد عقائد المسلمين، وتوهين علائق التعصب الديني ليطفئوا بذلك نار حميتهم ، ويخمدوا نائرة غيرتهم ، ويبددوا جمعهم ، ويمزقوا شملهم ، وساعدوا تلك الطائفة على إنشاء مدرسة كبيرة ، ونشر جريدة لبث هذه الأباطيل بين الهنديين حتى يعم الضعف في العقائد ، وترث أطناب الصلات بين المسلمين فيستريح الانكليز في التسلط عليهم ، وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنت من جهة غيرهم وغر أولئك الغفل المتزندقين أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة « تعس من يبيع ملته بلقمته » ، وذمته برذال العيش .

هذا اسلوب من السياسة الاوروبية أجادت الدول اختباره ، وجنت ثماره فأخذت به الشرقيين لنيال مطامعها فيهم ، فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل في البلاد العثمانية من مصرية وغيرها من الممالك الاسلامية ولم تعدم صيداً من الامراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة.

واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم ، ليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يميلوا مع هذه الأهواء الباطلة ولكن نعجب من أن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم ، وثباتهم في إيمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ، ويجهرون في رمي المتعصبين بالخشونة ، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ، يفسدون شأنهم ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المارقين ، يطلبون محو التعصب المعتدل ، وفي محوه محو الملة ودفعها إلى أيدي الأجانب ، يستعبدونها ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماء .

والله ما عجبنا من هؤلاء وهؤلاء ، بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الأمم الافرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الأفكار بين الشرقيين ولا يخجلون من تشنيع التعصب الديني ورمي المتعصبين بالخشونة .

الأفرنج أشد الناس في هذا النوع من التعصب، وأحرصهم على القيام بدواعيه الأساسية في حكوملتهم السياسية ، الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ، ومساعـــدتهم على نجاح أعمالهم ،وإذا عدت عادية مما لا يخلو منه الاجتماع الانساني على واحد منهم ممن هو على دينهم ومذهبهم في ناحيـة من نواحي الشرق الأقصى ، سمعت صياحاً ونواحاً وعويلاً ، وهيعات ونباءات تتلاقى أمواجها في جو بلاد المدنية الغربيـة ، وينادي جميعهم ألا قد ألمّت ملمّة ! وحدثت حادثة مهمة! فأجمعوا الأمر وخذوا الأهبة لتدارك الواقعة ، والاحتياط من وقوع مثلها حتى لا تتخدش الجامعة الدينية وتراهم على اختلافهم في الأجناس ، وتباغضهم وتحاقدهم وتنابذهم في السياسات وترقّب كل دولة منهم لعثرة الاخرى حتى توقع بها السوء ، يتقاربون ويتآلفون ، ويتحدون في توجيه قواهم الحربية والسياسية ، لحماية من يشاكلهم في الدين ، وإن كان في أقصى الصين أو قاصية من الأرض ولو تقطعت بينه وبينهم الأنساب الجنسية .

أما لو فاض طوفان الفتن ، وطمّ وجه الأرض ، وغمر البسيطة من دماء المخالفين لهم في الدين والمذهب ، فلا ينبض لهم عرق ، ولا يتنبه لهم إحساس ، بل يتغافلون عنـــه ، ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مدة الغاية وحدّه النهاية ، ويذهلون عما أودع في الفطرة البشرية من الشفقة الإنسانية والمرحمة الطبيعية كأنما يعدّون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة ، والهمل الراعية ، وليس من نوع الانسان الذي يزعم الاورويبون أنهم حماتـــه وأنصاره ، وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني ولا يألون جهداً في تقوية عصبتهم ، وليتهم يقفون عند الحق ولكن كثيراً ما تجاوزوه .

أما ان شأن الافرنج « وأخصهم الانكليز » في تمسكهم بالعصبيـة الدينية لغريب ! يبلغ الرجل منهم أعلى درجـة في الحرية الفكرية حتى يرفعونه إلى الرئاسـة على الأحزاب « كغلادستون » وأضرابه ثم لا نجد كلمة تصدر عنه إلا وفيها نفثة من روح أحد القديسين ، ولا يقدم على عمل مهم ، قبل أن يعمل خيرة « استخارة » في الأنجيل انظر إلى كتب غلادستون وخطبه السابقة .

فيا أيتها الأمة المرحومة ! هذه حياتكم فاحفظوها ، ودماؤكم فلا تريقوها وأرواحكم فلا تزهقوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت ! هذه هي روابطكم الدينية لا تفرقكم

الوساوس ، ولا تستهوينكم الترّهات ، ولا تدهشكم زخارف الباطل ، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها التركي بالعربي، والفارسي بالهندي ، والمصري بالمغربي ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى أن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر ، وإن تناءت دياره ، وتقاصت أقطاره ، هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم ومنها عزتكم ، ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها !.

ولكن عليكم في رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل ! العدل ! العدل ! فالعدل أساس الكون وبه قوامه ! ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم . وعليكم أن تتقوا الله ، وتلتزموا أوامره في حفظ الذمم ، ومعرفة الحقوق لأربابها ، وحسن المعاملة ، واحكام الألفة في المنافع الوطنية ، وتأكيد الروابط بينكم وبين أبناء وطنكم وجيرانكم من أرباب الأديان المختلفة فان مصالحكم لا تقوم إلاّ بمصالحهم ، كما لا تقوم مصالحهم إلاّ بمصالحكم، كونوا في الوطنية إخواناً تكونوا لبعضكم أعواناً ، وسداً منيعاً في وجه من يطمع فيكم جميعاً ، ولا تجعلوا عصبة الدين وسيلة للعدوان ، وذريعة لانتهاك الحقوق ، فان دينكم ينهاكم عن ذلك ، ويوعدكم عليه بأشد العقاب. هذا ولا تجعلوا عصبتكم قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض ، بل تضافروا بها على مباراة الامم في القوة والمنعة والشوكة والسلطان ، ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية ، اجعلوا عصبتكم سبيلاً لتوحيد كلمتكم واجتماع شملكم ، وليأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوّة النقص إلى شاهق الكمال (وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) .

ما انتهى السيد جمال الدين من هذا المقال حتى تناول من جنبه كتاباً وأخذ يقلب صفحاته فعرفت أنه مجموعة « الرياض المصرية » التي كنت قدمتها له قبل حين ، فقال : يا شيخ بني مخزوم لقد سرّحت نظري في رياضك فما وقع منها إلاّ على ما يستحسن في بابه ، وأكثر ما أجدت فيه وأحسنت عنواناً ومعنى ، مقالتك « تحرير الأرقاء واسارة الاحرار » فوعزة الحق ! ما عدوت ما في نفسي فيما قلته ، بل شفيت منها غليلاً ، إذ جلوت حقيقةً طالما تخوفت على الشرقيين أن تحجب عنهم أو أن يجهلوها ، ويتلو تلك المقالة «محاورة بين الشرق والغرب» فاذا أسعفك الزمن وسلمت مع تلك الخاطرات من المخاطر وقدمت على طبعها فاضمم المقالتين إلى الكتاب ففيها خير عبرة وذكرى .

ثم قال : أظنك وسمت المجلة باسم الرياض نسبة لوزير مصر « رياض باشا »! فقلت نعم إذ كان لدولته عناية خاصة بالمجلة وصاحبها ، فقال : نعم الوزير الكبير رياض باشا ونِعمَ الوطني الغيور هو ، فكم له في خدمة بلاده مواقف لا يشبهها في المتانة إلاّ الهرمان ، ومن صائب الرأي وثاقب الفكر ما تنجلي به غياهب المشكلات ، وتحلُّ به عقد المعضلات ؛ ومنها وقوفه وحيداً بدون مناصرة أحد زملائه في وجه نوبار باشا وسياسته وهو على منصة رياسة وزراء مصر ، وإعماله على إحباط مساعيه ومساعي أوليائه « الانكليز » في الكيد لمصر وامتلا كها، ومصادمته إلى اللورد دوفرين وأنظمته التي جرّت على مصر الويلات ، وسببت فيها تلك الاختلاطات ، وإني لأذكر ما قاله رياض باشا في المجلس الذي انعقد في حينه في سراي الخديوي توفيق باشا بالقاهرة ، وحضره نظار الحكومة المصرية إذ ذاك ، ودعي إليه شريف باشا ورياض باشا وسلطان باشا وعمر باشا ولطفي باشا وخيري باشا وثابت باشا : « انه لا يرجى إصلاح ما دام العمل جارياً على ما وضعه اللورد دوفرين مما سماه نظاماً ، وأنه لا ثقة له — أي لرياض باشا — بأصل من أصول ذلك النظام ، وليس في الامكان إجراء ولاواحد منها، وأن الاغلاط التي كانت منشأً للضعف والاختلال لم يرتكبها إلاّ دولة الانكليز ، وأن ما نراه من الفوضوية وارتكاب المنكرات وكثرة التعدي والسرقات لم تكن له علة إلاّ السياسة الانكليزية ، فعلى انكلترا أن تعالج هذا الداء - تسكين فتنة المهدي في السودان وإرسال عساكر مصرية مع الانكليز أو ترك السودان — وليس ذلك علينا ولقد قلت هذا مراراً وبلمته للورد دوفرين وشريف باشا ، ثم قال : « اني لا أفهم لفظ « برتكتورا » — حماية — ولا أعلم ماذا يراد منه ، ولكني لا أرى وسطاً بين أمرين إماضم البلاد إلى الحكومة الانكليزية فتستلم انكلترا إدارة أمورها ، وتتولى شؤونها كلية كانت أم جزئية ، وهذا الذي أفهمه من تلك العبارات ؛ وإما ترك البلاد لأهلها ، فيأخذ بزمام السلطنة فيها رجال من أهلها ، وإليهم الحل والعقد في إدارتها ، فانتحلوا « يخاطب نوباراً » مذهباً من المذهبين فان القول بوسط بينها ضرب من الجنون » ؟ .

وليس بعجيب أن يصدر مثل هذا الكلام من رياض باشا ، فهو رجل ذو حياة وطنية ، وشعور بما يلزم لحفظ حياته هذه ، وهي أشرف أنواع الحياة، فإن تكلم فانما ينثر الكلام منه إرادة ناشئة عن فكر ثاقب ، يثيره قوة حيوية ، وقد أجمعت الجرائد الفرنساوية، وهي تتتبع

الحوادث المصرية بالثناء على رياض باشا ، وأتت من وصفه على أفضل ما يوصف به رجل في أمته ، ومما ذكرت من صفاته :

انه أقوم أمير في الديار المصرية ، وأشدهم حرصاً على الاستقامة وأنه أبصر أهل بلاده بعواقب الحوادث التي ألمّت بمصر وما تؤول إليه ، وكان يرى من بداية تلك الحوادث أنه سيكون مصيرها إلى ما لا خير فيه للبلاد ، وسكتت تلك الجرائد عما يتعلق ببقية أعضاء المجلس ، وكان الأمل أن يوجد من طراز رياض باشا كثير في الأقطار المصرية يصدعون بما يصدع به خصوصاً بعد ما نازلتهم الحوادث المريعة ، ومثّلت لهم مستقبل بلادهم في مرآة حاضرها ، ولقد أدّى الرجل حقاً واجباً عليه — والقائم بأداء الفريضة قد يشكر إذا أهملها المكلفون بها وقد صيروها في عداد النوافل — ولكن قد أخذنا العجب في حينه ويأخذنا كلما تذكرنا من بقية أعضاء ذلك المجلس الموقّر كيف أحجموا ، أو تلكـؤوا أو سكتوا ، وكيف وسعتهم القدرة على إمساك ألسنتهم عن التعبير بما في ضمائرهم .

انا لا نعلم أحداً منهم تجنس بالجنسية الانكليزية ، وحاشا جميعهم من ذلك ولا يختلج في صدورنا أن مصرياً أو تركياً أو عراقياً ، أياً كان يميل ميلاً صادقاً إلى تسلط الامم الأجنبية على بلاده ، أو يخلص في خدمة الانكليز ومجاراة رغائبهم إخلاصاً صحيحاً ، خصوصاً أولئك الامراء ، بل لو كشف الحجاب عن قلب كل واحد منهم لرأيناه ذائباً من الاسف مما حل في بلاده ، وفانياً من الحزن على ما نزل بوطنه من تردد جيوش الأجانب بين أطرافه ، ومضمحلاً من الكدر على ما عقبه حلول القوة الأجنبية من انقباض النفس وانقطاع الآمال ، وتعمم الاختلال ، وشمول الفقر والفاقة ، وبطلان حركة الاعمال ، بل لو شاء القلم أن يعبر عن حالة الأمير منهم عندما يطرق آذانه أخبار التصرف الانكليزي في ادارات حكومته ، وكف أيدي الموظفين من أبناء ملته عن أداء ما يجب عليه لبلادهم ، وبسطة أيدي أولئك الأجانب في إنفاق الأموال ، من ماله ومال عياله وأقاربه وأحبائه وجميع مواطنيه ، بدون حق شرعي ولا مصلحة وطنية ، أو عندما يرى غنياً أعدم ، وعزيزاً ذل ، وكاسياً عري ، وحياً أشرف على الهلاك من ضغط المظالم ، ولو نهضت قوة البيان لشرح ما يظهر على وجهه من ألوان الكمودة ، وفي أعضائه من أنواع الرعدة ، وما ينبض به قلبه وما يحدثه فكره من هواجس الهموم ، وخواطر الغموم ، لما استطاع القلم تعبيراً ، ولوقفت قوة البيان دون الاتيان على قليل من كثير .

هذا هو الذي لا يبرأ منه أحـــد منهم ولو أقام على البراءة ألف برهان كيف لا وهم يعلمون أن عزتهم وسيادتهم وما بلغوا من مراتب الشرف والرفعة، إنما كان بقيامهم على أعمال البلاد وأهليتهم لاستلام مهامها واستعدادهم لإدارة شؤون الرعية وهم على يقين بأنه لو ساد في ديارهم أجنبي فلا داع يبعثه إلى حفظ ما لهم من الشرف والسيـادة ، بل له من البواعث القوية ما يحمله على تذليلهم وإهباطهم إلى أحط المنازل ، ليخلفهم على مثل ما كانوا عليـه أو أعلى . فما الذي أمسك بألسنتهم عن الكلام ؟ هل الخوف فمن أي شيء يخـافون ؟ وما الذي يخشونه على أرواحهم أو على بلادهم إذا قالوا حقاً وثبتوا عليه ؟ ماذا يصنع بهم الانكليز إذا علموا صدقهم في محبة أوطانهم واتفاق كلمتهم على الرغبة في إنقاذها ؟ هل علموا من عدل الانكليز أنهم يؤاخذون الناس على إبداء آرائهم إذا دعوا إلى المشورة ؟ إن كان هذا فمـا يبتغون من الحياة ؟ هل ظنوا أن الانكليز إذا أحسوا باتفاق في الآراء على مصلحة من مصالح البلاد وإن كانت في خروجهم من مصر يستطيعون تحت أعين أوروبا وسلطان العدل أن يوصلوا ضرراً إلى المتفقين وهم أمراء البلاد وأعيانها . إن رياض باشا وحده لم يخشَ من إظهار فكره فماذا كان يضرُّ الامراء الوطنيين لو عززوه أو كاتفوه على مثل رأيه ؟ قد علم العقلاء من كل أمة أن أشباه هذه الحوادث تكون سبباً في اجتماع الكلمة واتحاد الرأي على مصادمتها ، وما نراه اليوم وفي كل زمن من سعـــادة الامم العظيمة إنما كان منشؤه ملمّات الشقاء التي ألمتهم وتنبيهم الضغائن والأحقاد ، وحملتهم على ترك المنافرات الخصوصية وأخذ كلٌّ بيد أخيه لدفع ما يخشى منه على بناء الأمة أن ينصدع ، وأساس الملة أن ينقلع ، وما سمعنا من أمة اتفقت فخابت ، ولا ملة افترقت فنجحت !

ألا فليعلم الأمراء أن أوروبا واقفة بالمرصاد لانكلترا تترقب لها الزلل وتتمنى لها الغلط وأن جميع الأسماع في الممالك الاوروبية مصغية لكلمة يتفق عليها وجهاء المصريين ، وهي أننا قادرون على إصلاح شؤوننا ولا نريد قوة أجنبية تحلُّ في ديارنا ، امتدت أعناق السياسيين في اوروبا وانحنت إلى المصريين ليسمعوا منهم كلمة حتى كلت رقابهم والتوت أعصابها ، والمصريون يشحّون بهـا عليهم ، ماذا يخشى المصريون وأمراؤهم من قول الحق ؟ إن الأمم اليوم لا تطلب منهم إشهار السلاح ولا بذل الأرواح ، ولكن تطلب منهم قولاً صريحاً ولا يجلب إليهم ضرراً ولا يقرب منهم خطراً !... لا حول ولا قوة إلا بالله .

« هذا ما أعاد ذكراه السيد جمال الدين وهي من الحوادث التي ترجع في تاريخها إلى سنة ١٨٨٤ » .

كان لجمال الدين نظرية بلغت به درجة اليقين أنه ما دام الشرق شرقاً وأهله على ما هم عليه ، من الجمود والخمول والجهل وتفرق الكلمة وترك العمل بحكمة الدين ، وما دام الغرب غرباً وأهله في تلك القوة من العلم وضيق المحيط والتشبع من المطامع ، فالحوادث والكوارث تتكرر متشابهة لا تختلف في النتائج ، وإن اختلفت فانما الاختلاف يكون في الأمكنة والأزمنة وأسماء الأشخاص ، وكان لجمال الدين عناية خاصة في مصر وحوادثها يهتم لأقل حادث يحدث فيها وينظر إلى أصغر رزيئة ترزأ فيها مصر بعين الاعظام ويعتقد أن ما أصاب باب الحرمين « مصر » أو يصيبها سوف تجرأ الأجانب على تطبيقه في غيرها من الأقاليم الاسلامية الشرقية .

سمت بجمال الدين الهمة — كما ذكرنا قبلاً — فشخص إلى مدينة باريس موئل الأحرار من الأمم واستلحق به صديقه الاستاذ الشيخ محمد عبده وأخذ يرقب دسائس الانكليز ومكايدها ، لمصر خصوصاً وللشرقيين عموماً ، فيكشف الأستار عن خفي المقاصد ويحذر ببليغ القول ، وساطع البرهان من الوقوع في المصائد البريطانية وصنائعهم مثل نوبار باشا الأرمني ، فكانت لا تفوته حركة عداء ولو خفت إلا ويقف في وجهها ويهتك سرها ، من ذلك لما بلغه تعطيل نوبار باشا لجريدة الاهرام عام ١٨٨٤ وهو من الأمور المألوفة في حكومات الشرق الساقطة تحت إشراف الغربيين وأخصهم « الانكليز » ولكن جمال الدين لم ينظر للأمر بنظر الاستخفاف بل سفّه راي نوبار باشا وأفرد لذلك مقالاً تحت عنوان « جريدة الاهرام » و (أشار بنقله) قال : اشتد عليها غضب نوبار باشا فأصدر أمره بتعطيلها شهراً وقفل مطبعتها ، قيل في السبب أنه نشر رسائل مدير الجريدة وهو في لوندرا على ما فيها من بيان بعض مساوي السياسة الانكليزية على خلاف رغبة الباشا — وقيل أن السبب نشر الشكر الذي قدم إلى المدير والمحرر من أعيان البلاد دلالة على استحسان مشرب الجريدة « وهو استقباح سياسة الانكليز » ولكن كتب إلينا من مصدر خاص أن هذه المسائل العمومية لا تهم نوبار باشا إلا إذا مست مصلحته الخاصة فالسبب الحقيقي هو أن المنهج المستقيم الذي سلكته الاهرام دعا إلى ذكر بعض الرجال الوطنيين مثل رياض باشا وشريف باشا مع وصفها بالوطنية وعلو الهمة وكمال الغيرة ، نوبار باشا ساع إلى أمر مهم وهو ما ذكرناه

ونشرته بعدنا جريدة الدبا وسائر الجرائد الانكليزية . أن يكون ولي القاصر « عباس » بعد خلع أبيه فينال بسطة في السلطة ، وإطلاقاً في الأمر والنهي ، وعلم أن هـذا وقت الفرصة لحرص الحكومة الانكليزية على تملك مصر وهي محتاجة في ذلك إلى كل من ليس له وطن ولا دين ولا جنس في مصر ، فهي إذاً في أشد الحاجة لنوبار باشا ، وتوفيق باشا قبة جوفاء لا يرجع منها إلاّ صدى الأصوات إن قلت لا ، فلا ! أو قلت نعم فنعم ! فهو في غضبه ورضاه تابع لما يلقى إليه ، فعلم نوبار باشا أن خديوياً مثل هذا يمكن أن يكون واسطـــة في تمكين الانكليز من مصر من حيث لا يشعر ، وبتقديم هذه الخدمة لهم يبني لنفسه من العزة قصراً شاهقاً. فكيف يطيب لنوبار مع هذا السعي أن يسمع ذكر رياض باشا وشريف باشا مع وصفي الوطنية وعلو الهمة ، يخاف أن الاكثار من ذكر هؤلاء الرجال ربما يحرك الخواطر الوطنية فيندفع منها سيل يهدم كل ما يبنيه . إن صاحب الاهرام أكثر من ذكر الوطن والوطنيين ، ونوبار باشا أبعد الناس عنها لهذا أغضبه ذكرها . كلما ذكر لفظ الوطن أو الملة أو الجنس أو الأمة ، سواء كان في مقال عام أو في جانب شخص خاص ، حسب نوبار باشا أن في الكلام تهكماً به واستهزاءً ، ولا عجب من نوبار[1] إن ظن ما ظن أو فعل ما فعل فالرجل ليس بمصري ، ولا عربي ، ولا مسلم ؟ فبأي ثمن بخس باع به مصر فهو الرابح إذ لا يخسر ملة ، ولا وطناً ، ولا جنساً ، كما سبق وذكرنا .

قيل إن نوبار يطلب إبعاد الزبير باشا من مصر فان نال مطلبه لم يبعـد أن يطلب لشريف باشا ورياض باشا وكل ذي شهامة أو فكر في مصر مثل ما طلب للزبير وتكون الحكومـة النوبرية حكومة هندية ، وهل يبعد مثل هذا على نوبار ، إن الذي يؤيد ما روي لنا في سبب قفل الاهرام هو أن نوبار باشا ما تحرك لحجز العروة الوثقى عن دخول مصر إلا عندما ذكر فيها رياض باشا مع ذكر بعض أوصافه ، وإلاّ فان كان السبب ذكر الإسلام والمسلمين فيها ؟ فذلك ينذرنا بقفل الأزهر بأمر نوبار باشا .

إني أتعجب ، وكل ذي إحســاس يتعجب ، من سكان الديار المصرية من المصريين ، والاتراك ، والحجازيين ، واليانيين ، ألا يوجد بين هؤلاء فتى يشمّر عن ساعده ويتقـــدم

---

(١) تكرر ورود هذه العبارة وأمثالهـا ، وذكرنا ذلك في حينه لجهال الدين فأشار بلزوم إثباتها ولو تكررت ويعتبرها من التكرار المفيد ، وأنها بالأذهان أعلق ، وللأخلاق أنفع .

بصدره ، ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمني فيبطل هذه الصفقة ، وينقض هذه البيعة ، ويكشف له وللمغرورين من أمثاله حقيقة الوطنية، ويرفع الحجاب عن واجبات الملية ،لاحول ولا قوة إلا بالله .

إن المولعين بحب الحياة يقضونها في الذل من خوف الذل ، ويعيشون من خوف العبودية في العبودية ، ويجرعون مرارات سكرات الموت في كل لحظة خوفاً من الموت . فلا الدين يسوقهم إلى مرضاة الله ، ولا الحمية الوطنية تدفعهم إلى ما به فخار بني الانسان .

رأيه في القوة الآلية ، ورده على من زعم إمكان استهلاك العدد الكثير بالقليل ، ومرثاه في نتيجة ما يصيب الشرق والشرقيين من المصائب والنوازل ،وتتبعه سير انكلترا في الحوادث المصرية سنة ١٨٨٤ وموقف الدولة العثمانية والفرنساوية إزاء تلك الحوادث .

قال : خفيت مذاهب الطامعين أزماناً ثم ظهرت ، وبدأت على طرق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت ، أوغل الأقوياء من الامم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسحروا ألبابهم حتى أذهلوهم عن أنفسهم ، وخرجوا بهم عن محيط النظر ، وبلغوا بهم من الضيم حداً لا تحتمله النفوس البشرية .

ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم ويغري به شيطان الخيال ، فظنوا أن القوة الآلية وإن قلّ عمالها يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وان اتفقت آحادها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير في النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان ، فان تقلبات الحوادث في الأزمان البعيدة ، والقريبة ناطقة بانه إن جاز أن عشيرة قليلة العدد فنيت في سواد أمة عظيمة ، ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها ، فلم يجز في زمن من الأزمان امحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة وإن بلغت القوة أقصى ما يتصوره الخيال !

والذي يحكم به العقل السليم ، ويشهد به سير الاجتماع الانساني – من يوم علم تاريخه إلى اليوم – أن الامم الكبيرة إذا عراها ضعف لافتراق في الكلمة ، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد، أو ركون إلى راحة لا تدوم ، أو افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها قوة أجنبية أزعجتها ، ونبّهتها بعض التنبيه ، فاذا توالت عليها وخزات الحوادث ، وأقلقتها آلامها ، فزعت إلى

استبقاء الموجود ورد المفقود ولم تجد بدأ من طلب النجاة من أي سبيل ، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية ـ وهي ما تكون بالتئام أفرادها والتحام آحادها ـ وان الالهام الالهي ، والاحساس الفطري ، والتعليم الشرعي ، كل ذلك يرشدها إلى أن لا حاجة لها إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها .

إن النفوس الانسانية وان بلغت من فساد الطبع ، والعادة ما بلغت ، اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلاّ إلى حدّ يدخل تحت الطاقة ، ويسعه الامكان ، فاذا تجاوز الاستطاعة ، كرّت النفوس إلى قواها ، واستأسد ذئبها ، وتنمر ثعلبها ، والتمست خلاصها ولن تعدم عند الطلب رشاداً .

وربما تخطيء مرة فتكون عليها الدائرة ، لكن ما يصيبها من زلة الخطـــأ يلهمها تدارك ما فرط ، والاحتراس من الوقوع في مثله فتصيب اخرى فيكون لها الظفر والغلبة وان الحركة التي تنبعث لدفع ما لا يطاق اذا قام بتدبيرها قيّم عليها ومدّبر لسيرها ، لا يكفي في توقيف سريانهـا ، أو محو آثارها ، قهر ذلك القيّم ، واهـلاك ذلك المدّبر ، فان العلة ما دامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها فان ذهب قيّم خلفه آخر أوسع منه خبرة ، وأنفـــذ بصيرة ، وأمضى عزماً .

نعم يمكن تخفيف الأثر ، أو إزالته بازالة علته ، ورفع أسبابه .

جرت عادة الامم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الأخلاق ، والعادات ، والمشارب وإن لم يكلفها بزائد عما كانت تؤديه لمن هو على شاكلتها ، فكيف بها إذا حمّلها ما لا طاقة لها به ، لا ريب أنها تستنكره ، وتستكبره ، وكلما أنكرته بعدت عن الميل إليـه ، وكلما تباعدت منه لكونه غريباً تقرب بعضها من بعض ، فعند ذلك تستصغره فتلفظـه كما تلفظ النواة ، وما كان ذلك بغريب !

إن مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الأمم ما بينها من الاختلاف في الجنسية والمشرب، فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ألزم من التحزب للجنس والمذهب ، وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشد من دعوتها إليه للاشتراك في طلب المنفعة .

أبعد هذا يأخـذنا العجب إذا أحسسنا بحركة فكرية في أغلب أنحاء الشرق في هــذه

الأيام[1] ولسوف تقوى تلك الحركة ، ويتسع نطاقها كلما تمادى الطامع ، واستطال بقوته على هضم حقوق الشرقيين في عقر دارهم ، وضيّق عليهم فيطلب كل واحد خلاصاً ، ويبغي نجاة ، وينتحل لذلك من الوسائل والأسباب ما يصل إليه فكره على درجته من الجودة ، والسقم، وإن العقلاء في كثير من أصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل .

بلى كان هذا أمراً ينتظره المستبصرون — وان عمي عنه الطامع — وليس في الامكان إقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما يأتي به الزمان — على عاداته في أبنائه ، بل يجري به القضاء الإلهي من سنّة الله في خلقه — سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون .

بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته خصوصاً في المسلمين منهم ، فنهم ملوك أزلوا عن عروشهم جوراً ، وذوو حقوق في الأمرة حرموا حقوقهم ظلماً ، وأغنياء أمسوا فقراء ... الخ حتى لم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من إفراط الطامعين في أطماعهم، ها هي الحوادث التي بذرت بذورها في الأراضي المصرية بأيدي ذوي المطامع فيها ، حملوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها ، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها ، وألزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخفضوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ، ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع ، فكانت الحركة العرابية المشوماء فاتخذوها فريسة لما كانوا له طالبين فاندفع بهم سيل المصاعب بل طوفان المصائب على تلك البلاد وظنوا بلوغ الأرب ولكن أخطأ الظن وهمّوا بما لم ينالوا .

لم تكد تخمد تلك الحركة في بادىء النظر حتى خلفها حركة أخرى وفتح باب كان مسدوداً قام قائم بدعوة لها المكانة الاولى في نفوس المسلمين — دعوة المهدية والمهدي — فإن خمدت هذه وستخمد ، سيعقبها من الحركات في مستقبل الأيام ما لا يمكن إخمادها وتعميهم الحيرة فيعجزون عن تلافيها . نعم إنهم غرسوا في مصر غرساً إلا أنهم سيجنون منه حنظلاً، ويطعمون منه زقوماً ، لا جرم هذه هي العواقب التي لا محيص عنها لمن يغالي في طمعه ،

---

(١) هذا المقال لجمال الدين ردده في الاستانة ١٣١١ هـ وسنة ١٨٩٤ م وكان سبق وقاله في باريس سنة ١٣٠١ وسنة ١٨٨٤ م .

ويتلغل في حرصه ولو أنهم تركوا البلاد لأهلهـــا ، وفوضوا تـدارك كل حادث للخبراء والقادرين عليه ، العارفين بطرق مدافعته به أو اقتناء فائدته ، لحفظوا بذلك مصالحهم، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة بدون أن تزلّ بهم القدم.

غير أنهم ركبوا الشطط، وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة ، وتشتت الأهواء ، وهو أنفذ عواملهم وأقتلها، وما علموا أنه وإن كان ذريع الفتك إلاّ أنه سريع العطب، وما أسرع أن يتحول عند اشتـداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المتدين ، فان بلاء الجور إذا حل بشطر من الأمة وعوفي منه باقيها كانت سلامة البعض تعزية للمصابين ، وحجاب غفلة للسالمين يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب إخوانهم ، أما إذا عم الضرر فلا محالة يحيط بهم الضجر ويعزُّ عليهم الصبر ، فيندفعون إلى ما فيه خيرهم ولا خير فيه لغيرهم .

إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموماً. إن مصر تعتبر عندهم من الأراضي المقدسة ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين ، فإن كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، وإلاّ اضطربت أفكارهم ، وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية ، إن الخطر الذي ألم بمصر نفرت له أحشاء المسلمين ، وتكلمت به قلوبهم ، ولن تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح نغاراً . وما هـذا بغريب على المسلمين فان رابطتهم الملية مع رابطة اللسان أقوى من روابط الجنسية ، وما دام القرآن يتلى بينهم ، ويعمل بأحكامه وفي آياته ما لايذهب على أفهام قارئيه ، فلن يستطيع الدهر أن يذلّهم.

إن الفجيعة بمصر حركت أشجاناً كانت كامنة ، وجددت أحزاناً لم تكن في الحسبان ، وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مدار كهم ، وهم من تذكار الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيراً ، بل نفيراً عاماً ، بل يكون صرخة تمزق مسامع من أصمّه الطمع .

إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب، جيل من الناس ، « الانكليز » لا كتائب له في فتوحاته إلاّ المداهاة ، ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ، ولا أسنة يحفظ بها ما تمتـد إليه يده إلاّ المراضاة ، يظهر بصور مختلفة الألوان متقاربة الأشكال ، كحافظ عروش الملوك ! والمدافع عن ممالكهم ! ومثبت مراكز الأمراء ! ومسكن الفتن ! ومخلص

الحكومات من غوائل العصيان ! وواقي مصالح المغلوبين ومؤمن حقوق الغربيين ! وحامي الأقليات ... الخ مما سبق ذكره ، فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا ، أن لا يأتي من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجع البصر وكسر النظر ، وأن يتحاشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها إذا حنقت خنقت ، وليس له أن يغترّ بعدم مكنتهم وهو يعلم أن الكلمة إذا اتحدت لا تعوزها الوسائط ، ولا يعدم المتحدون قوياً شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته ، وأن المغيظ لا يبالي في الإيقاع بمناوئه أسلم أو عطب ، فهو يضر ليضر وإن مسه الضر .

إلاّ أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ، ووقرت أسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند إلى مكة ومن مكة إلى مصر والكرير الممتد من الأقاليم والممالك الاسلامية في الشرق ، وكلها تلاقى بين تراقي المغرورين بقوتهم ، المسترسلين في جفوتهم .

إن الزوايا التي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء وحوّلت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التي أدّت بهم إلى ما هم فيه ، فتقاربوا في النظر ، وتواصلوا في طلب الحق ، وعمدوا إلى معالجة علل الضعف ، راجـــين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلاً حسناً يسلكونه بوقاية الدين والشرف ، وان في الحاضر لنهزة تغتنم وإليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم ولئن فاتت فكم في الغيب من مثلها وإلى الله عاقبة الأمور .

أتى جمال الدين على بيان منهج « العروة الوثقى » وأعاد ذكره لي عندما عزمت على إصدار جريدة « البيان »[1] في الاستانة عام (١٣١١ هـ و ١٨٩٣ م) وما أحراه أن يكون دستوراً

(١) صدرت لنا الارادة السنية إذ ذاك باصدار جريدة عربية في الاستانة فأصدرناها باسم « البيان » وما كادت تنتشر وتصل إلى بعض أنحاء الشرق مثل الهند وتونس ، ومراكش ، والعراق وسوريا وغيرها حتى انهال طلب الاشتراك فيها من كل صوب وناحية ، مما أدهش المرحوم السلطان عبد الحميد وزاد في هواجسه وإذا بالارادة السنية السلطانية تصدر بتعطيل الجريدة لأجل غير مسمى، وقد علمنا أهم أسباب التعطيل وهو :

أن أكبر الجواسيس مع أعوان له ، أخذوا يحللون كل كلمة وردت في الجريدة ، فعثروا على هذه الجملة « من نوايانا الخدمة العامة والاخلاص الخ . والنية سابقة العمل » فدسوا على ما قيل لنا لأحد المرتبين في المطبعة ، أن يضع عوض كلمة (العمل) اليمن فجاءت العبارة (والنية سابقة اليمن) واستخلصوا من ذلك وأفهموا السلطان أننا بهذه الجريدة سنسعى أولاً لتحرير اليمن واستقلالها ثم نسعى لاستقلال البلاد العربية ...الخ ما هنالك من الترهات ، وقد أثرت تلك الوشاية وتعطلت الجريدة ...فتأمل !

لكل جريدة شرقية حيث قال: ستأتي في خدمة الشرقيين على ما في الامكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات ، والاحتراس من غوائل ما هو آت .

ويستتبع ذلك البحث في أصول الأسباب ، ومناشىء العلل التي ذهبت بهم إلى جانب التفريط والبواعث التي دفعت بهم إلى مهامه وعرة عميت فيها السبل ، واشتبهت بها المضارب، وتاه فيها الخرّيت ، وضل المرشد حتى لا يدري السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة، والمزعجات المدهشة ، والمدهشات القاتلة ؛ وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين ، ولبست عليهم مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التي أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاّتهم وشفاء أدوائهم وظنّوا أن زمان التدارك قد فات وان الغباية بلغت حدها .

وتحاول إشراب الأفهام أن لا حاجة في الوصول الى نقطة الخلاص المرغوبة ، الى قطع دائرة عظيمة ، تصورها يوجب فتور الهمم ، وانحطاط العزائم ، وإن تخيّل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الادبار عن المطلوب وهو تحت الجناح وأمام البصر ، ويكفي في الوصول إليه عطفة نظر وقطع بعض خطوات قصيرة .

وإن الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهي ما تمسكت به أعزّ دولة أوربية وأمنها ، ولا ضرورة في ايجاد المنعة الى اجتماع كل الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولا مرغم للشرقي أن يقف في بدايته موقف الاوروبي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه ، وأمته وقراً أعجزها وأعوزها .

وتنبه على أن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة ، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية ، فان فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلاّ وسيلة القوي لابتلاع الضعيف . وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة ، المدبج بأشكال المجاملة ، شفافاً ينم عما وراءه. وتنقّب عن المسالك الدقيقة التي يسري بها الطامعون في ديار الغفلات .

وتهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التي يوجهها

إليهم من لا خبرة لهم بحالهم ، ولا وقوف على حقائق أمورهم ، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم التي فاز بها آباؤهم الاولون . ولا تتوانى في تبليغ الشرقيين ما يمسّهم من حوادث السياسة العمومية، وما يتداوله السياسيون في شؤونهم مع اختيار الصادق، وانتقاء الثابت .

وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم ، وتمكين الألفة في أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها ، والتنبيه إلى السياسات التي تميل الى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين .

بحثه في التعصب الجنسي والتعصب الديني .

قال : ان استقراء حال الأفراد من كل أُمة ، واستطلاع أهوائها ، يثبت لجلي النظر ودقيقه وجود تعصب للجنس ونعرة عليه عند الأغلب منهم ، وان المتعصب ليتيه بمفاخر بنيه، ويغضب لما يمسهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب ، ولا بحث في علة هذا الوجدان حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة ، ان التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية، إلاّ أنه يبطل ظنهم ما نراه في حال طفل ولد في أمة من الأمم ثم نقل قبل التمييز الى أرض أمة أخرى وربي فيها إلى أن عقل ، ولم يذكر له مولده فانا لا نرى في طبعه ميلاً إليه بل يكون خالي الذهن من قبله ، ويكون مع سائر الأقطار سواء ، بل ربما كان آلف لمرباه وأميل إليه ، والطبيعي لا يتغير .

ولهذا لا نذهب إلى أنه طبيعي ولكن قد يكون من الملكات العارضة على الأنفس ترسمها على ألواحها الضرورات ، فان الانسان في أي أرض كان ، له حاجات جمّة، وفي أفراده ميل الى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة إذا لم يصبغوا بتربية زكية . وسمة المطمع إذا صحبها اقتدار تدعو بطبعها الى العدوان فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء البعض الآخر ، فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقاباً طوالاً الى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة حتى وصلوا إلى الأجناس فتوزعوا أمماً ، كالهندي والانكليزي والروسي والتركماني ونحو ذلك، ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادراً على صيانة منافعه ، وحفظ حقوقه من تعدي القبيل الآخر ، ثم تجاوزوا في ذلك حد الضرورة كما هي عادة الانسان في أطواره، فذهبوا

إلى حد أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه علماً بأنه لا بد أن يكون جائراً إذا حكم ، ولئن عدل فان في قبول حكمه ذلاً تحس به النفوس وينفصل له القلب .

فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية ، تبع هو الضرورة في الزوال كما تبعها في الحدوث بلا ريب وتلجيء الضرورة للاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى ، وتتضاءل لعظمته العظماء ، وتخضع لسلطته النفوس بالطبع ، وتكون بالنسبة إليه متساوية الاقدام ، وهو مبدأ الكل ، وقهار السموات والأرض ، ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه ، مساهماً ومشاركاً للكافة في الاستكانة ، والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين ، فاذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى ، وأيقنت بمشاركة القائم على أحكامه لعامتهم في الرضوخ لما أمر به ، اطمأنت الأنفس في حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة ، واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة إليها فيمحى أثرها من النفوس والحكم لله العلي الكبير.

هذا هو السر فى إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ، ورفضهم أي نوع من أنواع العصبيات ما عدا عصبيتهم الاسلامية فان المتدين بالدين الاسلامي متى رسخ فيه اعتقاده ، يلهو عن جنسه وشعبه ، ويلتفت ويعرض عن الرابطة الخاصة الى العلاقة العامة وهي علاقة المعتقد . لأن الدين الاسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق إلى الحق فقط ، وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى إلى عالم أعلى ، بل كما كانت كافلة لهذا ، جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد ، وبيان الحقوق كلّيها وجزئيها ، وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات ، وإقامة الحدود وتعيين شروطها حتى لا يكون القابض على زمامها إلا من أشدّ الناس خضوعاً لها ، ولن ينالها بوراثة ، ولا امتياز في جنس أو قبيلة ، أو قوة بدنية أو ثروة مالية ، وإنما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة ، والقدرة على تنفيذها ، ورضاء الامة . فيكون الوازع عند المسلمين في الحقيقة ، شريعتهم المقدسة الإلهية التي لا تميز بين جنس وجنس ، واجتماع آراء الامة ، وليس للوازع أدنى امتياز عنهم إلا لكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفع عنها ، وكل فخار تكسبه الأنساب ، وكل امتياز تفيده الأحساب لم يجعل له الشارع أثراً في وقاية الحقوق ، وحماية الأرواح والأموال والأعراض ، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهي ممقوتة على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم ، والمتعصب لها ملوم فقد قال ﷺ « ليس

منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » .
والأحاديث النبوية ، والآيات المنزلة متضافرة على هذا ، ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى ـ اتباع الشريعة ـ (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف له في جنسه ، ولا امتياز له في قبيله ، ولا ورث الملك عن آبائه ، ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه ، وما رفعه الى منصبة الحكم إلا خضوعه للشرع ، وعنايته بالمحافظة عليه .

وان بسطة الملك في الوازعين من المسلمين كان الله يسديها إليهم على حسب امتثالهم للاحكام الالهية ، واهتدائهم بهديها ، وتجردهم عن الاعتلاء الشخصي ، وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق غيره في أبهة ورفاهية معيشة ، وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد ، رجعت الأجناس إلى تعصبها ووقع الاختلاف ، وانقبضت سلطة ذلك الوازع .

هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الى الآن لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبات الاجناس ، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين ، لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي ، والفارسي يقبل سيادة العربي ، والهندي يذعن لرئاسة الأفغاني ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض .و ان المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل ما دام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذهبها . نعم إذا شذّ أو حاد في سيره عنها ، وطلب الامرة بما ليس من حقه ، انصدعت منه القلوب ، وانحرفت عن محبته الانفس ، وأصبح وإن كان وطنياً فيهم أشنع حالاً من الأجنبي عنهم .

إن المسلمين اختصوا من بين أرباب الأديان ، بالتأثر والأسف ، عندما يسمعون بانفصال بقعة إسلامية عن حكم إسلامي بدون التفات الى جنسها وقبيلها .

ولو أن حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كان اتّبع الاوامر الالهية ، وثابر على رعايتها ، وأخذ الناس بحدودها ، وضرب بهم مع المحكومين في الخضوع لها وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة ، لأمكنه أن يحوز بسطة في الملك ، وعظمة في السلطان ، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الأقطار المعمورة بأرباب هذا الدين ، ولا يتجشم في ذلك أتعاباً ، ولا يحتاج إلى بذل النفقات ، ولا تكثير الجيوش ، ولا مظاهرة الدول العظيمة ،

ولا مداخلة أعوان التمدن ، وأنصار الحرية ؟! ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية القويمة ، ومن سيره هذا تبعث القوة ، وتتجدد لوازم المنعة .

أكرر القول بان السبب هو أن الدين الاسلامي لم تكن وجهتـه كوجهة سائر الاديان الى الآخرة فقط ؛ ولكن مع ذلك أتى بما فيه مصلحة العباد في دنياهم،وما يكسبهم السعادة في الدنيا والنعيم في الآخرة ، وهو المعبر عنه في الاصطلاح الشرعي « بسعادة الدارين » ، وجاء بالمساواة في أحكامه بين الأجناس المتباينة والامم المختلفة .

إن بعض المسلمين يعزّ عليهم الصبر أحياناً ، ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم، وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية فيلجؤون للدخول تحت سلطة أجنبية ، ويسعون إليها منوّمين مغرورين، على أن الندم يأخذ بأرواحهم عند أول خطوة يخطونها في هذا الطريق، فمثلهم كمثل من يريد الفتك بنفسه حتى إذا أحس بالألم رجع واسترجع . وان ما يعرض على الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق إنما يكون منشؤه قصور الوازعين وحيدانهم عن الاصول القويمة التي بنيت عليها الديانة الاسلامية ، وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الاقدمين فان منابذة الاصول الثابتة ، والتحول عن المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررها بالسلطة العليا ، فاذا رجع الوازعون في الاسلام إلى قواعد شرعهم ، وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض قليل من الزمان إلا وقد آتاهم الله بسطة في الملك ، وألحقهم في العزة بالراشدين أئمة الدين .

جمل مختصرة وأمثال حكمية(١)

كان يمين جمال الدين إذا شاء أن يقسم قوله : وعزة الحق وسر العدل .ومن أقواله :

الحقائق لا تزول بالأوهام .

الجبن لا يغني ، والشجاعة لا تفقر .

من دواعي الذل المسكنة ، والسؤدد مع عزة النفس .

(١) لكل جملة أو مثل سبب دعى إليه في حينه . ولو عمدنا إلى ذكر الأسباب لتضخم الكتاب جداً . لذلك أرسلنا أكثرها مجردة عن أسبابها .

الأمة أرضها الأمل وبناؤها العمل .

ساقط الهمة من علم موقع الفضيلة وصدق الدعوة ، ولم يبادر إليها ، بل ينتظر أن يكون تابعاً ومقلداً لغيره فيها .

كثرة النصراء لداع أو لدعوة ، عن غير علم منهم بصحة الدعوى قلة ومذلة ، وقليل من النصراء لدعوة عن علم ، مكانة واستطالة .

من سفه الرأي أن يعتقد الرجل أفضليته على الغير بالعمر والمشيب فقط .

ربما أفادت السنون تجارباً .

الأقدمية لا تجدي الأفضلية غالباً .

الفخر بالقول المجرد يبطله المجد بالفعل .

أثقل الأعباء محاولة الحسود ستر فضل المحسود .

أنمُّ شيء على الإنسان فضيلته ورذيلته .

من توهم الكمال تخونه الاعمال .

العاقل من اعتقد بعجزه ثم سعى للعمل .

الاعتماد على النفس والتوكل من أقوى عوامل الظفر .

ليس في الانسان عضو يتحرك لغير قصد وغاية ، فكل حركة يفعلها الانسان لا يعلم غايتها تحكم عليه بالجهل .

قضايا الجهل في الانسان أكثر من قضايا علمه .

وعمر الانسان أقصر من أن ينيله ما يجب أن يعلمه.

النظام ما انتظم به شمل عالم متفرق يصرفه لوجهة نافعة .

لو لم يتنازع الخلق على الحق لما كان ثمة باطل .

القوة صنم مرهوب ، والضعف شبح مربوب .

لا يؤمن بربوبية القوة إلا شبح الضعف .

أحقر الناس من يطلب موت الناس ليحيا ، وأعظمهم من يستميت ليحيي ولو واحداً من الناس .

عظمة الملك لا تكون بالتيجان ووقار العلم لا يكون بالطيلسان .

التسفل أيسر من الترفع .
ميسور للانسان فعل الأسود وممتنع على الاسود فعل الانسان .
الذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان .
الأكفاء في العصر لا يكونون على الغالب أصدقاء .
الفقر عدوُّ الفضيلة والثراء نصير الرذيلة .
لا خير في حق لا تدعمه قوة .
بئس الباطل المنصور .
تطويل المقدمات دليل على سقم النتائج .
حقيقة الأنفة وعزة النفس عدم الاتكال على الناس .
الحجر خير من بشر يقعد لغير علة ويحتاج بشراً مثله .
من رهب الملوك لغير جريرة فهو الصعلوك .
لا تطيب نفس الانسان بالتواضع إلاَّ إذا علم بعض العلم .
علماء العصر يظهرهم العصر ، وقادة الأفكار تبرزهم الأخطار .
الإفراط في التواضع دليل على الادعاء .
قلة الكلام لا تكون في الغالب دليلاً على الكمال .
ليس في كل اختصار بلاغ .
صاحب الحق قوي ولو كان ضعيفاً .
والمبطل ضعيف ولو كان قوياً .
صاحب القلم لا يحتاج إلى عصا .
الصامت عن حقه محروم .
من فتح له الباب ولم يدخل أولى بالطرد .
صاحب الحاجة إذا لم ينطق بحاجته أولى بالخرس .
قلما يأتي الحق بدون عناء .
لذة استرداد الحق لا تضارعها الهيبة والتهيب .
الانسان من وقر نفسه وعرف حق غيره من جنسه .

لا خير في انسان يفضله الحيوان .
بعض الخلق يرضون بالموت خوف الموت ويلبسون لباس الذل خوف الذل .
الأمة بأفرادها والشمم بالتجرد عن النفع الذاتي وطلبه في النفع العام .
ما مات أحد في حب أمة إلا وأحيته .
من أحب الحياة فليمت في سبيل حياة أمته .
لا أمة بدون أخلاق ولا أخلاق بغير عقيدة ولا عقيدة بغير فهم .
خير موازين الأمم أخلاقها .
سؤدد الأمة معقود بقادتها .
خير الأخلاق إنكار الذات .
أعظم دلائل الانكار على الذات الأعمال .
ألف قول لا يساوي في الميزان عملاً واحداً .
طلاب الحكمة كثيرون ولكن ما أقل العاملين.
تقل العلماء متى كثر المتطفلون والمدعون .
أعظم دليل على كبر الهمة مجاهرة المرء بمخالفته المألوف اذا تحقق بطلانه .
العلماء والعقلاء لا يصح ان يكونوا أكثرية في محيطهم .
حكيمان عاقلان في أمة مجموعها مليون خير من ألف متعاقل ومدعي حكمة فيها .
ما استحكم الجهل الا وتفرقت الكلمة ، ولا كثر الادعاء المجرد بالصلاح والاصلاح الا وعم الفساد وشمل .
وضيع الحسب يستطيل بالقليل من المال على غيره .
الأصل عون والعرق جساس .
العلم الصحيح نسب صحيح بل وراثة لنبوة .
الراحة بالرضى والنصب بالطموح .
إسراف الانسان بصحته أضر من إسرافه بثروته .
إذا لم تساوِ الطبيعة بين الرجل والمرأة بالتكوين فعبثاً نحاول مساواتها بالأقاويل .
لا مانع من السفور اذا لم يتخذ مطية للفجور .
قوة المرأة بضعفها .
وباء الفرض أفتك من وباء المرض .

خير ما يحتاجه الشرق من الملوك ، القوي العادل ، ولاخير في العادل الضعيف كما انه لا خير في القوي الظالم .

شر أدواء الشرقيين اختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا .

الاستقلال أمل يتبعة عمل،وحمل النفس على المكاره ، واقتحام المهالك والمصاعب .

خير لون لراية الاستقلال دماء المجاهدين الابطال .

ترك ما كان سبباً للصعود يؤدي إلى الهبوط والسقوط .

اذا سادت الجهال ساءت الاحوال .

اذا خلا الميدان من العقلاء تسابقت الجهلاء .

العالم الفقير غني بعلمه ، والغني الجاهل فقير بجهله .

الاسد لا يعدم فريسة حيثما ذهب .

تبلغ المرأة بضعفها مالا يبلغه الرجل بقوته .

الحرية تؤخذ ولا تعطى . والاستقلال لا ينـال بالاقوال .

طالب الموت في سبيل حياة الوطن ، إما ان يموت بطلاً شهيداً وإما ان يعيش سيداً عزيزاً .

من اعتقد أن لا حياة إلا هذه الفانيةفقد خسر الاولى والثانية .

إذا كانت حاجة الكون الرجل مرة فحاجته إلى المرأة كرة .

عمل واحد تختص وتقوم به النسـاء تعجز عنه رجال الغبراء .

التكلف للسجع ينفر منه الطبع ويحسن وقعه اذا جاء عفواً .

أشـد وطأة على الانسان من غربة اليد والوجه واللسان ان يصبح كحرف الحـاء والدهر افرنجي .

عدم التشاكل من أعقد المشاكل .

لا يتم عمل والتآلف مفقود ، ولا يكون فشل والاتحاد موجود .

يأس الانسان من أن يجد له صديقاً في الحياة كيأس الغريق من النجاة .

من ثابر وكابر على تجربة الضار أولى أن يتخذ عبرة .

بالضغط والتضييق تلتحم الاجزاء المبعثرة .

الازمة تلد الهمة .

انهزام العاقل من أمام الجهلاء اولى من الظفر بهـــــم .

بائع الدر وبائع الفحم يتساويان بالاسم ويختلفان بقدر المباع .

الجاهل الحي ميت والعـالم الميت حي .

كيف لايفضل أضعف حيوان ناهق يذكر الله إنساناً ناطقاً ينكر وجود الله (١) .

كيف يجرأ على إنكار المعبود واجبِ الوجود من يأكله الدود.

اذا لم يتعظ الانسان بما فوقه من اجرام فليتعظ بما تحته من رفاة الأجسام .

عدُّ النـاس معطي الذهب وهو من التراب ثواباً ، إسراف في الثواب .

التقي والورع والصالح من يعبد الله لاخوفاً من جحيمه ولا طمعاً في جنته بل لكونـه إلهاً يستحق العبادة والتقديس .

مهد جبروتية فرعونية تساق بسياسة بقروتية .

أحقر صناعة لنحّات أنفع من تقعر النحاة .

كان مقر الفقه في الرأس والصدر ثم انحدر الى الجبة والسطر .

القبة الجوفاء لا ترجع إلاّ الصدى .

عمامة كالبرج وجبة كالخرج .

جمود بعض المتعممين أضر بالاسلام والمسلمين .

كان المقصود من النحو ان يكون آلة ، فصيره جمود النحاة غاية (٢) .

---

(١) جاء لزيارة السيد جمال الدين رجل متحزلق متفلسف ، وتناول الحديث قائلا انه قرأ كتب الفلاسفة وثبت عنده ان الله غير موجود ولا يعتقد بوجوده الا الحيوان ... الى آخر ما هنالك من ضروب الهذيان ، فضاق صدر السيد ولم يجبه ، وقال للحاضرين هلموا نذهب الى الحديقة وكان فيها أنواع من الطيور والدجاج وبينهم ديك أشقر كبير جميل أخذ يوالي صياحه ويذكر أخيرا (الله الله) بنطق واضح تمام الوضوح ، عند ذلك قال جمال الدين المثل المحرر : كيف لايفضل ... الخ فخجل الرجل وانسل من باب الحديقة من غير ان يودع .

(٢) ذكرت للسيد جمال الدين ماللاستاذ العلامـــة الفاضل المرحوم الحكيم كرنيليوس فان ديك من الايادي البيضاء على أهل بلادنا بل وعلى الناطقين بالضاد بما ألفه من الكتب الفريدة المفيدة باللسان العربي وما ترك من تلاميذه من العلماء في البلاد ، وأعدت على مسمع جمال الدين ما ذكره لي فان ديك وهو على التقريب قال : ترك لنا الأسلاف وأعني جهابذة العرب كنوزاً من العلوم والفنون أو دعوها في عمارة كبيرة وأوصدوها =

ولم يستعض المتأخرون في اغلب ما يكتبون بسوى أحرف العلة والأجوف والمهموز وفاتهم الجزالة والسلاسة .

من عجز عن إصلاح نفسه كيف يكون مصلحاً لغيره .

العصامي قد يكون لمن يخلفه عظامياً والعظامي فقط يبقى وارثاً للعظام .

اعتماد المظلوم على وعود الظالم بالكلام أقتل من المدفع والحسام .

أمة ثبتت في جهادها لأخذ الحق ساعة خير لها من الحياة في الذل الى قيام الساعة .

اذا لم تتذرع الأمة بشكواها من ظالمها بغير الكلام فاحكم عليها بأنها أضلّ من الانعام .

أمة تطمن حاكمها سرّاً وتعبده جهراً لا تستحق الحياة .

الايمان واليقين ليس معناهما عبادة رؤساء الدين .

مقبرة العلوم خزانات الكتب .

العلم الحي في الصدر الحيّ .

شرّ الأزمنة ان يتبجح الجاهل ويسكت العاقل .

كم من منتصر لمظلوم وقع في شرك الظالم .

المظلوم حيّ ولو مات والظالم ميت ولو عاش .

من تولى زمام أمور الجمهور لاغنى له عن مرآة وكتاب تاريخ صحيح . فكما ان المرآة تريه شخصه على علاته هكذا التاريخ ينقل اعماله في حياته .

كثير من الآباء يستميتون ليحيوا أبناءهم وقليل من الأبناء من لا يستثقلون طول حياتهم ويستعجلون موتهم .

مهابة تصدر عن كرسي الحاكم لا عن عدله وفضائله أقرب للسخرية منها للاحترام .

أكثر أمراء الشرق إذا ألقي أحدهم في أضيق جب من الاستعباد ، وحفظت له ألقابه الضخمة مجردةً ، حسبه جنة عرضها السموات والارض .

= وتركوا لنا مفتاحها الصرف والنحو . فأخذنا المفتاح واعتقدنا أنه جميع الميراث ولاسواه وأخذ كل منا بدوره يردخ ذلك المفتاح ولم يخطر ببال أحدنا أن يفتح به ذلك الباب . ولم نزل الى اليوم على هذه الحال حتى انبرى المفتاح وما عاد يصلح ان يفتح به ذلك الباب .. انتهى ، فاستحسن جمال الدين ذلك المثل جد الاستحسان واستمطر للحكيم صيب الرحمة والغفران ، وقال عمل فان دبك فنفع وقال فصدق وهذا هو المثل الصالح والقدوة الحسنة .

المرأة اذا اتخذت لفضلها شريكة للحياة نعمت الشركة وطابت الحيـــاة ، وإذا اتخذت لمحض الشهوات كانت شركا للمهات .

حمال الحطب للاتجار أنفع من حمال الذهب للادخار .

عيب الكبير كبير والجبن أقبح عيوب الملوك .

يحتاج الملك الجبان للصعلوك الشجاع .

تحتجب الحقائق عن الملوك بقدر تحجبهم .

العاقل من مثل في نفسه مثال ما استحسن من غيره .

أقرب موارد العدل القياس على النفس .

الدين رادع عن رضى في السر .

والسلطان وازع في الجهر بالقهر .

من خبثت نفسه لان ملمسه ، وكثر ختله وخداعه .

الشباب جسر من جنون لا غنى للعقلاء من المرور عليه .

أعظم دليل على وجود قوة قاهرة فوق إرادة البشر ، تقوض عروش المـــلوك قهراً ، وموت نطس الاطباء رغماً ، وعجز الحكماء فملا .

النعيم والجحيم يتجليان للانسان في صور اعماله فيتنعم بالحسن منها ويتألم من القبيح .

كم من غني محسود بمظهره فقير مقهور في حقيقة أمره .

السعادة في الدنيا ضالة البشر ، وإذا وجدهــا أحد قلما يدل عليها ، ولا أظنهــا من موجودات هذا العالم الفاني .

ربما تكون القناعة إحدى أسباب السعادة ولكن ليس لها حد معروف ، ولا شكل موصوف فالانسان مسرف في كل شيء .لذلك كثر بين الناس المفرطون وقلّ المعتدلون .

يكفر الانسان في كل شيء لا يرضاه ويعبد كل شيء يهواه .

من أعظم مجالي الحكمة المحافظة على الهيئة المتوسطة ، والفضائل بلا شك هيئات متوسطة بين خلتين ناقصتين .

الاحزاب السياسية نعم الدواء ولكنها في الشرق تنقلب غالباً الى شر الداء .

يتألف الحزب في الشرق ويعلن على الامة غايات ومطالب شريفة فيناصرونه ويكون الكل له أصدقاء في البداية ثم تظهر الاثرة والانانية وحب الذات فينفرط عقد الحزب ويصير الكل له أعداء في النهاية .

قاضٍ في الجنة وقاضيان في النار [1] .

إذا لم تنصف الحكومة القضاة أحرى بها ان تجعل الذئاب رعاة .

إذا كان القاضي يتظلم فكيف بالمظلوم لا يتألم .

إنصاف القاضي قبل إنصاف المتقاضي .

قرقعة السيوف بغير فتك ، والبختر بلامة الحرب إبان السلم ، من الأدلة على الجبن في مواطن القتال .

قبول الدخلاء والمتطوعة في الجيش مفسدة للنظام ومن عوامل الانهزام .

قلما ينهزم جيش يتحلى قائده بالصبر والثبات ، واقتحام الموت قبل الجند .

القائد من قاد بأفعاله لا بأوامره ، وأقواله .

الأمير بأفعاله خير من الأمير بأمواله .

الأديب في الشرق يموت حياً ويحيا ميتاً .

بينما الأدباء في حياتهم أفقر الفقراء فاذا هم بعد الموت يصيرون بالرثاء وحفلات التأبين أغنى الأغنياء .

نهض الغرب بالعلم والعمل وانحط الشرق بالجهل والكسل .

التقليد بنافع ثبتت منفعته أولى من التقيد بمألوف ثبتت مضرته .

---

(١) زار جمال الدين يوماً أحد القضاة ويسمى (نائب) كان في عكا وآخر قاضي (نائب) في إحدى القضوات وكان القانون العثماني اذ ذاك يقضي بان يتولى القاضي الشرعي رياسة محكمة الحقوق مع المحكمة الشرعية ومدة مأموريته سنتان ينفصل عند انقضائها وفي الاقضية كان القاضي يتولى رياسة محكمة الحقوق والجزاء والتجارة والاجراء ، وأخذ كل منها يشكو قلة راتبه وهو تقريبا اثني عشر ليرة ونصف عثمانية شهريا ويشكوا من اضطراره في كل سنتين للانتقال مع عياله ومجيئه للاستانة ومكثه فيها حتى ينال نيابة ثانية ، وإذ دخل رجل محترم حسن الهيئة واللباس فاحتفل به السيد وعرفه للحاضرين وانه قاضي في محكمة طنطا وسأله عن حالة القضاء ورواتب القضاة فامتدح الرجل سير القضاء الوطني المصري وإن الراتب كاف واف . فتبسم جمال الدين وقال : قاض في الجنة «وأشار إلى القاضي المصري» وقاضيان في النار « وأشار إلى من كان يشكو من قضاة الاتراك » .

ثمرة العقول لا تجتنى إلا باطلاقها من قيود الأوهام .
من قال أن الدين يأمر بالعسر دون اليسر وبالضّار دون النافع لمجرد التقليد والمألوف فهو كذاب.
عماء البصيرة أضرُّ من عماء البصر .
كم من أعمى نبغ ، حسده ويحسده المبصرون .
وكم من أبكم بإشاراته أفصح من عيّ بكلماته .
الهيئات في الاجتماع حكومية كانت أو غير حكومية إنما هي خايط من أفراد يجب مراعاة التشاكل فيها والتجانس ، وإلا فسد الخليط .
ولا يجتنى الشهد من الحنظل .
المعوج الظاهر من الناس ، أقل ضرراً من المتلبس بالاستقامة .
من ظن أنه خدع الناس بالباطل يكون أول مخدوع .
الأعمى من يظن أن جميع الناس بدون أبصار .
لولا الزرع ولولا الضرع لما كان سرف الأغنياء ولا ترف الامراء .
موقف الزرّاع والصنّاع من الحضارة أنفع من موقف الامارة .
رأينا شعباً يعيش بدون ملك ، ولكن ما رأينا ملكاً يعيش بدون شعب .
حاجة الملك إلى الامة أشد من حاجة الامة إلى ملك .
للعلم قشور ولباب ، فالواقف على القشور يغرق في بحر الغرور .
المغرور من لا يرضى إلا عن نفسه ، وعمّا يصدر عنه قولاً كان أو عملاً .
المبتدي في أوليات العلوم يظن أنه تبحّر فيها وانتهى ، والراسخ المحقق فيعتقد أنه ما زال في الابتدا .
محدث النعمة بالمال يستعرضه في كل مكان ومحدث النعمة بالعلم يلقيه على كل إنسان .
أظهر الآداب وأليقها بالعلماء والمتعلمين ، عدم قطع الحديث على المتكلم ، وتركه يتم ما يريد أن يرويه من غير أن يسبقه إليه ولو كان من منسياته .
لو يحاسب الانسان نفسه كما يحاسب غيره لقل خطؤه وقرب من الكمال .
من الغرائب في طبائع الانسان أنه إذا رضي استحسن القبيح واستسهل الصعب ، وإذا

غضب عكس الأمر فيستقبح الحسن ويستصعب السهل فلو مزج الانسان ساعة رضاه في ساعة غضبه لوقع على الهيئة المتوسطة وفاز بالفضيلة .

قيد الاغلال أهون من قيد العقول بالأوهام .

العقل أشرف مخلوق فهو عالم الصنع والابداع ، ولا معطل له إلا الوهم ولا يقعده عن عمله إلا الجبن وهو الذي يخيل المفقود موجوداً والقريب بعيداً .

كل عناصر الوجود في هذا العالم الفاني خاضعة للعقل المطلق الانساني .

فكل مستحيل اليوم في الطب والصناعة سوف يكون غداً ممكناً .

الشركة شرك فاذا لم يصطاد الشركاء به غيرهم اصطادوا بعضهم .

الحقيقة ما ثبتت وتغلبت على الأوهام .

المصلح الزعيم من لا يفر ولا يتضعضع من أذية الاثام .

سجن الظالمين للمصلح « رياضة » ونفيهم له « سياحـــة » وقتلهم له « الشهادة » وهي أسمى المراتب .

الفصل في نزاع نساء البيت ينغص الحياة .

أعدل قضاء في الدنيا يعجز عن إرضاء متخاصمتين من النساء على رجل أو شيء .

أعقل الآباء من لا يساكن أولاده بعد الزواج ويستعيض بالتزاور عن التجاور .

الأم تسمى وتتصور من وراء زواج ولدها النعيم ، فان زوجته ترى نفسها في الجحيم .

قلّ من رأيت من الرجال من يعرف الهناءَ بغير النساء ، وندر منهم من لا ينسب شقاءه إليهن ، والأقرب للصواب أن يقال فيهن ما قيل في الاولاد ، وجودهم بلاء وبلاهم بلاء .

القوي من الشجر لا يعجل بالثمر .

يعوج الشرقي باعوجاج حاكمه ويستقيم إذا هو استقام .

لا ينطبق على الشرقيين قول « مثلما تكونوا يولى عليكم » بل حق عليهم قول « مثلما يولى عليكم تكونوا » .

الأجرب يعدي السليم ، والمرتكب يعدي المستقيم .

من الصعب وضع حد للعفة وحصرها بداية وانتهاءً فالعفيف في الماديات مثلاً إذا عفّ عن أخذ ألف دينار كيف يكون موقفه عند المليون إذا عرض عليه .

أول صفة رافقت الانسان الأول « الطمع » وفيه الفناء وليس له حد . «والقناعة» وفيها الفناء وحدها وإن كان كما قالوا الاكتفاء بالموجود وترك التشوق للمفقود ولكن لا يعمل لها أحد .

العربية وسّعها البدو في البراري والقفار وضيّقها الحضر في المدن والأمصار .

خذ القياس ودع الناس .

لا يحق للسماعي والقياسي أن يمنع أحدهما الآخر .

إذا جاز بالسماعي أن ينحرف لمَ لا يجوز بالقياسي أن «ينموج» .

العلم قد يكون في الأحداث ، ولكن التجارب لا تكون إلاّ في الشيوخ .

بالعدل والمساواة الوفاق والوئام وبالأثرة والانانية النفرة والخصام .

ما أقل المجتهدين في السلف وما أكثرهم في الخلف[1] .

من الأدواء والأمراض ما هي عند أكثر الناس نعمة ، تفوق نعمة العافية[2] .

---

(١) قال شارحاً : كان علماء السلف والأئمة منهم لا يجرؤون على القول بسنة من سنن الرسول صلى الله عليه وسلم إلا بعد التدقيق والنظر في الاجماع وتحري الثقات من الرواة... الخ . أما الجهلاء من المشايخ والمتعممين اليوم فتراهم يتهجمون على التحريم الحلال والتحليل للحرام بغير نص ، وقد جهلوا أن مقام التحريم ماجاز لصاحب الشرع الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم إلا بتنزيل ، لقوله تعالى : (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ... الآية) . قال : وقد رأيت منذ أيام شيخاً بعمامة كالبرج وجبة كالخرج آخذا بجلابيب رجل «أفندي» قرب جامع السليمانية في الاستانة وهو يهزه ويقول له : إن لبسك هذا القميص حرام وكفر ، لأنه صنع الأفرنج الكفار . قال جمال الدين : فما وسعني إلا أن تقدمت إلى ذلك الشيخ الجاهل وقلت له : يا شيخ إن عمامتك وجبتك ، وعمامتي وجبتي من صنع الأفرنج ، فلماذا لا تخلع عمامتك وترمي بجبتك أولاً ثم تعمد إلى قميص الرجل فتشلحه إياه ، وكم من أمثال هذا الشيخ الجاهل في هذه الأمة بهذه الأيام لا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢) قال: في مقدمة تلك الأمراض النفسية مرض جمع الأموال ، إذ يعاني جامعها من المشاق أشدها ، ويتحمل من المخاطر والمهالك أصعبها ، وكثيرا ما اتخذ لجمعها أسفط الوسائل وأسفلها ، حتى إذا تسنى له جمعها وكنزها ، ربما خانته العافية فلا يستطيع تناول غذاء لذيذ أو يصرعه الشح فيمنعه من بسيط المأكل والملبس ، وهو في كل هذا البلاء يرى في جمعه المال وكنزه نعمة كبرى ، وكثيرا ما كان المال سبباً لقتل جامعه وهكذا القول في البنين «الاولاد» فان الأبوين يذوقان في تربيتهم الأمرين ويستسهلون في سبيل راحتهم كل صعب ويلذ لهم العراء إذا كسوهم ، والجوع إذا أطعموهم، والسهر إذا أناموهم حتى إذا كبروا استثقل بعضهم وجود الأبوين واستطولوا حياتهما ، فسبحان من أودع في كل قلب ما أشغله .

عبرة وذكرى

كنا ذكرنا في مقال سبق أن السيد جمال الدين بحث عن مجموعة « العروة الوثقى » فوجدها وأعطاني نسخة وبعد مدة استرجع ما أعطاني واستبدلها بالتي كان أبقاها عنده وقال:

ياشيخ بني مخزوم! إنك لتجد في هذه المجموعة وعلى هامشها إشارات فكل مقال أشرت إليه اضممه وأثبته في « الخاطرات » فذكرها لا يخلو من العبرة .

فوجدت أكثر ما أشار إليه الاستاذ يتعلق في أحوال مصر والسودان وفتنة المهدي السوداني محمد أحمد فقلت : يا أستاذ ! إن مسألة المهدي قد انتهى أمرها وتشتت شمل أعوانه ومات الرجل ، ورسخ قدم الانكليز في السودان وفي مصر .

قال : نعم ووضعت يدها على ملك السودان وجعلت قاعدة الملك « الخرطوم » كل ذلك ثمن دم « غوردن باشا » ودية قتله . وما يدريك أنه في الآتي من الزمن سيقتل انكليزي آخر في مصر وتأخذ انكلترا ديته ملكاً آخر وخزائن من المال .

فمسألة السودان ، ومسألة مصر ، هما في الدور الاول من الادوار العديدة التي أعدّتها الانكليز لابتلاع تلك الاصقاع ولسوف تتحول في مصر أحوال ، وتظهر أشكال ، وتتلون السياسة البريتانية بألوان يندهش منها الانسان ، وما كان في السياسة من الأصول ، خصوصاً في تقاليد الانكليز وسياستهم ، فمن الصعب الرجوع عنه بسهولة . هي ترسم اليوم خططاً لأمر سوف تبتدىء فيه بعد جيل، ودخولها لمصر لم يكن ابن ذاك العام بل هو نتيجة مساعي طويلة ، ودسائس دقيقة ، وإعمال أفكار من أعوام مديدة ، وعملا باشارته بدأت بإثبات ما أشار اليه من المقالات ومنها :

التهتك في الحيلة :

اشتهرت دولة الانكليز بخلابة الشرقيين وأخذهم بالروية ، حتى وضحت سبلها من كثرة ما طرقت وانقلب وجه الحيلة فظهر مستورها، من يوم كان اللورد دوفرين في القاهرة لكشف حالة مصر وتقرير نظام لحكومتها « كما يزعمون » ، لوّح للحكومة بترك السودان ، ثم جاء من بعده الماجور بارنغ وألزم الحكومة بالتنازل عن حقها فيه ، لأنه ربما يكلفها نفقات وافرة

ليس لها عوض من الفائدة . فامتثلت الحكومة أمر غالبها وهمت بإخلائه . وكان أول عملها أن صدرت أوامر الدولة البريطانية بتعيين الجنرال غوردون للقيام بتخلية السودان فتكون المنة على السودانيين في استقلالهم « الموهوم » لدولة بريطانيا ، وتكون الصلة بينهم وبينها خاصة ، وما وصل خرطوم إلا وأقام محمد أحمد أميراً على كوردوفان . وأخذ في إرجاع الولايات السودانية لملوكها الأقدمين أو أبنائهم . ولم يكن القصد من هذه الزغزغة إلا أن يكون بعد تنازل المصريين سيباً أو « فراطة » لا حق لأحد فيه ، فيأخذه السابق اليه بدون أن تعترض فيه المشاكل السياسية ليتيسر للانكليز عاجلاً أو آجلاً أن يستولوا عليه، وينزعوه من أيدي أمرائه الصغار ، ويكون فيه بعض العوض عن مصر لو صدّتهم مقاومة الدول عنها ، أو قوة غيرها كما أشرنا إلى ذلك . وفي هذه الأزمان (أي سنة ١٨٨٤) ، أخرجت انكلترا من جرابها ألعوبة أخرى ، ومثلت من ضيق غوردون سبباً عظيماً لتمهيد طريق وصل الجيوش لتخليصه . فأصدرت أوامرها إلى أحد المصانع الكبيرة بإعداد الآلات وتعيين المهندسين والصنّاع ليسيروا إلى سواحل البحر الاحمر ، ويباشروا مد سكة حديد من سواكن إلى بربر ، كما ذكرت ذلك جريدة « البال مال كازيت » وتزعم أن لا باعث لها على ذلك ، إلا الرغبة في تخليص كوردون ، إن كان كوردون في خطر ، وتحتاج في إنقاذه إلى إرسال الجيوش ، فهل يبقى حياً إلى أن تمد سكة حديد، وتخرق الجبال والأودية ، وتسير عليها العربات حاملة للجيوش ،مع أن الأخبار قد أشارت إلى وقوعه أسيراً أو هلاكه قتيلاً؟!

إذا فرضنا هلاك كوردون ـ كما هو الغالب ـ أو خلاصه، فهل تهدم دولة انكلترا الطريق الحديد ، وتنقض بناءها بعد إنفاق النفقات الواسعة عليها ، أو تتبرع بهبتها للحكومة المصرية سخاءً وجوداً ؟ كلا والله ، لا هذا ولا ذاك ، ولكن أخذت أقرب الطريقين للاستيلاء على السودان ، فان مد الطريق الحديدية في تلك الجهة يسهّل لها الولاية على السودان الشرقي . فإذا استقرّ لها الأمر فيه وصلته بالغربي ، ولم تلاق في ذلك صعوبة ، على أنها في خلال المدة بعد مد السكة تستفيد أعظم فائدة جوهرية من مواصلة البلاد السودانية ، فانها تفتح للتجارة الانكليزية باباً، وتغلق بصفقته باب المنفعة عن مصر، فتأتي بصنائع البز، وما يحتاجه السودانيون من انكلترا إلى سواكن ، ومن سواكن تذهب إلى السودان بدون أن تصل إلى أيدي المصريين ، وتنقل الاصناف التجارية السودانية من داخل السودان إلى بربر ثم تصل إلى

سواكن ، وتصدر إلى أوروبا ولا يراها مصري ، فاذا تولى الانكليز مصر ـ لا قدر الله ـ حرموا الوطنيين من الاشتراك معهم في تجارة السودان، وهي من أغزر ينابيع ثروتهم التجارية. وإذا ألجأتهم الحوادث للجلاء عنها ، فقد اختصوا بمادة المنفعة التي يمكن أن تأتي من أقطار السودان . وبذلك تتقوض كثير من بيوت التجارة في الاقطار المصرية ، ويهدم بخرابها آلاف مؤلفة من النفوس .

بعد أن كتبت هذه المقالة ، توقفت عن متابعة نقل كلما أشار اليه جمال الدين من المقالات في « العروة الوثقى » إذ رأيت كلها أو جلّها تأتي على ذكر حوادث مضت، وفيها تفنيد وتقبيح لاعمال انكلترا خصوصاً في مصر واحتلالها لذلك القطر ، وما أتاه عمال الانكليز مثل « كلفور لويد » وغيره ، من الخطيئات ، والاعمال ... إلخ .

فأتيت يوماً لجمال الدين وكاشفته بقولي : هـذه المقالة نقلتها إلى « الخاطرات » حسب إشارتك ، ولكن توقفت عن نقل ما تبقى مما أشرت اليه ، لأنني ما رأيت في نقل حوادث جرت ومضت وانقضى أمرها ، وكاد الناس أن ينسوها ، ولا فائدة للمصريين أو للشرقيين من إعادة ذكرها . ويكفي أن الاستاذ أوقدها جذوة على الانكليز في كل مقال وفي كل مجلس ، وحشد لهم في صدور وأفئدة الشرقيين جيوش الضغينة والبغضاء ، حتى كاد الأستاذ أن يحرم الانكليز من كل مزايا الانسانية ، والعدل والنصفة ، بل ألصق فيهم كل شنيعة من ظلم وختل ومكر ، وذلك على غير عادة الأستاذ ، إذ رأيناه يتتبع حسنات الأمم وسيئاتهم وكذلك الأشخاص ، حتى إذا رضي قال فيهم أحسن ما علم ، وإذا غضب قال أقبح ما فيهم . أما الانكليز فما رأينا الاستاذ ذكرهم بخير ما في كل مقاله وحديثه .

سمع لي جمال الدين بإصغاء ، ولما انتهيت قال : يا شيخ بني مخزوم ! وعزة الحق إن ماتراه اليوم من الفضول بذكر حوادث مضت ، وأعمال أتى بها الانكليز في مصر والهند ، وفيها وطئته أقدامهم من البلاد الشرقية . إن مضت أعيانها فستأتي أشكالها وأمثالها .

فبريتانيا لا تفتر تحدث فتوقاً في البلاد، فتدخل من أضيقها فتوسّعه وترقب أصغر حدث فتجسمه ، وتعمـل على شق عصا القوم ، وتقسمهم أحزاباً وتكون نصير المتباغضين . سنة جرت عليها دولة بريتانيا ورجالها فلا يحيدون عنها. أما القول في نفرتي من الانكليز أو بغضي لهم وتحريضي بسوء أعمالهم فلا يفوتنك العلم أنني ما تناولت الانكليز وحكومتهم إلاّ من وجهة استعمارهم، وتدخلهم في الممالك الشرقية، كالهند ومصر، وسومهم أهلها سوء التصرف

ومنتهى السف والجور ، فكيف يمكن أن يكون للانكليز هناك أثر من العدل، ولو أنصفت أو عدلت لما دخلت واستعمرت الاقطار والأمصار ، وأتت فيها منكر الاعمال .

الانكليز كأمة ليس من ينكر أنها من أرقى الأمم ، تعرف معاني العدل وتعمل بها ولكن في بلادها ومع الانكليز أنفسهم ، وتنصف المظلوم إذا كان من الانكليز ، تعلم أن للانسان حقاً في الحياة ، وهذا الانسان في عرفهم هو الانكليزي ، وغيره من البشر ليس بانسان ، شعار كل انكليزي وشعار دولة الانكليز ، انه ليس في الوجود إلا الإله ، وحق الانكليزي Dieu et mon droit .

فما زال الطمع الهائل مشبوع به رأس كل انكليزي ، ويرى كل بقعة غنية كالهند أحق بها الانكليز من أهلها ، وكل قطر خصب كالقطر المصري ، الانكليز أولى به من أهله ومن أرباب الحق فيه؛ متى كان الامر كذلك وهو الواقع،فلا يمكن أن يصدر عن أعمال الانكليز إلا كل ظلم ، ولا يمكن أن تكون وسائلهم غير المكر والختل والخديعة ، ومن سفه الرأي ومنتهى البله أن يطلب الشرقيون من الانكليز عدلاً فيهم ، أو إنصافاً لهم ، إذ معنى المطالبة بهذا تخلي الانكليز عن البلاد وتركها لأهلها وما أبعده منالاً .. وهيهات أن تفعله أو تفكر به دون قوة واتحاد ، ومختصر القول: ان قصدي في كل ما قلت وتحدثت إن هو إلا كشف ما تدعيه هذه الدولة العظيمة من العدالة ، وما تختص به نفسها من الوصاية على نوع الانسان، فلك بعد هذا الخيار ، إما أن تكتب بقية ما أشرت اليه ، أو تجتزىء بما كتبت وعسى أن ينفع الله به وهو الهادي إلى سواء السبيل .

تمت مواضيع كتاب « الخاطرات » التي كتبت في الاستانة مابين سنة ١٣١٠ هـ وسنة ١٨٩٣ م الى سنة ١٣١٤ هـ وسنة ١٨٩٧ م وقد بذلنا كل الجهد ، وحرصنا جد الحرص — كما يرى المطالع — لحفظ وتدوين كل خاطرة ، وكل قول لذلك الامام الحكيم ، والاستاذ الكامل المرحوم المبرور السيد جمال الدين الحسيني الافغاني فجاء بعونه تعالى سفراً جامعاً لشتات الحكم وصائب الآراء في أدواء الشرق وما يعانيه أهله من العلل الاجتماعية ، نرجو الله أن ينفعنا جميعا بعلوم من صدرت عنه تلك « الخاطرات » وما حوته من جليل الأقوال وبالغ النصيحة . وأن يسكنه فسيح جنانه ، ويعامله بجزيل فضله وإحسانه .

رسالة ابطال مذهب الدهريين

وقد سبق لنا القول بأن فقيد الشرق وحكيمه على الإطلاق على بعد شهرته وغزارة فضله وعلمه ، لم يكن له من الآثار غير رسالة في إبطال مذهب الدهريين كتبهابالفارسية في البلاد الهندية عام ١٢٩٨ه وقد عني بنقلها إلىالعربية العلامة الفهامة المرحوم الشيخ محمد عبده. وهو أعلم مريدي الأستاذ الحكيم ، وأوفى من صحبه إلى أن وافى الاستانة كما مر ذكرذلك. فرأينا في بادىء الأمر من تمام الفائدة، والرسالة وهي من بليغ نفثاته، ومرآة لصحيح عقيدته أن نضمها إلى هذا الكتاب « الخاطرات » ولكن لما وجدنا أن الرسالة مطبوعة وموجودة. في أكثر المكاتب في بيروت ومن السهل على الطالب تناولها ، فقد صرفنا النظر عن إعادة طبعها والحاقها ، واكتفينا بذكر مقدمة ناقلها للعربية والأتيان على مختصر الرسالة التي وضعت لابطال مذهب الدهريين ، وبيان مفاسدهم ، واثبات أن الدين أساس المدنية ، والكفر فساد العمران .

مقدمة الاستاذ المحقق المرحوم الشيخ محمد عبده على الرسالة

نحمد الله على الهداية ونعوذ بـه من الغواية . ونصلي ونسلم على خاتم رسله وآله وصحبه هداة سبله .

وبعدُ ، أتيح لي الاطلاع على رسالة فارسية فينقض مذهب الطبيعيين من تصنيف العالم الكامل ، محيط المعرفة الشامل ، الشيخ جمال الدين الحسيني الأفغاني . أما الشيخ فله من لسان الصدق ورفيع الذكر ما لا يحتاج معه إلى الوصف ، وأمّا الرسالة فعلى إيجازها قـد جمعت لارغام الضالين وتأييد عقائد المؤمنين ما لم يجمعه مطول في طوله، وحوت من البراهين الدامغة والحجج البالغة ما لم يحوه مفصل على تفصيله ، دعاه إلى تصنيفهـا حميّة جاشت بنفسه أيام كان في البلاد الهندية عندما رأى حكومة الهند الانكليزية تمد في الغي جماعة من سكان تلك البلاد إغراء لهم بنبذ الأديان وحل عقود الايمان ، وأن كثيراً من العامة فتنوا بآرائهم، وخدعوا عن عقائدهم وكثر الاستفهام منه عن حقيقة ما تدعيه تلك الجماعة الضالّة ، وممن

سأله عن ذلك حضرة الفاضل مولاي محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الاعزة بمدينة حيدر آباد الدكن من بلاد الهند ، فأجابه الشيخ برقيم صغير يعده فيه بإنشاء رسالة في بيان ما كثر السؤال عنه ؛ وقد حداني علو الموضوع وسمو منزلة الرسالة منه ، إلى الاجتهاد في نقلها من لغتها إلى اللغة العربية فتم لي ذلك بمساعدة عارف افندي الافغاني تابع الشيخ المؤلف ورجونا بذلك تعميم الفائدة وتكميل العائدة إن شاء الله .

مختصر الرسالة

بنى الاستاذ الحكيم المرحوم السيد جمال الدين الرسالة على أن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد ، وأودع نفوسهم ثلاث خصال ، كل منها ركن لوجود الأمم ، وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية .

العقيدة الأولى : التصديق بأن الإنسان ملك أرضي وأنه أشرف المخلوقات .

والثانية : يقين كل ذي دين أن أمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له فعلى ضلال باطل .

والثالثة : جزمه بأن الانسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي ، والانتقال من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات جديرة بأن تسمى بيت الأحزان وقرار الآلام ، إلى دار فسيحة الساحات خالية من المؤلمات لا تنقضي سعادتها ولا تنتهي مدتها .

والخصال الثلاث : « الحياء » و « الأمانة » و « الصدق » .

أما الدهريون « الطبيعيون » فقد وضعوا مذهبهم على أساس بطلان الأديان كافة ، وعدها أوهاماً باطلة ، ومجعولات وضعية ، ووجوب إزالة العقائد الثلاث ، ومحو الخصال الثلاث من الانسان ، وبنوا على هذا أن لا حق لملة من الملل أن تدعي لنفسها شرفاً على سائر الملل ، ولا أن تعتقد أنها أولى من غيرها بفضيلة ولا أجدر بمزية ، وقالوا أن الانسان في المنزلة كسائر الحيوانات وليس له من المزايا ما يرتفع به على البهائم ، بل هو أخس منها خلقة ، وأدنى فطرة .

وقالوا — وبئس القول — أن الحياء من ضعف النفس ونقصها ، فاذا قويت النفوس وتم

لما كالها ، لم يغلبها الحياء في عمل ما كائناً ما كان ، فيجب — على زعمهم — أن يسعى الانسان في معالجة هذا الضعف ومقاومته ليفوز بكمال القوة ، وهو قلة الحياء .

ثم قالوا — وفي مقدمتهم « ايبقور الدهري » وأتباعه الدهريون — رداً على القول أن الانسان أشرف المخلوقات ، ما بال الانسان معجب بنفسه مغرور بشأنه ، يظن أن الكون العظيم إنما خلق لوجوده الناقص ، ويزعم أنه أشرف المخلوقات ، وأنه العلّة الغائية لجميع المكونات ، وان الانسان من جنونه — على زعمهم — اعتقاده أن له عوالم روحانية نورانية ومعاهد قدسية ينقل اليها بعد الموت ويتمتع فيها بسعادة لا يشوبها شقاء، ولذة لا يخالطها كدر، ولهذا قيد نفسه بسلاسل كثيرة من التكاليف ، مخالفاً نظام الطبيعة العادل ، وسدّ في وجه رغبته أبواب اللذائذ الطبيعية وحرم حسه كثيراً من الحظوظ الفطرية ، مع أنه لا يمتاز عن سائر الحيوانات بمزية من المزايا ، ولا في شأن من الشؤون ، بل هو أدنى وأسفل من جميعها في جبلّته ، وأنقص من كلها في فطرته ، وما يفتخر به من الصنائع ، فانما أخذه بالتقليد عن سائر الحيوانات ، فالنسج « مثلاً » نقله عن العنكبوت ، « والبناء » استنّ فيه بسنة النحل ، ورفع القصور وإنشاء الصوامع أخذ فيه مأخذ النمل الابيض ، وادّخار الاقوات حذا فيه حذو جنس النمل ، وتعلم الموسيقى من البلبل ، وعلى ذلك بقية الصنائع إلى أن يقولوا : إذا كان هذا شأن الانسان من النقص عن الحيوانات ، فالاولى أن لا يغترّ بأن في الآخرة ثواباً وعقاباً ، ويحرم نفسه في هذه الدنيا من حظوظ اللذة ، ويقيد نفسه بأوهام الحلال والحرام، واللائق وغير اللائق ، والحياء والصدق والأمانة ، وغيرها من الأمور الوضعية التي تقيد بها الناس جهلا ، ولم يتقيد بها الحيوان والبهم إلى آخر ما هناك من الأضاليل والأباطيل التي تجعل بمقتضى أصول مذهبهم أدنى البهم من الحيوانات أفضل من الانسان .

وقد أفاض الحكيم المرحوم السيد جمال الدين بتنفيذ جميع تلك الأباطيل بمقدمات صادقة وبراهين ساطعة ، منها وجوب الاعتقاد بالله وبالثواب والعقاب ، ومنافع ذلك للبشر قال : إن كل فرد من نوع الانسان قد أودع بحسب فطرته وبناء بنيته شروراً كثيرة وشهوات عديدة تميل به إلى مشتهيات ، فاذا قام كل فرد لدفع الشر عنه بقوة ساعده أو سلاحه ، أو الأقران بدفع شرور أقرانهم ، في عمر الجميع بالدفاع ، وما كان لهم من الوقت متسع لغير عمل ، وإن قيل قوة الحكومة بقوانينها تعمل لصون الافراد قلنا إن قوة الحكومة إنما تأتي على كف

العدوان الظاهر ورفع الظلم البيّن . أما القتل في الخفـاء والاختلاس ، والزور المموّه وغير ذلك من الجرائم التي يرتكبها أرباب الشرور والشهوات ، فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعه ، وأنّى يكون لها الاطلاع على خفيات الحيل ، وكامنات الدسائس، ومطويات الخيانة، ومستورات الغدر حتى تقوم بدفع ضرره ؟وهل يرتاب عاقل أن الدهري الذي ينكر وجود الخالق ولا يؤمن بثواب أو عقاب ، إذا ظفر برجل معه مال وليس من يراه من أهل السلطة، هل يتردد بقتل ذلك الرجل وأخذ ما معه ؟ كلاّ ثم كلاّ ، أما إذا كان ذلك الرجل ممن يعتقد ويؤمن بأن للعالم خالقاً ، قادراً عالماً بمضمرات القلوب ومطويات الأنفس ، واسع الحول سامي القدرة ، وأنه قدّر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه ، لا شك أن ذلك المؤمن لا يقدم على قتل النفس ولو بَعُدَ عن أنظار أهل السلطان الزمني ، إذاً فسلطان الدين أقوى وأنفع من السلطان الزمني وصرامة القوانين . هذا أبسط قياس بين من يؤمن بالله وبين من ينكر وجوده جلّ جلاله . ثم لو أخذنا بقية أباطيل الدهريين وفرضنا تمكنهم من إزالة العقائد الثلاث ، والخصال الثلاث ، وتسنّى لهم أن يستبدلوا الحياء بقلة الحياء ، والصدق بالكذب ، والأمانة بالخيانة وصون الاعراض بالهتك والإباحة والاشتراك ، فبأي نظام تصان الحقوق وتحفظ هيئة الاجتماع ، وكيف تأمن الأم من ابنها أن لا يهتك عرضها ، أو البنت من أبيها أن لا يفضحها ، وغير ذلك من مقوّضات أساس العمران .

نكتفي بهذا القدر من مواضيع الرسالة ، وعلى طالب المزيد ان يتناولها فهي مطبوعـة كما قلنا ، وموجودة في أكثر المكاتب ، نسأل الله الحماية من الضلال والهواية ، إنه سميع مجيب .



سبق القول أن جمال الدين لما اطلع على مجموعة مجلة « الرياض المصرية » تلك المجلة التي أنشأناها ونشرناها نصف شهرية في مصر يوم كنت في عنفوان الشباب ، لم أتجاوز العقدالثاني من العمر وذلك سنة ١٣٠٦ هـ ١٨٨٨ م قد استحسن«المحاورة بين الشرق والغرب » ومقالة « تحرير الأرقاء وإسارة الأحرار » ، وقد أوصى أن نلحقها بكتاب « الخاطرات » وهانحن عملاً بإشارته نثبتها بحرفيتها .

محاورة بين الشرق والغرب

بالنظر لما للمحاورات الأدبية من الوقع الحسن في القلوب نحن ندرج هذه المحاورة على سبيل التفكه فنقول :

ذهب الشرق بآثاره القديمة ، وهياكله العظيمة لزيارة زميله الغرب ، فجاب البلادوقطع السباسب حتى وصل لمقر الغرب فتقابل الطرفان وجلسا بعد السلام ، فأخذ الشرق يهش ويبش ويظهر ما عهد فيه من الأنس ، وحوله تلك الآثار التي ترد الطرف وهو كليل، وكانت على سمو مكانته أقوى دليل . أما الغرب فلم يأت من التكريم غير رد السلام وتقطيب الحاجب بعد ذلك مع ما له من الآثار الواقفة بين يديه تجاه آثار الشرق ، وقد طال الصمت ساعات ولم يسمع من الكلام لا همساً ولا هدرمة ، حتى علم الشرق أنه إذا لم يفتتح الكلام فزميله يثابر على الصمت أعواماً ، فقال من غيظ لم يستطع كتمانه : إننا وجدنا في سفرنا هذا نصباً ، ولم نجد عوضاً عن تلك المشقة التي قاسيناها ، فالسماء هنا مظلمة ، والريح عاصفة ، والوجوه كالحة وما الغرب بعد المشاهدة إلا :

شبيه الطبل يدوي من بعيد   وداخله من الخيرات خالي

فلو تدبرنا في الأمر لأرحنا النفس من عذاب السفر وارتكاب الخطر ، غير أن الواقع لا يخلو من حكمة ، فها قد برح الخفاء وانكشف الغطاء ، وأزحنا الستار وعلمنا بعض المكنون من الأسرار واخترقنا ما أسبله البعد من حجاب المهابة ، وما ألبسه الظنين من ثياب العظمة وهذه الفائدة ليست بقليلة . فقام الغرب وقعد ، وعلا وجهه علامات الغضب ، ولم يتمالك نفسه عن إظهار الحنق من الشرق وعباراته وزيادة عجبه وترّهاته . فقال: عادة الغريب أن يكون

أدبياً وأنت على خلاف العوائد غرورك زائد وإعجابك متزايد ، ابتدأت بالذم قبل الاختبار وفاجأت بشدة الاحتقار . فمن أنت بحق عظمتك وما عندك مما يوجب لك الفخر ، وتشمخ به على الدهر . فقال الشرق على رسلك فلا تشطح بالكلام ، ولا تبدل مقال المقام ولا تدّعي المناظرة وتبادل بالمهاترة ، فأنا معدن الفضل والفضائل ، ملجأ الأواخر والأوائل ، أدبي مشهود وخيري ممدود ، بنا عرفت المكارم ومنا الأماجد والأكارم ، لا نخلف بالوعود ونجود بأكثر من الموجود .

إن أسيافنا القصار الدوامي صيّرت ملكنا طويل الدوام
نحن قوم لنا سداد أمور واصطلام الاعداء من وسط لام
واقتسام الاموال من وقت سام واقتحام الاهوال من وقت حام

بنا ظهر العلم من الخفاء ، وبفضلنا أبصرت عين العماء ، منا العلماء الأعلام والفلاسفة العظام . منا أسود الطعان ونخبة الشجعان .

سوابقنا والنقع والسمرُ والظبا وأحسابنا والحلم والبأس والبر
هبوب الصبا والليل والبرق والقضا وشمس الضحى والطود والنار والبحر

بنا اهتديتم في الظلماء وتسنمتم العلياء ، لنا الذكاء المشهور وبيت الفضل المعمور ، شجركم مورق ، وعلمكم منا مشرق ، قمت في الزمن الأخير من ظلمة القهقرة والتقصير فالتقطت مني بعض المعارف وادّعيت أنك الكامل العارف ، وما أخذت إلا رشفة من بحر أو ثانية من دهر وهذا حال الفقير يدهشه النزر اليسير ، ولا أرى أعجب من هذا كله إلاّ استعلامك عني وأنت بعض مني .

فواعجباً وافى إليّ بقحة ليدرك كلي من يقصر عن بعضي
ويقصدني من لو تمثل شخصه بعيني قذى ما عاق جفني عن الغمض

أين آثارك المشهورة وأعمالك المبرورة ؟ هل باتقانك الهندام حسبت نفسك من العلماء الأعلام ؟ هل بزخرفتك البناء صرت من النبلاء الفضلاء ؟ أين مكارم الأخلاق ؟ أين طيبة الاعراق ؟ أين وفاء الذمم ؟ أين الإغاثة من النقم ؟ أين الشهامة الشرقية ؟ أين النفوس الابيّة ؟ أين الكرم والجود ، والظل الممدود ؟ أين العلم والعمل ، وترك الخديعة والحيل ؟ أين الشرف

الرفيع والعز المنيع ؟ أين البأس الشديد والرأي السديد ؟ أين الشرائع العادلة والاسود الباسلة؟ أين الرحمة للشاكي والرأفة بالملهوف الباكي؟ أين توقير العلماء وكبراء القوم الفضلاء؟ أتطاولني مطاولة الأرض السماء ؟ أم تفاخرني بلبس ثوب بلاء مع الادعاء أنه ثوب بهاء ؟ رأيناك قمت تحدث في الارض كل يوم داء تعجز عنه الاطباء . عممت في الناس بلوى الخمور وأخللت من البعض الشعور ، وأولدت كل مختال فخور ، جبلت من طمع ذميم خلافاً للذوق السليم. أحدثت الإفلاس وأطرت من العين النعاس وأخذت توسوس في صدور الناس . إذا دخلت في إقليم تمرج عن الصراط المستقيم ، وتشق عصابة الاهل وتقوي الحديث على الكهل : تبيح لهم المنكرات ، وتفتح لهم أبواب الحانات ، كل هذه العادات أحدثتها فيما لك من المستعمرات ، وشددت النكير على من استعملها في بلادك كبيراً كان أم حقيراً . ولقد قلّبتك على جهاتك الاربع علّي أجد فيك محسنات تكفر عنك السيئات فلم أجد فقل لي: هل لك من لسان تقول به ذلك ما كان . أو ما قررته لك لا يكفيك حتى أكشف لك عن كل ما فيك . فما كان أغناك عن هذا الجدال أما علمت أنك بأسوأ حال أم كنت تظن أن الشرق بلا عيون، غير عالم بما كان من أمرك وما سيكون ، فرد قولي إذا كان باستطاعتك الرد بأجلى بيان فان الدعوى قائمة على الحجة والبرهان :

كل ذلك والغرب ثابت الجنان وحواسه الخمس آذان ينظر إلى الشرق شذراً ، تارة يتململ وطوراً يتألم ، حتى انتهى الشرق من مقاله وخيّل له أنه فاز على مناظره بقواطع الحجج وساطع البرهان فقال الغرب :

أيها الضيف الكثير الاعجاب المسهب بمدح ذاته. لقد أثرت عواطف الحنو لا الغيظ عليك لكثرة خبطك وعجبك فياليتك لم تفرغ هذه البضاعة قبل الوقوف على العادات . أتيت بخواص أعوانك وعظيم آثارك ، فلو علمت شيئاً عما لدينا من عظيم الاحجار لكفيت نفسك مشقة حمل هذه الآثار على أن الفكرة تمانعني في إجهادها لفساد أقوالك ، ودحض حجتك وبرهانك فلو كان فيك من الحزم أثر ما قدمت لتفاخر الغرب في الجيل التاسع عشر فهل تظن أن من قول كان وكان ، ارتقاء نوع الانسان اما سمعت قول القائل :

لعمرك ما الانسان إلاَّ ابن يومه	على ما تأتّى يومه لا ابن أمسه
وما الفخر بالعظم الرميم وإنما	فخار الذي يأتي الفخار بنفسه

من كشف لك الاسرار عن آلة البخار ؟ من سيّرك في البحار في أمان من الأخطار؟ من سيرك في البر كأنك على جوانح الطير ؟ من طوّق لك الارض بالحديد وجاءك بالخير البعيد ؟ من شيّد لك البنيان على أبدع إتقان؟ من أتاكَ بآلة الطباعة التي هي أشرف صناعة؟ هل تستطيع إلاّ أن تقول : الغرب ، أم تحجبني بالشتم والسب ؟ تهافتّ على الأزياء الجديدة وتغاضيت عن الأمور المفيدة ، نعم أنا مبتدع الأزياء ولي ذيل يجرُّ عن اكتفاء ، ولن أجرُّه على العفاء ، وجيبي ليست من الدراهم خالية ولا قلوبنا لاهية ولا عيوننا ساهية ، ولا الحانُ بنا معمورة ولا بيوت العلم منا مهجورة . فتأمل تأمل البصير ، وأدر بخالك رأى خبير ، تر عروتك منفصمة ، وكلتك منقسمة ، ففائدة الآثار بتحسين الدار . سيرت أبنائي إليك شفقة مني عليك ، وكلفتهم حمل مشقة الغربة ، والصبر على العناء والكربة . ، فوجدوك قسماً غير معمور ، وقسماً تراباً مهجوراً ، وقسماً جبالاً وصخوراً ، فعمروا الخراب وحسّنوا لك التراب، وأدخلوا اليك التجارة، وسهلوا دواعي الحضارة، وأجزلوا لك الاحسان، وباشروا لك أسباب العمران، وأحيوا فيك العلوم الدوارس وفتحوا لأبنائك أبواب المدارس، فعلّموهم بلاعوض ، وهذّبوهم دون غرض. فأنا عضدك في الضراء وصفيك بالسراء ، مرجع شكواك وكاشف بلواك، طالما أمددتك بالمال وأسعفتك بالرجال، غير راغب بالانتفاع منك ولا الطمع فيك ، فتبصر بحقيقة الأمر تجدني نفعاً بلا ضر فأنا أصل النجاح وينبوع الاصلاح ؛ تحاول إطفاء نور أعمالي وجحود صالح أفعالي ، ابتدأت بما لا يرضي من الكلام وعنّفت قبل رد السلام ؛ فعد بنا إلى الصفاء ، ودع أسباب القطيعة والجفاء ، فماأنا إلاّ صديق حميم، وخليل على الود مقيم ؛ فتبسم الشرق من هذه العبارات الأخيرة لعلمه بما تكنه السريرة فقال :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

اعلم أيها الغرب ، اللين العريكة عند المآرب ، الشديدة الوطأة عند المصائب ، المنتقم عند سنوح الفرص ، والممسك بالخناق عند الفصص ، لقد جلبت في تملقك لنا البين ولدغتنا من جحر واحد أكثر من مرتين. طالما خدعتني بقول الصديق،وجلبت عليّ الضيق من كل فج عميق:

كالصل يظهر ليناً عند ملمسه حتى يصادف في الأعضاء تمكينا

فيا أيها الصديق الخاضع ، والخل الصفي المتواضع ، أترغب بختلك وتسكينك أن نؤخذ طول الابد كما تؤخذ أم عامر من الغاب ، وتعللنا في الظمأ بالسراب ؟ أتعدد ما لك من

الإحسان وتطلب منا إبداء الشكر والامتنان ؟ فوالله ما طرقت بلادي إلاّ لعلم تقتبسه أو أثر ثمين تختلسه ومال تحتسبه،وما أدخلت التجارة لخطتي إلا لتلاشي ثروتي وتهدم تجارتي الكافية لحالتي ، أدخلت الربا فكان الداهية الدهماء والمصيبة العظمى والطامة الكبرى ؛ هدم أركان الأغنياء وكشف الستر عن المتوسطين وأمات الفقراء وزعزع أركان الممالك، وألقى الأملاك في شر المهالك . كنت في غاية الأمان من طوارق الحدثان ، خليّ البال من القيل والقال ، المال موجود وظل الخير ممدود ، أبنائي بائتلاف لا يعرفون التباين والاختلاف ، يحرثون فيأكلون ، وينسجون فيلبسون ، ويتوسدون حجراً فينامون؛ لا يعرفون الحسد ولا يحقدون على أحد ، الكل في هناء وسرور ، وصفاء وحبور ؛ التآليف عديدة وكلها في بابها مفيدة ؛ تشبّ الأطفال على محبة الناس ، والملاطفةوالايناس، ما منهم إلاّ متّقٍ لله وقلبه عن عبادته غير لاهٍ . فدخلت كالنعاس وأين منك الوسواس ، ثم فتحت المدارس وهي أول الأشباك وباكورة الارتباك ، لتزرع ما لك من الأغراض وتستبدل الجواهر بالأعراض ، فزخرفت البناء واستحضرت بعض الأبناء في جديد الأزياء ، فمنعت تدريس تآلف أفاضلي المفيدة ، وأهملت تلك المجلدات العديدة ، واستبدلتها بجيولوجيا وأخرى فسيولوجيا ، وأتيتنا بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، وعلوم يستغني عنها الانسان ، فقلبت العقول ، وأدخلت العرض بالطول ، وصحت : يا للتمدن الحسن ! يا لدفع الغباوة والاحن ! دعوا هذا اللباس البسيط ، وخذوا لباس التحزيم والتربيط، أنفدوا الثروة في الأواني والتنجيد، أذهبوا فريسة التقليد، اتركوا الزيت وخذوا غازاً ينير البيت.اعتزلوا منسوجاتكم القوية وعليكم بهذه الأقمشةالوضية التي يمزّقها الهواء ويلاشيها الهباء ، كونوا من المتمدنين أي غير متمسكين في الدين وسيروا سير المتفرنجين .

فأولدت فينا الانشقاق ، وأفسدت منا مكارم الاخلاق ، ولم تكتف باضمحلال الثروة ، حتى طلبت أن تكون قلوبنا على بعضنا كالحجارة أو أشد قسوة ، تمتص منا الخيرات وتتحفنا بالمضرات .

فقال الغرب وقد استولى عليه الانذهال وأخذته الدهشة من هـذا المقال : أيها الزميل الناكر الجميل! هلاّ أفصحت عن مرامك في بدء أمرك وأبنت أنك قاصد المقارعة لا الزيارة لنعلم كيف نسوق لك الكلام ونوافيك بما يناسب المقام ! ما هذه العبارات الكاشرة وما هذه

الألفاظ الباسرة ؟ لقد جعلت الغالب مغلوب وجئت في الكلام المقلوب ، وقلت أن ما أتيت به من الحسنات إن هو إلا محض سيئات ، فما حجتي بعد هذا عليك ؟ وبأي الاحسان أتقدم إليك ؟ فتحت المدارس فقلت لغرس الوساوس ، أرسلت بضاعتي قلت لاشيت ثروتي ، نشرت فيك لواء العلوم فقلت أثمرت الهموم والغموم ، تقدمت إليك بأسباب الرفاه والنعيم فقلت هذه أقصى درجات الجحيم ، أظهرت لك أني صديق فقلت دع التمليق ، فيا أيها المغرور الولوع في العدوان والشرور ! لقد أبرقت وأرعدت ولم توقع فإليك الآن أوجّه الخطاب : ماذا كنت عليه غير ما قلت من ضنك العيش ورث الثياب وسكن الكهوف، وبسيط العلم وعظيم الوهم، فتأمل ما صرت اليه من العظمة ورفعة الشأن ، فبعنايتي لباسك الخلق تبدل وسوء حالك تحول ، وبسببي تفتحت منك الأذهان ، وعلمت أحوال الممالك والبلدان ، وأنا الذي عممت فيك معرفة اللغات وصيّرت من أبنائك للانسانية دعاة ، فانظر اليهم الآن بعد حالهم المكرب وما كان من أمرهم المتعب ، تجدهم في اللغات عالمين وبأحوال السياسة خبيرين ، وللمناصب والأمور مدبرين عرفوا ما لهم فأخذوه وما عليهم فأدّوه ، ونبذوا الارتياح للعوائد القديمة وانصبّوا على قواعد التمدن العظيمة فهل هـذا الذي أثار فيك الغضب وسبّب لك الكرب والتعب ؟ وهل صنيعي الجميل أوجب كل هذا القيل أما كان الواجب عليك أن تسرّ بما لديك من أبناء حسنت كياستهم أحرزوا غاية التهذيب فلا يمشون إلا على الترتيب .

كن من المنصفين وسر طريق العادلين، وقل بماذا خرقت العوائد حتى استوجبت حنقك الزائد ، فأنا كلما اتضعت إليك تعاظمت نفسك عليك . فاعدل بنا عن هذا الجدال وبدل لنا المقام والمقال ، وخذني صديقاً مدى الزمان ، وكافىء الاحسان بالاحسان ، فإني لو تجرّدت من موالاتك لعسر عليك القيام بضرورياتك ، لكنني لا أحب إيقاع المضرة فيك ولا أقابلك على صدك وتجافيك ، بل أجاريك على هواك رغبة في حصول رضاك :

إن الصديق إذا رآك مخالفاً	لهواه بدل ودّه بعقوق
فاخفض جناحك للصديق متابعاً	لهواه أو عش بغير صديق

فقال الشرق : بالله يا أبا قلمون ! يا من في كل لون يكون ! كم قلبت لنا ظهر المجن ، وألقيتنا في مهاوي الإحن ! تظهر اللين واللطافة وتكن الدعارة والكثافة ، تقول مقصدي الخير وإبعاد الشر والضير ، غايتي تعميم المعارف ، وإسداء العوارف ، بغيتي تهذيب الأخلاق

ونزع الانشقاق ، فيا محب الاحسان يا من يكن في الضمير غير ما ينطق باللسان ، من دعاك بالله لحل أثقالي والتغيير في عوائدي وأفعالي ! ماذا يهمك وأنت بعيد عني أن تكون أحسن مني ، هذا إذا كنت محسناً كما تقول ، وعجباً لعمران المعاهد والطلول ، على أنك لم تأت شيئاً إلا فرياً ، ولم تجعلني بعنايتك إلا شقياً . علّمت اللغات فبلبلت ألسن أبنائي ولجلجتهم بلغاتهم الأصلية فأضاعوا القديم ولم يحسنوا الجديد . اخترعت الأزياء فكانت أكبر بلاء طنطنت بالحرية فكانت أكبر بلية ، أبعدت الخلائق وقطّعت بينهم العلائق ، وجعلتهم في ربقة تلوّثاتك أسارى تجدهم سكارى وماهم بسكارى ، مااتضعت إلا كالحمل لتقلع ، وما قمت إلا كالتنين لتبلع . ما فرضت قياساً إلا لهضم مال الناس ، وما أتيت من حركة إلا لتاتي في الهلكة ، وماأرشدت أحداً الطريق إلا وحاق به الضيق ، فقل لي أي إحسان أتيت فيه أو أي بلاء تود أن تخفيه! أكثرت من أنواع اللباس الإفلاس ، بالغت في الترف وقلت في التمدن لاسرف ، احترمت الطيلسان وألنيت المرء تحت طي اللسان ، أوقدت بالصغير نار الكبر وأطفأت من الكبير نور الفكر ، تترنم بحصول الاختلاف، وتنقبض عند الائتلاف، تقول بدلت ثوبي الخلق بجديد ، وأصلحت أحوالي برأيك السديد ، فو الله إن القديم ثوب جود وكرم ، ورداء يسعف بالنهوض للأغاثة من النقم ، قد بدلته بثوب يجلب الكسل ، ويورث الملل . وأما الحال فلم تبدله إلا بأوحال ومصايب ووبال ، واضطراب وبلبال ، تسلطت فلم يكفك حتى طمعت أن تجعل الكون مضغة تدخلها في فيك . وتكثر بعد هذا من الجدال وتطلب التغلب في القول المحال فانا ان عددت إحساني اليك أجد ألف شاهد منك عليك فعلمك مأخوذ عني ، وخيرك مستمد مني ، طالما أمددتك في الجاعات بصنوف الخيرات ، تتالجي تساق اليك ، لتعود بالنفع العميم عليك ، تستطلع آثاري ومكنون صنائعي وأسراري فتأخذ منها اللوازمات وتقول أنا رب الاختراعات على أنني سر النجاح ومعدن الأصلاح والفلاح ، لا أتجاوز الحدود ، ولا أخلف بالوعود ، نوالي جزيل وظلي ظليل ، لا أطمع في مال الغير، ولا أغتال السوى بالشر والضير . ولا أنصب الأشراك ولا أسعى لإيقاع الارتباك . لم تأخذني في الحق لومة لائم ولم أغبر نعلي بغير السعي وراء المكارم . فأنت إن شئت الوفاق وزوال الانشقاق ، سر الصراط المستقيم وكن في الأمور حكيم ، واعتزل البغضاء وابتعد عن الكبرياء ، ولا تطمع في مال الغير ولا تأتِ الخلق إلا بالخير ، ولا تسع وراء تغيير العوائد الحميدة وتستبدلها في سبيل

مرامك بعوائد جديدة غير مفيدة . وأجزل ما استطعت من الإحسان فطالما استعبد الاحسان إنساناً ، هذا ما أراه من النصيحة أبديته اليك وما تقدم من عمل فيعود أمره عليك .

فقال الغرب اننا ذهبنا في جدلنا وهما ، ولم يحسن أحـــدنا من مرام الآخر فيها ، فأنا لا أنكر مالك من الفوائد ولا أجحد مالك من حسان العوائد ، فالآن قد حصحص الحـق وعلمت أن نصحك هو الوجه الأحق فلا تؤاخذني على ما فرط إذ لايخلو أحد من الشطط .

فقال الشرق لا تثريب عليك فما منا الا" صديق صادق وخل موافق ، لا يغير ما بيننـا من الوداد شرارة من الحق والعناد .

وهكذا بعدأن تبادلا عبارات الصفاواعتزلا دواعي الجفا ود"ع كل منها صاحبه والسرور مصاحبه . مضى الشرق بأعوانه قاصداً مقر"ه وأوطانه .

تحرير الأرقاء وإسارة الاحرار

نحن في زمن أصبح الكون فيه كميدان تتسابق فيه الخلائق بقوات تختلف باختـلاف الغرض المطلوب من حيث أهميته وما يناسب الوصول اليه من اتخاذالطرق والوسائل ،لا يرون في الاختلاق عاراً ولا في الاحتيال شناراً يصورون شبـح الزور والبهتان ويحاولون بث الروح فيه وهم عن ذلك عاجزون ، حتى تأكد لنا من مرور تلك المظاهر الغربية أن الليالي من الزمان حبالى مثقلات تلدن كل عجيبة . فليتأمل العامل الحازم في ضجيج الخطباء ورنـة أقلام الكتاب في البلاد الغربية ويتغلغل دقائق فكره في مقاصد الامور ويرجع من ثم لتطبيقها على ظواهرها ليظهر له عظم الدهاء ومنبع البلاء وكيف تختفي الحقائق تحت أباطيل الاقوال وتلتف برداء التمويه نقول ذلك ولنا عليه أكبر شاهد وهي مسألة « الرقيق » التي شحنت فيها أعمدة الجرائد وتسو"دت فيها المجلدات واختبط لاجلها رجال العالم السياسي ، جميعهـم يحاولون في ظواهر أقوالهم إبطال التجارة في الرقيق حباً في الانسانية ورأفة في بني البشر وعلى هذا وهومنتهى مالديهم من الحجة قد اندفعوا إلى تجييش الجيوش ، وإعداد العدد وتهيئة الأسلحة ، وتسيير البوارج الحربية في الابحار ؛ فأين الغاية من هذا العمل وأين الباطن من الظاهر وقد صرخت الدماء المراقة أصواتاً يأبي الله ذهابها سدى ، واستجارت الأحرار من استعبادها وتحميلها حملاً يؤود الجبال حمله ، ولكن ما العمل وقد قضى الله أن يكون هـذا

البلاء صادراً من قلوب هي كالحجارة أو أشد قسوة ، يظهرون من أقوالهم ليناً ويعربون في مجالسهم عن رأفة هي منهم مقام الطبع الغريزي الذي لايقبل التغيير والتطبع حتى يتخيل السامع عن بعد شاسع أن أولئك الأقوام هم مصدر الحنو وهم بكور العائلة البشرية ، وقد تكلفوا بصيانة إخوانهم من كل أذى ، فاذا علم ماطوت تلك الأقوال اللينة من الخشونة وما جلبت تلك الرأفة من المظالم الفجيعة لتيقن أن حب الذات أفضى بتلك الأقوام إلى التمسك بتلك التمويهات ليستروا بها وجه ما عزموا عليه من الفظائع التي تقشعر منها الابدان وكأن الحقيقه إذا كان ما يقصدونه في عملهم هذا — وهو منع الاتجار في الرقيق — هو أن يمنعوا اتجار الآحاد بالافراد ، ويجيزوا لأنفسهم استعباد الخلق في الملايين . وإلاّ بماذا يفسرون أخذ بلاد ومن عليها مقابلة لدين أو غرامة ؟ أليس أنهم اشتروا في دراهمهم أحراراً يستغيثون من جورهم فلا مجير ويرفضون الرضوخ لأحكامهم ولا نصير ! أما هذه الأحوال هي عين الاسارة أو هل تفيد الاسارة أو (الرقيق) معنى غير إكراه المرء على إجراء مالا يحب عمله وإجباره على السير ضد إرادته وإرضاخه إلى ما ينافي أهواءه وما يبتغيه .

فان صح ذلك فنحن نجد الاسارة شاملة كل الخلائق الذين تفضي أمورهم لمثل أولئك الأقوام القائمين بهذا الزمن بتلك النغمات ، ثم إذا قال المناضل عن هؤلاء الجائرين ان الحرب إنما شب ضرامها وطيساً لقطع دابر النخاسين . نقول أن القنابل قد وجهت وجهتها للعموم وتراها تلتهم بانفجارها الكبير والصغير والامير والحقير ولم تميز بين النخاس وغيره . أهل حجة بعد هذا ؟ كلاّ . إلاّ إذا قالوا أن أهل تلك الديار بوجه العموم نخاسين فلا يكون حينئذ أرقاء يتاجرون فيهم ؛ وان قالوا إن القصد من إراقة الدماء إرهاب الذين تعودوا على بيع البشر المتفق على منعه من ملوك الارض قلنا أن السبب في هذا المنع إنما كان الرأفة في الخلق وطلب المساواة بين النوع الانساني غير ان الآن وقد أدت الشفقة إلى جعل الارقاء والاحرار غرضة للقنابل تذهب بجماجمهم إلى كبد الفضاء تنثرها نثر الحبوب من السنبل ، لاشك يفضلون بقائهم عبيداً أحياء من ذهابهم عبيداً مضرّجين بالدماء ، ثم إننا نجد هذه الشفقة او « القضاء المبرم وهو الاصح » موجهة إلى أمة مخصوصة وبلاد معينة لانراها تتعدى إلى غيرها من الامم مع أننا نرى كثيراً من الاحوال في نقطة المركز من بلادهم المتمدنة وحول قصورهم المشيدة وأمام مجالسهم العالية تستحق الشفقة ، وخلقاً لايحصيهم العد

يتضورون جوعاً ، ويموتون مقبوضاً على أعناقهم من الظلم والبغي أما هذه كلها أحوال تستلزم الرحمة والرأفة فما بالهم لايجرونها معهم والاقربون أولى بالمعروف .

اما كان الاجدر ان ينزعوا عنهم الطنطنة والتمويه بالاقوال البهتانية والادعاء بأنهم يجرون مايجرونه حباً في البشر ، وينطقون الصدق بان عوامل الطمع حركتهم لوضع مثل هؤلاء الضعفاء مضغة في أفواههم على اننا لو بحثنا في هذه المسألة بحثاً توسعنا فيه وتقهقرنا إلى الوراء في سلسلة أسبابها لعلمنا انها من المسائل التي الفها البشر منذ القديم وهي لم تزل مألوفة لدى العالم المتمدن وجارية بينهم على سننها القديمة إنما تسترت برهل السحاب تأميناً لادراك الاغراض الكمينة في النفوس وها نحن نرى أشد الامم ضناً بالمحاماة عن الرقيق قولاً لا فعلاً وأعظمها اندفاعاً على ذلك لاتختلف في نظامها ومطامعها وخطة سيرها نحو الاستملاك والاستعمار وما أشبه ذلك عن الامة الرومانية بل كلما جال في خلد مديري تلك المملكة العظيمة في سالف الاحقاب من السعي والاهتمام لتعزيز شوكتها وتفردها في السلطة العظيمة على أغلب المعمور من الارض نراه في هذا الزمن يذكر بالقول ويجري بالفعل كأن أرواح تلك الامة الخالية قدتقمصت فيهم أو أنهم وضعوا نصب أعينهم كيفية سيرهم واعتمدوه أجل اعتماد وصار مرجعهم الوحيد فيما يبتغون من سد عوز المطامع والتهام ما تصل اليه قوتهم أو دسائسهم فالرقيق في زمن دولة الرومان كان غاية في الاستفحال والانتشار حتى كانت الجنود والاحرار من العوام يستخدمون بغير اجرة ينالونها على أتعابهم وخدماتهم ولذلك كانوا يحتاجون أحياناً إلى استقراض مال من الشرفاء ورهن أراضيهم وأملاكهم عليها حتى إذا ما تكاثر الدين واشتدت وطأته عليهم لسبب الرباء الفاحش بادر الدائن « الشريف » إلى القبض عليهم واستعبادهم أو بيعهم فضلاً عن استخلاصه تلك الاموال المرهونة لخاصته بقيمة لا تعادل بعض الرباء وقد دام الامر كذلك حتى أشفق العوام على أنفسهم من هذا الجور والاعتساف فعرضوا أمرهم للمجلس الأعلى وشكوا استعباد الاشراف لهم بعد سلب ما تملكه أيديهم وأتوا من الصر الحيق بهم متظلمين بقولهم « انهم بعد ما ذاقوا غمرات الموت في محاربة الطار كونيين والذب عن حرية العموم قد أصبحوا عبيداً لمواطنيهم فلم يجب المجلس نداءهم ولم يصغ إلى صوت شكواهم وأنين بلواهم وكان اللاتينيون قد نهضوا سنة ٤٩٧ ق . م .

لقتال الرومانيين انتصاراً لطاركونيين فأبى حينئذ ولا سيما المستغرقون في دين الاشراف الانضمام في الجندية محتجين أنهم قد سئموا الحياة بخدمة موالي طمعين ، وقساة لا يكتفون في الاستعباد وحده ، وأنهم غير مجبورين على الدفاع عن وطن لا يملكون من أرضه قيد باع بل قد صمموا إذا لم يسامحوا بما عليهم من الديون أن يغادروا المدينة فراراً من ظلم دائنيهم ، هذا بعض ما كانت عليه اشراف أمة الرومان من استعباد الاحرار فضلاً عن معاملتهم للارقاء الذين نجد في عصرنا من هم على شاكلتهم طبقاً إذا لم نقل يتطرفون فيما نحن بصدده اكثر من اولئك الاقوام ونظن ان هذه الفقرة لو تذكرها المؤرخون عن الرومانيين لظنها القارىء شذرة من شكوى الايرانديين لانها لم تختلف عنها لا بالكم ولا بالكيف وقد تقدم أن دولة الرومانيين هي أعظم دولة قامت في الزمن الغابر على سطح الارض وانتشرت سلطتها على العوالم والمواصم وكان أمر الرقيق فيها كما هو معلوم ولكننا لم نرَ في صحف أخبارها أن ثورة قامت في الرؤوس أو هيجان أو مجاهرة في العصيان ونبذ الطاعة تمحض سلطانها في النفوس من جرى بيع الرقيق أو من الارقاء نفسهم تنصلاً من ربقة العبودية مع كل ما كان عليه الشريف من الطباع الفظة والمعاملة الخشنة نحو عبيده بل نجد أن سائر الفتن التي حدثت في داخلية المملكة الرومانية وذهبت بها إلى تضعضع الحال وضعف الشوكة وتقوية عزائم أعداء المملكة للوثوب عليها إنما هي منبعثة عن شغب العوام المديونين لعظماء المملكة الأمر الذي نراه جارياً في زماننا تماماً . وعلى سبيل الاستطراد نذكر ما حدث في الشرفاء من مجاهرة العوام وعواقب الظلم التي هي عين الاستعباد ليكون ذلك دليلاً على أن تحمل النفوس ما لا تطيق يفضي لنزع النير ولو كان واضعه شديد البأس وان ظلم الشعب أضر بدولة الرومان ويضر بكل مملكة أكثر من الاتجار بالرقيق بل لا نسبة بين عواقب هذا وذاك وعليه نقول أن الرومانيين بعد موت طاركوينس أمنوا طوارق الحدثان وتوهموا أنهم أصبحوا في غنى عن الشعب فعادوا إلى الجور القديم في معاملة العوام وخصوصاً المديونين منهم ناسين شرائع الانسانية والعدل الآمرة بالمعروف والاحسان فملّ العوام من الظلم والعذاب وباتوا في قلق عظيم وبينما كانوا ملتئمين في محل الاجتماع أقبل عليهم رجل مكبل بالسلاسل ورمى بنفسه بينهم مستجيراً وكان هذا الرجل طويل القامة مهزولاً وثيابه رثة بالية ، وشعره أشعث طويل فعرفوه لأنهم رأوه مراراً عديدة يخوض عجاج الحرب كالاسد الرئبال غير مبال بالصوارم

إلا أنهم جهلوا أمره وعجبوا من استحـالة حاله فقال لهم ذلك الشيخ يا قوم اني قد فقـدت حريتي وكل ما أملكه في سبيل الدفاع عن حرية الوطن وقد وقعت الآن في قبضة دائني الذي لا تأخذه شفقة ولا ترجعه عن القسوة رأفة بل عاملني بطبعه وأودعني وابني السجن وأسلمني إلى عبيده ليوسعوني ضرباً ثم خلع ثيابه ورأى الجمهور ظهره مخضباً بالدماء وصدره مخدوشاً بطعنات رماح الأعداء ، وضربات سيوفهم فلم يتمالك أحد نفسه عن الغيظ بل علا الضجيج وزاد الحنق وترا كض الشعب من كل جهة وهو يشتم الشرفاء كأن روح الثورة قد دبت في جميع الصدور إلا أن القنصل سرفيوس استطاع اخماد نار الفتنة وصرف المتجمعين وواعدهم بمنع الدائنين عن اهانة مديونيهم واستعبادهم إلى أن يصدر المجلس أمراً بهذا الشأن وكان الشرفاء عند اقتراب عدو ودنو خطر منه يتملقون الشعب ويمدونه وعوداً كاذبة ليحملوه على الحرب والدفاع حتى إذا ما انجلى الخطب أو تقشعت سحب الاخطار وبدا جو السياســـة صافياً نكثوا عهودهم ونقضوا وعودهم وعادوا إلى ما كانوا عليه من اهانة مديونيهم وظلمهم وعرف العوام دهاء العظماء ومكرهم فاجتمعوا خارج المدينة وجاهروا بالعصيان وكم سمعنـا بمثل هذه الثورات التي أثارتها المظالم في المملكة الرومانية ولم نسمع بأقل شغب أثاره الأرقاء من جرآء مبيعهم وشراهم أو انبعث أدنى قلقلة عن تجارة الرقيق وهكذا نجد في عصرنا أن البلاد التي كان أهلها يتاجرون في الرقيق قبل ظهور «دعاة الانسانية ومحبيها» كان ظل الامان ممدود والخير موجود لا تسمع فيها لغواً ولا تأثيماً حتى تصاعد روح الطمع في رؤوس من لم تفارقهم نشوة الانتصار والتغلب فالتمسوا لابتلاع الامم عـذراً ظفروا فيه من تصفح كتب الدهاء وهو « ابطال التجارة في الرقيق » ومساواة البشر في الحرية فما كان أجدر في الدولة البريطانية التي جيشت جيوشها « لهذه الغاية الشريفـة » أن تطلق ما هو تحت سلطانها من الولايات المحكومة قسراً عن ارادة الأهلين الذين يترقبـون الفرص ويستغيثون آناء الليـل وأطراف النهار للتخلص من حكمها وهم لديها أسـوأ حالاً من الارقاء لا يملكون لأنفسهم حرية ولا تجول أفكارهم بارادة ، فهل تتخيل استعباداً أكثر من هذا . وما بال هذه الدولة الفاغرة فاها لم تملئه البحار لم تحرر شعبها المستعبد وهو إليها أقرب من حبل الوريد وتنيله وهو على شفا جرف الهلاك مما يحمله على كاهله من العبء الثقيل وتترك بلاداً لا جامعة بينها وبين أهلها لا ديناً ولا خلقاً ولا لغة ولا جنسية ، أهل يتوهمون أن الخلق محتجبون في حجـاب الغفلة عما تجريه في مستعمراتها أو يخفاهم ما لاقاه العـالم الاسلامي وغيره في الديار الهنـدية

وغيرها من الاستبداد العجيب وكيف أن الافراد المستكبرة تكره المسلم وغيره ممن دخلوا تحت سلطتهم على مطأطأة الرأس وبسط العنق ليدوسوا بأرجلهم استطالة لمطاياهم فيا ليتهم قبلوا في الاستبداد فقط ولم يقيموا ذلك العالم المحكوم مقام الصم من الجماد والآن نجد البلاغة تتناثر من أفواه الخطباء تحرّض على تحرير الرقيق وابطال التجارة فيه في السودان وسائر الانحاء الافريقية « لأنهم لم يكونوا مستبدين اليهم» فليعلم إذاً كل شرقي أن المناداة في المحبة الانسانية من هذه الامم لم يكن إلاّ إغراء وضرباً من ضروب الدهاء ليكون ابتلاع تلك الامم سهلاً وقابلاً للهضم بسرعة لا تسطو على معدم تخمة ، فنحن نقول لكل أمة زينت لها أهواؤها اهتضام حقوق الممالك الشرقية أن المسلمين ليس كما يزعمون من أنهم خلو من معرفة ما يرمون إليه من سهام الاغراض وما هو جار مع إخوانهم الذين قضي عليهم في الدخول تحت نير « محبتهم الانسانية » وذاقوا العذاب المهين فلا يؤمل بعد هذا أنهم يرتضون في تمكين أولي المطامع من خناقهم على حين يسمعون الأئمة في المساجد والخطباء على المنابر ينادون باعلاء الكلمة بتأييد شوكة صاحب الخلافة أمير المؤمنين المعظم وتخليد امارة نائب جلالته سمو أميرنا المفخم هذا وإن الحقيقة إنما هي استبداد أمة مخصوصة وقارة معينة لا يشوب ذلك وهم ولا يخالطه ريب لأن الأنظار إنما اتجهت لأفريقية فقط دون سائر الممالك نعم إننا الآن ننازعهم ولكن على قوالب الألفاظ وليس على النتيجة المقصودة بل كل ما نضيعه من الوقت في إيراد الحجج على أن دعواهم في تحرير الرقيق لا تنطبق على الحقيقة ولا على المنظور والمشاهد من الاعمال والافعال ذاهباً سدى لأنهم أعلم الناس في بطل دعواهم وأنها أشبه بحجة الذئب على الشاة ، إنما يحسن بنا أن نذكر لأي أمة غريبة تطمع في ضرب قباب سلطتها على الأملاك الاسلامية في أفريقية وخلافها أن ذلك ولو تيسر لها باختلاقها أنواع الاحتيال لا يلبث زمناً طويلاً حتى تتحول القلوب التي لم ترضخ إلا قسراً بتخريب الديار وهرق الدماء فضلاً عن أن المسلم مكلف شرعاً بالهجرة من بلاد يحكمها سلطان غير مسلم ولا يجوز للمسلم أن يقيم في بلاد حرب على المسلمين بل يجب عليه الهجرة إلاّ إذا تعذر عليه ذلك لمرض أو عدم نفقة فيكون من المستضعفين المعفو عنهم . هذه هي النقطة التي يجب الالتفات اليها ليعلموا أن كلا يهيئونه من درهم وضاح وذخائر وسلاح لا يكون أمام الفريضة الشرعية إلاّ كسحابة صيف عن قريب تنقشع والله سبحانه وتعالى لم يغفل من فيض احسانه وكرمه أمر أمة يجار عليها ولا تجور على أحد أن تذهب فريسة البغي والعدوان ينادون في جنح الظلام وما ربك بظلاّم للعبيد .

— تم —

والحمد لله أولاً وآخراً

فهرست الكتاب

صفحة

٤٠٠ ق.ل.